جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

وسائل الدعوة وأساليبها

GDWH5093

كتاب المادة
Master Textbook

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2010

المحتويات

الـــــــــدرس الأول :	تعريف بالدعوة الإسلامية، والفرق بين الوسيلة والأسلوب	٧-٢٦
الـــــدرس الثــــاني :	بيان لبعض أساليب ووسائل الدعوة الإسلامية	٢٧-٤٧
الــــدرس الثالــــث :	تابع: أساليب ووسائل الدعوة الإسلامية - وبيان ضوابطها	٤٩-٧٣
الــــدرس الرابـــــع :	تقسيم آخر لوسائل الدعوة	٧٥-١٠٠
الــــدرس الخـــامس :	أساليب الدعوة وجوانب التأثير والإقناع في القرآن الكريم	١٠١-١٢١
الــــدرس الـــسادس :	وسائل الدعوة التي حددها القرآن في آية النحل: الحكمة (١)	١٢٣-١٤٤
الــــدرس الــسابع :	الحكمة (٢)	١٤٥-١٦٤
الـــــدرس الثــــامن :	الحكمة (٣)	١٦٥-١٨٧
الــــدرس التاســـــع :	الموعظة الحسنة	١٨٩-٢٠٧
الــــدرس العاشــــر :	تابع: الموعظة الحسنة	٢٠٩-٢٢٩
الدرس الحـادي عـشر :	المجادلة بالتي هي أحسن	٢٣١-٢٥٢
الدرس الثـاني عـشر :	تابع: المجادلة بالتي هي أحسن	٢٥٣-٢٧٤
الدرس الثالث عـشر :	ضرب الأمثال	٢٧٥-٢٩٦
الدرس الرابـع عـشر :	تابع: ضرب الأمثال	٢٩٧-٣١٧

الدرس الخامس عشر	:	الأسلوب القصصي وأهميته في الدعوة إلى الله عز وجل	٣١٩-٣٤٢
الدرس السادس عشر	:	تابع: الأسلوب القصصي وأهميته في الدعوة إلى الله عز وجل	٣٤٣-٣٦٥
الدرس السابع عشر	:	الأسلوب الكتابي وأهميته في مجال الدعوة إلى الله عز وجل	٣٦٧-٣٩٢
الدرس الثامن عشر	:	القدوة الحسنة	٣٩٣-٤١٤
الدرس التاسع عشر	:	مفهوم التعليم، وحكمه، وأهميته في الدعوة	٤١٥-٤٣٩
الدرس العشرون	:	مفهوم الخطابة، وقواعدها، وخصائصها، وأهميتها في الدعوة	٤٤١-٤٦٦
الدرس الحادي والعشرون	:	المسجد	٤٦٧-٤٨٩
الدرس الثاني والعشرون	:	وسائل الاتصال الحديثة وكيفية الاستفادة منها في مجال الدعوة	٤٩١-٥١٢
الدرس الثالث والعشرون	:	مفهوم الرسائل، وأهميتها، ونماذج منها	٥١٣-٥٣٠
قائمة المراجع العامة	:		٥٣١-٥٣٤

تعريف بالدعوة الإسلامية، والفرق بين الوسيلة والأسلوب

عناصر الدرس

العنصر الأول :	تعريف عام بالمادة وبالدعوة الإسلامية	٩
العنصر الثاني :	معنى الوسيلة والأسلوب والفرق بينهما	٢٣

تعريف عام بالمادة وبالدعوة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعد:

فمع هذه المادة التي ينبغي أن تتعرف على أهدافها، إنها مادة تعرفك بوسائل وأساليب الدعوة الإسلامية، وتحدد لك أهم الوسائل المتاحة لتبليغ الدعوة، على أن تختار أنسب الأساليب للدعوة، وفي نهاية هذه الدراسة تكون - بإذن الله تعالى- قادرًا على أن تشرح مفهوم الوسيلة والأسلوب في الدعوة الإسلامية، وأن تتعرف على الفرق بينهما، وأن تدرك أنسب الوسائل لتبليغ الدعوة الإسلامية ولتحقيق أهداف الدعوة.

وحول التعريف العام بالمادة، تدور هذه المادة حول وسائل الدعوة وأساليبها والفرق بينهما، والضوابط الشرعية لتحديد المشروع والممنوع من الوسائل، هذا ومن وسائل الدعوة الموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وضرب الأمثال والأسلوب القصصي والكتابة، وأهمية ذلك في مجال الدعوة، مع بيان أهمية القدوة الحسنة، وضوابط المثل الأعلى في القرآن الكريم والسنة المطهرة والتاريخ الإسلامي.

مشيرين إلى أهم وسيلة من وسائل الدعوة ألا وهي الخطابة، وأهميتها في مجال الدعوة والمسجد، وصفحات من دوره في التاريخ الإسلامي، والرسائل ووسائل الاتصال الحديثة وكيفية الاستفادة منها في الدعوة.

وبعد هذا المدخل دعنا نعرف لك أهم المصطلحات في هذه المادة وسائل الدعوة وأساليبها، ليكن البدء بالتعريف وبعده يأتي الشرح والتوصيف إن شاء الله تعالى؛ لأن التعريف يحدد مسار العمل ويوضح موضوع العلم، ويضع الكاتب والقارئ معًا في جو الموضوع وأهميته.

ومن هنا كان الحرص الدائم للعلماء أن يبدأوا دراستهم في كل فنٍ بتعريف الموضوع الذي يريدون دراسته، والمصطلحات الواردة في الدراسات الدعوية عمومًا، وفيما يرتبط بوسائلها وأساليبها على وجه الخصوص، فهي تحتاج إلى تعريفٍ وتحديد، وبخاصة أنها تدور حول مفاهيم جديدة كانت متداخلة، وما زال البعض يعبر عنها كمفهومٍ واحد.

لقد كتب كثيرون عن منهج الدعوة وهم يقصدون الوسيلة، كما كتبوا في وسائل الدعوة وهم يريدون الأسلوب، ولهؤلاء عذرهم بسبب طول المدى الذي تعامل فيه العلماء على أن هذه المصطلحات تعني معنى واحدًا، ومن هنا كان تعريف هذه المصطلحات له أهميته في دراسة علوم الدعوة وأبحاثها، وهو بالضرورة تعريف مجمل؛ لأنه يشير إلى الموضوع ويبين الهدف، ويرسم الطريق في كلمات مع أن هذه الكلمات هي عنوان البحث كله، ومع هذا فإن التعريف مع إجماله مهم للدراسة المنظمة الصحيحة.

وحين ننظر في عنوان الدراسة ونتأمل في أبحاث الدعوة، نرى أننا في حاجة إلى تعريف المصطلحات الآتية: الدعوة الإسلامية، أصول الدعوة الإسلامية، وسائل الدعوة الإسلامية، الداعية الإسلامي، أساليب الدعوة الإسلامية، المدعوون، المفهوم المعاصر لمنهجية الدعوة الإسلامية. نعم نحن بحاجة أن نتعرف على هذه القضايا في دراسة تفصيلية، في إطار تلك الخطة العلمية الكاملة والشاملة بإذن الله تعالى.

أولًا: تعريف الدعوة الإسلامية:

يهتم الفرد كما تهتم الجماعات والأمم بإثبات وجودها والتعريف بذاتيتها، وتقديم نفسها للآخرين جميلة مقبولة، والإسلام جاء للناس جميعًا من عند الله تعالى؛ ولذلك كان خطابًا للآخرين من أول لحظة، ودعوة للغير منذ نزول الوحي به، دعا به رسول الله ﷺ أصحابه ودعا الصحابة مَن وراءهم.

واستمر مسار الدعوة على هذا النمط، حتى بلغ الناس أجمعين على نحو ما قال ﷺ: ((تسمعون ويُسمع منكم ويُسمع ممن يَسمع منكم))، وهكذا يتجلى الإسلام دينًا للعمل والتطبيق وخطةً للتبليغ والإرشاد، وقد سمى الله تعالى الإسلام دعوةً؛ لما فيه من حقائق لا بد من تجسدها في حياة الناس وحركاتهم، ولما يلزمه من طلب الإيمان به والدعوة إليه والالتزام بما فيه، فهو منهج عملي تطبيقي، وهو كذلك دين لا بد من تبليغه ونشره وإيصاله للناس أجمعين.

ويحسن بنا قبل البدء في الدراسة أن أحدد المعنى المقصود من الدعوة الإسلامية كمصطلح علمي، يدل على دراسات تخصصية معينة، وبخاصة بعد تعدد معناها وكثرة استعمالاتها، مع توضيح معنى الوسيلة والأسلوب أيضًا لتوضيح عنوان هذه المادة.

التعريف اللغوي للدعوة:

للدعوة معانٍ عديدة في لغة العرب، وقد ذكرها العلماء تمهيدًا لبيان المعاني الاصطلاحية للدعوة وأصولها ومنهجها وهكذا، وذلك؛ لأن المعاني اللغوية أساس تقوم عليه المفاهيم الاصطلاحية، ومن هنا سأورد بمشيئة الله تعالى أهم

المعاني اللغوية لكلمة الدعوة؛ لنتمكن من تعريف الدعوة اصطلاحًا، ونقف بعد ذلك على ما يتصل بالدعوة من معارف وعلوم.

جاء في معجم (مقاييس اللغة) أن الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، ومعناه أن تميل الشيء إليك بصوت وكلامٍ يكون منك، أو بغير ذلك كالإشارة والصورة والعمل، تقول: دعوت أدعو دعاءً، أي قمت بمحاولة الإمالة، والدَعوة إلى الطعام تكون بالفتح والدِعوة إلى النسب بالكسر، ومنه داعية اللبن وهو ما يترك في الضرع ليطلب ما بعده، ومنه تداعت الحيطان إذا سقط واحد وآخر بعده، فكأن الأول يدعو الثاني ويميله نحوه، ودواعي الدهر: صروفه؛ لأنها تأتي متعاقبة، وكأن الأول يدعو الثاني فيميله وهكذا.

وجاء في (المصباح المنير): دعوة الله أدعو دعاءً: ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير، ودعوت زيدًا: ناديته وطلبت إقباله، ودعا المؤذن الناس إلى الصلاة فهو داعي الله، والجمع دعاة وداعون، والنبي داعي الخلق إلى التوحيد - صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

وجاء في (أساس البلاغة): ودعوت فلانًا ناديته، والنبي داعي الله وهم دعاة الحق، وهنا دعاة الباطل أيضًا ودعاة الضلال.

ويفهم مما ذكر أن الدعوة تعني في اللغة إمالة شيء لشيء، وطلب تحقيق شيء مع شيء، وربط الثاني بالأول ماديًّا كان الربط أو معنويًا يتم بجهدٍ أو بطريقة تلقائية، في أمرٍ خيرٍ أو غير ذلك.

وجاء في (لسان العرب): الدعوة المرة الواحدة من الدعاء، والدعاء واحد الأدعية وأصله دعو؛ لأنه من دعوت، إلا أن الواو لما جاءت بعد الألف همزت، وتقول للمرأة: أنت تدّعين وفيه لغة ثانية: أنت تدعوين، وفيه لغة

ثالثة: أنت تدعين بإشمام العين الضمة، والجماعة: أنتن تدعون مثل الرجال سواء.

قال ابن بري: "قوله في اللغة الثانية: أنت تدعوين لغة غير معروفة أي شاذة. وادعاء الأنملة يدعى بها كقولهم: السبابة، كأنها هي التي تدعو كما أن السبابة هي التي ترفع حين المخاصمة كأنها تسب. وقوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤] أي: لله الإسلام الذي هو دعوة الحق".

قال الزجاج: "جاء في التفسير أن دعوة الحق شهادة أن لا إله إلا الله، وجائز أن يكون المراد من دعوة الحق دعاء العبد لله خاصة؛ لأن من دعا الله موحدًا استجيب له دعاؤه؛ لأنه حق، وفي كتاب النبي ﷺ إلى هرقل: ((أدعوك بدعاية الإسلام)) أي بدعوته، وهي كلمة الشهادة التي يدعى إليها أهل الملل الكافرة، وفي رواية ((بداعية الإسلام)) وهو مصدر بمعنى الدعوة كالعافية والعاقبة.

ومنه حديث عمير بن أفصى: ليس في الخير داعية لعامل، أي لا دعوة لعامل الزكاة فيها ولا حق يدعو إلى قضائه؛ لأنها لا تجب فيها الزكاة، ودعا الرجل دعوًا ودعاءً ناداه والاسم الدعوة، ودعوت فلانًا أي صحت به واستدعيته، وكان عمر بن الخطاب > يقدم الناس في أعطياتهم على سابقتهم، فإذا انتهت الدعوة إليه كبر، أي: وصله النداء والتسمية، وتداعى القوم دعا بعضهم بعضًا حتى يجتمعوا، ودعاه إلى الأمير ساقه وناداه وطلبه إليه".

وقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٦] أي: مناديًا لدين الله وداعيًا إلى توحيد الله وما يُقرب منه، والدعاة: قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة وأحدهم داع، ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين، أدخلت الهاء فيه للمبالغة.

والنبي ﷺ داعي الله تعالى وكذلك المؤذن، وفي (التهذيب): المؤذن داعي الله والنبي ﷺ داعي الأمة إلى توحيد الله وطاعته. قال الله ﷻ مخبرًا عن الجن الذين استمعوا القرآن حين ولوا إلى قومهم منذرين، قالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١].

ويقال لكل من مات: دعي فأجاب ويقال: دعاني إلى الإحسان إليك إحسانك إلي، وفي الحديث: ((الخلافة في قريش، والحكم في الأنصار، والدعوة في الحبشة)) أراد بالدعوة الأذان جعله فيهم تفضيلًا لمؤذنه بلال > والداعية صريخ الخيل في الحروب بدعائه من يستصرخه، يقال: أجيبوا داعية الخيل، وداعية اللبن: ما يترك في الضرع ليدعو ما بعده، يقال للجارية: دَعي في الضرع أي: ابقي فيه داعية اللبن، هكذا جاءت كلمة دعوة في لغة العرب.

وأما ورود هذه الكلمة في القرآن الكريم، فقد جاءت بصيغ مختلفة ومعانٍ متعددة، كذلك فقد جاءت فعلًا ماضيًا في مثل قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣]، وقوله - جل وعلا - : ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]، وفي قول الله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾ [نوح: ٥]، وفي قوله سبحانه حاكيًا كلام إبليس: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

كما جاءت هذه الكلمات فعلًا مضارعًا في مثل قول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨]، وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨]، وفي قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

كما جاءت فعل أمر في قول الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وفي قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾ [غافر: ٦٠].

وجاءت مصدرًا في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ ﴾ [الرعد: ١٤]، وفي قوله سبحانه: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [غافر: ٤٣].

وبالنظر في دلالات اللغة وألفاظ القرآن الكريم نرى أن معاني الدعوة اللغوية تنحصر في بذل محاولات حسية أو معنوية؛ لربط شيء بشيء، وإلحاق أمرٍ بأمر لتحقيق غاية في خير أو في شر، تساوى الطرفان أو لم يتساويا، ولا فرق أن يتم هذا الإلحاق بجهد أو بصورة تلقائية، وقد تحقق المحاولة مرادها وقد لا تصل لشيء، فتتداعى الأحداث والأفكار والمعاني، لتمثل جزئيات تترابط ودعوة النسب إلحاق الفرع بأصله، وداعية اللبن والتوالد جذب يقوم به الموجود لما سيوجد بعده، والدعوة إلى الدين محاولة ربط العابد بالمعبود.

وإلحاق الناس بدين الله تعالى والاستغاثة والطلب والرجاء، تعني تعلق العبد بالرب ليحقق له ما يتمنى ويرجو، وفي كل هذا المعنوي والمحسوس والقائم على جهدٍ وتعب، والذي يحدث بصورة تلقائية عادية، والدعوة حين تطلق في الإطار العلمي والديني تنصرف إلى الدعوة الإسلامية، وهي المصطلح الذي يحتاج إلى تعريف؛ لأنه أساس الدراسة والبحث، وبخاصة أننا نريد التعريف بالدعوة الإسلامية من نواحيها، أو في بعض نواحيها كالوسائل والأساليب.

فالمعنى الاصطلاحي للدعوة إذًا حينما نرجع إلى دلالات اللغة وألفاظ القرآن الكريم، وكلمات السنة النبوية المطهرة واستعمالات العلماء لمصطلح الدعوة الإسلامية، نرى أنها تأخذ مسارين مختلفين هما:

المسار الأول: يعني هذا المسار أن الدعوة الإسلامية هي الإسلام، دين الله تعالى بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق.

يقول الله تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ ﴾ أي: لله دينه وهو الإسلام. ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ أي: تعبدوه، فالدعوة هي العبادة والعبادة هي الدين. يقول تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨].

يقول مجاهد > : "أي يصلون الصلوات خضوعًا واستسلامًا لله تعالى". ويقول النبي ﷺ: ((أدعوك بدعاية الإسلام)) أي: بدينه. ويقول ﷺ: ((الدعاء هو العبادة))، فالحاصل المفيد أن الدعاء هو العبادة. ومن استعمالات الناس قولهم: آمنت بالدعوة، أي: صدقت بدين الله تعالى.

أما المسار الثاني: فيعني هذا المسار أن الدعوة الإسلامية هي حركة تبليغ الإسلام ونشره بين الناس، والتذكير به والدفاع عنه والعمل على أن يكون منهج الحياة، لكافة الأفراد وسائر المجتمعات، وهذه الحركة تتضمن الوسائل والأساليب والقائمين عليها والمخاطبين بها وهكذا، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: بلغ وأرشد. ويقول سبحانه: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ أي: ليستجب المنادون للداعي مبلغ الدين وحامله للناس. ومن استعمالات الناس قولهم: أنا من رجال الدعوة، أي: من الدعاة الذين يحملون الإسلام ويبلغونه للناس.

والمسار الثاني: هو الوعاء الحامل للمسار الأول، والغاية من المسار الثاني خدمة الإسلام وتبليغه للناس، ويلاحظ أن بين المسار الأول والمسار الثاني ترابط من

جهة ملازمة كل منهما للإسلام، واتباع تعاليمه، ويختلفان فيما عدا هذا؛ لأن المسار الثاني عملية توجيهية فنية تحمل الفكرة، وتوصلها لأناس يحتاجون إليها على وجهٍ مقبول ومفهوم؛ لتكون دستور العمل ومنهج الحق، فإنما المسار الأول هو الفكرة نفسها وهو المنهج وهو الدستور، ويختلفان كذلك في مناط مسئولية الناس إزاءهما.

فالمسار الأول مسئولية كل إنسان عاقل مكلف، والمسار الثاني مسئولية أولي الأمر والخاصة، وكل قادر على القيام به أو المساهمة في القيام به، فالمسار الأول واجب عيني، والمسار الثاني واجب على الكفاية عند الجمهور.

وعلى هذا فإن الدعوة تعرف بتعريفين اصطلاحيين تبعًا للمراد بها، فمن تعاريف الدعوة لمعنى الإسلام نذكر منها:

الأول: الدعوة الإسلامية هي الخضوع لله والانقياد لتعاليمه بلا قيد ولا شرط، ومن المعلوم أن الانقياد لله دليل الخضوع له وهو غاية الإسلام ومقصده.

الثاني: الدعوة الإسلامية هي الدين الذي ارتضاه الله للعالمين، وأنزل تعاليمه وحيًا على رسول الله ﷺ وحفظها في القرآن الكريم وبينها في السنة النبوية.

الثالث: الدعوة الإسلامية هي النظام العام والقانون الشامل لأمور الحياة، ومناهج السلوك التي جاء بها محمد ﷺ وحيًا من ربه وأمره الله بتبليغها للناس، وبيان ما يترتب على ذلك من ثواب أو عقابٍ في الآخرة.

الرابع: الدعوة الإسلامية هي الصراط المستقيم الذي أنزله الله تعالى؛ لتحقيق السعادة للناس في الدنيا والآخرة.

الخامس: الدعوة الإسلامية هي الدين الذي جاء به محمد ﷺ وختم به سائر الرسالات، وهذه التعاريف ليست متعارضة بل إنها تتعاون في إعطاء صورة الإسلام، الذي هو الدعوة الإسلامية، ويمكن لكل مسلم فاهم أن يضع تعريفًا للدعوة الإسلامية، اعتمادًا على تصوره المستمد من المصادر الإسلامية ومن فهمه لدين الله تعالى.

والإسلام بهذه التعاريف أو بغيرها يتكون من أصول وفروع كأي دين؛ لأن الأصل هو أساس الشيء ومبدؤه ولا بد منه لتحقيق الدين ووجوده، أما الفرع فهو جزئيات تؤكد الأصل وتدل عليه، وليس للفرع أهمية في الدين كالأصل، ولكل منهما دوره وحكمه في شرع الله تعالى، وتتفق أصول الدعوة الإسلامية مع أصول سائر الدعوات الإلهية السابقة؛ لأنها من مصدر واحد وترتبط بالحقيقة الثابتة الدائمة.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، ويقول تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء: ١٦٣]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ويقول عز وجل: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٤].

ففي هذه الآيات يوضح الله تعالى أن الدين الذي شرعه ﷻ، وأنزله وحيًا على رسوله محمد ﷺ هو نفسه الدين الموحى به إلى الأنبياء السابقين، والآيتان الأخيرتان تتضمنان أمرًا وإخبارًا بأن على المسلمين أن يؤمنوا بما آمن به السابقون.
يذكر الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره أن الآيات التي تدل على التباين بين الرسالات، كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] إشارة إلى الفروع الخاصة بكل دين.

أما الآيات والأحاديث التي تدل على أن دين الله واحد، فهي تتعلق بالأصول فقط، ومن الواضح أن الأصول الواحدة في سائر الأديان هي أركان العقيدة، وأن الفروع هي الشرائع الخاصة بكل ملة على حدة، وشرائع كل ملة منضبطة بمجموعة من الضوابط الدينية، التي تحقق للشريعة حركة متلائمة من الأصول الدينية. إن الإسلام يحتم تعانق العقيدة والشريعة، بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى، على أن تكون العقيدة أصلًا يدفع إلى الشريعة، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة.

فمن آمن بالعقيدة وألغى الشريعة أو أخذ بالشريعة وأهدر العقيدة، لا يكون مسلمًا عند الله ولا سالكًا في حكم الإسلام طريق النجاة، ولا بد للعقيدة والشريعة من أخلاق تبرزهما في صورتهما الحسنة الجميلة، تحقيقًا للسعادة والأمان.

أما تعريف الدعوة: بمعنى النشر والبلاغ، فإننا نذكر الآتي: إن عملية تبليغ الإسلام تحتاج إلى جملة من العناصر التي لا بد منها، فلا بد لها من موضوع تتحرك به وتحمله إلى غايته، على أن يتميز هذا الموضوع بالوضوح والفهم، ولا بد لها من جهود قائمة على الإقناع وقادرة على إثارة داعية النظر والتفكير، ولا بد لها من طرف يقوم بها ويحملها للناس، سواء كان فردًا أو جماعة أو غير ذلك.

ولا بد لها من التجديد لتستفيد من مخترعات العصر، وتطورات المدنية في إطار المبادئ الإسلامية، ولا بد فيها من التنوع لتتلاءم الدعوة مع تنوع الناس الذين تتوجه إليهم، ولا بد لها من الارتباط بمبادئ الإسلام وتوجيهاته في مجال التوجيه والإرشاد، وبمراعاة هذه الضرورات يمكن أن أضع تعريفًا للدعوة بمعنى النشر والبلاغ، آملًا أن يكون جامعًا مانعًا.

فأقول بتوفيق الله تعالى: الدعوة الإسلامية هي: العلم الذي به تعرف أسس وتطبيقات كافة جوانب العمليات الفنية المتنوعة، التي يقوم بها القادر على تبليغ الإسلام على الوجه المشروع، وتحقيق انتشاره بين الناس وفق خطةٍ علمية مدروسة.

وبالنظر في هذا التعريف نلحظ فيه ما يلي:

أولًا: الدعوة بمعنى النشر علم مستقل له موضوعه وخصائصه وهدفه، ويمكن لهذا العلم أن يتحول إلى علوم عديدة، إذا أصبح لكل جانب في عملية الدعوة دراسات خاصة وجهد معين، وهذا أمر ضروري لتجديد عملية الدعوة حتى تلاءم العصر والتطور.

ثانيًا: يتضمن هذا العلم الأسس والمبادئ النظرية للدعوة، كما يحدد الطرق العملية للتبليغ والإرشاد.

ثالثًا: يتضمن هذا العلم كافة العمليات التي يستفاد بها في التبليغ، سواء أكانت قولًا أم فعلًا أم حالًا أم صورًا أم غير ذلك.

رابعًا: يشير التعريف إلى أن هذه العمليات تعتمد على فنية التأثير وبلاغة الخطاب، لإيصال الإسلام إلى كافة الناس كاملًا تامًّا.

خامسًا: يتضمن هذا التعريف ضرورة تنوع عمليات التبليغ لتناسب الناس جميعًا، وتلتقي مع كلٍ منهم، حيث تتجه إلى العقل وإلى العاطفة وإلى الوجدان.

سادسًا: يحدد التعريف هدف علم الدعوة بأنه تبليغ الإسلام للناس، مع المحافظة على الأسس الشرعية، وتجنب كل ما يتعارض مع هذه المشروعية

سابعًا: يشير التعريف إلى أن عملية تبليغ الإسلام تحتاج لخطة علمية تحدد مسار كل جزئية في عملية الدعوة، وهذه الخطة ضرورة عصرية حيث يتحرك العالم كله وفق نظريات وخطط، ولا يصح أبدًا أن تترك الحركة بالدعوة بالعشوائية، في وقتٍ لا مجال فيه إلا للتخطيط والدقة والنظام.

ثامنًا: يشير التعريف إلى القائم بالدعوة؛ لأنه الركن الأساسي في عملية الدعوة، وهو القادر بفضل الله تعالى على التبليغ والتأثير، ولا بد له من التنشئة والتربية والإعداد؛ ليتمكن من القيام بمهمته نيابة عن أمته، ولتكون حركته في إطار خطة عامة، تضعها وتشرف عنها هيئات كبرى مسئولة.

تاسعًا: يشير التعريف إلى ضرورة الاهتمام بمن توجه إليهم الدعوة، رجاء إيمانهم واستقامتهم على منهج الله تعالى.

وعلى هذا فإن موضوع الدراسة يدور حول الدعوة الإسلامية بمعنييها المذكورين، فمن ناحية كون المراد بالدعوة الإسلامية وهو المعنى الأول: توضح الدراسة الحقيقة الإسلامية بصورة مجملة، وتبين مدى اتحاد أصول الإسلام مع أصول الرسالات جميعًا، وتبين سمو غايات الإسلام وروعة مقاصده وأهدافه.

وتشير أيضًا إلى أهم الخصائص التي يتميز بها الإسلام، مما يجعله دين الإنسانية والخلق الكريم، كما توضح مدى توافق الإسلام مع كل الظروف والمجالات،

التي ظهر فيها قديمًا وحديثًا مما يجعله صالحًا للزمان كله وللناس أجمعين، كما تتضمن بيان أهمية تبليغ الإسلام ووجوبه الشرعي، وضرورة إيصاله إلى الناس أجمعين بوجهٍ مقبول، وببرهان يحرك الذهن ويدعو المستمع إلى الفهم والتفكير.

بالنسبة للمعنى الثاني المتضمن معنى النشر والتبليغ؛ فإن الدراسة تشمل التعريف بالوسائل على اختلافها مثل: الخطبة والندوة والمحاضرة والصحيفة والإذاعة، والملصقات والكتاب والرسائل الهاتفية والبريدية، كما يشمل الدراسات المتصلة لتكوين الداعية وحركته في التبليغ، ومدى إحاطته بالدعوة وصلته بالله تعالى.

وتتضمن كذلك معرفة الصور الفنية للأسلوب المؤثر المفيد، الذي يتلاءم مع المدعوين، مع التعرف عليهم ومخاطبتهم بما يناسب أحوالهم وواقعهم، ويشتمل على الدراسات التي تمكن الدعاة من معرفة من توجه إليهم الدعوة، من ناحية مذاهبهم وثقافتهم واتجاهاتهم العامة والخاصة وعاداتهم، وكافة المؤثرات في حياتهم؛ ليتم التعامل معهم بذكاء، ودعوتهم بما يؤدي إلى النفع والفلاح.

وبهذا يلاحظ أن تبليغ الدعوة يقوم على أركان عدة، يتضمنها ما جاء في التعريف من أنه يشمل كافة جوانب العمليات، وإذا ما استقل كل ركن بالدراسة وصار علمًا مستقلًا - وهو ما يجب أن يكون- ، فإن التعريف ينطبق على كل ركن منها، بعد قصر التعريف على عمليات هذا الركن ليكون دالًّا عليه؛ لأن قولنا في التعريف: كافة العمليات؛ شامل لكل أركان البلاغ والتوجيه.

وستوضح الدراسة ضوابط تبليغ الإسلام للناس، وأهم الأساليب وخصائص الخطاب الديني كما جاء بها القرآن الكريم، مع إيراد صور لأنواع هذا الخطاب، وإبراز الجوانب الفنية الموجودة للوقوف على مدى تصويرها للمدعوين، وتأثيرها فيهم بإذن الله - تبارك وتعالى- ، بذلك نكون قد أخذنا تعريفًا عامًّا بالمادة وبالدعوة الإسلامية، في معانيها اللغوية والاصطلاحية.

معنى الوسيلة والأسلوب والفرق بينهما

ويبقى أن نشير إلى معنى الوسيلة والأسلوب، والفرق بينهما بإذن الله - تبارك وتعالى- ، فنقول وبالله التوفيق:

أساليب الدعوة الإسلامية:

تعريفها: الأسلوب في لغة العرب: هو الطريق أو كل طريقٍ ممتد، ويطلق على الوجه والمذهب والفن يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه. وفي الاصطلاح: طريقة التعبير أو طريقة الكتابة أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني بقصد الإيضاح والتأثير.

ويؤخذ من هذا التعريف أن الأسلوب يشمل طريقة التعبير، أي: الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه، وطريقة الكتابة أي: اختيار الألفاظ وترتيبها في شكل له أثره، وطابعه في اللغة المستعملة في الكتابة. والأسلوب الحسن: وهو الطريق الذي يسلكه المتكلم أو الكاتب ملائمًا لأحوال المخاطبة، فتكون الفكرة واضحة والكلمة فصيحة والعبارة متناسقةً والتركيب قويًّا، ويكون هناك انسجام بين اللغة والمعنى، فلا اللفظ يرى لغير معناه بدلًا ولا المعنى يجد لغير لفظه سكنًا.

إن إسلام عمر بن الخطاب > مثال حي على قوة تأثير الأسلوب الحسن في قلب سامعه وعقله، فحين قرأ عمر بعض آيات القرآن الكريم قال: "ما أحسن هذا الكلام وأكرمه". والوليد بن المغيرة قال: "والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلا عليه".

لقد أصبح الأسلوب علمًا، موضوعه دراسة المسالك اللغوية التي تتوسل بها اللغة لإحداث الانفعال، أو التأثير المطلوب، ولما كان مصدر الدعوة هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فلا أنفع للداعية من البحث في هذا الموضوع، سوى أن يتعرف على أساليب القرآن والسنة لإحداث التأثير المطلوب في جميع المدعوين، وأساليب الدعوة في القرآن والسنة كثيرة جدًّا، لخصها القرآن الكريم فيما يلي: الحكمة، الموعظة الحسنة، المجادلة بالتي هي أحسن، وإلى هذه الأساليب الثلاثة جاء قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي تفسير هذه الآية قال الفخر الرازي: "واعلم أن الدعوة إلى المذهب والمقالة لا بد وأن تكون مبنية على حجة دينية، والمقصود من ذكر الحجة إما تقرير ذلك المذهب وذلك الاعتقاد في قلوب المستمعين، وإما أن يكون المقصود إلزام الخصم وأصحابه. أما القسم الأول فينقسم أيضًا إلى قسمين؛ لأن الحجة إما أن تكون حجة حقيقية يقينية مبرأة من احتمال النقد، وإما أن لا تكون كذلك بل تكون حجة تفيد الظن الظاهر والإقناع الكامل، فظهر بهذا التقسيم انحصار الحجج في هذه الأقسام الثلاثة:

أولها: الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية، وذلك هو المسمى بالحكمة، وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات، وهي التي قال الله في صفتها: ﴿ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ثانيها: الأمارات الظنية والدلالات الإقناعية وهي الموعظة الحسنة.

ثالثها: الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم وإفحامه، وذلك هو الجدل، ثم إن هذا الجدل على قسمين:

القسم الأول: أن يكون دليلًا مركبًا بدون مقدمات مسلَمة في المشهور عند الجمهور، أو من مقدمات مسلمة عند ذلك القائل، وهذا الجدل هو الجدل الواقع على الوجه الأحسن.

والقسم الثاني: أن يكون ذلك الدليل مقدمًا من مقدمات باطلة فاسدة، إلا أن قائلها يحاول ترويجها على المستمعين بالسفاهة والشغب والحيل الباطلة والطرق الفاسدة، وهذا القسم لا يليق بأهل الفضل، إنما اللائق بهم هو القسم الأول، وذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾".

ثم ذكر الرازي أن أهل العلم ثلاث طوائف، فمعنى الآية: ادعوا الأقوياء الكاملين إلى الدين الحق بالحكمة، وعوام الخلق بالموعظة، والتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل.

إن المتأمل في هذا التوجيه القرآني، يدرك أن الداعية إذا أراد أن يتعرف على الأساليب المناسبة لدعوته، الشاملة لجميع أصناف المدعوين، فلا يجد خيرًا من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بيانًا لتلك الأساليب، التي تمثل طريقته في التعبير، وفي نفس الوقت طريقته في الكتابة.

وأنتقل إلى تعريف الوسائل من بعد الأساليب، فالوسائل جمع وسيلة وهي الوصلة والقربى، وما يتوصل به إلى الشيء وما يتقرب به إلى الغير، والمراد بوسائل الدعوة الإسلامية: ما يتوصل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة الإسلامية من أدوات؛ رغبة في تحقيق أهدافٍ معينة، فالداعية يسلك طريقًا أو منهجًا من خلال أداةٍ معينة هي الوسيلة، يقودها بطريقةٍ خاصة هي الأسلوب؛ لتحقيق غاية محددة هي الهدف.

ولا شك أن الوسائل متطورة والأدوات متجددة، وقد كان السالك قديمًا يركب حمارًا أو بغلًا أو خيلًا، فإذا كانت هذه الوسائل باقية فإن هناك تطورًا، استحدث وسائل جديدة كالسيارة والعبارة والطيارة، والداعية لا يحرم نفسه من مستحدثات العصر يستفيد بها في دعوته، مع احتفاظه بما يناسبه من وسائل قديمة نافعة.

وفيما يلي بيان لبعض وسائل الدعوة الإسلامية مختصرة: القدوة الحسنة، الصبر، التعليم، الذكر، الخطابة، المسجد، الرسائل، الشِعر، الكتاب، المقابلة، المناظرة، الصحافة، المحاضرات والدروس، الجهاد في سبيل الله، الهجرة، الرحلات، الندوات، المؤتمرات، الدورات، المناسَبة الدينية والاجتماعية، المعسكرات أو المخيمات الزيارات، الإكرام بالإطعام، الاستفتاء أو الاستبانة، الهاتف، مختبرات اللغة، الإذاعة كذا التلفزة، شريط التسجيل جهاز العرض شريط الفيديو، المسرح، الدعوة عن بعد إلى غير ذلك.

وكل هذه الوسائل لها تفصيل كذا الأساليب أيضًا، لكن اكتفينا هنا بتعريف الوسيلة والأسلوب، مع بيان الفرق بينهما.

بيان لبعض أساليب ووسائل الدعوة الإسلامية

عناصر الدرس

العنصر الأول :	أساليب الدعوة كما يصورها القرآن الكريم والسنة المطهرة	٢٩
العنصر الثاني :	وسائل الدعوة الإسلامية	٣٧

أساليب الدعوة كما يصورها القرآن الكريم والسنة المطهرة

لا شك أن أساليب الدعوة في القرآن والسنة كثيرة جدًّا، ولقد لخصها القرآن الكريم في آية محكمة حين قال - جل وعلا- : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فهذه الآية أشارت إلى أساليب ثلاثة:

الأول: الحكمة.

الثاني: الموعظة الحسنة.

الثالث: المجادلة بالتي هي أحسن.

وجاء في تفسير هذه الآية في كتاب الفخر الرازي: واعلم أن الدعوة إلى المذهب والمقالة لا بد وأن تكون مبنية على حجة دينية، والمقصود من ذكر الحجة إما تقرير ذلك المذهب وذلك الاعتقاد في قلوب المستمعين، وإما أن يكون إلزام الخصم وأصحابه، أما القسم الأول فينقسم أيضًا إلى قسمين؛ لأن الحجة إما أن تكون حجة حقيقية يقينية مبرأة من احتمال النقد، وإما أن لا تكون كذلك بل تكون حجة تفيد الظن الظاهر والإقناع الكامل، فظهر بهذا التقسيم انحصار الحجج في هذه الأقسام الثلاثة:

أولها: الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية، وذلك هو المسمى الحكمة، وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات، وهي التي قال الله ﷻ في صفتها: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وثانيها: الأمارات الظنية والدلائل الإقناعية، وهي الموعظة الحسنة.

وثالثها: الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم وإفحامهم، وذلك هو الجدل، ثم هذا الجدل على قسمين:

القسم الأول: أن يكون دليلًا مركبًا بدون مقدمات مسلمة في المشهور عند الجمهور أو من مقدمات مسلمة عند ذلك القائل، وهذا الجدل هو الجدل الواقع على الوجه الأحسن.

والقسم الثاني: أن يكون ذلك الدليل مركبًا من مقدمات باطلة فاسدة، إلا أن قائلها يحاول ترويجها على المستمعين بالسفاهة والشغب والحيل الباطلة والطرق الفاسدة، وهذا القسم لا يليق بأهل الفضل إنما اللائق بهم هو القسم الأول، وذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾، ثم ذكر الرازي أن أهل العلم ثلاث طوائف، فمعنى الآية ادعوا الأقوياء الكاملين إلى الدين الحق بالحكمة، وعوام الخلق بالموعظة والتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل.

إن المتأمل في هذا التوجيه القرآني يدرك - كما أسلفنا- أن الداعية إذا أراد أن يتعرف على الأساليب المناسبة لدعوته الشاملة، لجميع أصناف المدعوين، فلا يجد خيرًا من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بيانًا لتلك الأساليب التي تمثل طريقته في التعبير، وفي نفس الوقت طريقته في الكتابة، وفيما هو آت نعرض لبعض هذه الأساليب:

أسلوب الحكمة، أسلوب الموعظة الحسنة، أسلوب اللين في قوله تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه: ٤٤] أسلوب الترغيب أسلوب الترهيب، كما نقرأ في أول سورة "فصلت" التهديد والوعيد، ونقرأ أسلوب الترغيب بما أعده الله ﷻ للمؤمنين في الدنيا والآخرة، في قصة نوح # : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠- ١٢]، وأسلوب ضرب الأمثال في مثل قول الله ﷻ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [النحل: ٧٥].

وأسلوب الاستفهام في مثل قول الله ﷻ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠] الآيات. والأسلوب التلقيني في مثل قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٥، ٩٦] الآيات.

وأسلوب تزكية النفس بمثل قول الله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦١، ٢٦٢]. أيضًا الأسلوب التصويري بالكلمة وبالسنة وبالاستعارة وبالكتابة، نجد هذا واضحًا في القرآن الكريم.

وأيضًا الأسلوب القصصي. قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ٣].

وأسلوب الحوار في مثل قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ

إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وأسلوب التوكيد والتكرار في مثل قول الله ﷻ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥].

وأسلوب القسم في مثل قول الله ﷻ: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٣]، وأسلوب التهييج في مثل قول الله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب: ١].

وأسلوب الالتفات في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾ [الكوثر: ١، ٢] وأسلوب الشرط كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشورى: ٣٩].

وأسلوب المداراة، وفي الحديث: ((إن شر الناس منزلة عند الله من تركه أو وَدَعه الناس اتقاء فحشه)).

وأسلوب الإيجاز في مثل قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص].

وأسلوب الإطناب في مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٣، ١٦٤].

وأسلوب الحصر والاختصاص في مثل قوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [الصافات: ٣٥]، وفي مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] أيضًا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأسلوب التعجب في مثل قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨].

وأسلوب النفي قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﷺ.

وأسلوب الأمر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وأسلوب النهي في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٧].

وأسلوب التمني في مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

وأسلوب الزجر في قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الشورى: ١٧].

وأسلوب النداء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١].

وأسلوب التورية حين يذكر اللفظ ويكون له معنيان؛ أحدهما قريب والآخر بعيد ويقصد البعيد، ويورى عنه بالقريب فيتوهمه السامع من أول وهلة. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾، [سبأ: ٢٨].

فالمعنى القريب لجميع الناس، والبعيد أي: لتكفهم عن الكفر والمعصية وتهديهم إلى الإيمان والطاعة. وفي قصة الهجرة قال أبو بكر > حين سئل عن رسول الله ﷺ قال: ((هذا هادٍ يهديني الطريق)).

وأسلوب الانسجام أن يكون الكلام سهلًا خاليًا من التعقيد، منحدرًا كتحدر الماء المنسجم ويكاد بسهولة تركيبه وعذوبة لفظه أن يسيل رقة، وهذا أسلوب القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، وأسلوب الافتنان أي: الإتيان في الكلام بأفانين مختلفة، أو بفنين مختلفين كالجمع بين التعزية والفخر، في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وأسلوب الاستدراك كقوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤ ﴾ [الحجرات: ١٤].

وأسلوب التقسيم قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢ ﴾ [فاطر: ٣٢] الآيات.

وأسلوب التنكيت أن يقصد إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسد مسده؛ لأجل نكتة في المذكور ترجح مجيئه على ما سواه كقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩ ﴾ [النجم: ٤٩] خص الشعرى بالذكر دون غيرها من النجوم وهو تعالى رب كل شيء؛ لأن العرب ظهر فيهم رجل دعا إلى عبادة الشعرى.

وأسلوب الترتيب قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ ﴾ [غافر: ٦٧].

وأسلوب الترقي قال تعالى: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

وأسلوب التدلي كقوله تعالى: ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وأسلوب الجناس وهو تشابه اللفظين في اللفظ مع اختلافهما في المعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم: ٥٥].

وأسلوب الجمع أن يضم شيئين أو أشياء متعددة في حكمٍ واحد، كقوله تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦]، وهناك جمع مع تفريق وجمع مع تقسيم وجمع معهما.

وأسلوب العنوان ومنه ألفاظ تكون مفاتيح وعناوين لعلوم ومداخل لها، أو عناوين لأخبارٍ متقدمة وقصص سابقة. قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٩] الآيات.

وأسلوب اللف والنشر أن يذكر شيئان أو أشياء، إما تفصيلًا بالنص على كل واحد، أو إجمالًا بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم، ويفوض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به، ومنه مثلًا سورة "الضحى" في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾ [الضحى: ٩] راجع إلى قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الضحى: ٦]، وهكذا سائر آيات السورة. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: ٧٣]، فالليل للسكون والنهار لتبتغوا من فضله.

وأسلوب المشاكلة، وتعني ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحته تحقيقًا أو تقديرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ لأن الجزاء حق لا يوصف بأنه سيئ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٤] كذلك أسلوب المبالغة ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فلا شك أن دخول الجمل في ثقب الإبرة يستحيل وكذلك دخولهما الجنة.

وأسلوب المطابقة أي: الجمع بين متضادين في الجملة قال تعالى: ﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا ﴾ [التوبة: ٨٢].

وأسلوب الفواصل، وهو في القرآن مترابط ومرتبط بفواصل الآيات، ويعرف في غير القرآن بالسجع، وهو موالاة الكلام على حدٍ واحد، والتكلف فيه عيب والاستكراه فيه مذموم. قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

كما قال - عز من قائل- : ﴿ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ﴿١٣﴾ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ﴿١٤﴾ ﴾ [الغاشية: ١٣، ١٤]، ولم يبق لنا إلا أن نشير إلى الطريقة الأخرى وهي الأسلوب الكتابي، وحسبك أن تدرك أن القرآن الكريم هو الكتاب كما قال ربنا: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢].

وللأسلوب الكتابي سماته في مجال الدعوة الإسلامية ومنها:

الأول: يتميز الأسلوب الكتابي في الدعوة الإسلامية بالاستمرار، أي: أنه لا زماني فبقاؤه أطول عمرًا وأخلد على الزمن وأعصى على الفناء.

الثاني: الأسلوب الكتابي يمنح صاحبه الوقت في اختيار ألفاظه وانتقاء مفرداته، وتقويم عباراته واصطفاء أفكاره، حتى يبدو الأسلوب الكتابي سبيكة خالية من الشوائب.

الثالث: يتميز الأسلوب الكتابي في الدعوة أنه يجمع بين التأثير الوجداني، والتفكير العقلي المنتظم المتأني، الجامع للأدلة المؤيدة والمفندة.

الرابع: الكتابة الأدبية في الدعوة هدفها إذكاء العاطفة الإسلامية بعد ربطها بالإسلام، والأخذ بتعاليمه وعباداته، ولا تتسع اتساع الكتابة الفنية المتخصصة.

الخامس: الأسلوب الكتابي في الدعوة يجمع بين الأصالة والمعاصرة، بين الثبات والتطور فجزالة الألفاظ لا نعني بها الغرابة، وإنما قوة اللفظ في بلاغته وفصاحته وأدائه للمعنى دون ابتذال.

وسائل الدعوة الإسلامية

وأنتقل من الأساليب إلى الوسائل؛ ليتضح لنا الفرق بينهما، وكما عرفت أن الوسائل في اللغة جمع وسيلة، وهي الوصلة والقربى وما يتوصل به إلى الشيء، وما يتقرب به إلى الغير، وأن المراد بوسائل الدعوة الإسلامية اصطلاحًا: ما يتوصل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة الإسلامية من أدوات، رغبةً في تحقيق أهدافٍ معينة.

فمن ثم الداعية يسلك طريقًا أو منهجًا من خلال أداةٍ معينة، تسمى الوسيلة، يقودها بطريقة خاصة تسمى الأسلوب، لتحقيق غاية محددة ألا وهي الهدف، وهذه الوسائل متطورة وأدواتها متجددة، ومن ثم فالداعية يجمع ما بين الوسائل

القديمة، ولا يحرم نفسه من مستحدثات العصر أو الوسائل الحديثة، يستفيد بها في دعوته مع احتفاظه بما يناسبه من وسائل قديمة نافعة، وفيما يلي بيان لبعض وسائل الدعوة الإسلامية:

أولًا: القدوة الحسنة، فالداعية الموفق الناجح هو الذي يهدي الناس إلى الحق بعمله وبسمته وسلوكه، وإن لم ينطق بكلمة واحدة، والتدين الحقيقي صورة لجوهر النفس بعد أن استقامت على الطريقة، وهي التمثيل الحي والتطبيق الكامل للدين بعد العلم به، والقدوة الحسنة هم أنبياء الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم. وقد قص الله ﷻ قصصهم في كتابه، ودعانا لأن نهتدي بهديهم، وأن نقتدي بهم فقال - عز من قائل - : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ورسول الله ﷺ إمامهم، وهو خاتم النبيين وهو الأسوة الحسنة للمؤمنين؛ لذا قال رب العالمين: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

والصالحون من عباد الله تعالى هم وسائل التأثير، وأدوات التغيير في المجتمع الإسلامي؛ لأن المحاكاة وسيلة فطرية وطريقة واقعية، تحمل الناس على سهولة الاقتداء.

ثانيًا: الصبر، من وسائل الدعوة الإسلامية، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام، فإن القدوة الطيبة النموذج الكامل للتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، ولا شك أن الصبر إحدى الفضائل التي يتميز بها القدوة الطيبة، لكن لمزيد اهتمام ينبغي التأكيد على أهمية تلك الفضيلة، التي تحمل الإنسان على تحمل المكاره في سبيل دعوته.

كما قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ [المزمل: ١٠]، كما قال – عز من قائل- : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] هذا والابتلاء سنة الأنبياء وإذا أحب الله عبدًا ابتلاه، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط، وما أعطي أحد عطاء أوسع وخيرًا له من الصبر.

ثالثًا: التعليم، يجب على الدعوة الاستفادة من وسيلة التعليم، فالمدرس أيًّا كان تخصصه هو داعية في فصله، مربٍ في قاعته معلم في معهده موجهٌ في جامعته، عليه أن يربط بين الدين والعلم، وأن يفتح عيون الطلبة على الحق، وأن يجعل الحق شعاعًا كشعاع الشمس، شائعًا كأمواج الهواء، يجيب على الأسئلة فإن لم يسأل ابتدر طلابه بالسؤال: ألا أخبركم ألا أدلكم، لا يكتم علمًا، ولا يحتكر معرفة، ولا سبيل للدعوة الناجحة إلا بالفاقهين، ولا وسيلة أعظم من التعليم؛ لأن الجهل الفاضح ينسج حوله حجابًا من الحق، يذر أصحابه كقطعان الدواب في قصور الإدراك، وعوج العمل وشدة الغفلة، واللدد في الخصومة.

رابعًا: الذكر، كم من مبتعد عن الحق تكفيه في العودة إليه همسة ناصح، أو صيحة زاجر قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وعبادة الذكر من أعظم العبادات التي توصل الإنسان بربه، وتقوي علاقته بخالقه ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحشر: ١٩].

وإذا كان التعليم وسيلة مهمة في الدعوة، فإن التذكير لا يقل أهمية عن التعليم، والدين الإسلامي حافل بألوان متعددة للذكر وأوقاتٍ متنوعة له، شغلت حياة المؤمن كلها، ورتب الإسلام على الذكر آثارًا عظيمة ومنافع عميقة، وحسبك

أن من شغله الذكر عن غيره أعطاه الله أعظم ما يعطي السائلين، ورياض الجنة هي مجالس الذكر فأنعم بها من وسيلة.

خامسًا: الخطابة، جعل الإسلام للمسلمين في كل جمعة محفلًا، وفي كل عيد ملتقى، وفي النوازل مجمعًا، يستمعون فيه إلى خطيب يرشدهم ويعالج مشاكلهم، والخطابة وسيلة خطيرة تحتشد فيها الحشود احتشادًا، استجابة لله ولرسوله، ولو أحسن المسلمون استغلال تلك الوسيلة في إحداث التغيير المطلوب، لتربعت الخطابة على قمة وسائل الدعوة.

فالخطابة ضياء أمة ووقود نهضة وإرشاد شعب ومظهر الحياة الإسلامية، وذلك هو السر في أن نبي الإسلام ﷺ كان يخطب كل أسبوع وكل عيد وفي كل نازلة، وكان رسول الله ﷺ يراعي أحوال أصحابه، فيعظهم حين يشعر بالاستعداد الكامل منهم في الوقت المناسب؛ مخافة أن يملوا.

سادسًا: المسجد بيت الله فيه يذكر اسم الله، وتبث دعوته وتنشر رسالته، لم يفكر النبي ﷺ أن يبني لنفسه بيتًا بعد هجرته إلى المدينة، بل فكر أولًا أن يبني المسجد فهو وسيلة الدعوة الأولى، وحجر الزاوية في عملية التبليغ، ويأتيه المدعوون دون توجيه دعوة إليهم طوعًا وحبًّا، وتتحقق بالمسجد أهداف الدعوة العقدية والتعبدية والتشريعية والأخلاقية.

سابعًا: الرسائل، خطابات تحمل الترغيب في الإسلام، والدعوة إلى الدخول فيه وشرح حقائقه، ولقد استخدم رسول الله ﷺ هذه الوسيلة مع المسلمين وغير المسلمين، فطلب أن يكتبوا لأبي شاة، وأرسل رسله إلى الملوك والأمراء يعرض عليهم الإسلام، فأرسل عبد الله بن حذافة برسالة إلى كسرى فارس، ودحية الكلبي إلى قيصر الروم، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط بمصر،

وهناك سجل كامل للرسائل النبوية، أعدت فيها رسالة علمية للأستاذ الدكتور علي السبكي.

ثامنًا: الشعر، إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر ما يلهب المشاعر، ويبعث في الموات حياة وفي الكسالى نشاطًا، وفي المنحرفين استقامة وفي الغافلين يقظة، وفي الحائرين هداية وفي المتفرقين وحدة، وفي العاصين طاعة وفي المظلومين ثورة، وفي المهزومين قوة وكَرًا، إنه يحرك الجبال ويهز الأوتار ويصنع الرجال، وينشد صاحب العزيمة ويقوي الحرارة عند صاحب الشكيمة، ألا ما أحوج الدعوة الإسلامية إلى الشعر، يعرضها في صفائها ويكشف عن دورها، ويبرز خصائصها ويظهر جمالها ويرد عنها الأباطيل.

تاسعًا: الكتاب، المطبوع غير الدوري الذي يحتوي على خمسين صفحة، أقدم الوسائل المقروءة، وحسبك أن تعلم أن القرآن الكريم هو أقدم كتاب، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو سجل الدعوة الخالد، والسنة تم تدوينها منذ عصر الرسول ﷺ ثم دونت تدوينًا عامًّا في زمن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز - رحمه الله- من تسعٍ وتسعين إلى مائة وواحد من الهجرة.

وللكتاب دور عظيم في تبليغ الإسلام ونشر مبادئه في العالمين الإسلامي وغير الإسلامي، ويحقق الكتاب فائدة كبيرة إذا قام عليه متخصصون، لا سيما إذا تم تعميم الكتاب بلغات العالم المختلفة.

عاشرًا: المقابلة، وهي المحادثة الجادة الموجهة نحو هدفٍ معين، غير مجرد الرغبة في المحادثة لذاتها، وتقع المقابلة موقعها اللائق بها، حين يراعى اختلاف الفرد أو الأفراد، الذين لهم رغبة في الحديث والتوقيت المناسب والمكان اللائق، وقدرة الداعية على المحاورة الذكية والحضور القوي، والثقافة الكاملة والإقناع لدى

المدعوين بما يدفعه إلى البوح بكل ما لديه، وكم استفادت الدعوة من تلك الوسيلة، فهي أشبه بما يفعله الطبيب أو الأخصائي النفسي أو الاجتماعي، من أجل تشخيص الداء ووصف الدواء.

الحادي عشر: المناظرة، مقابلة الحجة بالحجة، ودفع المرء خصمه عن فساد قوله ببرهانٍ ساطع، ودليلٍ قاطع، ولا بد من معرفة قواعد المناظرة وضوابط الجدل، فالنظر في الموضوع المختلف فيه أو القضية المتنازع عليها، لا بد أن يتأسس على قواعد الإنصاف والأخلاق، وتحري الحق والعدل ومراعاة القواعد العلمية، بعيدًا عن روح التعصب والانحراف والجهل، بهذا تحقق المناظرة هدفها في الوصول إلى الحق وهو غاية الدعوة الإسلامية، وينبغي الاهتمام بالإعداد للمناظرة ومرحلة التنفيذ وعملية التقويم.

الثاني عشر: المحاضرات والدروس من فنون القول، التي تعمل على شرح مشكلة أو موضوعٍ معين، من الداعية المتخصص مع جمهور المدعوين، الذين يجمعهم رغبة مشتركة في هذه المشكلة أو الموضوع المطروح، وتعتمد المحاضرة والدرس على المادة العلمية، وشخصية الداعية في الإلقاء المنظم والإقناع المؤثر؛ حتى لا يمل منه المدعوون.

الثالث عشر: المناقشة، وهي تبادل الآراء والأفكار وجهًا لوجه، بين أعضاء جماعة صغيرة نسبيًّا، وتكون عادة من خمسة إلى عشرين، وتتميز المناقشة بأنها تتيح الحد الأقصى من التفاعل المتبادل بين الأعضاء، وتعلم التفكير في إطار الجماعة، الذي ينمي الإحساس بالمساواة، وتساعد على انبثاق القيادة، ولقد كان رسول الله ﷺ يجمع أكثر من مشرك يرجو إسلامهم، ويناقشهم كما فعل مع عتبة بن ربيعة وأبي جهل والعباس وأبي وأمية بن خلف.

الرابع عشر: الصحافة، تعد الصحافة اليوم إحدى السلطات التي تقوم عليها الدول، وتسمى السلطة الرابعة بعد التشريعية والتنفيذية والقضائية، وتتناول الصحافة عملية الكتاب في المطبوعات، من صحفٍ ومجلات، والبعض يتسع في إطلاقها على جميع وسائل الإعلام.

لكن المراد بالمطبوعات الدورية التي تصدر في مواعيد منتظمة من أخبار وغيرها، والدعوة بحاجة إلى الاستفادة من الصحافة سواء في الأخبار أو التقارير، أو التحقيقات أو المقالات أو الحملات التي تستهدف جميعًا تبليغ الإسلام، والتعريف به ورد الشبهات عنه، بعيدًا عن أخبار الإثارة والشائعات، وإشاعة الفاحشة والمنكرات، وعلى الدعاة ألا يتخلوا عن أداء دورهم في الصحافة؛ لما لها من تأثير خطير في تشكيل الرأي العام، وعلى المؤسسات الدعوية إخراج صحافة إسلامية دعوية تتناسب مع خطورة المرحلة، وإعداد الكفاءات الدعوية والفنية لذلك.

الخامس عشر: الجهاد في سبيل الله تعالى، حيث إن الدعوة الإسلامية بحاجة إلى قوة تحميها، وطريق سالك لا عقبات فيه تعترضها؛ لذا كان الجهاد في سبيل الله تعالى وسيلة لحماية الدعوة، وإزالة كافة العقبات من طريقها، حتى يسمع الناس كلام الله وهم أحرار، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

والجهاد في سبيل الله تعالى وسيلة لا غاية، تلك الوسيلة ذروة سنام الإسلام، ما تركها المسلمون إلا عاقبهم الله تعالى بعذابٍ من عنده، فلا نامت أعين الجبناء ولا ضاعت دماء الشهداء، والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين.

السادس عشر: الهجرة، حين يضيق المكان بالمسلم فلا يتمكن من إظهار دينه، والدعوة إلى ربه، وحين لا تقبل الأرض التي يعيش عليها المسلم إقامة المنهج الرباني، حينئذٍ ما دام الإنسان قادرًا أن يفر بدينه إلى أرضٍ طيبة، تقبل الدعوة أو تمنحه الحرية لإقامة شعائر ربه، فلا يجوز له أن يظل في مكانه بل تكون الهجرة واجبة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾

[النساء: ٩٧- ٩٩].

وحين يهاجر تكون الهجرة فرصة لعرض الإسلام، كما فعل جعفر رضي الله عنه مع النجاشي، وكما كانت الهجرة وسيلة لإقامة دولة الإسلام في المدينة المنورة.

السابع عشر: الرحلات، زيارات ميدانية تحقق فوائد دعوية متعددة، منها إبراز روح التعاون بين أفرادها، والتعرف على بيئات حية واكتساب المعلومات بشكل مباشر، والكشف عن ملكات ومواهب المشتركين فيها، والتنفيذ الدقيق للحياة الإسلامية سواء في الأمور الجادة أو الجوانب الترويحية، ويجب الاهتمام بالإعداد لتلك الرحلات واختيار الأماكن المناسبة، واستغلال الرحلات في زيارة المعارض والمتاحف، ومعرفة حضارات الأمم والتاريخ القديم والحديث.

الثامن عشر: الندوات، عبارة عن مناقشة متكاملة بين مجموعة من المتخصصين، في موضع معين وجمهورٍ معين، في جوانب مختلفة من هذا الموضوع، ويتناول المتخصصون وهم عادة ما بين اثنين إلى خمسة، الموضوع من جوانبه المتعددة،

كل منهم يتناوله من زاوية معينة، وهذه الوسيلة من وسائل الاتصال والتبليغ، تتيح الفرصة للمدعوين للاستماع لآراء أكثر من داعية، ومناقشتهم؛ لذا ينبغي الاهتمام بالندوة إعدادًا وتنفيذًا وتقويمًا، واجتناب الخروج من الموضوع أو احتكار البعض للحديث دون غيره.

التاسع عشر: الجمعيات، وهي المؤسسات الأهلية والجماعات الخيرية والمنشآت الخدمية، وسيلة للدعوة الإسلامية نظريًّا وعمليًّا وعلميًّا وميدانيًّا، فهي تعمل على تقديم الإسلام في صورته الصحيحة، أو هكذا ينبغي أن تفعل، فتقدم المساعدات لأصحاب الحاجات وتقيم معاهد للدعوة، وتنشئ المساجد وتكفل الأيتام وتدعو إلى صلة الأرحام، وتعمل في خدمة المجتمع.

العشرون: المؤتمرات، وسيلة دعوية يتم بها إقناع المدعوين بفكرة معينة، أو نتائج عمل معين، لكسب تأييد الرأي العام وذلك بواسطة مجموعة من الدعاة المتميزين، في هذه الفكرة أو الموضوع المطروح، والمؤتمرات تختلف باختلاف المدة إلى وقتية ودورية، ومن حيث الغرض إلى عامة ونوعية، ومن حيث المستوى إلى محلية وقومية وإقليمية وعالمية، وأعمال المؤتمر تشمل البحوث والاجتماعات والمناقشات والمطبوعات.

ويتم التجهيز للمؤتمر بوقتٍ كافٍ والإعداد له، ومراحل انعقاده ومتابعة أعماله، ومن الجدير بالذكر أن الحج يمثل أعظم مؤتمر دوري للعمل الدعوي لو أحسن استغلاله.

الحادي والعشرون: الدورات، وهي وسيلة تعمل على تعميق الروابط بين المدعوين، وتوثيق الصلات بينهم، بحيث يصبحون كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وتستهدف الدورات

موضوعات محددة، تكثف لها الدراسة خلال مدةٍ محددة، حتى يحيطوا بذلك من كافة الجوانب النظرية والعملية.

الثاني والعشرون: المناسبات الدينية والاجتماعية، على الدعاة أن يستغلوا المناسبات لتبليغ الدعوة الإسلامية، كالعيدين والأفراح والأحزان، فتلك محافل يجتمع فيها المسلمون، ومن اللائق أن يختار لها الموضوع المناسب والعرض المناسب، فالمشاركة الوجدانية ضرورية للدعاة إلى الله تعالى، ولا ينبغي الغياب في تلك المناسبات.

الثالث والعشرون: المعسكرات أو المخيمات، ومعناها العام الإقامة في المخيمات هي وسيلة قديمة، تمثل أهمية كبرى في حياة الداعية والمدعوين، حيث تسهم بشكل فعال في تكوين المواطنين الصالحين، وإشباع رغباتهم وحاجاتهم، وتمثل بيئة طبيعية لإقامة حياة إسلامية واقعية، تجمع بين الجد والترويح، وتربي في الفرد روح النظام والطاعة، وتحمل المسئولية والحصول على المعلومات، واكتساب الخبرات وشغل أوقات الفراغ، وتنمية شخصية الأفراد، وممارسة الشورى والتعاون على الخير والتقوى، فتؤثر في حياة المدعوين بعد ذلك في ممارستهم اليومية.

الرابع والعشرون: الزيارات، تعد زيارات الأقارب والإخوان والجيران مسلمين وغير مسلمين، من الوسائل النافعة في مجال الدعوة الإسلامية، وجاء الترغيب في زيارة الإخوان وإكرام الزائرين. وفي الحديث عن معاذ بن جبل > قال: ((سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين في والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ))، رواه مالك بإسناد صحيح. وللزيارات آدابها التي ذكرها العلماء، وبمراعاة تلك الآداب تحقق الدعوة أهدافها

الخامس والعشرون: الإكرام بالإطعام، وهو من هدي رسول الله ﷺ الدعوة إلى الطعام والأمر بإجابة الداعي، ومما صنعه رسول الله ﷺ أنه جمع قريشًا على طعام، ثم دعاهم إلى الإسلام، فالداعي يقتدي برسول الله ﷺ في ذلك، فيدعو المسلمين وغير المسلمين، وينتهز هذه الدعوة إلى الطعام في دعوتهم إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

في الحديث عن جابر > قال: ((قال رسول الله ﷺ: إذا دعي أحدكم إلى طعامٍ فليجب، فإن شاء طعم وإن شاء ترك)) رواه مسلم. وفي الحديث عن عمر بن الخطاب > قال: ((قال رسول الله ﷺ: كلوا جميعًا ولا تفرقوا فإن البركة مع الجماعة)) رواه ابن ماجه.

السادس والعشرون: الاستفتاء أو الاستبانة، الأداة التي يتمكن بها الداعية للحصول على الحقائق، وتجميع البيانات عن الظروف والأساليب القائمة بالفعل، يفيد ذلك في رصد الواقع ومعرفة السلبيات والإيجابيات؛ حتى يتمكن من معالجة السلبيات ودعم الإيجابيات، وهذه الوسيلة استخدمها النبي ﷺ في مناسبات عديدة، ومنها ما تعلق بحادثة الإفك، وسؤاله أكثر من شخص عن عائشة > .

هذا وبقيت هناك وسائل أخرى كالهاتف ومختبرات اللغة والإذاعة وشريط التسجيل وجهاز العرض، والتلفاز وشريط الفيديو والمسرح والسينما والدعوة عن بعد.

تابع: أساليب ووسائل الدعوة الإسلامية - وبيان ضوابطها

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الاستفادة من المخترعات الحديثة في الدعوة	٥١
العنصر الثاني :	ضوابط وسائل وأساليب الدعوة	٥٧

الاستفادة من المخترعات الحديثة في الدعوة

فلا زلت أتحدث عن الوسائل، وكان من آخر ما ذكرتك به الإكرام بالإطعام من وسائل الدعوة، التي استخدمها النبي ﷺ هذا وتستمر هذه الوسائل سيما الوسائل الحديثة، ومنها الهاتف وهو:

السابع والعشرون: من الوسائل، يعد الهاتف من وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية، حيث ينتقل الصوت على شكل ذبذبات كهرومغناطيسية، بين جهازين تفصل بينهما مسافات متباينة، قد تصل إلى آلاف الكيلو مترات، ويعد الهاتف اليوم تجربة ناجحة في الدعوة الإسلامية على المستوى الفردي والجماعي على السواء، وهناك محاولات جادة في إشاعة هذه الوسيلة الدعوية.

فالهاتف الإسلامي مثلًا يقدم خدمته في مجال الإفتاء والرد على التساؤلات، التي قد تسبب حرجًا لأصحابها خصوصية لهم، كما توسع الهاتف الإسلامي في تقديم ما يعرف بكبسولات دعوية مركزة، في دقائق محدودة، تقدم تعريفًا بالقرآن وتفسيرًا لآياته وبيانًا لأحكامه، إلى آخر ما يقدمه الهاتف الإسلامي من خدمات.

الثامن والعشرون: مختبرات اللغة، هي إحدى الوسائل السمعية التي تعمل على تعليم اللغات الأجنبية، بجانب القراءة الصحيحة للقرآن واللغة العربية، ولا شك أن اللغة إحدى الوسائل الضرورية لتبليغ الدعوة الإسلامية، وداعية دون لغة صوت دون أذان.

وقد اهتم الإسلام بذلك، فلقد طلب رسول الله ﷺ من زيد بن ثابت > أن يتعلم السريانية، فتعلمها في بضعة عشرة يومًا، وكان زيد أشبه بالسكرتير الخاص

لسيدنا رسول الله ﷺ وكان زيد يجيد أكثر من خمس لغات منها السريانية والعبرية، وإحدى مشكلات الدعوة اليوم تتحدد في إجادة اللغة دون إحاطة بالدعوة، أو معرفة بالدعوة دون إجادة اللغة.

التاسع والعشرون: الإذاعة المسمى بالراديو، وسيلة سمعية تعد من أهم وسائل الاتصال الجماهيري، وأكثرها انتشارًا في العالم وأرخصها ثمنًا وأعظمها خطرًا، حتى تحقق الدعوة رسالتها فلا بد من استغلال هذه الوسيلة استغلالًا حسنًا. وتمثل إذاعة القرآن الكريم قيمة عظيمة في المجتمعات الإسلامية، وهي تجربة موجودة في أكثر من دولة، ومع ضعف الإمكانات إلا أنها تؤدي دورًا لا ينكر، لكنها بحاجة إلى كثير من التطوير الذي يتلاءم مع مستجدات العصر، ومستجدات الدهر.

الثلاثون: شريط التسجيل، ويشمل أشرطة البكرات المفتوحة المستخدمة في محطات الإذاعة، ولدى المحترفين أو أشرطة الكاسيت، وهو الأكثر استخدامًا وشيوعًا، وشريط التسجيل يحمل المادة الدعوية السمعية، وخطورة هذه الوسيلة تدرك حين نعلم أن الثورة الإيرانية اشتعلت عن طريقه، وهذا يؤكد أهمية تلك الوسيلة، ويدفعنا إلى ضرورة الاهتمام بتلك الوسيلة عن طريق البرامج الدعوية النافعة، التي يتولاها متخصصون وفق ضوابط وقواعد محترمة.

الحادي والثلاثون: جهاز العرض، من أبسط وسائل الاتصال البصرية، تستعمل في المؤسسات التعليمية والتدريبية، والدعوة الإسلامية بحاجة إلى هذه الوسيلة؛ لتعريف المدعوين بكثير من الأحكام الإسلامية، لا سيما فيما يتعلق بالعبادات، كمعرفة الوضوء والصلاة والزكاة والصيام والحج، وبرامج الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ومعرفة وقائع وأحداث التاريخ الإسلامي.

الثاني والثلاثون: التلفاز، من أكثر وسائل الاتصال السمعية والبصرية انتشارًا، والدعوة الإسلامية في حاجة ماسة إلى التليفزيون كوسيلة مؤثرة وفعالة في

المجتمع، ولا يمكن أن تحقق هذه الوسيلة المرجو منها إلا بكوادر مدربة، وإمكانيات بشرية ومادية مناسبة، واختيار الأوقات والأشخاص المؤهلين في الدعوة.

الثالث والثلاثون: شريط الفيديو، وسيلة هامة في نقل الأحداث والأفلام الوثائقية، وصور الجهات، والندوات والبرامج، والمحاضرات والدروس، والخطب والمناظرات والأحكام والتربية بمجالاتها المتعددة، وهي وسيلة سمعية بصرية تعيين على تبليغ الدعوة الإسلامية، كشريط التسجيل السمعي، ويزيد شروط الفيديو في نقل الصورة بجانب الصوت.

الرابع والثلاثون: السينما، دار العرض السينمائي وسيلة مهجورة في العمل الدعوي، وعلى الدعاة بحث هذه الوسيلة من خلال محورين: السينما الإسلامية، والفيلم الإسلامي، وإذا كان هذا يحتاج إلى موارد مادية وتقنية وخلافه، فلا بأس بالبدء بالأسهل، وهو العناية بوجود الفيلم الإسلامي، الذي يعظم الفضيلة ويحقر الرذيلة، ويبعث في الأمة تاريخ مجدها وصفحات عزها، ملتزمًا بالقواعد الشرعية والآداب المرعية.

الخامس والثلاثون: المسرح، لا يختلف الحديث عن المسرح عن السينما وعن التلفاز ووسائل الإعلام والثقافة، لقد خطا غير المسلمين خطوات كبيرة في استغلال هذه الوسائل، ووظفوها لنشر مبادئهم، ولا يزال المسلمون مختلفين حول مشروعية هذه الوسائل، ومن المعلوم يقينًا أن تلك الوسائل لا توصف بحل أو بحرمة، بل هي وسائل حيادية، وإنما الحكم مرتبط بالمادة الإعلامية، فوسائل الإعلام كالإناء يمكن أن يوضع فيه شراب فيه شفاء للناس وماء طهور، ويمكن أن يوضع فيه خمر ورجس من عمل الشيطان.

السادس والثلاثون: الدعوة عن بعد، الاستخدام المنظم للوثائق التقنية المطبوعة والسمعية والبصرية والحاسوبية، بين الداعي والمدعوين في مكانين متباعدين، فالدعوة عن بعد عن طريق تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، تجعل المسافة بين الداعي والمدعو مسافة قصيرة جدًّا، فيستطيع الداعي أن يقدم دعوته من خلال تلك الوسائط التقنية بسهولة ويسر.

ولعل كليات الدعوة ومعاهدها تستفيد بتلك الوسيلة التي تحقق تبليغ الدعوة، وتساعد على تعويض المحرومين من معرفتهم بدينهم، أو معرفة الإسلام بشكل صحيح، وترد الشبهات عن هذا الدين الحنيف، وتزود المدعوين بمصادر أو خبرات لا يمكن الحصول عليها بوسائل أخرى، ومن الواضح أن الدعوة عن بعد كالتعليم عن بعد، يجعل المرء بصفة عامة أكثر سهولة وفاعلية ومتعة.

السابع والثلاثون: الملصقات، لوحة إعلانات أو معلومات ولكن بحجم صغير، وإن كنا نريد أن نتوسع في هذه الوسيلة؛ لتشمل مجلات الحائط والرسوم التوضيحية ونحوها، وكم هو جميل أن نراعي في الملصقات دقة اللفظ ووضوح المعنى وقوة التأثير وجمال الإخراج، وتعد الملصقات من الوسائل المهمة في تغيير السلوك، كالترغيب في النظافة والإقلاع عن التدخين، والعمل على مقاومة التبرج والدعوة إلى الحشمة والعفة، والحجاب وإذاعة الأذكار.

الثامن والثلاثون: المجسمات والنماذج، إحدى الوسائل الحسية التي يتيح استعمالها توافر خبرات حسية للمدعوين، وما أحوج الدعوة الإسلامية إلى تبني تلك الوسائل الحسية؛ لتعريف المدعوين. إن فريضة إسلامية كالحج بحاجة إلى مثل هذه الوسيلة؛ لتعريف الناس بالكعبة وشعيرة الطواف والأحكام المتعلقة بالحج.

التاسع والثلاثون: الرسوم المتحركة والدمى، يغزو العالم اليوم الرسوم المتحركة ويجذب الصغار والكبار على السواء، وخطورة الرسوم المتحركة في تشكيل عقلية

الصغار، يدفعنا إلى أن نقتحم هذا الميدان؛ حتى نقدم لأطفالنا ما يتفق مع دعوتنا، وهناك جهود مشكورة في هذا المجال، لكنها بحاجة إلى دعم متواصل حتى تؤدي رسالتها.

والعجب أن استعمال الدمى شائع في صدر الإسلام، ولا أدل على ذلك من أن عائشة > كانت لها بنات تلعب بهن، وكانت مع رفيقاتها وكان النبي ﷺ يُسَرِّب لها تلك الدمى، أي: البنات، ولا بد للكبار من اختيار الألعاب التي تعين على تحقيق المعاني الراقية، ولا شك أن وجود عرائس مع البنات له أثره التربوي الفعال في إعداد الصغيرة للقيام بواجبها كأم، وما يتبع ذلك من عواطف ومشاعر راقية.

الأربعون: الحاسوب، يعد الحاسوب أو الكمبيوتر إحدى الوسائل العلمية الفاصلة في حياة البشرية، وتتعدد مجالات استخدام الحاسوب، ومنها إعداد البرامج الدعوية، ولا شك أن إعداد المادة الدعوية يحتاج إلى خبرة فنية وعلمية كبيرة، وتخزين واسترجاع المعلومات، كما أنه وسيلة سمعية وبصرية وإحدى وسائل الاتصالات، وما فيه من إسطوانات وما يسمى بالسي دي، التي تعمل عمل شريط التسجيل وشريط الفيديو معًا.

الحادي والأربعون: الأقمار الصناعية تعرف بالستالايت، مركبات فضائية تدور حول الكرة الأرضية، لها أجهزة نقل إشارات الراديو والبرق والهاتف والتلفاز، وتقوم المحطات الأرضية بإرسال الإشارات إلى القمر الصناعي، الذي يبث الإشارات بعد ذلك إلى محطات أرضية أخرى، ويتم الإرسال والاستقبال عن طريق أطباق وهوائيات مثبتة على سطح القمر الصناعي العلوي، والموجهة لسطح الأرض.

وتمثل الأقمار الصناعية قفزة نوعية في وسائل الإعلام والاتصالات، وسائر مجالات الحياة الإنسانية سلميًّا وعسكريًّا، والدعوة الإسلامية استفادت جزئيًّا من تلك الوسيلة العالمية، فأخرجت لنا عدة قنوات فضائية تبث إرسالها إلى مناطق عديدة في العالم، والرجاء كبير في أن تنهض القنوات الفضائية برسالتها عربيًّا وعالميًّا بجميع لغات العالم، كما تصنع النصرانية على سبيل المثال.

الثاني والأربعون: الإنترنت، شبكة من النظم لتبادل الاتصالات والمعلومات اعتمادًا على الحاسوب، وذلك بالربط المادي الفيزيائي لجهازين أو أكثر معًا، وتشمل على صور ومعلومات وجميع أوامر الوسائط المتعددة، ويعد نظام الشبكة العالمية (wib wide world) (www) مختصرة، أحد التطبيقات على الإنترنت، ويحتوي على ملايين الصفحات المترابطة عالميًّا، بحيث يمكن الحصول على الكلمات والصور وأفلام الفيديو والأفلام التعليمية والبحوث، من خلال هذه الشبكة العنكبوتية.

لقد استطاعت الدعوة الإسلامية على استحياء أن تقتحم، وتشترك في هذه الشبكة العالمية، واحتلت مواقع الدعوة الإسلامية مكانة لا بأس بها، في تقديم خدماتها الدعوية على مستوى المؤسسات الدينية الرسمية، والجامعات والجمعيات وجهات غير رسمية، أنشأت لها مواقع متميزة، ومن الخدمات التي تقدمها شبكة الإنترنت البريد الإلكتروني.

وقد يسر هذا الاتصال بالعلماء والمشايخ وتبادل المعلومات، وعرض القضايا السائدة والمشكلات الملحة، ووفر الإنترنت للدعوة الإسلامية اتصالًا عظيمًا، وهناك خدمات متجددة وعلى القائمين بالدعوة الاستفادة من تلك الخدمات، وملاحقة هذا التطور الهائل بإعداد الكوادر اللازمة فنيًّا ودعويًّا.

لعلي أكون قد وقفت على هذه الوسائل الدعوية القديمة والحديثة، من بعض أساليبها، ولعله بذلك يكون قد اتضح الفرق بين الأساليب والوسائل، على أننا نحتاج أن نتحدث عن الضوابط لهذه الوسائل وتلك الأساليب، ومعرفة المشروع منها والممنوع.

ضوابط وسائل وأساليب الدعوة

لقد سطر القرآن الكريم في ثناياه أساليب دعوته إجلالًا لدورها وإثراء لفائدتها؛ ولكي تبقى طريق الدعاة إلى الله على طول الزمن في دعوتهم وعملهم، ذلك أن الدعوة انتشرت بها وحدها أولًا، ولا بد أن يقتصر انتشارها عليها كذلك إلى الأبد؛ لأن ما حدث أولًا هو القاعدة لكل ما سيكون بعده.

كما أن هذه الأساليب تملك الحيوية الدائمة وعناصر التأثير المستمر؛ لأنها تناقش العقل وتشبع الغرائز وتخاطب الوجدان، وتجادل بالتي هي أحسن. إن الأساليب تراعي تنوع الناس حيث كانوا بدوًا أو حضرًا، في الشرق أو في الغرب في القديم أم في الحديث، ومع تنوعها ومراعاتها لاختلاف الناس، تلتزم بملامح واحدة توجد في كل نوع منها على حدة.

إن أسلوب الدعوة يجب أن يكون سهل الإدراك مكشوف المعنى، متفقًا مع مألوف السامعين لا يغرب عن تفكيرهم، ولا يشذ في دلالته عن عقولهم، ولا يكون وحشيًّا غريبًا مستهجنًا. إن اللفظ لو لم يكن سهلًا لانصرف عنه المستمعون، ولتخيلوه غريبًا عن لغتهم. إن الدعوة تبحث عن الاستمالة والجذب، واللفظ الغريب يؤدي إلى البعد والنفور.

هذا وقد سمى أرسطو الكلمة السهلة بالكلمة المستولية ؛ لاستيلائها على العقول بسرعة ، وعرفها ابن رشد بقوله : "هي اللفظ الخاص بأهل لسان ما ، وتكون مشهورة عندهم سهلة دالة على المعاني التي وضعت لها من أول الأمر ، من غير تفسير وتأويل". ويقول أرسطو : "إن الكلمة المستولية هي الكلمة البهية النبيلة غير الحقيرة" ؛ ولذلك كان الأسلوب القرآني سهلًا ميسرًا جامعًا لكل فنون القول ، ومتلائمًا مع واقع الناس ، وسوف أتحدث عن هذه الملامح العامة للأسلوب القرآني إن شاء الله تعالى ، فيما يتعلق بالوضوح التام وملازمة الحسن والدقة ، والتوجه لجميع المكلفين وذلك فيما يلي.

الوضوح التام : تلتزم جميع الأساليب القرآنية بالوضوح الدقيق والبيان الشامل ، حيث يتسع وضوحها لمبادئ الدعوة ، وهي تعرضها وتدلل عليها مستعينة بإحاطتها بمن توجه إليهم الدعوة ، متفهمة للداعية وقدره ولدقة فهم الأساليب وإحاطتها بواقع المدعوين ، نراها تأتي موجزة أحيانًا وطويلة أحيانًا أخرى ، حقيقة أو مجازًا مثلًا أو جدلًا أو قصة ، وهكذا تبعًا لمقتضى الحال.

وقد وضع الله في أسلوب القرآن الوضوح والبيان ؛ لكي يقوم بدوره في الناس ، ويعرض الدعوة قوية تثير داعية النظر عند المدعوين ، كما هو شرط إبلاغها ، والدعوة من غير بيان ما كانت ولن تكون ؛ ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤].

وتلك قاعدة ضرورية ؛ لأن اتحاد اللغة بين الداعية والناس يجعل الفهم سريعًا وميسرًا وبلا عناء ، ولذلك ضمن الله لأساليب القرآن هذا البيان ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة : ١٧ - ١٩].

إن البيان شرط في تبليغ الدعوة ؛ لأنه لا معنى لكلام غير مفهوم ، ولا قيمة لثرثرة كلامية لا معنى لها ، ولذلك سمى الله رسالة الرسول ﷺ بالبينة ؛ لما فيها من بيان ووضوح ، وجعل رسوله هو البينة لما في حديثه من ظهور ، كما قال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ ﴾ [البينة : ١ ، ٢]، وكان ﷺ يقول كما علمه الله تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف : ١٠٨].

ومعنى البصيرة التي عليها دعوة النبي ﷺ تضمن الأسلوب الحجة الواضحة ، والبيان الدقيق والبرهان الساطع والفهم العميق للدعوة والمدعوين ، وكون الدعوة على بصيرة شرط فيها ، كما يقول الرازي عند تفسيره لهذه الآية ، وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط ، وهو أن يكون على بصيرة مما يقول ، وعلى هدي ويقين ، فإن لم يكن كذلك فهو محض الغرور.

وهذه البصيرة أسلوب بياني ، وكونها شرطًا دليل على أن حرفة الكلام وعلم الأصول هي حرفة الأنبياء - عليهم السلام- ، وأن الله ما بعثهم إلى الخلق إلا لأجلها ، وما كانت حرفة الأنبياء هكذا إلا أنهم يملكون هذه البصيرة ، ويدعون وهم فاهمون للدعوة والمدعوين. إن هذه الصفة في أساليب القرآن الكريم تؤكد على ضرورة أن يكون الأسلوب متلائم الكلمات ، متآلف التراكيب بحيث تنساب الجمل وكأنها نغم يلمس أذن المستمع ، ويمده بالشجن والسرور.

ويجب أن يكون واضحًا أن الكلمات إذا تنافرت فيما بينها تضر الداعية والدعوة ؛ لأنها تخرج منه ثقيلة نابية ، وتضر المستمعين ؛ لأنها تفقدهم روح الانتباه ، والميل للاقتناع. ولقد ذكر ابن الأثير أن من بلاغة الكلام أن تكون كل

كلمة مع أختها متعاونة معها ؛ لئلا يكون الكلام قلقًا نافرًا عن موضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه مع أختها المشاكلة لها ، وقد قال البلاغيون : إن لكل كلمة مع صاحبتها مقام ، وقال غيرهم : لكل حدث حديث ولكل مقام مقال.

ولنأخذ مثلًا موضحًا من القرآن الكريم ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة: ٨] ألا ترى ما في اختيار كلمة ﴿ ٱلنَّاسِ ﴾ ، وعمومها من عدم مجابهة المنافقين بتعيينهم ، وفي ذلك ستر عليهم وإغراء لهم بالإقلاع عن نفاقهم.

ذلك أنهم ما داموا لم يعينوا فمن المتوقع أن يصغوا إلى القرآن ، فربما انصرفوا عن غيهم إذا استمعوا إلى تصوير حال ضلالهم ، ولو أنه جبههم بكشف الستار عنهم لانصرفوا معرضين ، وكلمة ﴿ يَقُولُ ﴾ توحي بأن إيمانهم لم يتعد أفواههم ، وأجرى على ألسنتهم الإيمان بصيغة الماضي ؛ زيادة في التمويه والخداع منهم ، وخص الإيمان بالله واليوم الآخر ؛ لأن الإيمان بهما يجمع كل إيمان.

واختار في الرد عليهم الجملة الاسمية المنفية ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ ليدل بها على استقرار هذا النفي وثباته ، ولا بد للأسلوب أن يكون جامعًا لعديد من فنون التعبير ؛ لينتقل بالسامع من فن إلى فن طردًا للسأم وتنشيطًا للذهن ، وما دامت سائر التعابير تدور حول المعنى الواحد فجميعها أسلوب جميل ، ذلك أن الانتقال من الإنشاء إلى الخبر ومن الاستفهام إلى النفي أو الإثبات مثلًا ، يثبت الأفكار ويوقظ المشاعر ويحمل النفس على الاطمئنان إلى المعاني.

ومن قديم وعلم البيان في البلاغة يعرف بأنه : العلم الذي يعرف طريقة إيراد المعنى الواحد المدلول عليه ، بكلام مطابق لمقتضى الحال ، بطرق مختلفة في وضوح

الدلالة على ذلك المعنى، فهو علم يدور حول المعنى الواحد المؤدى بتعابير مختلفة غير مترادفة، ومن المعلوم أن البيان هو قمة البلاغة وسيد الأسلوب، وما أجمل الرسالة الدعوية التي تشتمل على التشبيه أو المجاز أو الاستعارة؛ لأن كل ذلك يقرب المعنى ويؤدي إلى تحقيق المطلوب.

ولا بد للأسلوب أن يتنوع بتنوع المقامات، وأن يلاحظ أحوال السامعين؛ لأن مقام التهديد غير مقام التحميس، وإظهار الألم غير إظهار الفرح، والحديث إلى العالم يغاير الحديث مع العامي، ودعوة الأمير تختلف اختلافًا كليًّا عن دعوة الصغير، ويضرب الغزال مثالًا بالخليل # ، حينما حاج خصمه الذي قال له: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فلما رأى أن ذلك لا يناسبه وليس حسنًا عنده، حينما رد عليه قائلًا: ﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] عند ذلك عدل إبراهيم # إلى الأوفق لطبعه والأقرب إلى فهمه.

فقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فكانت النتيجة: فبهت الذي كفر، ولم يركب الخليل ظهر اللجاج في تحقيق عجزه عن إحياء الموتى، إذ علم أن ذلك لا يلائم قريحة الخصم، ولا يناسب حده في البصيرة ودرجته في الفهم والحوار.

وهكذا نجد الإمام الغزالي يدعو إلى تنوع المقامات وتعدد الأدلة؛ ليصل إلى إقناع المستمع واستمالته، ومن المعروف البدهي أن الإمداد بالموفق منتج ومفيد، والإمداد بغيره كلا إمداد في الحقيقة، وقد احتوت كل أساليب الدعوة القرآنية على هذا الوضوح.

كما نقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧ ﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ

﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ١٧] وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾، والتيسير هو تسهيل القراءة والفهم والإدراك.

وعلى الداعية أن يستمد تكوينه من هذا الوضوح ؛ لأنه بدوره عنوان الدعوة ورمز حركتها، فإذا لم يكن هكذا فقدت الدعوة هذه البصيرة التي هي أهم شروط إبلاغها، ونلحظ وضوح الأساليب ومنهجيتها في الخطاب بتركيزها على إبراز القضايا التالية:

القضية الأولى: تخاطب الدعاة وتبين أهم صفاتهم، وترشدهم إلى طرق التأثير والإقناع.

والقضية الثانية: تعرف بموضوع الدعوة وتدل على صدق الإسلام بكافة عناصره.

والقضية الثالثة: توضح الخصائص النفسية والحركية للمدعوين مع بيان الأسلوب الأمثل لمخاطبتهم.

والقضية الرابعة: تملك الأساليب والجوانب الفنية المؤثرة في الناس.

وبمجموع هذه القضايا يتكامل الوضوح ويتم في أساليب القرآن الكريم.

هذا وينبغي أن يراعى في الأسلوب ملازمة الحسن والدقة، فهذه الأساليب المتنوعة الكثيرة لا تخرج في توضيحها وبيانها عن واحد من الحقائق الثلاثة، التي لا بد أن يتضمن الأسلوب واحدًا منها أو أكثر، والتي يجب أن يتمكن الداعية منها لتبليغ دعوته، والتي تعد ركائز الأساليب القرآنية.

وهي الحقائق البيانية التي أمر الله ﷻ بها في قوله ﷻ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]،

فالأساليب القرآنية كلها إما أن تكون تتضمن حكمة أو موعظة حسنة، أو مجادلة بالتي هي أحسن، وقد تحتوي على أكثر من واحد منها، لكنه لا يخلو أبدًا عن واحد منها، لكن ما معنى كل واحدة منها؟

إن لكل واحدة من هذه الثلاثة معنى خاص، فالحكمة وصف للأسلوب، تعني تضمن الأسلوب دقة وإيجازًا في الدلالة على المعاني التي يقصدها. يذكر ابن كثير في تفسيره أقوالًا كثيرة في معنى الحكمة، ويسندها إلى أصحابها، فهي تفسير القرآن عند ابن عباس، وهي الإصابة في القول والعلم والفقه والقرآن عند مجاهد، وهي الفهم عند النخعي، وهي العقل عند زيد بن أسلم، وقال مالك: "إنه ليقع في قلبي أن الحكمة هي الفقه في دين الله، وأمر الله في القلوب من رحمته وفضله".

وجملة الآراء تدل أن الحكمة هي الدقة في اللفظ والمعنى، والدقة على ما تدل عليه والدقة في الفهم المستفاد منها، ويذكر الرازي أن الحكمة في القرآن تأتي على أربعة أوجه:

أحدها: مواعظ القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وثانيها: الفهم والعلم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [لقمان: ١٢].

وثالثها: النبوة، يقول الله تعالى: ﴿ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [النساء: ٥٤] أي: النبوة.

ورابعها: القرآن بما فيه من عجائب الأسرار، يقول الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وكل هذه معان متقاربة؛ لأن الحكمة مشتقة من الإحكام وهو الإتقان، ومرجعها إلى العلم الدقيق، يقول ﷺ فيما رواه عنه ابن مسعود < : ((لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها))، فالحكمة هي العلم الدقيق.

يقول العيني: "الحكمة تدل على علم دقيق محكم، وتعليمها كمال علمي والقضاء بها كمال عملي".

فإذا ما حدث بعد ذلك أن عرفت الحكمة بالإصابة أو بالعقل أو بالفهم، أو بالفقه أو بالنبوة أو بالقرآن، فهي كلها أوصاف متقاربة تشتمل الحكمة عليها، وتحتويها بكمالها العلمي والعملي، حيث دقة المعنى ودقة الفهم المؤدي إلى العمل السديد.

ومن سائر الأقوال يمكننا أن نقول: إن الحكمة كوصف لأساليب الدعوة هي اللفظ المتقن الدقيق الواضح الدلالة، وإن اختلفت صورها ودارت بين التفسير والفقه والفهم وغيرها، وهي تفيد اليقين ودلالتها على المعنى دلالة قطعية، حتى لو كان ثبوت اللفظ ظنيًّا. وحينما يقول الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾، فإن معناها إذًا كما يقول أبو السعود: ادع إلى دين الله بالمقالة المتقنة الدقيقة الصحيحة، وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، المتجه إلى الفكر مباشرة من غير إثارة الوجدان وتهييج الانفعال.

ومن الحكمة إلى الموعظة الحسنة، والموعظة الحسنة: توجيهات لفظية تفيد القرب النفسي بين الداعي والمدعو، بما تشمله من إثارة الانفعال وإيقاظ الشعور، مع وضوح أن الداعي يقصد النصح للمدعو ويخاف عليه، جاء في (مختار

الصحاح): أن الوعظ هو النصح والتذكير بالعواقب يقال: السعيد من اتعظ بغيره، والشقي من اتعظ به غيره.

وفي (المصباح المنير): أن الوعظ هو الوصية والأمر، والموعظة اسم منها، وكل اشتقاق مادة الوعظ في القرآن تدور حول النصح والأمر والتذكير والزجر. جاء في تفسير النفسي عند قول الله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣] أن المعنى: فأعرض عن قبول الأعذار وعظ بالزجر والإنكار، وبالغ في وعظهم بالتخويف والإنذار.

وهذا يشير إلى أن الموعظة الحسنة هي مجموعة العبر النافعة والخطابات المقنعة، والإرشادات المخوفة على وجه لا يخفى على المدعوين، أن الداعي ينصحهم بها ويناصحهم، ويقصد بتوجيهها إليهم ما ينفعهم، وهي في كل أشكالها أمارات ظنية ودلائل إقناعية، بخلاف الحكمة فإنها محكمة قطعية في مقدماتها ونتائجها ثم ماذا؟

والمجادلة بالحسنى: أدلة كلامية يوردها الداعي ليلزم الخصم ويفحمه، ويجعله يؤمن بما يدعا إليه، والجدل هو الحوار والمناقشة، ذلك أن الداعي قد يصادف معارضًا يجادله، أو سائلًا يستفتيه ويحاوره.

وقد اتصفت المجادلة بالحسنى إبعادًا لها عن مفهوم المجادلة الاصطلاحية، عند علماء البحث والمناظرة؛ لأنهم يرون أن المجادلة الاصطلاحية تكون لإلزام الخصم، وليست لإظهار الصواب، ذلك أن حملة الدعوة يقصدون إظهار الصواب دائمًا والوقوف على الحق باستمرار، وإقناع الخصم بالحسنى. يقول صاحب (مختار الصحاح): "جادل مجادلة جدالًا إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق، ووضوح الصواب هذا أصله، ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها، وهو محمود حسن إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم".

ويقول الرازي : "الجدل المذموم محمول على الجدل في تقرير الباطل، وطلب المال والجاه، والجدل الممدوح محمول على الجدل في تقرير الحق ودعوة الخلق إلى سبيل الله، والذب عن دين الله تعالى". وقد قيد الله الجدل والموعظة بالحسن؛ لأن الغاية منها الوصول للحق، فلو بعد أحدهما عن هذه الغاية لا يكون حسنًا إذًا.

والفرق بين المجادلة والموعظة المتصفين بالحسن، أن المجادلة منازعة بين طرفين متعارضين، والخصم فيها ليس صامتًا، وإنما يناقش ويرد بما رسخ في نفسه من أوهام وشبه، بخلاف الموعظة فإن المدعو بها يستمع إليها ويستثار بها، وينفعل معها بلا منازعة كلامية، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يدعو الناس بالحكمة والموعظة والمجادلة بالحسنى؛ لتعم الفائدة سائر الخلائق المختلفين مكانًا وزمانًا وفكرًا.

وطبيعة ذلك أنهم مع اختلافهم يمكن حصرهم في طوائف ثلاثة متباينة:

فالطائفة الأولى: منهم أصحاب نفوس مشرقة قوية الاستعداد لإدراك المعاني، قوية الانجذاب نحو المبادئ العالية، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه، وهؤلاء يُدعون بالحكمة.

والطائفة الثانية: عوام نفوس كدرة ضعيفة الاستعداد شديدة الإلف بالمحسوسات، قوية التعلق بالرسوم والعادات، قاصرة عن درجة البرهان لكن لا عناد عندهم، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة.

والطائفة الثالثة: معاندة مجادلة بالباطل تقصد دحض الحق؛ لما غلب عليها من تقليد الأسلاف، ورسخ فيها من العقائد الباطلة، وهؤلاء يدعون بالمجادلة الحسنى أو بالتي هي أحسن.

وتقسيم الناس إلى طوائف ثلاثة حسب طبائعهم على النحو السابق، تقسيم لطيف بيِّن؛ لأن من الناس من يريد التعمق ويكره السطحية، ولا يهدأ له بال إلا باليقين الحقيقي القائم على الفكر والتدوير.

ومنهم من يستهويه موضوع مثير، وفطرة طيبة فيقف أمام اللفظة الجميلة والمثل النادر، والقصة الشيقة والتكرار المؤكد، ويتألم لمنظر بائس ورؤية مسكين، ومنهم من يهوى الحوار ويعشقه، وينازع ويجادل لكن ليس معنى هذا التقسيم أن كل طائفة تغاير الأخرى تمامًا؛ إذ من الناس من يجمع في طبعه أكثر هذه الصفات.

يقول ابن رشد: "والناس على ثلاثة أصناف: صنف ليس هو من أهل التأويل، وهم الخطابيون الذي هم الجمهور الغالب، وذلك أنه ليس يوجد أحد سليم العقل، يعرى من هذا النوع من التصديق، وصنف هو من أهل التأويل اليقيني، وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة". ومراد ابن رشد بالخطابيين الذين يتأثرون بالموعظة والخطابة.

ومراده بالبرهانيين الحكماء الذين يفهمون بالإشارة ويرضون بالدليل والبرهان، هذا وقد ارتضى الرازي في تفسيره هذا التقسيم، وذكر أن البشر بالنسبة لكمال الطبع طرفان ووسط، فالطائفة الأولى التي تتجه إليها الحكمة هي طرف الكمال، والطائفة الثالثة المجادلة هي طرف النقصان، وتتجه إليها المجادلة.

والطائفة الثانية صاحبة الموعظة هي الواسطة، وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حد الحكماء المحققين، كما لم يبلغوا في النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصيلة والسلامة الخلقية، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة.

يقول الرازي: "إن معنى قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥] أي: ادع الأقوياء الكاملين إلى الدين بالحكمة، وهي البراهين القطعية اليقينية، وعوام الخلق بالموعظة الحسنة وهي الدلائل اليقينية الإقناعية، والتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل، محافظة على روح الإسلام وسماحته".

وينبغي أن يكون معلومًا أن الأساليب سواء كانت من الحكمة أو من الموعظة أو من المجادلة، فهي معصومة من الهوى وقطعية الدلالة؛ لورودها في القرآن المتواتر المحكم المحفوظ في الصدور والصحف، حيث لا يشتمل القرآن إلا على الحق والصواب، وجميع قضاياه ومسائله صادقة ومقطوع بصحتها.

يقول الله تعالى مبينًا هذه الخصائص عن كتابه الكريم: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ ﴾ [هود: ١]، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ [الحجر: ٩]، فترى هذه الآيات تخبر عن بعض خصائص القرآن جملة، وهي في الوقت نفسه أساليبه، فتذكر أن القرآن أُحكم لفظه؛ حتى لا يختلط بغيره ثم فصل ليستمر واضحًا بينًا.

ثم هو كذلك مصان لا يعتريه تغيير ولا تبديل، ومن دلائل حفظه تواتره الثابت ومنع الشياطين من استراق السمع بعد نزوله؛ لأنهم كانوا يزيدون على الكلمة التي يسترقونها مائة كذبة أو أكثر، وقد ثبت أن الدليل المنقول المتواتر الذي لا يحتمل التأويل قطعي الدلالة في موضعه، والوسائل القرآنية متعاونة جميعًا في إثبات هدف واحد، ودعوة واحدة، وكلها ثابتة في القرآن منقولة إلينا بالتواتر وبعضها قطعي الدلالة عقلًا.

مما يؤكد أن جميع الوسائل معصومة وقطعية بتعاضدها، هذا والأساليب لا بد وأن تكون لجميع المكلفين، فتدور جميع الأساليب مع الطاقة البشرية ولا تتخطاها، فرغم أنها منزلة بالوحي إلا أنها تعايش النفس الإنسانية، وتلمس الفكر البشري وكأنها خرجت من الناس.

وهذا أمر يتفق مع طبيعة الدعوة؛ لأن الذي أوجدها للناس هو الله ﷻ، العليم بكل جزئيات من خلقه، سواء أكانت واضحة أم خفية. يقول الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طه: ٧]، فكل مخلوق معلوم لخالقه وموحده. يقول ﷻ: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤] بلى يعلم.

فكان من قدرته ﷻ أن بلّغ الناس على قدر طاقته، وناقشهم بمستوى فكرهم، ولمس بأساليب قرآنه معاشهم وغرائزهم وعواطفهم، ولذلك ملكت الأساليب تأثيرها في المدعوين، فحققت الغرض وبلغت دعوة الله للناس، كما تضع الأساليب لنفسها أوليات من حيث الأهمية والقيمة، فتقدم الأهم على المهم والأصل على الفرع، ولا تنتقل إلى فرع إلا بعد إثبات أصله.

ولذلك نراها تنادي بادئ ذي بدء بالدعوة إلى الإيمان بالله، والتصديق بالرسول ﷺ وتؤكد ذلك بأدلة مباشرة سهلة، في ثنايا الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وتأتي سهولتها من دورانها حول الإنسان، حيث تبين العناية به والاختراع الحسن من حوله، يقول ابن رشد: "إذا استقرئ الكتاب العزيز وجدت أدلته تنحصر في جانبين:

أحدهما: طريق الوقوف على العناية بالإنسان، وخلق جميع الموجودات من أجله وهو دليل العناية والغاية.

والثاني: ما يظهر من اختراع جواهر الموجودات، مثل اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية والعقل في الإنسان، وهو دليل الاختراع والدقة. وأساليب الدعوة تدور حول قضايا الدعوة كلها، مع التركيز على ما له أهمية وضرورة؛ ولذلك تركز الأساليب على الإيمان بالله والتصديق بالرسول ﷺ؛ لأنهما أساس العقيدة كلها، وكل ما بعدهما تبع لهما فهما كالأصل والباقي كالفرع؛ لأن الإيمان بالله يقتضي التصديق بكل تعاليمه.

والتصديق بالرسول ﷺ يستلزم الإيمان بحامل الوحي، الواسطة بين الله والرسول وهو جبريل # الذي ينزل بالوحي كله؛ لإيصال الإسلام وتعاليمه للناس، والإيمان بوجود جبريل # ووظيفته يستتبع الإيمان بسائر الملائكة، وبنزول الكتب الإلهية.

على أنه يجب أن يلاحظ أن الأساليب، وهي تراعي نوعية المخاطبين، تطنب في جزئية ما دون أخرى، وتقدم أسلوبًا على أسلوب آخر، وهكذا إلا أنها لا تغفل أبدًا عما اشتركت فيه، وتراعي الأساليب خاصية هامة، وهي أنها تجزئ أهدافها؛ حتى يسهل على المدعو قبولها، وتكرر الموضوع الواحد حتى تصنع التأثير المطلوب.

وتتميز الأساليب القرآنية بالإعجاز ميزة القرآن كله، ويظهر إعجازها في ألفاظها ومعانيها، ومدى تفهمها لأعماق النفس الإنسانية، ويجب أن نلاحظ أن هذه الأساليب لإبلاغ الدعوة ولتحقيق هدفها، إذ لا فرق بين الدعوة ومقاصدها، فهما معًا دعوة تظهر بحقيقتها وتنتشر بفوائدها، وما جاءت الدعوة إلا مقرونة بهذه المقاصد.

وأيضًا يجب أن يلاحظ أن الله سجل هذه الأساليب في القرآن الكريم، لتبقى بفاعليتها إلى الأبد، ويلاحظ كذلك أن هذه الأساليب مع تسجيلها بلغة العرب، إلا أن معناها ومدلولاتها عامة لغير العرب، والدعاة القادرون في مكاناتهم أن يصنعوا من غير اللغة العربية مثل هذه الأساليب، تحمل المعاني الإسلامية، وما نزلت الدعوة بلغة العرب وفيهم إلا لكي تصل إلى كل الناس، والسر في اختيار الأمة العربية للدعوة معلوم.

ومن مزايا الأساليب القرآنية: ملاحظة المناسبات الاجتماعية، التي يعيشها الناس لتأتلف معهم، ويقبلوا عليها فهي في آيات القتال تتحدث عن الأنفال والغنائم والأسرى، وفي آيات الزواج تتحدث عن المودة والألفة، وضرورة المعروف، وعن الحديث عن أهل الكتاب تتحدث عن الإنجيل والتوراة والمسيح ومريم - عليهما السلام- .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل القرآن الكريم متناسبًا في آيه وسوره، ومناسبًا لواقع الناس ومصالحهم، فخلد بذلك مع الزمان، واستقر في النفوس والعقول، ولقد كان الإنسان العربي يستمع إليه فيأخذه بيانه الساحر، وتناسبه العجيب ويناديه آمرًا أو ناهيًا، فلا يسعه بسبب ما فيه من دقة إلا أن يستجيب.

ولقد وصفه الوليد بن المغيرة، فقال: "إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وما هو من كلام البشر". والوليد هذا من العرب الخُلّص الذين تميزوا بالحكمة وبرعوا في الفهم، فكان قوله هذا دليلًا على ما في القرآن من مزايا، وما فيه من تناسب.

لذا نطابق الصواب ونستفيد من حكمة الأساليب القرآنية، حين نلزم الداعية بأن يتناسب أسلوبه مع الناس، ولعل أوضح التناسب أن يعيش مناسباتهم على

اختلافها، والمناسبات كثيرة منها الوطنية والقومية والشخصية والدينية، ولكل مناسبة وقتها، وصورة الاهتمام بها، والداعية الموفق يختار لكل مناسبة ما يوافقها.

إن خطبة العيد تغاير خطبة الجمعة شكلًا وموضوعًا، وخطبة التهنئة تختلف عن خطبة العزاء صياغة وتأثيرًا، وواجب على الداعية أن يحيط بسائر المناسبات؛ حتى يعيش في واقع الناس وفكرهم بهذه الإحاطة، ولو بصورة عامة. يقول ابن رشد: "من الضرورة أن يقف الداعية على ما يحتاج أن يشير به في واحد من هذه الأشياء، وليس يحتاج عند الإشارة بالزيادة في النبات أن يكون فلاحًا، ولا في الحيوان أن يكون راعيًا، لكن يكفيه في ذلك معرفته بمقدار الحاجة إليها، ولكنه يحتاج مع هذا أن يكون عالمًا بالسير المتقدمة في هذه الأشياء وما عند الناس فيها". إن الجمهور حينما يجدوا قولًا يتصل بيومه ويرتبط بحياته ينتبه إليه، وإن فاته منه شيء سأل عنه إشباعًا لنفسه التي أثارها هذا المقال، وليس معنى هذا مراعاة الداعية لمناسبات الجمهور، أن لا يوجه لهم أمرًا جديدًا، ولا يأمرهم ولا ينهاهم أبدًا، وإنما الذي نقصده أن يعيش الداعية مع الناس في مناسباتهم، ويحول الأمر ببراعته إلى ما يريد، ولا يكون بعيدًا عن الناس فيتنافر وينعزل.

ولقد كانت خطابة النبي ﷺ مثالًا لهذا التناسب، الذي نتمناه حين يصفها الرافعي فيقول: "إن خرجت قلت أنين من فؤاد مقروح، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح، في منزع يلين فينفر بالدموع، ويشتد فينزو بالدماء". ولا غرابة في هذا؛ لأن النبي ﷺ صناعة إلهية من أجل الناس، وقد أدبه الله تعالى فأحسن التأديب.

ونحن لا نطالب الداعية أن يكون على هذا المستوى المعجز، ولكن نطالبه أن يسير على الدرب المرسوم، خاصة بعد أن علم الطريق وفهم عوامل الجذب والتأثير؛ ولذا نطالبه بضرورة مراعاة المناسبة والتوافق بين المقال والناس.

إن القرآن الكريم كله أسلوب للدعوة، أحصى كل شيء ونوّع خطابه وصيغه ليناسب كل أمر، تحدث عن الأديان والمذاهب وعن العرب والعجم وعن الرجل والمرأة، والصغير والكبير وعن الإنسان والحيوان والزرع والحجر، وعن البحر والنهر والسماء والأرض، تحدث عن كل شيء بأسلوبه الميسر وتراكيبه المعجزة.

وإذا أتقن الدعاة حفظ القرآن الكريم وفهم معانيه، وتعودوا الاستفادة من أساليبه، فإنهم يستطيعون بفضل الله تعالى أن يخدموا الإسلام خدمة عظيمة، وأن يتمكنوا من توصيله للناس وتبليغه للعالمين.

تقسيم آخر لوسائل الدعوة

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول : وسائل المواجهة المباشرة ٧٧
العنـــصر الثـــاني : الوسائل السمعية والمكتوبة والمرئية ٩١

وسائل المواجهة المباشرة

فالكلام الآن عن الوسائل - إن شاء الله تعالى- في تقسيم آخر، كما فعل الدكتور أحمد غلوش في كتابه (الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها وأساليبها في القرآن الكريم).

فقال - حفظه الله- : "وسائل المواجهة المباشرة: المواجهة المباشرة وسيلة من وسائل الاتصال ذات الأثر الكبير؛ لأنها توضح رد فعل المستمع مباشرة، وتمكن المستمع من محاورة محدثه، ولذلك عدت من الوسائل الدعوية الناجحة، ووسائل المواجهة تعتمد على بعض القوالب الفنية، التي يتم خلالها نقل الرسالة الدعوية في إطار أسلوب بياني دقيق، يوضح المعنى المراد". وأهم القوالب المباشرة ما يلي:

أولًا- المحادثة البسيطة: فالإنسان مدني بطبعه لا يعيش وحده أبدًا، ولا يستغني عن غيره، ولا بد لكل فرد أن يستعين بغيره ويتعامل معه في أحد جوانب حياته، وقد علم الله الإنسان الأسماء كلها ورزقه النطق والتعبير، يتفاهم بهما مع غيره ويلتقي الجميع بهذه المباشرة سويًّا، بواسطة ما عرفوا من لغة وحديث، وما يجري بين الناس من كلام يعرف بالمحادثة، التي ينال بها كل ما يريد، ويتحدث فيما يرغب، واشتقاق المحادثة يدل على اشتراك أكثر من طرف فيها، والدعاة أفراد يعيشون مع غيرهم.

وقد أوجب الله مسئولية تبليغ الدعوة على الناس، وبخاصة إلى أقربائهم ومعارفهم، ومن هنا كانت المحادثة في صورتها الفنية والتنظيمية وسيلة للدعوة، وتتميز هذه الوسيلة بأنها توجد بين الناس بطريقة تلقائية، والكل معترف بها

ويتعامل معها، إلا أن هذه الوسيلة تحتاج إلى حكمة الدعاة وإخلاصهم، ولا بد لهم معها من التخطيط والتنسيق والاستعداد، ومن أمثلة ذلك أن الأفراد يتأثرون بالأحداث اليومية ويكثرون الحديث والنقاش حول هذه الأحداث، كحديثهم عن الانتخابات في وقتها وعن الصيام في شهر رمضان وهكذا.

وهذا الحال يقتضي أن يخطط الدعاة للاستفادة من الحديث المثار، وتوجيهه الوجهة الدينية والاستفادة من الحدث مما يفيد الحركة بالدعوة، وحين يشعر المسلم بمسئوليته مع الدعوة فإن هذه الوسيلة تمكن العامل من نصح زميله، والجار من مساعدة جاره والطالب من التأثير في رفيقه وهكذا، والمحادثة وسيلة سهلة للدعوة بين الزوج وزوجته وبين الوالد وولده، وبين الأخ وأخيه وبين الجيران ورفاق المسجد والعمل والطريق، والاستفادة بالمحادثة في الدعوة أمر سهل شريطة أن يهتم بها الدعاة وكل مسلم يعمل لدينه.

ثانيًا- المناقشة: تختلف المناقشة عن المحادثة في أن المناقشة تحدث بعد إعداد وتهيئة، وتعتمد على موضوع محدد للمناقشة، وقد وضع العلماء للمناقشة أصولًا لا بد منها، فقد حددوا لها عددًا لا يزيد عن عشرين فردًا، يجتمعون في مكان معين أعد لها، على هيئة خاصة تسمح للجميع أن يسمع بعضهم بعضًا ويرى بعضهم بعضًا.

ويشترط العلماء أن يكون للمناقشة منظم وملاحظ، على أن تتم المناقشة في موضوع واحد يهتم به المتناقشون، ووظيفة المنظم مساعدة الأعضاء ليدلوا بآرائهم، ويبعدهم عن الخجل والثرثرة والغوغائية، ووظيفة الملاحظ تسجيل كل ما يدور بين المجتمعين؛ ليبقى درسًا وعبرة ومرجعًا يستفاد به.

والمناقشة تفيد المتناقشين أنفسهم أولًا ؛ لأنها تحترم آراءهم وخواطرهم وتفيد الجماعة أيضًا ؛ لأن تحديد موضوع المناقشة يجب أن يكون في مسألة تهم الناس للوصول إلى قرار صحيح ، يفيد المجتمع كله ، والداعية المخلص يستفيد بهذه الوسيلة الهامة في مناقشة أمور دينية ، يختار لها رجالًا يفهمون ويعملون.

ومن أمثلة موضوعات المناقشة : الإقبال على صلاة الجماعة ، حفظ سور من القرآن ، الاهتمام بالتنشئة الإسلامية ، المحافظة على الروح الإسلامية بين الناس وهكذا.

إن مناقشة هذه القضايا وسط جماعة مؤمنة يحدد المشكلة ، ويضع الحل وينشط المشاركين في العمل ، لتنفيذ المقترحات التي رأوها واتخذوا قرارًا محددًا معها.

ويذهب البعض إلى أن المناقشة فن علمي ظهر حديثًا ، إلا أننا نراه قديمًا ظهر مع العلماء المسلمين الأول ، فلقد كان أئمة المذاهب الفقهية يلتقون بتلاميذهم ، ويتناقشون في المسائل الفقهية للوصول للحكم الراجح.

وقد سجلت كتب الفقه هذه المناقشات ، الأمر الذي يدل على قدم هذا الفن ، والداعية هو منظم حلقة المناقشة ، وهو الذي يختار موضوعها ، وعليه أن يستعد لها بما عنده من علم بالقرآن الكريم والسنة النبوية ، وآثار سلف الأمة ؛ ليفيد الدعوة والمدعوين.

وقد اشترط العلماء لنجاح المناقشة وجود منظم وملاحظ مع الجماعة ؛ لأن المنظم هو قائد مجموعة المناقشة وهو الداعية ، ويجب أن يكون مخلصًا للفكرة محبوبًا للجميع ، واسع الأفق ، ودوره هو استخلاص الرأي من المجموعة. والملاحظ هو الذي يسجل كل ما دار في المناقشة من أجل تقييمها بعد ذلك ، والجماعة هي التي تقوم بالمناقشة ، ويجب عليهم أن يعدوا للموضوع وأن يهتموا به وأن يدرسوه دراسة مفيدة ومقنعة.

والمناقشة ليست هي المناظرة ؛ لأن المناقشة في هدف واحد واتجاه نحو نسبة واحدة، وتكون تعاونًا بين أشخاص عديدين، بينما المناظرة هي توجه المتخاصمين إلى موضوع واحد بهدف مغاير لكل منهما، حيث إن كلًّا من المتخاصمين يريد إثبات عكس ما يريده الآخر، وتفيد المناقشة في تبادل الآراء وفهم الآخرين وإرضاء المعارضين، وزيادة المعلومات وتحقيق الكرامة لكل فرد، وتعبر عن كل خواطر الوجدانية وتحل المشاكل بصورة ملزمة للجماعة ؛ لأنها هي التي اتخذت القرار.

وأيضًا فهي توسع دائرة الشورى بين المتنافسين، وتعلم الجماعة ضرورة الشورى، والمنظم الداعية قائد لا يتطرف ولا يفرض رأيه، ويساعد الملاحظ الأعضاء على القيام بدورهم، فإذا ما وجد عضوًا خجولًا جذبه إلى المناقشة، بالأمثلة التي تحتاج إلى إجابة طويلة، وإذا وجد عضوًا ثرثارًا يسمح له بقدر معين من الوقت، وعليه أن يتصرف مع المشاغب والشكلي والمهرج والمتحمس، بما يضمن للمناقشة الجماعية المفيدة، التي يسبقها التفكير في الموضوع المعين، والاستعانة بالمعلومات من مصادرها الأصيلة - النجاح والتوفيق.

ثالثًا: الخطبة ؛ الخطبة فن قولي يحمل الدعوة إلى الناس وألوانها عديدة، وصورها متنوعة، ووسائل التبليغ كثيرة، وقد أضفى عليها العصر الحديث وسائل أكثر، ووسط هذه الكثرة حافظت الخطابة على أهميتها القصوى في البلاغة، ولسوف يستمر لها هذا الدور إلى يوم أن يلقى الله جميع الناس. إن الإنسان يسيره وجدانه أكثر مما يسيره فكره، والفرد مع الآخرين ينسى خواصه الفكرية ومواهبه الأصيلة، ويندرج في وجدان الجماعة.

كما يقول لوبون: "وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة في الأمور التي مرجعها إلى الوجدان، كالدين والأدب والميل والنفور وهكذا إلا نادرًا".

وليس هناك من هو أجدر من الخطبة في استمالة الوجدان وتهييج الشعور، وتحقيق الانفعال المؤدي إلى الاندفاع والعمل، والفرد الذي يسيره العقل وحده لا تغفله الخطابة الدينية؛ لأنها قائمة على الحق بعيدة عن التغرير، تستعمل الأدلة البرهانية والأدلة الظنية، وغير ذلك من الأدلة حتى تصل إلى أعلى درجات اليقين.

إن ارتباط الخطابة بالعاطفة الدينية دافع إلى الاهتمام بها، وأيضًا فإن وجود الأمية وكثرة الأعمال وضيق الوقت دوافع رئيسية إلى ضرورة الخطابة؛ لأنها تخاطب الأمي على قدر طاقته، تقرب له البعيد وتذلل أمامه الصعب، وتوجز الزمن لمن لا يجده من أصحاب الأعمال، وتركز المعاني الكثيرة في كلمات قليلة، وتقدمها لمن تزحمه مشاغل الحياة.

ولأهمية الخطابة للدعوة كان لها الدور الرئيس في صدر الإسلام، حيث خطب النبي ﷺ في يوم الجهر بالدعوة، وكان يخطب في الوفود القادمة وفي الجيوش الذاهبة، وكان ﷺ يكلف القادر على الخطابة أن يقوم بواجبه تجاه إخوانه، وتجاه غيرهم، يدعوهم إلى الخير، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

وقد اصطلح العلماء على تسمية الخطابة الدينية بالوعظ، وتسمية القائمين بها بالوعاظ، وهذا تضييق لواسع؛ لأن الدين يشمل سائر جوانب الحياة، وكافة أمور الآخرة، وكل ما تتخيل الخطب فيه من تجارة وزراعة وصناعة وسياسة وتعليم وحرب، هو من أساسيات الدين ولوازمه، وبذلك يقصد بالخطابة الدينية الخطابة في الأمور كلها.

صحيح أن الدعاة إلى الله اليوم هم الأئمة والوعاظ، الذين يباشرون بخطبهم جانبًا من الدين، يكاد ينحصر في باب الأخلاقيات، وفي تعليم بعض أصول العبادات والتشريعات، وابتعدوا عن أنواع كثيرة من الخطب، كالخطب القضائية والسياسية والعسكرية، وتركوها للمحامين والزعماء والعسكريين.

وقد يكون هذا سر قصر الخطبة الدينية على الوعظ، ووسيلة الخطابة في العالم الإسلامي، - وبخاصة الوعظية منها- من أهم وسائل الدعوة في العصر الحديث؛ لارتباطها بصلاة الجمعة حيث يحرص المسلمون على سماعها، ولو أتقن الدعاة رسائلهم الدعوية التي تحتويها الخطبة، لأمكنهم عرض الإسلام وتعليمه للناس؛ لأن العام الواحد يتكون من اثنتين وخمسين جمعة، فلو قدم الخطيب لمرتادي المسجد عددًا من الموضوعات المتقنة لقدم الكثير من المعارف.

ولو تصورنا الخطبة محاضرة علمية والمصلين يحيطون بها، فإننا نتصور جامعة راقية لتعليم المسلمين دينهم بوسيلة الخطابة. إن الخطبة تحتاج إلى إعداد جيد، يتم من خلاله تقسيم الخطبة إلى عناصر مترابطة في إطار موضوع متكامل.

وأهم مزايا الخطبة كوسيلة للدعوة أنها تأخذ صورة دينية واجبة، الأمر الذي يشير إلى أهمية إعدادها وتنسيقها، ويحتم على الداعي أن يستعد لإلقائها بعناية واهتمام، وتلزم الجمهور بالحضور للاستماع لها في يقظة وانتباه، وتتميز الخطبة بأنها وسيلة مباشرة تجعل الداعي والمدعوين خلالها في اتصال مباشر، وهذا يؤدي إلى اكتشاف أثر الدعوة على المدعوين.

رابعًا: المناظرة، المناظرة أسلوب علمي من أساليب الدعوة المباشرة، وصورتها أن يتخير الدعاة موضوعًا مثارًا بين الناس، اختلفت الآراء فيه وكثرت المناقشات حوله، وبعد ذلك يقوم الداعية باختيار عدد من العلماء المهتمين بالموضوع المثار،

شريطة أن يمثلوا جميع الاتجاهات حول الموضوع، ويقوم كل منهم بالإعداد لتوجهه على أن يحدد موعد ومكان اللقاء، ويدعى إليه الناس وكل من يهمه هذا الموضوع.

ومثال ذلك: عقد مناظرة في موضوع عمل المرأة بين الشريعة والقانون؛ لأن الآراء تنقسم في هذا الموضوع إلى ثلاثة آراء؛ رأي يمنع عمل المرأة مطلقًا، ورأي يبيحه مطلقًا، ورأي يبيحه بقيود يحددها الدين وتقاليد المجتمع، وتتم المناظرة بوجود مشرف عليها، يقوم أولًا بتعريف الموضوع، وبيان أهميته والتعريف بالمشتركين في المناظرة، وتوجه كل فريق منهم، وفي نهاية المناظرة يقوم المشرف بتلخيص ما دار في المناظرة وما انتهت إليه، وعلى كل طرف أن يوضح رأيه ويدلل على أحقيته، بما أعد من دليل وما جهز من براهين.

ومن فوائد المناظرة أنها تهتم بالتعمق العلمي والغوص في المسائل التخصصية، ورواد المناظرة هم المهتمون بموضوعها؛ ولذلك يتم الإعلان عن الموضوع قبل موعد المناظرة بمدة طويلة، والمناظرة وسيلة راقية للدعوة يمكن للدعاة بواسطتها معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية برفق ولين، وبخاصة أن كل إنسان يسمع ما يقوله كل واحد من المتحدثين، ويشاهد ما يوجه إليه من نقد ولوم.

ومن الممكن أن يحدد المستمع موقفه بعد المناظرة، وفي التاريخ الإسلامي عقدت مناظرات كثيرة بين الدعاة وبين معارضيهم من أهل الكتاب ومن غيرهم، والمناظرة تختلف عن المناقشة؛ لأن المناظرة تضم أطرافًا متعارضة كل له توجهه الذي يدافع عنه، ويرد ما عداه، أما المناقشة فهي عرض للآراء في علاج قضية ما، وكلهم في اتجاه واحد، وقد يحدث خلاف بين المتناقشين في الإجراءات لا في أصل الموضوع.

خامسًا: المحاضرة، المحاضرة حديث طويل يلقى مباشرة على المستمعين، والمحاضر يختار موضوعه مما يعرض له من مشاكل الحياة والناس، وهذا يجعله قريبًا من قلوب الناس محبوبًا لديهم، ويجب أن يكون الموضوع المختار مدروسًا دراسة وافية مستفيضة، بعد تحضير طويل وعميق، محللًا إلى عناصر بارزة وخطوات واضحة مرتبة ترتيبًا طبيعيًّا، ينتقل بالسامع من حلقة إلى حلقة ويفضي في النهاية إلى ختام يستحسنه المستمع، والذي يقوم بإلقاء المحاضرة هو الشخص الذي حضر الموضوع وجهزه.

وفي أحيان قليلة نادرة يقوم بإلقائها شخص آخر نيابة عن المحاضر، والمحاضرة عادة تكون من أهل التخصص الدقيق، ويصاحبها استعداد خاص كتجهيز مكان والإعلان المسبق عن موضوعها، وقد ذكر الأستاذ البهي الخولي تخطيطًا لمحاضرة في موضوع: مقومات الإنسان الفاضل، نوجزها هنا استفادة بها لأهميتها.

يقول الأستاذ البهي: "إن من السهل عليك أن تفترض في هذا الإنسان أن له رسالة في الحياة، ويعمل جاهدًا لتحقيقها وهو عزيز برسالته؛ لأن الإنسان الذي يعيش بلا غاية معينة ولا مبدأ معروف، يشبه السوائم المهملة، أما هذا فهو صاحب رسالة وهدف، وأخيرًا لا بد من إعداد لهذه المهمة وتلك الرسالة من العلم؛ ليكون من أمره على بصيرة وهدى، ومن لا علم له لا بصر له".

تقوم المحاضرة إذًا على بيان مقومات الشخصية الفاضلة، وهي العزة والرسالة والعلم، وتوضيح دور هذه المقومات في النشاط والحركة، فإذا وضح المحاضر ذلك تمتع السامع بالمحاضرة، ويمكن للمحاضر أن يقسم الدعائم الأساسية إلى عناصر فرعية، ويستحضر لكل عنصر ما يؤكده ويوضحه من كتاب الله، ومن سيرة رسوله ﷺ ومن سيرة صحابته الكرام، ومن حركات التاريخ وحوادث الزمان التي تسمع أو تقرأ أو تشاهد.

وعلى هذا فعناصر المحاضرة الرئيسة هي: أهمية العلم للإنسان فردًا وجماعة، ضرورة محافظة الإنسان على إنسانيته، دعائم الإنسانية الفاضلة، العزة والثقة، لا بد للإنسان من هدف وغاية، آثار الالتزام بدعائم العزة على صاحبها، وعلى المحاضر أن ينظر في الدعائم، فيحدد معناها وطرق تحقيقها والمحافظة عليها.

فمثلًا يجد أن العزة معناها أن لا يذل المرء لمخلوق مثله، ويجد أن الإسلام يغرس العزة في نفس المسلم؛ لأنه من ناحية ابتغاء المنافع والخوف على الأرزاق، قد علم أن رزقه في السماء، وما كان في السماء فهو مصون لا تتطاول إليه يد عابث في الأرض، ولا بد من الحملة على الرجل الذليل بمقارنته بالرجل العزيز، فنجد أن عناصر العزة هي تعريفها والعوامل التي تحافظ عليها، وفوائدها والأضرار التي يقع فيها من لا يتمسك بها.

وعلى ضوء عناصر هذه الدعامة تكون بقية الدعائم، وعلى نمطها يتمكن المحاضر من تقسيم موضوعه أيًّا كان إلى دعائم، ثم يقسم الدعائم إلى عناصر، ويجب أن يتحكم العقل في استنباط الدعائم وترتيب العناصر، وفي جمع الشواهد وفي سوق الحديث، ويجب أن تتحكم في كل ذلك العقلية العملية الواعية.

وعلى المحاضر أن يحذر من بيان تقسيم موضوعه في المقدمة، أو بيان حقيقة عناصره أو ينحو نحو التقسيمات الفلسفية، أو التعميق النظري، ففي الموضوع الذي حللناه لم يذكر كل شيء فيه، ومن السهل أن يحلل المحاضر موضوعه بوجه آخر، ولكل محاضر أن يأخذ الجوانب التي يراها مفيدة في موضوعه وفي مستمعيه.

وعلى ضوء ما ذكر نرى أن المحاضرة تشبه الخطبة، في أنها تقصد إقناع الناس، وأنها تعتمد التقسيم العقلي والعملي لموضوعها، وأنها تحتوي أقسامًا تشبه الأقسام التي تحتوي عليها الخطبة، كما أنها تتخذ موضوعات منوعة تجعلها تتنوع

إلى محاضرة سياسية واجتماعية ودينية، ومع ذلك فإننا نلحظ فروقًا بين الخطبة والمحاضرة نذكر أهمها فيما يلي:

الأول: موضوع المحاضرة أكثر سعة من موضوع الخطبة؛ لأن التقسيم يبدأ في المحاضرة أولًا بالمبادئ، ثم تقسم المبادئ إلى عناصر، بينما الخطبة تقسم إلى عناصر ابتداء، وعلى ذلك فالمحاضرة أقرب إلى البحث العلمي، والخطبة أقرب إلى الدرس الديني.

الثاني: يغلب على المحاضرة أسلوب تقرير الحقائق، وتثبيت المعاني والاعتماد على المنطق والتحليل والتوضيح، أما الخطبة فيغلب عليها صبغة إثارة العواطف والمشاعر، وتهييج الدوافع والانفعالات.

الثالث: عناصر المحاضرة أشبه بالقواعد والمبادئ الأساسية، أما عناصر الخطبة فأشبه بالخواطر العارضة والمعاني الطارئة.

الرابع: المحاضرة تستغرق وقتًا طويلًا، ومن الممكن تقسيمها على عدد من الأيام، أما الخطبة فوقتها قصير ولا تحتمل تقسيمًا؛ لأنها لا تصلح إلا لوقت واحد تلقى فيه.

الخامس: جمهور المحاضرة من الخاصة غالبًا، بينما جمهور الخطبة من سائر الطوائف.

ومع وجود هذه الفروق بين الخطبة والمحاضرة، فإننا نلحظ أن المحاضرة أقرب شبهًا بالخطبة من المناقشة، وعلى الخطيب الداعية أن يعقد بين الحين والآخر محاضرة في موضوع يختاره ويدعو إليه الناس؛ لكي يُلَوِّن في أسلوبه؛ لأن ذلك أجدى لدعوته وأكثر فائدة في مهمته.

السادس: الندوة، والندوة وسيلة للدعوة الإسلامية، وصورتها أن يجتمع عدد من العلماء والدعاة لمناقشة موضوع ما، على أن يقوم كل منهم بتوضيح جزئية من الموضوع، يكملها زملاؤه أمام جمهور يسمعهم ويتابعهم، وبهذا التصور يسمع الناس عددًا من آراء العلماء في موضوع واحد، يكمل بعضهم بعضًا، ويمكن للمستمعين أن يعلقوا على المتحدثين اعتراضًا أو اتفاقًا أو استفهامًا، وحينئذ تعرف المحادثة بأنها محادثة مفتوحة، واختلافها عن الخطبة والمحاضرة والمناقشة والمناظرة واضح؛ لأن الخطبة والمحاضرة يتكلم فيها فرد واحد والندوة تجمع عددًا.

وكذلك نراها تختلف عن المناقشة والمناظرة؛ لأن المناقشة عرض للآراء في موضوع ما، ومناقشتها للوصول إلى الرأي الأسلم، وأيضًا فإن المناظرة تجمع عددًا متعارضًا، كل يثبت رأيه وينقض ما عداه، أما الندوة فهي تعاون عدد من العلماء في إظهار قضية واحدة بلا تعارض بينهم، وكذلك فإن المناقشة يحضرها المناقشون وحدهم، أما الندوة فيحضرها جمهور كبير يسمع ويتابع، والدعاة يمكنهم مناقشة قضايا مجتمعهم خلال هذه الوسيلة، لما لها من تأثير في الناس؛ لأنها تجمع آراء العلماء في موضوع واحد، وهذا يساعد في إقناع الآخرين، والثقة فيما يسمعون لصدوره من عدد من العلماء.

السابع: الحديث، ويراد بالحديث في مجال وسائل الدعوة ما يقوم به الدعاة بعرض فكرة، أو تفسير آية أو شرح حديث، أو بيان حكم فقهي يحتاجه الناس، والحديث قليلة كلماته قصير وقته وهو مناسب للناس في عصر السرعة، والانشغال بالدنيا، ومن الآداب التي يحتاج إليها المتحدث ما يلي:

١- إخلاص نيته لله تعالى طلبًا لمرضاته ونيل ثوابه، وأن يكون غرضه من الحديث الوصول إلى الحق والصواب.

٢- أن يكون لينًا رفيقًا رقيقًا في كلماته، كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال ﷺ: ((إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه)).

٣- أن يستعمل من الأدلة أظهرها وأجلاها حجة وأعدلها مسلكًا، وأن يستعمل المبادئ المسلَّم بها، وأن يجتهد في كشف الشبه وتفنيدها بالطرق الصحيحة والبراهين العقلية، ليظهر الحق من الباطل والصواب من الخطأ.

٤- ألا يخلط الأصول بالفروع، ويقدم ما حقه التقديم ويؤخر ما حقه التأخير، وأن يعطي كل شيء حقه ومستحقه.

٥- التزام الأخلاق الفاضلة والآداب العالية، والأقوال المهذبة البعيدة كل البعد عن الطعن، أو السب أو الهمز أو اللمز أو الانتقاص والاحتقار، فالمؤمن ليس بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش المتفحش البذيء، وعلى رأس تلك الأخلاق أن يكون كلامه حسنًا ومنطقه جميلًا ومنطقه مهذبًا، فالكلام الطيب والقول الحسن يأسران النفس أسرًا.

الثامن: المؤتمرات والمجامع العلمية، يراد بالمؤتمرات العلمية اجتماع لفيف من العلماء المتخصصين في أحد فروع العلم، بصورة دورية أو عند الحاجة؛ لمناقشة موضوع متعدد الجوانب متنوع التوجهات، وعدد العلماء المشاركين في المؤتمرات والمجامع العلمية كثير، يصل إلى المئات في بعض الأحيان؛ ولذلك لا تكفيهم

جلسة واحدة كالمناظرة والمناقشة والندوة، ولا يمكن لمجموعهم أن يجتمع في مكان واحد.

ولذلك وضع العلماء للمؤتمرات والمجامع طريقة للاجتماع والمدارسة، وذلك بأن يقسم موضوع المؤتمر إلى عدة جوانب، على أن يقدم كل مشترك في المؤتمر بحثًا علميًّا، يلقيه في جانب يختاره، ويقسم المؤتمرون إلى لجان وفرق، كل فرقة تختص بدراسة جانب تتطلع على أبحاثه، وتناقشها وتقرر ما تراه إزاءها.

وتستمر هذه المناقشات عددًا من الأيام، تنتهي بلقاء موسع لإقرار ما انتهت إليه اللجان المختلفة، ويمكن للمؤتمرين إلقاء محاضرات موسعة عامة خلال أيام المؤتمر، لها صلة بالموضوع الرئيسي، وهذا اللون من نقل الأفكار قديم، فهناك مجامع الكنيسة ومؤتمراتها التي تمت في القرن الثالث الميلادي، وهناك المؤتمرات الإسلامية العديدة.

ومن المجامع ما هو ثابت معروف بأعضائه، كالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ومجمع البحوث الإسلامية بمصر، ومجمع الفقه بالمملكة العربية السعودية، والمجمع العلمي بالهند ومجامع اللغة العربية وهكذا، ومنها ما هو مؤقت، مثل المؤتمرات التي عقدت لدراسة موضوع ما، في السيرة أو السنة أو الدعوة أو الاقتصاد، ويمكن أن يشترك في المؤتمرات الإسلامية غير المسلمين لعرض آرائهم والاستماع لغيرهم.

وهذه المؤتمرات وسيلة ناجحة لوضع أفضل تصور في الموضوع المثار، إلا أنها تحتاج لمساندة كبيرة من الجمهور ومن القادة؛ لأن التوصيات في أغلبها تكون مثالية الغاية والهدف، وتتصور ما يجب أن يكون.

لقد عقدت الجامعة الإسلامية عدة مؤتمرات لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، ناقش المؤتمرون خلالها كافة المحاور المتعلقة بالدعوة والدعاة، ووضعوا توصياتهم المشتملة على تخطيط كامل لكل أركان الدعوة، وأودعوا توصياتهم في المؤسسات والجامعات الإسلامية ؛ للأخذ بها كل على قدر طاقته ووسعه.

والمجامع العلمية الموجودة في العالم الإسلامي لها أهميتها ؛ لأنها تعمل على جمع علماء الأمة لمناقشة موضوع يهم الأمة كلها، وترجع أهمية المجامع لصعوبة الإجماع الشرعي بعد اتساع البلاد، وتفرق العلماء في بلاد العالم كله ؛ ولذلك فهي تمثل إجماعًا جزئيًّا في حدود الممكن، وتهتم المجامع بالقضايا العامة ومن أمثلتها :

١- الحكم الشرعي للفوائد المترتبة على المعاملات المالية.

٢- تنظيم مطالع الهلال.

٣- الحلول المعاصرة لنقل أعضاء وأطفال الأنابيب وهكذا.

٤- تطوير الخطاب الديني.

٥- قضايا المرأة في المجتمع المعاصر.

٦- تقنين الشريعة الإسلامية.

٧- تيسير العلوم الإسلامية وهكذا.

إن الوسائل المباشرة يختلط فيها الأسلوب مع الوسيلة لظهورهما معًا في آن واحد ؛ ولذلك كان الفصل بينهما عملية منهجية بحتة توضيحًا للفهم، وبيانًا للجوانب العملية في أركان الدعوة إلى الله تعالى، وأعيد هنا إن هذه الوسائل تكون وسيلة حين ننظر إليها من ناحية شكلها الفني، وصورتها الحركية، أما إذا تأملناها من ناحية الكلمات والخطاب فهي أساليب الدعوة.

الوســـائل الـــسمعية والمكتوبـــة والمرئيـــة

ومن الوسائل المباشرة إلى الوسائل السمعية، يراد بهذه الوسائل ما تصل بواسطته الرسالة الدعوية إلى سمع المدعو، مع عينه وجوارحه الأخرى، وهي كثيرة العدد متنوعة الصور ومنها:

أولًا: المذياع، والمذياع هو ناقل الصوت عبر الأثير، ويقوم بإعداد الرسالة المذاعة هيئات ومؤسسات ضخمة، لها ميزانيات كبيرة ولذلك نرى جهدًا علميًّا وأثرًا واضحًا في كل ما يذاع، ويصل إلى المستمعين. إن المسئولين عن الإرسال الإذاعي يعملون على إرضاء المستمعين، وإشباع حاجاتهم الفكرية والثقافية.

ولذا نرى تعدد البرامج المرسلة وتنوعها، ودقة توجهها إلى عقل ونفس الإنسان. إننا من خلال المذياع نسمع الرأي والتحليل والفكرة والتعليق والحدث والدوافع، ونسمع الكلمة والقصة والتمثيلية والحديث والأخبار وغير ذلك، والمسئولون عن الإرسال الإذاعي يعتمدون على مندوبين ومراسلين، ووكالات الأنباء في جهات العالم المختلفة؛ لمعرفة الأحداث والأخبار فور وقوعها، ولاكتشاف اتجاهات الرأي العام ورغبات الجمهور.

كما يقومون بعد كل فترة بأخذ الآراء لاستبيان توجهات المستمعين، من أجل الاستمرار في البرامج المفيدة، وتعديل ما يحتاج إلى تعديل واستحداث برامج أخرى وهكذا، والإذاعة وسيلة حسنة للدعوة الإسلامية لما يلي:

١- الإذاعة تسهل وصول الفكرة الإسلامية إلى كل مكان، وبمختلف لغات العالم من خلال الإذاعات الموجهة باللغات الأجنبية، وبذلك يصل الإسلام بلا

عائق أو صد ؛ لأن المعارض لا يمكنه إغلاق الغلاف الجوي أو التحكم فيه بصورة مطلقة.

٢- يتمكن الدعاة بواسطة المذياع من مخاطبة كافة فئات المجتمع ، بعدما يعدون البرامج المختلفة ويناقشون خلالها قضايا المرأة ، والعمل والتجارة والشباب والتعاليم ، ويحللون الأحداث ويفسرون الظواهر ، ويقدمون الحلول لحاجات الجماهير إلى آخر ذلك.

٣- يمكن مخاطبة الإنسان بواسطة المذياع أيًّا كانت حالته ؛ لأنه سيسمع الكلمة المذاعة وهو في بيته ، أو في عمله أو وهو يستريح أو وهو يأكل وهكذا.

٤- يصاحب الدعاة من خلال المذياع الناس في سفرهم وفي إقامتهم ، ويذكرونهم وهم بعيدون عنهم ، فالمسلم إذا ذهب للحج أو سافر للتجارة ، أو ذهب للحقل يصطحب معه المذياع ، يتابع معه البرنامج الذي يرغب ويريد بلا عناء أو مشقة.

٥- يتمكن الدعاة بواسطة هذه الوسيلة من التركيز على موضوع معين ، فمثلًا ينصحون بالكلمة المباشرة وبالتمثيل الهادف ، وبالحوار بين طرفين وبالأنشودة الدينية وهكذا.

٦- يتمكن الدعاة من متابعة الأحداث والمناسبات فور ظهورها ، فيوصلونها للناس ويقومون بتحليلها وبيان حكمتها الدينية ، كشهر رمضان وأشهر الحج ، إذ تهتم الإذاعات الإسلامية ببيان الأحكام الفقهية بكل عناية ومتابعة أحوال المسلمين معها ، وتوضيح كيفية الاستفادة المثلى منها ، وربط المسلمين بعضهم ببعض خلالها وبواسطتها ، والاستفادة بوسيلة الإذاعة في الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى ما يلي :

أولًا: دقة الرسالة الدعوية، وذلك يتم بواسطة إعداد جيد من قبل المؤسسة المشرفة، أو الدعاة القائمين بالإرسال؛ لأن وقت برامج الإذاعة قصير، وهذا يحتاج إلى الدقة في اختيار الموضوع والدقة في اختيار الكلمات، والدقة في طريقة العرض والدقة في استخدام المثيرات الصوتية، التي تساعد على انتباه المستمعين.

ثانيًا: أن يعد مقدمو البرامج الدعوية الإجابة عن كل سؤال محتمل؛ لأن المستمع بعيد وقد يعتريه سؤال ما، فإذا ما قدم الداعية المرسل الإجابة ضمن برنامجه، فإنه يحقق بذلك فائدة عظمى، وعلى الداعية المرسل أن يضع نفسه في بيئة المستمعين، ويبحث عن أحوالهم وطبائعهم وكيفيه خطابهم، حتى يتمكن من مناقشة كافة تصوراتهم خلال رسائله الدعوية.

ثالثًا: أن يكون الدعاة مقدمو البرامج الدعوية نماذج تطبيقية للإنسان المسلم، الذي يعملون لوجوده في الناس، وبذلك يكون لحديثهم أثر ولدعوتهم قبول، ولا يصح مطلقًا أن يقدم الإسلام رجل مشهور بعدم التزامه الديني، أو امرأة لا تقدم صورة الإسلام في لباسها وحجابها؛ وذلك؛ لأن الالتزام العملي للمتحدث يضفي على حديثه رونقًا واستحسانًا.

ثانيًا: الشريط، من الوسائل المستحدثة التي يمكن الاستفادة بها في تقديم الإسلام والدفاع عنه: الشريط الإسلامي، وهو يحتاج لجهد بسيط، إلا أنه لا بد له من تركيز عقلي في اختيار الموضوعات التي يقوم بتسجيلها ونشرها، وبواسطة الشريط يمكن نقل الخطب والمحاضرات وتسجيل الكتب والتاريخ الإسلامي.

وتتميز هذه الوسيلة برخص تكاليفها وإمكانية تداولها، وهي دعوة يقوم بها من لا يقدر على الدعوة بنفسه، وقد رأينا تطبيق نموذج عملي مع الشرائط المسجلة، حين قام بعض المخلصين من المسلمين يتخير مجموعة من الشرائط ذات

الموضوعات الهامة، وتوزيعها هدايا على الجيران والزملاء وأصحاب المسجد والعمل، ويمكن للشريط أن يسجل الرسائل المباشرة، وينقل مضمونها إلى الناس ويكون هو وسيلتها حينئذ.

ثالثًا: الرسائل، يهتم الشباب بالتعارف عن طريق الرسائل البريدية، ولا يحتاج الأمر إلا إلى نشر الرغبة في التعارف بإحدى الصحف والمجلات التي تهتم بذلك، وسرعان ما يأتي رد عديد من شباب العالم، يوافقون على هذا التعارف، الذي يعتمد على المراسلة، وخلال مرحلة التعارف الأولى يبين كل طرف للآخر اسمه وثقافته واهتمامه ودينه، وطريقته في التفكير ورغبته في مشاركة الآخر والتعاون معه.

وبهذا الأسلوب يمكن عرض الإسلام على الآخر شيئًا فشيئًا، عن طريق الحوار المنتظم والإقناع الدقيق، ويحتاج هواة المراسلة إلى الصدق والصراحة والإحساس بالأخوة والمودة، وبخاصة في القضايا التي يناقشونها معًا، والمراسلة الآن سهلة وسريعة للاستفادة بالمخترعات الحديثة كذلك.

رابعًا: الملصقات، تتضمن الملصقات دعوة في كلمات قليلة، تذكر بالله وتأمر بالخير وتدعو إلى المعروف، وفائدتها تعم كثيرًا من الناس يقرأونها حين رؤيتها في مكان العمل، أو في الطريق أو عند باب البيت، وقد رأيت كلمات دعوية كتبت على أحد جوانب العملة الورقية، ونقشت في العملة المعدنية وكانت محل اهتمام المالك لها، ويمكن ابتداع صور عديدة من الملصقات يستفيد بها الناس في الأماكن العامة والخاصة.

أيضًا من الوسائل:

الوسائل المكتوبة:

استعمل الإنسان منذ ظهور الكتابة بطريقته البدائية، إذ كانت الكلمات صورة أو نباتًا أو حيوانًا، وكان المكتوب عليه جلدًا أو خشبًا أو حجرًا أو زرعًا وهكذا،

وأدى قلة عدد الكتاب قديمًا إلى الاعتماد على الحفظ والمشافهة، وحين يكتب أمر يكون مختصرًا ومن نسخة واحدة، فلما وجدت المطبعة عام ألف وربعمائة وأربع وخمسون من الميلاد، وصنع الورق تمكن الناس من الانتقال إلى عصر جديد، وهو عصر الكتابة، وسهل نقل الأفكار بالكلمات تكتب وتقرأ، وعلم المسلمون أهمية القراءة والكتابة منذ ظهور الإسلام.

ولذلك كتبوا القرآن الكريم وقرأوه، واستمروا في محافظتهم عليه بالكتابة والقراءة والحفظ والفهم، واستفاد النبي ﷺ هذه الوسيلة، فأرسل إلى الملوك والرؤساء كتبًا تتضمن دعوتهم إلى الإسلام، وفي العصور الحديثة تطورت الكتابة والطباعة بصورة رائعة، وأصبح من الممكن الاستفادة بهذه الوسيلة في الدعوة إلى الله تعالى بصور عديدة منها:

أولًا: الكتاب، يعد الكتاب وسيلة للدعوة إلى الله تعالى؛ لأن المؤلف حين يضع كتابه يقدم خلاله دراسة كاملة تحليلية لموضوعات هامة، مثل: الانفصام بين العقيدة والسلوك الأسباب والعلاج، ظاهرة الوهن في المجتمع المسلم، الدعوة المثالية في القرية المصرية، العولمة الفكرية وموقف الإسلام منها، الداعية المثالي بين التصور والواقع، المحافظة على نفسية المدعوين، طرق الإقناع في الدعوة إلى الله تعالى وهكذا.

والمؤلف خلال إعداده للكتابة يقرأ العديد من المراجع التي تساعده في إخراج مؤلفه؛ ولذلك يغلب على الكتاب الإسلامي دقة النظر وشمول التحليل، ووضوح النتائج وهذا يساعد الدعاة والمدعوين، ويجب أن نتذكر دائمًا أن العلوم الإسلامية - مثل التفسير والحديث والفقه والتوحيد- حفظها الكُتاب للأجيال المتعاقبة، ويمكن للكِتاب الواحد أن يقدم عددًا من الموضوعات.

ونستطيع أن نؤكد بوجه عام أن التغيرات التي حدثت في المجتمع الإنساني - على مر العصور- أثرت تأثيرًا كبيرًا على الكتاب من ناحية شكله وحجمه وموضوعه، ونوع الورق والتجليد وجمال الطباعة وغير ذلك، وأصبح الكتاب في كل بلاد العالم هو الغذاء الروحي والعقلي، الذي يطالب به الجميع مثل رغيف العيش، فكما أن رغيف العيش يغذي الجسم فكذلك الكتاب يغذي الروح والعقل، وقد ازدادت أعداد الكتب وارتفع نتيجة لذلك عدد المكتبات في العالم.

فالكتب وسيلة هامة للثقافة ونقل المعرفة، وهذا يساعد على تكوين الرأي العام، بالإضافة إلى فوائد المعرفة العلمية والمهنية، وعلى كل حال فإن الكتب لها تأثير كبير في تكوين آراء الطبقة المثقفة بوجه عام، والطبقة الممتازة منهم بوجه خاص، وهؤلاء الذين يمثلون الرأي العام المستنير أو المسيطر.

ثانيًا: الكتيب، والكتيب تصغير كتاب وهو عبارة عن فكرة سريعة، توضع في كلمات موجزة، وفائدة الكتيب تظهر في إمكانية الحصول عليه، وإمكانية قراءته في أوقات كثيرة، وأثناء الحركة والعمل، والكتيب صغير الحجم قليل الصفحات، وهذا يسهل وضعه في جيب صغير، وسرعة الانتهاء من قراءته وسرعة فهمه؛ لأنه يعرض الموضوع مجملًا وبأسلوب سهل.

وقد أعد كثير من العلماء كتيبات إسلامية في موضوعات شتى تخدم الناس، مما يسهل عرض القضايا الإسلامية على الكثيرين، ومن هذه الكتيبات: حكم حلق اللحى، أداء مناسك الحج، ضرورة ستر العورة، فضل ليلة القدر، حكم شرب الدخان، كيف نستقبل رمضان، وهكذا كثيرة تلك الكتيبات بموضوعاتها المختلفة.

ثالثًا: الصحيفة اليومية: الصحيفة اليومية وسيلة اتصال جماهيري؛ لأنها تصل للجماهير الغفيرة ويجد الجميع خلالها مرادهم؛ لأنها تحتوي على أبواب وموضوعات شتى، وقد اصطلح على أن الصحيفة هي التي تصدر كل يوم أو مرة في كل أسبوع بحجم معين، والصفحات كبيرة معدودة، أما المجلة الأسبوعية فعدد صفحاتها كبير يشبه الكتاب، وتهتم بالصور مع الحدث وتتناول بالتحليل والتعليق في كافة موضوعاتها، وتتميز الصحيفة عمومًا بما يلي:

١- متابعة الأخبار في العالم كله بواسطة المندوبين والمراسلين ووكالات الأنباء، وهذا يقدم للقارئ صورة للعالم كله كل يوم.

٢- سهولة الحصول على الصحيفة يوميًّا لقلة ثمنها؛ ولأن المشرفين على الصحف يتبارون في السبق إلى القارئ.

٣- تخدم الصحيفة الجانب الذي قامت له، فهناك الصحف الاقتصادية والزراعية والسياسية، ويجب أن تظهر صحف الدعوة لتهتم بنشر الإسلام وتبليغه للناس.

٤- الصحف الإسلامية الجادة هي التي لا تنشر الصور العارية، ولا الأخبار الفاضحة ولا الإعلانات المحرمة، وإذا أشارت إليها كأحداث فإنها تقدمها بشكل منفر.

وعلى الدعاة أن يهتموا بهذه الوسيلة لخطورتها ولأهميتها عند القراء، ولانتشارها الواسع. إنها لا تحتم قراءتها في وقت معين، وإنما تترك للقارئ الحرية في اختيار وقت قراءتها، كما أنها تسمح بقراءتها عددًا من المرات؛ ليرجع إليها من يحتاج لذلك في الوقت الذي يريده؛ لذلك يجب على المسلمين في أنحاء

المعمورة استغلال الصحافة اليومية لصالح الدعوة الإسلامية، ويجب نشر المواد الإسلامية بها من أخبار وتفسيرات لها وآراء وتحقيقات.

كما يجب بيان أحكام الإسلام وشرح مفاهيمه للناس. إن الصحف اليومية والنصف أسبوعية والأسبوعية إلى جانب المجلات، تعتبر سلاحًا قويًّا وفعالًا ومفيدًا، لو أحسن استغلاله لصالح الإسلام. إن الفقهاء يقولون: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ ولذلك نقرر أن استخدام الصحافة في نشر الدعوة الإسلامية أمر واجب على كل مسلم يستطيع ذلك.

والصحيفة لها أبوابها المختلفة، وتتسع لأشكال الكتابة المختلفة، وفيها الكتاب والصحفيون المتعمقون فيما يكتبون، والفاهمون لما ينشرون، من هنا كانت أهمية الصحيفة لخدمة الدعوة الإسلامية، فهي تستطيع أن تناقش القضايا الإسلامية، خاصة القضايا التي اختلف الناس حولها في العصر الحديث، مثل قضية تطبيق الشريعة الإسلامية، وهل تطبق فورًا ومرة واحدة أم بالتدرج؟ وهل الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان أم لا؟ وهناك القضايا التي يحاول أعداء الإسلام تشويهها مثل تعدد الزوجات والطلاق.

إن كثيرًا من الناس ينقصهم معرفة أن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، وأنها واجبة التطبيق على الفور وجملة واحدة، في الجرائد اليومية يمكن أن نقوم بدور كبير في ذلك، وكذلك الأسبوعية وكل المطبوعات إذا استخدمت لصالح الدعوة الإسلامية. لقد اهتم الساسة ورجال الأحزاب في العصر الحديث بهذه الوسيلة، وأصدروا صحفًا تنطق باسمهم وتزين سياستهم، وتحبب الناس فيهم، والدعاة هم الأولى بذلك؛ خدمة لدين الله تعالى ونفعًا للناس أجمعين.
ومن الوسائل: الدوريات، ويراد بالدوريات المطبوعات التي تقدم للقارئ بصفة

دورية كل ثلاثة أشهر، أو نصف سنة أو سنة، ويراد بالحوليات المطبوعات التي تصدر كل عام، والدوريات أو الحوليات تتضمن دراسة موضوعات بحثية طويلة، فليس دورها نشر الأخبار ومتابعة الأحداث، وتصدر الحوليات والدوريات من هيئات كبرى متخصصة، والدوريات تفيد العلماء والخاصة؛ ولذلك يحتاج إليها الدعاة ويمكن عرض موضوعات دعوتهم خلالها.

ومن الوسائل الدعوية: الوسائل المرئية المصورة، ويراد بالوسائل المرئية تلك التي تنقل رسائلها إلى المستقبل، بواسطة الصورة والصوت، وهي التي تعرف بالتلفاز، وهو جهاز حديث الظهور سريع التطور، ويتميز بأنه يخاطب الإنسان في أكثر من جانب في وقت واحد، فهو يخاطب العيون بصوره ومشاهده، ويخاطب الآذان بكلماته وبيانه، ويخاطب العقول بقناعاته ونقله الأحداث من مواقعها، ويخاطب العواطف بإبراز المؤثرات الوجدانية أمام رؤى الإنسان وتصوراته.

قد يسمع الإنسان حديثًا عن زلزال مدمر أو صاعقة مهلكة، فيتأثر بما يسمع تأثرًا ما، أما لو قدم التلفاز صورة الدمار ومناظر الفزع وأشكال التدمير والهلع، فإن التأثير يزداد حدة، وذلك بسبب أن التلفاز أتى للإنسان من كافة جوانبه، العقلية والعاطفية والنفسية، ولم يترك أمام المشاهد إلا خيار التأثير والانفعال، قد تتأثر بسماع التلبية والتكبير يوم عرفة، ولكن هذا التأثير يزداد ويتضاعف إذا نقله التلفاز إلينا.

وقد تمكن العلماء من ربط التلفاز بالفضاء الخارجي بواسطة الأقمار الصناعية، وبذلك تمكنوا من نقل أحداث أي منطقة في العالم في لحظة وقوعها، بلا حد للمسافات أو الأماكن. إن المشاهد بواسطة التلفاز يرى انفعال المتحدث وقوة المناقشة، ويتأثر بذلك كما يتأثر بالصور تتحرك هنا وهناك، تظهر القدرة في خلق

الله تعالى وتقدم العبر والعظات في صورة وحركة، وعلى الدعاة أن يهتموا بهذه الوسيلة، وعلى الدولة أن تمكن لهم منها.

فضلًا عن الوسائل الفضائية الحديثة كالتليفون المحمول والبريد الإلكتروني، على أن تكون هناك مشروعية الوسائل وخلو الوسائل من الضرر، مع ملائمة الوسيلة للتقدم الحضاري، وتضمن الرسالة لعوامل الجذب والتأثير وملائمة الوسيلة للمدعوين، هذه ضوابط لا بد منها عند ذكر تلك الوسائل.

أساليب الدعوة وجوانب التأثير والإقناع في القرآن الكريم

عناصر الدرس

العنصر الأول :	من أساليب الدعوة في القرآن الكريم	١٠٣
العنصر الثاني :	كيفية عرض الدعوة	١١٤

من أساليب الدعوة في القرآن الكريم

علمت مسبقًا معنى الأسلوب في اللغة والاصطلاح حين ذكرت لك عند التعريف بالمادة أن الأسلوب في اللغة يراد به عدة معانٍ؛ منها المذهب والطريق والمنهج والوسيلة ونحو هذا.

وفي الاصطلاح: هو إظهار المعنى الواحد بأساليب مختلفة للتوضيح والتعريف، والأسلوب مشتمل على الكلمة والألفاظ المختارة المركبة والمعاني القائمة والألفاظ بدلالاتها، والبيان هو الاسم الجامع لكل ما يكشف لنا قناع المعاني، ويبرز لنا حجب الضمير حتى يفهم السامع الحقيقة ويدرك ما خفي وغاب.

وبعد الإشارة إلى تعريف الأسلوب ينبغي أن نعلم أن الأسلوب المعبر عن المعنى يتركب من كلماتٍ أو من إشارات أو من أحوال، والكلمات تكون مكتوبة أو منطوقة، والإشارات تكون مع لفظ أو بدونه، والأحوال تكون بسيطة أو مركبة، فالألفاظ تحسن المعاني تزينها في القلوب وتثير داعية النظر والتدبر، وهي ترجمان العلم وبها يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات، والصوت عنوان اللفظ وطريقه إلى أذان المستمعين وعقولهم، وقد تكون الكلمة مكتوبة، ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين، والكلمة المكتوبة أوسع انتشارًا وأبقى زمنًا وتتعامل مع من يقرؤها في كل حالاته، والقارئ حر في تناولها يقرأها مرة واحدة أو على فترات أو يكرر قراءتها.

والإشارة تكون بإحدى الجوارح وبما يستعمله الإنسان من آلات كالقلم والسيف، وأحيانًا تلتقي الإشارة مع اللفظة في الإفادة والبيان وحينئذٍ يكون

وقعهما أبلغ ودلالتهما أوضح، والإشارة تفيد في بعض المواقف التي لا يصح فيها التصريح ويضر فيها التوضيح.

ومن هنا قال الشاعر:

العين تبدي الذي في صاحبها ❖ من المحبة أو بغضٍ إذا كان
والعين تنطق والأفواه صامتة ❖ حتى ترى من ضمير القلب تبيانًا

والأحوال دلالات ناطقة بلا لفظ وبرهان يبين بلا حديث مشيرة بلا يد، وذلك ظاهر في كل مخلوقات الله تعالى، ففي كل منها آية دالة على وجود الله تعالى، يقول الفضل بن عيسى: سلْ الأرض فقل: من شق أنهارك؟ ومن غرس أشجارك؟ ومن جنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا.

ولقد كانت حياة النبي ﷺ العملية أسلوبًا واضحًا في تعليم أمته بالأسوة وإرشادهم بعمل، والأحاديث الناقلة لأفعاله ﷺ، المصورة لأحواله ﷺ عديدة ومنها:

عن عائشة < قالت: ((كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: أفلا أكون عبدًا شكورًا)).

وعن أنس < قال: ((كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن أنه لا يصوم منه، ويصوم حتى نظن أنه لا يفطر منه شيئًا، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليًا إلا رأيته ولا نائمًا إلا رأيته)).

((كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه)).

ويقول أبو هريرة > : ((سمعت رسول الله ﷺ يقول : والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)).

وعن الأغر المزني أن رسول الله ﷺ قال : ((إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)).

وعن عائشة > قالت : ((ما رأيت النبي ﷺ منذ نزل عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ يصلي صلاةً إلا دعا أو قال فيها : سبحانك ربي وبحمدك اللهم اغفر لي اغفر لي)).

وهذه فاطمة > ابنة رسول الله ﷺ التي يقول عنها رسول الله ﷺ : ((فاطمة سيدة نساء أهل الجنة))، ويقول كذلك ﷺ عنها : ((فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني يريبني ما أرابها ، ويؤذيني ما آذاها)) ، لما جاءته تسأله خادمًا من سبيٍ أصابه وَكَلَها إلى الله ﷻ، ودلها على أن تذكر الله ﷻ عند النوم بالتسبيح والتحميد والتكبير يغنيها عن ذلك.

وعن ابن عباسٍ } في وصف جود رسول الله ﷺ قال : ((كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة)).

وعن جابر بن عبد الله } قال : ((ما سُئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال : لا)).

وعن أنسٍ بن مالك > قال : ((كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البردة من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، ثم ضحك ثم أمر له بعطاء)).

وعن عائشة < أنها قالت: ((ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها)).

وهكذا كانت دلالة أفعال النبي ﷺ ناطقة بالمطلوب فعله؛ لأن دلالة الحال أبلغ في كثير من الأحيان عن دلالة المقال وعلوم البلاغة هي المورد الفياض والمعين الوافر الذي يجلي مزايا الأسلوب، ويحدد الأسس لحسنه وجماله وبيانه، وقد نزل القرآن الكريم بلسان العرب ذروة عالية في بلاغة العرب لذلك كان هو المرجع الدائم للدعاة وهم يتخيرون أساليب دعوتهم، إن الإنسان صاحب الفطرة السليمة يتأثر بالمعنى الدقيق إذا وُضِع في أسلوب جميل وبيان لطيف؛ ولذلك كان العربي يتأثر حين يستمع لكلام الله يقول الله تعالى: ﴿ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢]، ويقول ﷻ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة: ٨٣].

ولعل ما حكاه لنا التاريخ عن كفار مكة إنها كانوا يتخافتون لسماع القرآن الكريم؛ لحلاوة أسلوبه ودقة معانيه وملامسته للعقل والعواطف معًا هو دليل واضح على ما للأسلوب من تأثير.

روى ابن إسحاق: "أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريك بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليلةً؛ ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجلٍ منهم مجلسًا يستمع فيه وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض

سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجلٍ منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجلٍ منهم مجلسًا، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريك أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يُراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك، ثم خرج الأخنس من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد، قال: ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس وتركه".

وهكذا يكون التأثير بجمال العبارة وحسن التركيب ودقة المعنى وظهور البيان الأمر، الذي نسوقه للدعاة؛ ليجعلوه أسلوبهم في الدعوة إلى الله تعالى، ونأخذ نماذج من أساليب الدعوة في القرآن الكريم إن شاء الله تعالى، وهو منهج مرن قابل للتطبيق في كل آن ومكان ذلك أن تجربته في العصر الأول تعتبر تجربة ناجحة تؤكد فائدته، وتبين صلاحيته لإبلاغ الدعوة دائمًا.

وحين نعلم أن هذه الأساليب هي كلام الله تعالى علينا أن نتيقن تمامًا أنها هي الحق، وأن تأثيرها في القلوب والعقول دقيق، وعلينا أن ندرك فضل الله تعالى

على الناس ؛ إذ أنزل إليهم دينهم وحببه إليهم بمزاياه وزينه في قلوبهم وعيونهم ومشاعرهم بأدلته المقنعة وأساليبه المعجزة وبيانه البليغ الواضح ، وكما أفادت أساليب القرآن الكريم الإسلام أولًا يمكنها أن تستمر في إفادتها المحققة إن الأمر يحتاج إلى إحاطة تامة بأساليب القرآن الكريم ، ومعرفة تفصيلية بجوانب التأثير والإقناع المبدع للأخذ بها والسير على منوالها ، ومن هنا فنحن نستخلص من الأساليب القرآنية هذا المنهج ، الذي ينبغي أن نسير عليه ، وأن يكون خطةً واقعية تعتمد على الأسس الآتية :

أولًا : تفهم طبائع الناس : حيث تختلف طبائع الناس وتتنوع عقائدهم وتتعدد ميولهم ، وتبعًا لذلك انقسمت الإنسانية إلى اتجاهات وجماعات ، والطريقة المثلى لتحقيق اتصال مع هؤلاء الناس هو إتيانهم من حيث اهتمامهم ، ومشاركتهم في خصائص حياتهم ومعايشهم ، والدعوة الإسلامية عامة ودائمة وعليها أن تستوعب الناس علمًا بطبائعهم ، وتفهمًا لاهتماماتهم حتى تتمكن من تحريك داعية النظر عند كل جماعة على حدة ، وحتى تستطيع إبلاغ الإسلام إلى الجميع.

ومن هنا ملكت الدعوة أمثل الطرق في تحقيق الاتصال بالناس ، عن طريق الأساليب التي تميزت بتضمنها الفهم الدقيق لحقائق الناس ، وكيف أنها أشارت إلى اختلاف البشر أمام الحق حيث يقترب منه الضعفاء ، ويعارضه المستكبرون استعلاءً وعنادًا ، وتفهمت كذلك طبيعة الترف ودور المترفين أمام الدعوة حيث يقفون منها موقفًا معارضًا ؛ كي يحافظوا على أوضاعهم المكتسبة من الترف والتي يخافون ضياعها ، وأحاطت كذلك بثقل الموروثات على المدعوين ، وبينت أن الكفار المعاندين مع اختلاف اتجاهاتهم يتوحدون أمام الدعوة من أجل محاربتها وهدمها.

ثم إن الأساليب كذلك تبين تعلق الإنسان بالمادة وأنه من أجلها ينسى نفسه وعقيدته لا عن جهلٍ بنعم الله وخيراته بل على معرفة تامة بها، ولكنها معرفة غير مفيدة؛ لأن الإنسان يعرفها وينكر الواجب عليها في مقابلة شكر هذه النعم، وتعرف أن طبيعة الإنسان تهوى الجدل والمعارضة والمخاصمة، خاصة حينما يترك الإنسان مسئوليته ويتعلق بالدنيا مع ضآلتها وحقارتها.

وتبين الأساليب أن العقيدة الدينية الخاطئة تعطي لأتباعها نوعًا من الأخلاق الفاسدة، كاليهود حيث غمرتهم بالمادية وحب القتل والاضطهاد لغيرهم، والنفاق الذي يعطي الكذب والخداع والتضليل، ومن دقة الأساليب في الإحاطة بطبائع الناس أنها تبين الخصائص العامة، التي تدور مع كل الأمم سواء اختلفت عملًا أو مكانًا أو زمانًا، وخاصة ما له علاقة بالدعوة السماوية وهو في الوقت نفسه خصائص شاملة لكل النوع الإنساني من الرجال والنساء والكبار والصغار.

وهي واعية كذلك؛ إذ تراعي وضعية الناس وطبقاتهم، ولعل الأساليب وهي تعرفنا بطبائع الناس من خلال مناقشاتها لهم تمدنا في الوقت نفسه بالنموذج الأمثل في دعوة كل فريقٍ حسب طبقته، وطبعه وعن طريق الاستعلاء بغرائزه.

ومن دقتها كذلك إحاطتها بعقائد البشر مع تنوعها فتجدها تعرف باليهود واليهودية والمسيح والمسيحيين، وتشير إلى المجوس والصابئة وعبدة الكواكب والأشخاص والأصنام والأوثان، وإلى الدهريين الذين لا يؤمنون بإله ما، وهي لا تعرف أصحاب العقائد فحسب، وإنما تناقشهم بعدما سهل الله ذلك بأن جعل في الجزيرة العربية نموذجًا لكل العقائد؛ حتى تكون مجابهة الأساليب شاملة وعامة من أول ظهورها.

والأساليب وهي تحيط بالناس تأتي مناسبة لهم فتنوع خطاباتها من أجلهم ؛ ولذلك جاءت على شكل قصة أو جدل ومن هنا قدمت بحقٍ تطبيقًا واقعيًّا صادقًا لقوله تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، حيث كانت الحكمة للخاصة من الناس والموعظة للجمهور والعامة والمجادلة للمعاندين، إنها نواحي فنية في الأساليب لها تأثيرها المعجز، وتناسبها الكامل مع المدعوين.

والقرآن الكريم ؛ لأنه كتاب دعوة ودستورها وهو طريقها راعى دائمًا هذه المناسبات، فكانت أساليبه وفق ما أراد الله له، بل إن هذه الأساليب قد غاير المكي منها المدني مثيله ؛ حتى تكون دقة التناسب وافية.

ففي القرآن المكي نرى الاختلاف واضحًا بين أهداف سوره وأهداف السور المدنية، وذلك ؛ لأن أهل مكة كانوا على ضلالٍ في العقيدة، وكانوا أهل سيادة ورياسة ديدنهم العناد وخلقهم الجفاء وغريزتهم الجدل والجمود والكبرياء، ومن هنا لم تخرج موضوعات السور المكية عن بيان الفساد في الشرك والكفر ورد المفتريات الباطلة التي يعتقدها أهل مكة، وبيان أصول الإسلام من عقيدة تؤمن بإله واحد وتصدق بالرسول المبشر ﷺ، وتسلم بالبعث والجزاء في يوم القيامة، ومحاولة نشر أخلاقيات جديدة تناسب العقيدة السليمة.

ومن هنا انتشر في الأسلوب المكي الإنذار، والتخويف في قصة أو قسم أو جدل أو مثل، وأيضًا كثر في السور المكية حديث التسلية للنبي ﷺ والمؤمنين معه، ودعوتهم إلى الصبر والتحمل.

أما أهل المدينة فكانوا طوائف من المسلمين واليهود والمنافقين، ومن هنا جاء القرآن المدني يخاطب هذه الطوائف ويجادلهم، ويشرع للمسلمين في كافة

الأحوال ويوجه المشركين إلى الخير، ولذلك من أراد أن يعرف اليهود فعليه بسورة "البقرة" و"النساء" و"المائدة" وكلها مدينة، ومن أراد دراسة النصارى في سورة "آل عمران" و"النساء" و"المائدة"، ومن أراد دراسة المنافقين فعليه بسورة "النساء" و"المنافقين" و"الأحزاب".

الأسلوب المكي يغاير هو الآخر الأسلوب المدني؛ لأن المكي قصير الجمل كثير التكرار والتأكيد مليء بالقصص والأقسام فيه مناسبة الفواصل ورنين السجع الكثير، أما المدني فقل أن تجد فيه شيئًا من هذا حيث يقول صاحب كتاب (القرآن وعلم النفس): والعامل النفسي في ذلك أن القوم في مكة كانوا غير مستقرين، بل كانوا مطاردين قلقة نفوسهم غير مستعدين لتشريع أو تفصيل، والمشركون أيضًا كانوا منصرفين عن سماع القرآن متأثرة نفوسهم بأدبهم قريبة عهدهم بخطبهم المثيرة لوجدانهم، والتشريع يحتاج إلى هدوء ورزانة في العقل وتروٍ في المنطق، وتقبل للإرشاد ورغبة في التطور والإصلاح وطاعة للأمر واستجابة للداعي، وكل هذه حالات نفسية غير متوفرة في الحياة المكية.

ويقول: إن الطول وعدم السجع في القرآن المدني أغلب، فقد يوجد في بعض الآيات المكية طول أو قصر منوط بموضوعها حسبما تقتضيه البلاغة، فالسور والآيات التي يراد بها الوعظ والزجر يحسن فيها أن تكون أكثر من آيات الأحكام وهي تكثر في القرآن المكي؛ لأنه هو المناسب لحال المخاطبين من المشركين لجمودهم وعنادهم وطول باعهم في البلاغة، إن مراعاة المناسبة مع سائر المدعوين هي التي مكنت الأساليب من هدفها، فلها شمولها الدقيق وفنيتها

المؤثرة، إننا بالنظر إلى أساليب القرآن نلحظ سهولة تطبيقها في العصر الحديث ذلك أن الداعية الكفء، سواء كان محاضرًا أو خطيبًا أو مدرسًا أو مشرفًا على ندوة أو مناظرًا يمكنه أن يستفيد بالوسائل، فيفهم منها كيف يعامل أجناس الناس، وبعد فهمه للمدعوين يمكنه أن يحدد منهج دعوتهم فيذكر قصة أو قسمًا أو مثلًا وهكذا، ويورد في منهجه مع المدعوين ما يلمس شغاف قلوبهم، ويحرك داعية النظر لديهم.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم محفوظ، كما أنزله الله وما زال يملك حيويته ومرونته وتأثيره كيوم نزل إلى الأرض، وما زالت وسائله تملك خصائصها وفنيتها في التبليغ، والداعية الناجح يدرك أن نجاحه موقوف على مدى تفهمه وإحاطته بوسائل القرآن الكريم.

ثانيًا: تفهم الدعوة: وكما تحيط الأساليب بالناس وعقائدهم لا بد من تفهم الدعوة بأصولها وفروعها، وتعلم أن الإيمان بالأصول مقدم على غيره، بل إن من الأصول ما يستتبع غيره بالضرورة كالإيمان بالله والتصديق بالرسول ﷺ، فإنهما يستتبعان باقي الأصول والفروع والوسائل بفهمها للدعوة تتمكن من تحديد الهدف الذي تدعو إليه، وتتجه إلى الغاية معروفة محددة وهو فهم دقيق يميز الدعوة عن غيرها من الدعوات، ويجليها بخصائصها التي انفردت بها من بين سائر العقائد، ذلك أن الدعوة تتكون من ثلاثة أشياء:

الأول: العقيدة المشتملة على أصول الدعوة: وهي عبارة عن الإيمان بالله وبالرسول وبالملائكة وبالكتب المنزلة وباليوم الآخر.

الثاني: الشريعة المتكونة من فروع الدعوة: وهي العبادة المحددة بأوقات ومقادير على وجه الضرورة، أو غير المحددة وتسري في سائر الأعمال والأقوال.

الثالث: الأخلاق: وهي النتاج الضروري للعقيدة والشريعة، وهي مجموعة من المحاسن النفسية تظهر بآثارها في الأقوال والأعمال.

وهذه الأمور الثالثة لا انفصال بينها؛ لأنها تكون الإسلام، فلا بد من اتحادها على أن تكون العقيدة أصلًا يدفع إلى الشريعة، وتكون الشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة، وبعد استقامة العقيدة والشريعة تكون الأخلاق رمزًا لهما وعنوان على صدقهما عند صاحبهما، ونلمح من الأساليب أنها تفهم الدعوة بالشمول، وتعرف العقيدة والشريعة والأخلاق وتقدرها تمامًا، وتعلم كيف تبدأ بأي جزء من الدعوة حين تبلغها للناس، وعند دراستنا للأساليب القرآنية من قصةٍ من قسمٍ وغيرها ندرك مدى إحاطة الأساليب بكافة جوانب الدعوة، كما سنبين ذلك إن شاء الله فيما بعد.

الثالث: حسن عرض الدعوة على الناس: وبعد تفهم طبائع الناس وحقيقة الدعوة كان على الوسائل أن تقوم بدورها في الإبلاغ على وجه يضمن نجاحها في الغالب، وهذا الضمان ضرورة عرفها الله ﷻ لرسوله ﷺ، وهو يأمره بقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعلى: ٩]، وبقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وهكذا عرف الله رسوله أن يتخذ المناسبة الحسنة فيذكر حين يغلب على ظنه أن الذكرى ستنفع، ويترك القوم حينما يلقاهم يعبثون بآيات الله؛ لأنهم لا يسمعون ساعة إذًا وسيعرضون عن الدعوة إذا عرضت عليهم.

كيفيـــة عـــرض الـــدعوة

ومن الأساليب ذاتها نعرف كيف نعرض الدعوة في حسنٍ وجمال، ويكون عرضها الحسن يتطلب شقين؛ شقًّا يتعلق بالدعوة، وشقًّا يتعلق بالناس، أما الشق الذي يتعلق بالناس، فهو يتكون من نقاطٍ تلاحظها الأساليب فيما يلي:

أولًا: تقدير الإنسان: حيث أعطى الله للإنسان كثيرًا من النعم وسخر له الكون كله ورزقه العقل؛ ليفهم الأمور ويتدبرها، فلما جاءت الدعوة لم تنقص الإنسان شيئًا، بل أعلنت محافظتها على كثيرٍ من المسائل الفطرية؛ إذ بينت أنه لا إكراه في الدين؛ لأن الإكراه لا يتفق مع طبيعة الدين الذي يحتاج إلى إخلاص شامل للظاهر والباطن معًا، ولو تصورنا أن الإكراه يفيد مع الظاهر فإنه لا يمكن تصوره مع الباطن مطلقًا، ومن هنا كانت الحرية الدينية من ضرورات الدعوة.

وبينت كذلك أن الناس جميعًا سواء، فهم لا يتمايزون بسبب النسب أو الجاه؛ إذ ينتمي الجميع إلى أبٍ وأمٍ واحدة فهم متساوون في الحقوق والواجبات، ومعيار محاسنهم عند الله هو دينهم وتقواهم فقط، وما الدرجات المختلفة للناس إلا تفاوت في المال وطبيعة العمل، وهذا لا يستتبع تفاوت في الكرامة والحقوق.

وحافظت الدعوة كذلك على عقل الإنسان، ونادت بضرورة ضمان الحرية له وحاربت كل ما يؤدي إلى هدم الحرية وتعطيل العقل وإيقاف نظره وتدبره، وبينت كذلك أن الإنسان عليه أن يبذل كل قواه؛ ليسخر الطبيعة المذللة له ويستولي على الكون كله، وبذلك يكون بحقٍ هو خليفة الله في الأرض، ومن هذه النظرة للإنسان انطلقت الدعوة ولم تخالفه أبدًا.

ولعل الوسائل والأساليب التي تبلغ بها الدعوة أكبر دليل على تقدير الإنسان؛ لأنه لا إكراه فيها وتدعو الجميع على قدمٍ واحدةٍ تخاطب الإنسان وحده، وتساعده إلى أن يصل إلى السعادة والسلام.

ثانيًا: ملاحظة التنوع البشري: وتلاحظ الوسائل تنوع الناس أمام الأدلة، وكيف أن العلماء أجمعوا على أن من الناس من تكفيه الأدلة الخطابية، ومنهم من تكفيه الأدلة البرهانية اليقينية، ومنهم المجادل اللدود، ومن هنا أتت الأساليب مراعية هذا التنوع؛ فجاءت الموعظة الحسنة والحكمة والجدل بالحسنى لتتناسب مع كافة الطوائف، كما سنبينه إن شاء الله في حينه.

ثالثًا: ملاحظة التنوع الغريزي: ومن المعلوم أن الجبلة البشرية تنطوي على مجموعة من الصفة لا يمكن إزالتها بالكلية، وقد لاحظ النبي ﷺ هذه الجبلة في الناس، فلم يحاول هدمها إنما ترقى بها؛ فهو في المال يُعطي رجالًا لا لحاجتهم، وإنما لشدة حبهم للمال، ويبين ذلك ﷺ بقوله: ((إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه مخافة أن يكبه الله في النار))، وفي الفخر يعطيه لأبي سفياني يوم فتح مكة، ويقول: ((من دخل دار أبي سفيان فهو آمن))، وهكذا ترقى النبيﷺ بغريزة هؤلاء، فأعطى رجاء الجنة وسمح للمؤمنين أن يدخلوا دار أبي سفيان إعلانًا عن إسلامهم وضمانًا لأمنهم، ومراعاة هذه الغرائز ضرورة للنجاح.

ومن هنا راعت الوسائل غرائز الناس وخاطبتهم على أساسها، فمن أجل غريزة التقليد والمحاكاة قصت عليهم طريقة نجاح الدعوات السابقة، ومن أجل تعصبهم عرفتهم بالمساواة وشاركتهم في الإيمان بكل ما فيه من خير أو مصلحة، ومن أجل غريزة بقاء النوع واكتساب الخير عرفتهم أن الإيمان يحقق ذلك كله، والكفر

يضيعه عن طريق ما عُرِف من الأساليب بالترغيب والترهيب، وهكذا لاحظت الأساليب قيمة الإنسان وتنوعه وغرائزه.

أما الشق المتعلق بالدعوة فهو يتمثل في النقاط التالية:

أولًا: تقدير الدعوة: تبدأ الأساليب في مناقشة عقائد الناس مبينة فسادها من واقع فكر الناس أنفسهم، كما جادل سيدنا إبراهيم الناس في ألوهية الأصنام والكواكب والأشخاص، وكيف بينت القصة ضلال الكافرين والمشركين، وإنما بدأت الأساليب بذلك حتى لا تترك الناس في ضلالهم؛ لكي تدعوهم بالحق بعد تخلصهم من الباطل.

ثانيًا: تجزئة الدعوة: فتدعو الناس على مهل وتجزئ للناس دعوتها، فلا تقدمها لهم جملةً؛ حتى لا تثقل عليهم وتلاحظ استعداد الناس للجزء الذي تقدمه لهم، ومن هنا استمر النبي ﷺ يدعو مدة طويلة إلى التوحيد وهو في مكة، ولم ينتقل إلى غير التوحيد؛ لأنه أراد أن يلمس أسس الدعوة ويعرضه لهؤلاء المشركين، فمكث ﷺ يدعو بالتوحيد حتى شرعت الصلاة قبيل الهجرة، ويلاحظ أن الدعوة كانت تقدم الأهم على المهم؛ ولذلك قدمت التوحيد وإثبات الرسالة على سائر تعاليمها؛ لأنهما الأصل وعليهما ترتكز الدعوة، فالدعوة ترتكز على هذين الأصلين الهامين.

ثالثًا: تكرار الدعوة: من خلال الأساليب يظهر التكرار واضحًا للدعوة لما في التكرار من فائدة، فهو يشعر بالأهمية ويحرك العقل والوجدان.

رابعًا: بيان الغاية من الدعوة: تحديد أي شيء هو مقدمة نجاحه وبيان فائدته هو الدليل على خلوده، ولقد اهتمت الأساليب بادئ ذي بدء ببيان أهداف الدعوة،

فعرفت أن الإيمان بالدعوة يحقق في الدنيا النجاة من الضرر والتمكين في الأرض والنصر والفوز، ويحقق في الآخرة السعادة والأمن والأمان، بل إن سائر تعاليم الدعوة هادفة إلى حفظ الضرورات الخمسة التي تحقق سعادة الدنيا والآخرة.

خامسًا: الدليل المناسب: وتحقق الأساليب بأدلتها فائدة عظمى ذلك أنها تلاحظ نوعية المدعوين، ومدى تقدمهم وتأتي لهم بالأدلة المناسبة؛ فمثلًا تكون الأدلة بالمحسوسات أحيانًا وبالمعنويات أحيانًا أخرى وبهما معًا أحيانًا ثالثة، وذلك يحقق لهم الوصول إلى أفهام الناس أجمعين، والدعوة تستطيع أن تنوع دليلها وتصنعه في شكل قصة أو مثل، وهكذا تبعًا لطبيعة من تخاطبهم خاصة وأنها أحاطت بهم، ومن الأولى أن تكون الأدلة مستنتجة من نعم الله الكاملة ففيها العناية وكلها لها غاية، وهذا خير من جدل الفلسفة وأدلتها، كما يقول الدكتور عبد الكريم زيدان وهو يتحدث عن أساليب الدعوة: "تقوم أساليب الدعوة الناجحة على تشخيص الداء في المدعوين ومعرفة الدواء والتأكيد على ذلك، وإزاحة الشبهات التي تمنع المدعوين من رؤية الداء والإحساس به، وترغيبهم في استعمال الدواء وترهيبهم من تركه، ثم تتعهد المستجيبين منهم بالتربية والتعليم؛ لتحصل لهم المناعة ضد دائهم القديم".

نعم لا بد من تشخيص الداء ووصف الدواء، إن طبيب الأبدان يشخص الداء أولًا ثم يعين العلاج ثانيًا، وهذا هو الأسلوب الصحيح للمعالجة، والداعي إلى الله تعالى طبيب القلوب والأرواح، فعليه أن يسلك نفس هذا الأسلوب في معالجة الأرواح؛ فيشخص الداء أولًا ثم يعين العلاج ثانيًا، ولا يقف عند أعراض الداء محاولًا علاجها تاركًا أصلها وعلتها، فما أصل داء البشر؟ وما هو أصل الدواء؟

أما أصل داء البشر في القديم والحديث فهو جهلهم بربهم وشرودهم عنه، أو كفرهم به ورفضهم الدخول في العبودية الكاملة له والسير على النهج، الذي جاء به محمد ﷺ من ربهم، واغترارهم بالدنيا وركونهم إليها وغفلتهم عن الآخرة أو إنكارهم لها، هذه هي مقومات الداء، وهي تجتمع مع الكفر بالله وتتفرق مع أصل الإيمان به، كما نجده في ضعاف العقيدة من المسلمين، فإذا وجد أصل الداء بكل مقرراته وجدت الشرور والمفاسد بكل صنوفها وأنواعها، وإذا وجدت بعضها وُجِد من الشرور والمفاسد بقدرها.

أما أصل الدواء لهذا الداء فهو الإيمان بالله ربًّا وإلهًا لا إله غيره ولا رب سواه، والكفر بالطاغوت بكل أنواعه ومظاهره، والإقبال على الله وعدم الركون إلى الدنيا، كما كانت هي رسالة الأنبياء والرسل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وكما قالها أول الرسل نوح # : ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩]، وكما قالها خاتم الأنبياء والرسل سيدنا محمد ﷺ لرؤساء قريش، وقد جاءوا إلى أبي طالب يسألونه ماذا يريد منهم محمد ﷺ، فقال الرسول الكريم ﷺ: ((تقولون: لا إله إلا الله وتخلعون ما دونه))، وكذا قالت رسل الله جميعًا بلا استثناء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

ومن هنا فأساليب اللغة لا بد وأن تؤكد على معاني العقيدة الإسلامية أولًا، إذ قد تبين لنا أصل الداء وأصل الدواء، فعلى الداعي المسلم في دعوته إلى الله تعالى أن يؤكد على معاني العقيدة الإسلامية، فهي الدواء لأصل الداء فيؤكد على الإيمان بالله ربًّا وإلهًا، وعلى الإيمان بمحمدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، وعلى البعث بعد

الموت بالروح والجسد وعلى ضرورة العمل الصالح للنجاة من العذاب في الآخرة، فالعقيدة الإسلامية وتجلية معانيها وأصولها، وما تستلزمه وتتضمنه هي الأساس في دعوة الداعي وما يؤكد عليه دائمًا ولا يغفل عنه مطلقًا؛ لأنها هي الأصل في دعوته وما عداه فروع، فإذا استقام له هذا الأصل واستجاب له المدعوون بعد كفرهم سهل عليه إقناعهم بمعاني الإسلام وفروعه المختلفة، وإذا رفضوه رفضوا سائر فروعه ومعانيه، وهذا هو النهج الصحيح الذي دل عليه القرآن الكريم، وسار عليه النبي الكريم ﷺ، فإن القرآن ظل يتنزل في مكة بالصور والآيات في بيان أصول العقيدة ومعانيها، مثل: الإيمان بالله ووحدانيته في الربوبية والألوهية والإيمان بيوم الحساب ومآل الناس إلى الجنة والنار وضرورة الإيمان بالرسول ﷺ والقيام بالعمل الصالح المشروع، من ذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤- ١٧] إلى آخر الآيات في العقيدة الإسلامية، هذا النهج القرآني في التأكيد على العقيدة الإسلامية ظل مستمرًا حتى بعد الهجرة إلى المدينة، فكانت الآيات تتنزل لبيانها أو تختم آيات المعاملات لأصول العقيدة كالإيمان بالله واليوم الآخر، والتأكيد على العقيدة وهو النهج السليم، كما ذكرنا لازم أيضًا للداعي في دعوته بالنسبة لضعاف العقيدة من المسلمين الذين يظهر ضعف عقيدتهم بعصيان أوامر الشرع واستثقال تكاليفه، والتخبط في كثير من ضروب الغواية والضلالة، بل إن هذا النهج لازم حتى بالنسبة للمسلمين الذين

لا يظهر عليهم عصيان ظاهر؛ لأن هذا التأكيد على العقيدة وتذكيرهم بمعانيها يقيم الانحراف والعصيان.

وعلى الداعي أن يراعي الكليات قبل الجزئيات ملتزمًا النهج الصحيح بأن يبتعد عن الخوض فيما يهواه الناس، وعن الثرثرة وتحرير الأمور بعيدًا عن مفاهيم الإسلام الصحيحة وشموله، كل ذلك لا بد أن يراعيه الداعي في دعوته إلى الله ﷻ مع اهتمام الداعية بإزالة الشبهات، ونقصد بها هنا ما يثير الشك والارتياب في صدق الداعي وأحقية ما يدعو إليه، فيمنع ذلك من رؤية الحق والاستجابة له أو تأخير هذه الاستجابة غالبًا ما ترتبط الشبهة بعادة موروثة أو مصلحة قائمة أو رياسة دنيوية أو حمية جاهلية، فتؤثر الشبهة بسبب هذه الأمور في النفوس الضعيفة المتصلة بهذه الأشياء، وتتعلق بها وتحسبها حجة وبرهانًا تدفع به الحق وتخاصم الدعاة إلى الله تعالى.

ومصدر الشبهات يكون من الملأ الذين يثيرون الشبهات ويزينونها للناس ويشيعونها فيما بينهم، ويكررونها على مسامعهم حتى تألفها نفوس البسطاء من عامة الناس، فيأخذون في ترديدها ثم تصديقها ثم تبيينها، واعتبارها كالحقائق الثابتة عند ذاك يندفعون إلى الدفاع عنها ومخاصمة الحق وأهله من أجلها، والملأ منهم يضحكون ويسخرون لقد حققوا ما يريدون.

ومن أنواع الشبهات ما يتعلق بالداعي أو ما يتعلق بموضوع الدعوة وما يتعلق بعموم المدعوين؛ فالذي يتعلق بالداعي يتمثل بالطعن في شخصه وسيرته وسلوكه وإلصاق التهم به، ورميه بالسفه والجهالة والضلالة والجنون والافتراء إلى غير ذلك مما يكون المقصود منه تنفير الناس منه وعدم الثقة به، والذي يتعلق بموضوع الدعوة يتمثل في اتهامها بالابتداع، والخروج على مألوفات الناس

وتقاليدهم ونظامهم الموروث مما يراد به تنفير الناس من الدعوة إلى الله وصدهم عن سبيله، والذي يتعلق بالمدعوين يتمثل بإظهار الحرص على مصالحهم وملتهم ودين آبائهم، والحفاظ على نعيمهم وحياتهم المطمأنة مما يقصد منه إثارة حماس الناس ضد الدعاة إلى الله ﷻ.

وعلى الداعي أن يراعي في دعوته، وفي أساليب دعوته الترغيب والترهيب، ونقصد بالترغيب كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، ونقصد بالترهيب كل ما يخيفه ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، والملاحظ أن القرآن الكريم مملوء بما يرغب الناس في قبول دعوة الإسلام، والتحذير من رفضها مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا الأسلوب - أسلوب الترغيب والترهيب- في الدعوة إلى الله تعالى، وعدم إهماله من قبل الداعي المسلم.

كذلك اهتمام الداعية في أسلوبه بأسلوب التربية والتعليم، وضرورة التربية قبل ضرورة التعليم؛ التربية على معاني الإسلام وتعلم أحكام الإسلام.

وسائل الدعوة التي حددها القرآن في آية النحل: الحكمة (١)

عناصر الدرس

العنصر الأول : مفهوم الحكمة ومعناها ١٢٥
العنصر الثاني : خوارم الحكمة وموانعها ١٣٢
العنصر الثالث : أهمية الحكمة في تبليغ الدعوة الإسلامية ١٤١

مفهوم الحكمة ومعناها

فينبغي تفصيل القول في وسائل الدعوة التي حددها القرآن الكريم في قوله ﷻ:
﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

أولًا: من حيث مفهوم الحكمة وموانعها وأهميتها في تبليغ الدعوة الإسلامية.

ثانيًا: الموعظة الحسنة مفهومها ونماذج منها من القرآن والسنة والتراث الإسلامي.

وثالثًا: المجادلة بالتي هي أحسن تعريفه بالجدال وحكمه وحكمته وصوره وأهميته في مجال الدعوة الإسلامية، وهكذا إن شاء الله - تبارك وتعالى- نكر بعد ذلك على أهمية ضرب الأمثال في القرآن والسنة، والأسلوب القصصي وغير ذلك.

مفهوم الحكمة ومعناها أو تعريفها:

ورد للحكمة عدة معانٍ وهي معانٍ خاصة وعامة، وهذه المعاني ينبغي النظر إليها من خلال القنوات التالية: المعنى اللغوي، والمعنى في القرآن الكريم، ومعنى الحكمة في السنة، والحكمة كما عرفها أهل العلم؛ فنقول بادئ ذي بدء: ما هو المعنى اللغوي للحكمة؟ قال ابن فارس: الحاء والكاف والميم، أصل واحد وهو المنع؛ وأول ذلك الحكم وهو المنع من الظلم، وسُمّيت حَكَمةُ الدّابَة؛ لأنها تمنعها، والحَكْمَة هذا قياسها؛ لأنها تمنع من الجهل، والمحكم المُجَرِّب المنسوب إلى الحكمة، قال طرفة:

ليت المحكم والموعوظ صوتكما ❖ تحت التراب إذا ما الباطل انكشف

أراد بالمُحَكَّم الشيخ المنسوب إلى الحكمة.

وقال ابن منظور: قيل: الحكيم ذو الحكمة، والحِكْمَة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويُقال لمن يُحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم، وقال الجوهري: الحُكم هو الحكمة من العلم، وصاحب الحكمة المتقن للأمور، وقد حَكُمَ - بضم الكاف- أي: صار حكيمًا قال النمر بن تولب:

ابغض بغضيك بغضًا رويدًا ❖ إذا أنت حاولت أن تحكما

قال الأصمعي: أي: إذا حاولت أن تكون حكيمًا، والمُحَكَّم بفتح الكاف هو الشيخ المجرب المنسوب إلى الحكمة، وقال في (تاج العروس): والحكمة بالكسر العدل في القضاء كالحكم، والحكمة العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها؛ ولهذا انقسمت الحكمة إلى علمية وعملية، ويُقال: هي هيئة القوة العقلية العلمية، وقيل: الحكمة إصابة الحق بالعلم والعمل؛ فالحكمة من الله معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفته وفعل الخيرات وأحكمه إحكامًا أتقنه، ومنه قولهم للرجل إذا كان حكيمًا: قد أحكمته التجارب وأحكمه منعه من الفساد، وفي (المصباح المنير): الحكمة والزان قصبة للدابة، سُميت بذلك؛ لأنها تُذَلّلها لراكبها حتى تمنعها الجِمَاح ونحوه، ومنه اشتقاق الحكمة؛ لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأرذال.

هذه هي أهم المعاني اللغوية التي وردت في الحكمة وأصلها، وكلها تدور حول المنع؛ لأنها تمنع صاحبها من الوقوع فيما يذم فيه، أو ما قد يندم عليه وتمنعه من اختيار المفضول دون الفاضل، أو المهم قبل الأهم؛ فهذا عن الحكمة في اللغة.

وأما الحِكْمَة في القرآن الكريم؛ فقد ورد لفظ الحكمة في القرآن الكريم عشرين مرة في تسع عشرة آية في اثنتي عشرة سورة، وقد ورد لعدة معانٍ وتفصيل ذلك

كما يلي: اختلف المفسرون في تفسير الآيات الواردة في لفظ الحكمة؛ فنجد مقاتل - كما ذكر الرازي- يقول: تفسير الحكمة في القرآن على أربعة أوجه:

أولها: مواعظ القرآن قال تعالى في سورة "البقرة": ﴿ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ومثلها في "آل عمران".

وثانيها: الحكمة بمعنى الفهم والعلم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم: ١٢]، وفي سورة "لقمان": ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان: ١٢] يعني: الفهم والعلم، وفي "الأنعام": ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

الحكمة بمعنى النبوة، ففي سورة "النساء": ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ٥٤]، وفي سورة ص: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص: ٢٠]، وفي سورة "البقرة": ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾.

ورابعها: القرآن بما فيه من عجائب الأسرار كما في آية "النحل": ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾، وفي سورة "البقرة": ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] ويقول الفيروزأبادي: وردت الحكمة في القرآن على ستة أوجه:

الأول: بمعنى النبوة والرسالة: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: ٤٨] ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ [ص: ٢٠] أي: النبوة ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

الثاني: بمعنى القرآن والتفسير والتأويل وإصابة القول فيه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.

الثالث: بمعنى فهم الدقائق والفهم في الدين: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ ﴾.

الرابع: بمعنى الوعظ والتذكير: ﴿ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ أي: المواعظ الحسنة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ ﴾.

الخامس: فهو آيات القرآن وأوامره ونواهيه، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾.

السادس: بمعنى حجة العقل على وفق أحكام الشريعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [لقمان: ١٢] أي: قولًا يوافق العقل والشرع، وقال ابن كثير: قال علي بن أبي طلحة: يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومُحكمِه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله، وقال أيضًا: روي عن ابن عباس مرفوعًا: "الحكمة: القرآن" يعني تفسيره.

قال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ ليست النبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن، قال إبراهيم النخعي: الحكمة الفهم قال أبو مالك: الحكمة السُّنة، قال زيد بن أسلم: الحكمة العقل، وقال مالك: إنه ليقع في قلبي أنّ الحكمة هي الفقه في الدين، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله. قال السدي: الحكمة هي النبوة.

وهذه الأقوال ذكرها ابن كثير؛ ثم عقب قائلًا: والصحيح أن الحكمة كما قال الجمهور: لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها وأعلاها النبوة والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع، كما جاء في بعض الأحاديث. وقال عبد الرحمن السعدي مفسرًا الحكمة: الحكمة هي العلوم النافعة والمعارف الصائبة، والعقول المسدَّدة والألباب الرزينة وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، ثم قال: وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة التي هي وضع

الأشياء في مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام.

وقال القاسمي في تفسير الحكمة قال كثيرون: الحكمة إتقان العلم والعمل، وبعبارة الأخرى معرفة الحق والعمل به وقال الرازي: والمراد بالحكمة إما العلم وإما فعل الصواب.

ونواصل الحديث عن الحكمة في كتاب الله تعالى كما بينها المفسرون، فقد قال الأستاذ رشيد رضا مفسرًا الحكمة بأنها التمييز بين ما يقع في النفس من الإلهام الإلهي والوسواس الشيطاني، قال الألوسي: إن فيها تسعة وعشرين قولًا لأهل العلم، قريب بعضها من بعض. وعد بعضهم الأكثر منها اصطلاحًا واقتصارًا على ما قاله القائل فرضًا مهمًّا من الحكمة، وإلا فهي في الأصل مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في علم أو عمل أو قولٍ أو فيها كُلّها.

أما ابن عاشور؛ فقد قال: وفسرت الحكمة بأنها معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بما تبلغه الطاقة؛ أي: بحيث لا تلتبس الحقائق المتشابهة بعضها مع بعض، ولا يغلط في العلل والأسباب.

ونختم أقوال المفسرين في الحكمة بما ذكره الأستاذ سيد قطب - رحمه الله، حيث فسر الحكمة بأنها: القصد والاعتدال وإدراك العلل والغايات، والبصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال. هذه خلاصة لأهم أقوال المفسرين في تفسير معنى الحكمة في كتاب الله تعالى.

ومن بيان معنى الحكمة في القرآن إلى بيان معناها في السنة؛ فالسنة هي المُفسّرة للقرآن، وهي المصدر الثاني للتشريع، وقد وردت أحاديث في سنّة النبي ﷺ مشتملة على الحكمة، وإن كان البعض منها صحيحًا والبعض الآخر ضعيفًا،

ونقتصر - إن شاء الله تعالى- على أهم الأحاديث الصحيحة في هذا الباب، ومن ذلك ما ورد عن ابن عباسٍ } قال: ((ضمني رسول الله ﷺ إلى صدره، وقال: اللهم علمه الحكمة)) رواه البخاري قال البخاري: الحكمة الإصابة في غير النبوة. قال ابن حجر: واختلف المراد بالحكمة هنا؛ فقيل: الإصابة في القول، وقيل: الفهم عن الله وقيل: ما يشهد العقل بصحته، وقيل: نور يفرق به بين الإلهام والوسواس، وقيل: سُرعة الجواب بالصواب ومنهم من فسر الحكمة هنا بالقرآن.

وعن أنس بن مالك > قال: كان أبو ذرٍ يحدث أن رسول الله ﷺ قال: ((فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل؛ ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا؛ فأفرغه في صدري ثم أطبقه)). وعن عبد الله > ، قال: ((قال رسول الله ﷺ: لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله حكمةً فهو يقضي بها ويُعلمها)) رواه البخاري، والحكمة هنا فسرت بالقرآن كما وردت في حديث آخر.

وفي الحديث أيضًا عن أُبي بن كعب > أنّ رسول الله ﷺ قال: ((إن من الشعر حكمة)) حديث صحيح، قال ابن حجر: ((إن من الشعر حكمة)) أي: قولًا صادقًا مطابقًا للحق وقيل: أصل الحكمة المنع؛ فالمعنى إن من الشعر كلامًا نافعًا يمنع من السفه.

وعن أبي هريرة > قال: ((سمعت رسول الله ﷺ يقول: أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدةً وألين قلوبًا، الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية)) حديث صحيح. قال ابن الصلاح: إن المراد بالحكمة العلم المشتمل على المعرفة بالله، ومعاني الحكمة في هذه الحديث قريب من المعاني التي ذُكرت عند بيان الحكمة في كتاب الله تعالى، وقد وردت أحاديث أخرى من جنس الضعيفة نعزف عنها في معنى الحكمة أو في ذكرها في السنة.

ومن الحكمة في القرآن والسنة ؛ إلى تعريف الحكمة كما عرفها بعض العلماء ، فهناك عدة تعريفات أخرى للحكمة ، وإن كانت لا تخرج عن معنى التعريفات السابقة ولكن ذكرها يزيد الأمرَ وضُوحًا ، ومن ذلك قيل في الحكمة : هي وضع الشيء في موضعه ، قال ابن القيم : وأحسن ما قيل في الحكمة ، قول مجاهد ومالك : إنها معرفة الحق ، والعمل به والإصابة في القول والعمل ، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان.

وقال الشيخ رشيد رضا : الحكمة العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع الذي هو الخير، قال الرازي : حكم الحكمة والعقل هو الحكم الصادق المبرأ من الزيغ ، والخلل ، وحكم الحسن والشهوة والنفس توقع الإنسان في البلاء والمحنة.

وأخيرًا لعل خير خلاصة تجمع أغلب هذه المعاني التي وردت في الحكمة ، هي أنها فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي ، ولنأخذ مثلًا يُوضِّح ذلك الأمر بالصلاة مما ينبغي والأمر بشرب الخمر لا ينبغي ، وعلى والوجه الذي ينبغي ، فقد يكون الأمر بالصلاة تذكيرًا أو أمرًا أو ضربًا حسب الأحوال ، وفي الوقت الذي ينبغي وذلك بمراعاة الزمان والمكان ، وهذا له عدة صور وأحوال تجب مراعاتها ، وتتمة للفائدة نذكر أقسام الحكمة : كما قال ابن القيم - رحمه الله- : والحكمة حكمتان علمية وعملية ؛ فالعلمية الاطلاع على بواطن الأشياء وارتباط الأسباب بمسبباتها خلقًا وأمرًا ، قَدَرًا وشرعًا ، والعملية كما قال صاحب (المنازل) : وضع الشيء في موضعه ، قال : وهي على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن تُعطي كل شيء حقّه ، ولا تعديه حده ، ولا تعجله عن وقته ولا تؤخره عنه.

الدرجة الثانية: أن تشهد نظر الله في وعده وتعرف عدله في حكمه وتلحظ بره في منعه، ومن معاني هذه الدرجة قول أهل الإثبات والسنة: إنها - أي: الحكمة- الغايات المحمودة المطلوبة له سبحانه بخلقه، وأمره التي أمر لأجلها، وقدر الخلق لأجلها.

الدرجة الثالثة: أن تبلغ في استدلالك البصيرة، وفي إرشادك الحقيقة، وفي إشاراتك الغاية، قال ابن القيم: يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات، وهي البصيرة التي تكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة على سائر الأمة، وهي أعلى درجات العلماء. انتهى كلام ابن القيم في كتابه (مدارج السالكين).

هذا عن مفهوم الحكمة والتي جاءت في القرآن الكريم، بل وصف بها القرآن الكريم أيضًا، فالقرآن الكريم كله حكمة قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس: ١]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، ولما لا يكون كذلك وهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ فموضوعنا الحكمة مستمد من كتاب الله - تبارك وتعالى- وسيدور في فلك القرآن والسنة، وبيان أهمية هذه الحكمة في تبليغ الدعوة الإسلامية إن شاء الله تعالى، ولكن قبل بيان أهميتها نشير إلى موانع الحكمة بإذن الله - تبارك وتعالى.

خوارم الحكمة وموانعها

من المهم ونحن نعالج موضوع الحكمة أن نذكر أهم الأسباب التي تمنع من تحقق الحكمة، وتحول دون وجودها، ونحاول إن شاء الله تعالى أن نستقرئ هذه الموانع، وأن نتتبعها في مظانها، وهي على سبيل المثال:

المانع الأول: الهوى وعدم التجرد، كما قال ﷻ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾. [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [القصص: ٥٠] قال - عز من قائل - : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾، والآيات في ذم الهوى كثيرة جدًّا، وكلها تدل على استحالة اجتماع الحكمة والهوى، وتأمل في هاتين الآيتين؛ ليتضح لك المعنى الذي أقول قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٩]، والحكم بما أنزل الله هو مقتضى الحكمة؛ لأن تعريف الحكمة والعدل متقارب بل العدل حكمة والحكمة عدل؛ لأن كلًّا منهما وضع الشيخ في موضعه والآية الأخرى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾ [محمد: ١٤].

وفي حديث الرسول ﷺ في بيان وقت العزلة: ((فإذا رأيت شحًّا مطاعًا وهوًى متبعًا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العوام))، وهذا دليل على فقدان الحكمة وذهابها والحكمة منبعها العقل، بل إنّ معناهما واشتقاقهما متقارب فكلاهما يَدُلّان على المنع مما لا ينبغي، ومن هنا جاء الشاعر يبين تأثير الهوى على الحكمة:

وآفة العقل الهوى فمن علا ❖ على هواه عقله فقد نجا

والهوى يُعمي ويصمّ، كما قال شيخ الإسلام فمن كانت هذه حاله فأنى له الحكمة.

المانع الثاني: الجهل؛ والجهل ضد العلم وما وجد الجهل في شيء إلا شانه، وما نزع من شيء إلا زانه. والتأمل في هذه الآيات يبين تأثير الجهل، وأنه والحكمة لا يجتمعان؛ حيث ذكر الله ﷻ في أكثر من آية أن سبب عدم توفيقهم للحق

والحكمة هو الجهل في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزمر: ٦٤] كذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال - عز من قائل: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود: ٤٦].

ومن خلال هذه الآيات وأمثالها يتضح لنا تأثير الجهل على الحكمة وأنه من خوارمها؛ ولذا قال الشاعر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ❖ وأجسادهم دون القبور قبور

فهل ننتظر الحكمة من الأموات؟.

المانع الثالث: الأخذ بظواهر النصوص، وعدم الجمع بين الأدلة؛ ذلك كمنهج الظاهرية في الأخذ بظواهر النصوص؛ ولذا لم يوفقوا للصواب في كثير من المسائل، وهل الحكمة إلا الإصابة في القول والعمل، أما عدم الجمع بين الأدلة، فهو مزلق آخر من المزالق التي يقع فيها بعض طلاب العلم فيعتمدون على دليلٍ دون آخر، وهذا يؤدي إلى اتخاذ بعض المواقف بعيدًا عن الحكمة، وهم يُحسبونَ أنهم يحسنون صنعًا؛ فافطن لهذا. لكن الذي لا يجمع بين الأدلة فطن لشيء ولكن غابت عنه أشياء.

ومن ذلك الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩]، ويغفل عن الأحاديث التي تبين أن الإنسان قد يكون آثمًا إذا رأى منكرًا وعمله غيره؛ فلم يغيره إما بيده أو بلسانه أو بقلبه حسب استطاعته، وكذلك يغفُلُ عن الأحاديث التي تُبين مشاركة المسلم لغيره في الأجر، كما ورد في أحاديث كثيرة ومنها: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من

ثلاث))، ومثل ذلك الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] على وجوب الإنصات مطلقًا، ويغفل الأحاديث الواجبة في قراءة "الفاتحة" في الصلاة حتى مع قراءة الإمام.

المانع الرابع: من موانع تلك الحكمة الاستدلال بالأدلة في غير موضعها: وهذا يختلف عن السابق؛ لأنه استخدام للدليل في غير موضعه والأمثلة توضح ذلك فكم سمعنا من الناس من إذا طُلب منه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال: مالي وللناس؛ فلم أُكلف بهم، والله يقول: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وقد روى الإمام أحمد: أن أبا بكر الصديق > قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أيها الناس إن تقرأون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾، وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يُوشك الله ﷻ أن يعمهم بعقابه)) قال ابن كثير: وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في (صحيحه) وغيرهم من طرقٍ كثيرة عن جماعة كثيرة، عن إسماعيل بن أبي خالد به مُتصلًا مرفوعًا، ومنهم من رواه عنه به موقوفًا على الصديق، وقد رجح رفعه الدارقطني وغيره.

ومن الاستدلال بالأدلة في غير موضعها: استدلال كثير من الناس بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وبخاصة عند تبرير عدم المُشاركة في الجهاد في سبيل الله، ولم يَعْلموا أنّ هذا الدليل حجة عليهم، لا لهم ولننظر في هذا الحديث روى الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي عمران، قال: "حمل رجل بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه، ومعنا

أبو أيوب الأنصاري فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة؛ فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تحببًا؛ فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد أثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها؛ فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهم؛ فنزل قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾، فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد". والأمثلة في هذا كثيرة جدًّا والاستدلال بها على هذا الوجه يخالف الحكمة وينافيها.

المانع الخامس: عدمُ فهم الدليل، وذلك بأن يكون الدليل صحيحًا والاستشهاد به في موضعه ولكنه لا يفهم الدليل على وجهه الصحيح، وذلك فرع عن الجهل، وهنا يخالف الحكمة في تصرفه وأسلوب تطبيقه ومثال ذلك أن الرسول ﷺ قال: ((مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر)) الحديث. فيأتي فيضرب ابنه ضربًا مبرحًا وغليظًا، وهذا غير مرادٍ من الحديث وهو يخالف الحكمة؛ لأن المراد هو الضرب غير المبرح الموجع؛ لأن الطفل لم يكلف بعد فمن كان في سن العاشرة أو الحادية عشر، فلم يبلغ سن التكليف، فكيف نعاقبه عقابًا شديدًا، والمراد هو التربية والتعويد لا العقاب والتعذير.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ [النساء: ٣٤]، فيأتي الزوج ولا يفهم معنى هذه الآية ويقول: إن الواو لا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا، فيبدأ بالضرب قبل الوعظ والهجر، ويأتي آخر ويضرب زوجته ضربًا شديدًا مؤلمًا، وكل هذا خلاف الحكمة وناشئ من قصور الفهم

المانع السادس: قلة التجربة: ولذا نجد أن بعض تصرفات الشباب تخالف الحكمة لقلة تجربتهم ومحدوديتها وضعفها.

المانع السابع: الفردية: وهي من خوارم الحكمة الظاهرة؛ لذا قال الرسول ﷺ: ((إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)) وقال الشاعر:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ❖ رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

المانع الثامن: عدم تحديد الأهداف.

المانع التاسع: النظرة السطحية.

المانع العاشر: آنية التفكير وموسمية العمل والارتجال؛ إن هذه العوائق الثلاثة متقاربة في معناها وحقيقتها، وإن كان كل واحدٍ منها يحمل معنى خاصًّا، ونستطيع أن نقول: إن بينها عمومًا وخصوصًا؛ فعدم تحديد الأهداف ورسمِها بدقة يُؤدي إلى آنية التفكير وموسمية العمل، وهذا هو الارتجال بعينه، وهذا الأمر لا ينشأ عادة إلا من النظرة السطحية للأمور، والوقوف عند ظواهر الأحداث دون النظر في أسبابها ومآلاتها وآثارها، والنتيجة الطبيعة لاتخاذ القرار والموقف من الحدث، وعدم تطابق ما يتخذ من قرار مع ما يستوجبه الحدث، وبالتالي يجانب الحكمة؛ لأن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه.

وهذا مثل طبيب جاءه المريض قد بدت بعض البسور على وجهه، فقام الطبيب بوصف بعض المراهم التي تزيل البسور دون البحث في تحليل أسباب هذا المرض، والنتيجة هي عودة البسور بين فترة وأخرى لعدم القضاء على أسبابها، ومثل ذلك من في أسنانه تسوس ويشكو من آلامها، فكل ما جاء إلى الطبيب أعطاه ما يسكن الألم ويستمر الألم يعاوده، والطبيب مستمر في وصف المسكنات دون اتخاذ العلاج الحاسم لإزالة التسوس، حتى لو أدى إلى إزالة السن

ذاته ؛ لأن بقاء التسوس سيجعله يقضي على بقية السن ، أو قد ينتقل المرض إلى العصب وبقية الأسنان إذا أهملت الأسباب ، وتم تجاهل حقيقة المرض. ومثل ذلك نقول في الأحداث ، وما نواجهه من أمور تحتاج إلى علاج حاسم ذي أهداف محددة.

المانع الحادي عشر: تقديم الجزئيات على الكليات ، وهذا ناشئ من قصور العلم ، وقصر النظر وهذا الأمر ابتلينا به كثيرًا في عصرنا الحاضر ، وفي بعض دول العالم الإسلامي ، وأدرك أعداء الإسلام هذه الثغرة ؛ فأقاموا بعض شعائر الإسلام الجزئية ، وهدموا أصوله وأركانه يعاقبون المفطر في رمضان ، ولكنهم لا يزيلون مظاهر الشرك ، ولا يأمرون بالصلاة فضلًا عن أن يعاقبوا تاركها ، يقرأون القرآن في الإذاعة وينقلون خطبة الجمعة في التليفزيون ، ولكنهم يتحاكمون إلى شريعة الطاغوت ، ورأينا عددًا من الناس يغضبون إذا رأوا شارب الدخان ، وهو منكر ولا شك ولكنهم لا يحركون ساكنًا عندما يرون الربا ، وقد ضرب في الأرض أطنابًا.

وينفعلون إذا خرجت امرأة سافرة عن وجهها ، وهذا محرم بالكتاب والسنة ، ولكنهم يتجاهلون دخول اليهود والنصارى والوثنيين إلى بلاد المسلمين وإقامتهم بين ظهرانيهم ؛ ولتتضح الصورة أكثر أضرب هذا المثال مريض أصيب بالزائدة ؛ فذهب إلى المستشفى مسرعًا فأصابته شوكة في إصبعه ، فلما وصل انشغل الطبيب بالإصبع وشوكته عن الزائدة التي قد تنفجر بين لحظة وأخرى ، فتودي بصاحبها أين الحكمة في هذا التصرف؟.

المانع الثاني عشر: العجلة وعدم ضبط النفس ، فالعجلة من الشيطان ، وإذا ابتلي إنسان بهذه الخصلة الذميمة ؛ ستقوده إلى المهالك ومن آثار العجلة ومظاهرها

عدم ضبط النفس في المواقف، التي تحتاج إلى تأنٍ وتؤدة وروية، وأكثر أسباب الندم ناتج عن العجلة والانفعال غير المنضبط، وهنا تكون النتيجة غير محمودة:

من غرس الحنظل لا يرتجي ❖ أن يجتني السكر من غرسته

المانع الثالث عشر: الخلط في المفاهيم، الحكيم لا بد أن ينطلق من مفاهيم صحيحة وقواعد ثابتة، مستمدة من الكتاب والسنة، وإذا اختلطت المفاهيم لدى المرء وتشابهت الأمور لن يصل إلى مبتغاه وسيتخبط في سيره، ومن الملحوظ في عصرنا الحاضر اختلاط كثير من المفاهيم على كثير من طلاب العلم والدعاة، ومن ذلك الخلط في مفهوم خوف الفتنة حتى أصبح سيفًا مسلطًا على رءوس الداعين إلى الله، الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر؛ فكلما أمر آمر بمعروف أو نهى ناهٍ عن منكر قيل له: إنك تثير الفتنة، ولم يعلم أولئك أنهم في الفتنة قد سقطوا وكان من نتيجة هذا الأمر أن استمرت الأمة تقدم التنازلات الواحد تلو الآخر، وبعض الدعاة ساكتون أو مسكتون خوف الفتنة حتى ضرب الكفر أوتاده في بلاد المسلمين، وهذه هي الفتنة الحقيقة، وقد قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

ومن الخلط في المفاهيم الخلط بين الحزبية والانتماء؛ حتى سوى الكثير بينهما مع الفارق الكبير، فالحزبية مذمومة وهي تحزب المسلمين بعضهم ضد بعض؛ فالمسلمون لا يكونون إلا حزبًا واحدًا ضد الكفر وأهله أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون، أما الانتماء لأهل السنة والجماعة ولجماعة المسلمين ومناهجهم؛ فهو مشروع واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وقاله تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وكذلك ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، والمذموم هو الانتماء لأهل الباطل وللأحزاب البدعية، وهذا ليس من الانتماء المشروع في شيء.

ونتيجة للخلط في هذا المفهوم جانبت الحكمة بعض المنتسبين إلى الدعوة، فبدلًا أن يدعو إلى الوحدة والائتلاف دعوا إلى الفردية والتفرد، وهم لا يريدون ذلك ولا شك، ولكن من يزرع الشوك لا يقطف العنب.

ومن الأمثلة أيضًا في خلط المفاهيم: الخلط بين الوسائل والغايات، وكذلك الخلط بين الثوابت والمتغيرات، وكذلك عدم إدراك الفرق بين حب السلف وفهم منهج السلف، والالتزام بمنهج السلف؛ فليس حب السلف وحده كافيًا لأن يكون صاحبه ممثلًا لمنهج السلف، فلا بد من حب السلف والذود عنهم وعن منهجهم، وفهم المنهج أي: منهج أهل السنة والجماعة، والالتزام بمنهج السلف خُلقًا ودعوة وسلوكًا وقولًا وفعلًا، وأي إخلالٍ بأي واحدٍ بهذه الأسس يعتبر إخلالًا بانتساب الفرد إلى السلف.

المانع الرابع عشر: عدم إتقان قاعدة المصالح والمفاسد، وهذا يؤدي إلى تقديم جلب المصلحة على دفع المفسدة ودفع المفسدة الصغرى بالكبرى، وجلب المصلحة الدنيا وترك العليا، وليس الحكيم هو من يعرف الخير والشر؛ وإنما الحكيم من يعرف خير الخيرين وشر الشرين، وهذه القاعدة هي أعظم قواعد الشريعة، والجهل بها يجر على المسلمين الشرور والويلات.

المانع الخامس عشر: من موانع الحكمة: الغفلة عن مكائد الأعداء، فنحن في عصرٍ اشتد فيه الصراع بين الحق والباطل، وقد تطورت أساليب الأعداء في حرب الإسلام والمسلمين، وبخاصة عندما أثبت لهم التاريخ أن أي معركة مباشرة مع المسلمين لن تكون في صالح الكفر إن عاجلًا أو آجلًا، وهنا لجئوا إلى أساليب المكر والخديعة، والتلبيس وقد انطلت هذه الأساليب على كثيرٍ من المسلمين، وانخدعوا بالشعارات التي يرفعها أعداء الله، ومن هنا كانت كثير من المواقف

التي وقفها العلماء والدعاة في بعض بلاد المسلمين غير متكافئة مع خطط الأعداء ومؤامراتهم.

وهذه نتيجة الجهل بهذا الواقع، وها نحن ندفع ثمن هذا الأمر ربا فضلٍ ونسيئة، إن الحكمة هو فعل ما ينبغي كما ينبغي في الوقت الذي ينبغي؛ فكيف نفعل ما ينبغي كما ينبغي إذا كنا لا ندرك ماذا ينبغي؛ لأن الحكم فرع عن التصور، وتصورنا لعدونا يشوبه النقص والتقصير.

المانع السادس عشر والأخير: فإن من خوارم الحكمة الغلظة والعنف والطيش وما وجدت الفظاظة في شيء إلا شانته، وما نزعت من شيء إلا زانته، ويكفي لبيان ذلك أن نتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وسرعة الغضب والانفعال من خوارم وقوادح الحكمة. هذه أهم خوارم الحكمة وموانعها وحري بالدعاة إلى الله أن يتأملوها ليجتنبوها، وعلى طلاب العلم أن يحذروا أمتهم منها؛ ليكونوا مسددين في أقوالهم وأفعالهم ونياتهم.

أهمية الحكمة في تبليغ الدعوة الإسلامية

إن الحكمة مطلوبة في كل شيء، ولهي في تبليغ الدعوة الإسلامية أشد طلبًا، وينبغي أن يكون الإنسان حريصًا على الحكمة في كل ما يأتي ويذر، وأن يكون أشد حرصًا على هذه الحكمة في تبليغه الدعوة الإسلامية، ومن ثم فالحكمة تقتضي أن لا يتكلم إذا كان الكلام ليس مفيدًا، وأن يتكلم إذا أدرك أن الكلام سيكون مفيدًا، وأن يقل الكلام إذا كانت كثرته ستكون مدعاةً للجدل، وإذا كانت كثرته ستكون مذهبة للهيبة والبهاء أو منافية للرزانة والوقار، أو مدعاة لكثرة الأخطاء، أو إذا كانت هذه الكثرة ينسي بعضها بعضًا.

إن الحكمة تقتضي أن تكون الكلمات واضحةً يسيرة، وأن نتعهد الناس بالموعظة، وأن نخشى عليهم السآمة والملل، وأن نقول للناس حسنًا، كما قال ربنا ﷻ: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾، وكما قال نبينا ﷺ: ((الكلمة الطيبة صدقة)). وهي وصية الله لعباده ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٣]، كما قال ربنا ﷻ: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

فإذا قذفك رجل بكلمة تكرهها، وبكلمة فيها مسبة، أو طعن فاقذفه بكلمة فيها عفو وصفح وإحسان، ودعاء له بالعفو والمغفرة؛ فإنك بذلك - بإذن الله- تبدل العداوة التي في قلبه لك بمحبة وولاء، وتقطع على شياطين الإنس والجن وشاياتهم ووساوسهم وسعيهم بالنميمة والشر والفساد؛ فضلًا عما في ذلك من الأجر والثواب من الله ﷻ لامتثالك أمر الله ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [البقرة: ٨٣]، وطمعك في الثواب لحديث رسول الله ﷺ: ((والكلمة الطيبة صدقة))، كما قال ﷺ: ((أفش السلام وأطب الكلام وصل الأرحام وقم بالليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام)) أيضًا؛ فإن الكلم الطيب يصعد إلى الله تعالى، ويرفعه العمل الصالح كما قال تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾ [فاطر: ١٠].

والكلمة الطيبة سبب عظيم من أسباب تأليف القلوب، ودفع الشرور؛ فكم من شر دُفعَ بسبب كلمة طيبة، وكم حلة بالمودة، وجلبة من محبة بسبب كلمة طيبة، وكم من مشكلة اشتعلت، وجَريمة استعرت بسبب كلمة سيئة؛ فانتبه لذلك عبد الله، وتحرّ الحكمة في كل لفظٍ يخرج منك واحرص على أن يكون قولك قول

خير، ومناجاتك مناجاة بر وتقوى، قال تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) ﴾ [النساء: ١١٤].

إن الحكمة في الكلمة الطيبة، والكلمة الطيبة لا تصدر إلا من الطيبين والكلمة الخبيثة لا تصدر من إلا الخبيثين، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) ﴾ [إبراهيم: ٢٤- ٢٧].

إن الكلمة الطيبة تدل على طيب قائلها وحسن خلقه، كما أن الكلمة الخبيثة تصدر من الخبيثين، وتدل على خبث أخلاقهم تجد هذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) ﴾ [النور: ٢٦]

إن الحكمة تقتضي أن نتكلم الكلم الطيب، وتقتضي أن نعطي كل ذي حقٍ حقه بحيث يصبح الضعيف قويًا؛ حتى يأخذ حقه والقوي ضعيف حتى يؤخذ الحق منه، وقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]. القول السديد على ما أفادته الآية الكريمة سبب في صلاح الأعمال، وغفران الذنوب، أما القول الأعوج الأهوج المملوء بالمجاملات على حساب الحق؛ فإنه يُفسد الأعمال، ويُورث الشحناء ويكون سببًا في انتشار الشرّ وإحلال الفساد.

إنّ الحكمة تقتضي حسن الخُلق، وأن تقبل على إخوانك بالبشاشة وطلاقة الوجه عند الحديث معهم، وأن لا تعرض عنهم بوجهك وأن لا تعبث في وجوههم، ولا تصعر خدك للناس ولا تحقرن من المعروف شيئًا.

هذا ومثل هذه القضايا وغيرها كثير في أهمية الحكمة في تبليغ الدعوة الإسلامية تحتاج منا إلى وقفة أخرى.

الحكمة (٢)

عناصر الدرس

العنصر الأول	: استكمال الحديث عن أهمية الحكمة في تبليغ الدعوة الإسلامية	١٤٧
العنصر الثاني	: حكمة النبي ﷺ جعلت من أصحابه قادة ونوابغ	١٥١
العنصر الثالث	: حاجة الدعوة إلى منهج شامل	١٥٣
العنصر الرابع	: من الحكمة: الدعوة إلى الجوانب العملية، والتخلي عما لا ينفع	١٥٩

استكمال الحديث عن أهمية الحكمة في تبليغ الدعوة الإسلامية

فاعلم أخي الكريم، إن إيصال الخير للغير يحتاج إلى أناس مخلصين، يعملون له وينصحون به، ويبذلون الكثير من أجل مصلحة الآخرين ونفعهم؛ ولقد قضى الله ﷻ بوجود طائفة من المؤمنين، تعملُ للنّاس وتهتم بما يفيد الآخرين، والمسلمون يملكون الخير كله وقد جاءهم من عند الله نقيًّا واضحًا، وعليهم أن يقوموا بإيصال هذا الخير للآخرين؛ لتعم الهداية وينتشر الأمان والخلق الكريم، وبخاصة أن الله تعالى أوجب على المسلمين إيصال ما عندهم من خير لغيرهم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وحملهم مسئولية إيفاده الناس ونفعهم وإن الإسلام هو الخير كله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] أي: إلى الإسلام، فالإسلام هو الخير كله الذي نزل الوحي به، وحفظه الله تعالى بالمحافظة على القرآن الكريم والسنة النبوية، وبلغه رسول الله ﷺ لأصحابه، وأمرهم أن يبلغوه لمن وراءهم، وترك في الأمة هذه السنة لتسير عليها، وتأخذ من رسول الله ﷺ طريقة البلاغ ووسائله وأسلوبه، وكافة الدروس المستفادة من بلاغ رسول الله ﷺ ودعوته.

لقد تلقى رسول الله ﷺ من ربه حقائق الإسلام كاملة تامة، وعرّفه الله تعالى طبائع الناس، وعلمه الطريقة المثلى في تبليغ الدعوة، ووسيلة الحركة والإسلام، ووضع أمامه أساسيات المواجهة مع كافة الأجناس والطوائف؛ ليتعامل مع عقول الجميع ونفوسهم وعواطفهم بمنتهى الحكمة، وبذلك يتم البلاغ عن وعي وعلم وبصيرة وتقدم الدعوة على بصيرة ووضوح، إن تبليغ الدعوة إلى الناس

أمر واجب، وهو أمر ضروري للإسلام والمسلمين، ولغير المسلمين أجمعين، ومن ضرورته أن يكونَ هذا التبليغُ بالحِكمة والموعظة الحسنة؛ أما ضرورته للإسلام فلما في البلاغ من إيجابية تلتقي مع إيجابية الإسلام الذي أنزله الله لينتشر بين الناس، ويتعامل مع واقعهم وأمانيهم، وأما ضرورة البلاغ للمسلمين؛ فلأنه يبرز قيامهم بواجب تحملوه، وأمانة سيسألهم الله عنها، وأما ضرورته لغير المسلمين؛ فلأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور ويسعدهم بما جاء من عند الله تعالى، وينقذهم من أوهام تسيطر عليهم يتصورنها الحق، وليست هي من شيء ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ﴾ [إبراهيم: ١، ٢].

وإن العالم الآن يهتم بالإعلان وبالدعاية لكل ما يُريد إيصاله للناس، بما في ذلك من أثر بالغ في تحقيق أغراضه ومصالحه، وهي عادة حسنة؛ لولا ما شابها من مبالغة من التحسين وإحاطة الطلب بالإثارة والتشويق، لدرجة وصول الأمر إلى خداع الناس، وانقيادهم إلى رأي جماهيري زائف تحركه الدعاية، وتسيطر عليه الإشاعات، مع أنّ الأمر يحتاج إلى انضباط خلقي، والتزام بالحق والتمسك بالخير والصواب، إن من حق الإنسان أن يعلم الحقيقة ومن حقه أن يختار ما يُريد وأن يقتنع بما يشاء، وعلى من لديه نصيحة أو علم ألا يبخل به على أخيه، وأن يُمدّه به لتحقيق الأخوة الإنسانية، وتتوحد الاتجاهات في العالم كله.

إن الأفكار والمعاني تحتاج إلى من يوصلها إلى الناس لتحقيق الفوائد المترتبة عليها، والأخذ بيد الناس إلى الخير والسعادة، ونشر الرضا والسلام بينهم، وكُلُّ هذا يحتاجُ إلى حكمة في توصيله، وإلى حسن عرض في تبليغه؛ فالإسلامُ هو دين

الله تعالى، وهو أسلم الطرق وأحسنها لهداية الناس، وتحقيق مصالحهم؛ ولذا وجبَ تبليغُه إلى الناس ودعوتهم للدخول فيه، وقد قام رسولُ الله ﷺ بهذه المهمة خير قيام، وكَلّف المُسلمينَ بِهَا بعدَه، وهكذا الأمر مستمر إلى يوم القيامة، كُلّنا مقرٌّ بِضَرُورة تَبْلِيغ الإسلامِ وأهَمّيته، إلا أن نفرًا من الناس حاول صرف الناس عن التبليغ بحُجّة عدم جدواه، وهو أمر مرفوض لما في التبليغ من فائدة ظهرت في الماضي والحاضر، وظهورها في المستقبل أمر متحقق إن شاء الله.

والحِكْمَةُ تقتضي تبليغ الإسلام، كما نزل من عند الله تعالى إلى الناس بلا زيادة أو نقصان، أو تبديل أو تغيير، ولقد كان التبليغ مسئولية رسول الله ﷺ الأساسية حين قال الله له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧]، والتبليغ أمانة ومسئولية في أعناق المسلمين جميعًا بعد رسولِ الله ﷺ، وعليهم أن يؤدوا هذه المسئولية كما تعلموها من رسول الله ﷺ ملؤها البصيرة والحكمة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

إن تبليغَ الإسلام يتميزُ بأنه لا يرفع فريق على غيره؛ لأنّ الجميع عباد الله تعالى، وإن تبليغ الدعوة الإسلامية ينقل الإنسان من محيط البشر إلى مجال العلم الإلهي؛ ولذلك يُؤمن الإنسان بالحق، ويعملُ به، ويعيش دنياه على نمطه، ويلقى الله تعالى عليه.

إن الإسلام دعوة الله تعالى، وذلك سِرُّ تميزه وعظمته، ولا يمكن أبدًا أن يتساوى فكر البشر بتعاليم الله تعالى، ولن يَستَغني الإنسان عن دعوة الله تعالى؛ لأن الإنسان محدود بالزمان والمكان يتأثر بهما وينفعل بسببهما مع بيئته وأقرانه، فاقتضت الحكمة مراعاة ذلك عند مخاطبة الآخرين، وعند توجيه غاياتهم ومعرفة

خلفياتهم، وقد يصل الإنسان بفطرته إلى الحق؛ إلا أن الغضب قد يساوره أو تسيطر عليه اللذة؛ فينقلب على الحق الذي أدركه، فيتنافى ذلك مع الحكمة التي أمره الله ﷻ بها.

هذه الحِكْمَةُ التي تحتاج إلى عدة جوانب يُراعي فيها الإنسان مصلحة أخيه الإنسان؛ لتبعده عن الصراع والآلام التي لا نهاية لها، التي لا ينجو منها إلا بالعودة إلى الله تعالى، واتباع الدعوة الإسلامية، فهناك فريق من الناس جهل الحكمة؛ فصد عن الدعوة باتهام القائمين عليها بتهم منفرة لا أصل لها، كأن يصفهم بالعجز والجهل والقصور، ويحاول وضع العراقيل التي تمنعهم من مواصلة العمل، وبعد ذلك يدعي أن الدعوة لا تفيد، وفريق آخر يحارب الدعوة بإشاعة الشبه والأراجيف، إنّ الإنسانَ قابلٌ للتغيير في أخلاقه وغرائزه وطبائعه، ورِسَالَات الرُّسل تؤكد ضرورة الإصلاح وحدوث التغيير؛ فقد تُغير الناس.

إن الأمراض والعلل تعرض للأجسام؛ فتذهب بِجَمالها وكثيرًا ما تؤدي بحياتها إذا لم تسعف بالعلاج الناجح قبل استفحالها، واشتداد خطرها والقلوب كالأجسام يعرض لها من الأمراض والعلل ما يطفئ نورها، وما قد يفقدها حياتها، وذلك بورودها مورد الغي والضلال، وانهماكها في اللذات والشهوات، وعدم المبالاة بارتكاب أنواع الفسق والفجور، وسيئات البدع؛ فمن هذه الأفعال تكون أمراض القلوب وعللها، ولا دواء لها إلا من مراهم الشريعة الغراء المركبة تركيبًا علميًّا كيماويًّا دقيقًا من أجزاء الخطب والمواعظ وغيرها، التي ملئت بالحكمة وراعت الدقة، والموعظة الحسنة.

ولو عدنا إلى التاريخ لنقف على مدى التغيير الذي أحدثه تبليغ الإسلام وقت ظهورِه في مَكّة؛ فلقد بُعِثَ رَسُولُ الله ﷺ وحده وأخذ يدعو إلى الله تعالى

بكيفيات مُتعددة، حتى استجاب له الناس إننا حينما نقرأ التاريخ نرى أثر رسول الله ﷺ الكبيرة بين الناس؛ فلقد حول الطاقات الخاملة الضالة التي كانت موجودة قبل ظهور الإسلام إلى نشاط وقوة، تعمل لله، وتبذل كل طاقاتها في سبيل الله تعالى، وتنشر الإسلام في العالمين.

كما يقولُ الأستاذ أبو الحسن الندوي: عمد محمد ﷺ إلى الذّخائر البشرية، وهي أكداس من المواد الخام أضاعتها الجاهلية والكفر، والإخلاد إلى الأرض؛ فأوجدَ فِيهَا بإذنِ الله الإيمان والعَقِيدَة، وبَعثَ فِيهَا الرُّوحَ الجَلِيلَة وأثار دفائنها، وأشعل مواهبها، ووضع كل واحد من أصحابه في محله؛ فكأنما خلق له، وكأنما كان المكان شاغلًا لم يزل ينتظر ويتطلع إليه، وكأنما كان جامدًا فتحول جسمًا ناميًا وإنسانًا متصرفًا، وكأنما كان ميتًا لا يتحرك؛ فعاد حيًّا يملي على العالم إرادته، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق، فأصبح قائدًا بصيرًا يقود أهم الأمم يبين الله تعالى هذا الفرق، فيقول سبحانه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

حكمة النبي ﷺ جعلت من أصحابه قادة ونوابغ

إن حكمة النبي ﷺ جعلته يعمد إلى الأمة العربية الضائعة، وإلى أناس من غيرها بهذه الحكمة فما لبث العالم أن رأى من أتباعه نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ، أصبح عمر بن الخطاب > ، الذي كان راعيًا لأبيه لا شأن له عند الخطاب يشتمه وينهره، أصبح عمر هذا مفاجأة العالم بعبقريته وعصاميته يدحر كسرى وقيصر عن عروشهما، ويؤسس دولة إسلامية تجمع ممتلكاتهما، وتفوقهما في الإدارة وحسن النظام، فضلًا عن الورع والتقوى والعدل الذي لا يزال المثل السائر بين الناس.

هذا خالد بن الوليد > كان أحد فرسان قريش الشبان يحارب معها في نطاق محلي ضيق، إذ به يلمع سيفًا إلهيًّا لا يقوم له شيء إلا حصده، وينزل كصاعقة على الروم والفرس ويترك ذكرًا خالدًا في التاريخ، هذا أبو عبيدة > كان موصوفًا بالصلاح والأمانة والرفق، لا دور له في الجاهلية؛ فإذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء؛ فيتركها هرقل متحسرًا ويودعها الوداع الأخير، ويقول لها: "سلام عليك يا سورية سلام لا لقاء بعده".

وهذا عمرو بن العاص > أحد عقلاء قريش يسافر للحبشة للتضييق على المسلمين؛ فيرجع خائبًا فإذا به في ظل الإسلام يفتح مصر، وتصير له صولة عظيمة في الفتح والإدارة. وهذا سعد بن أبي وقاص > لم نسمع به في التاريخ العربي قبل الإسلام، كقائد جيش ورئيس كتيبة، إذا به يتقلد مفاتيح المدائن، ويفتح العراق وإيران.

وهذا سلمان الفارسي > كان ابن موبذان في إحدى قرى فارس، لم ينزل ينتقل من رق إلى رق، ومن قسوة إلى قسوة، وإذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة الإمبراطورية الفارسية، التي كان بالأمس أحد رعاياها، وأعجب من ذلك أنّ هذه الوظيفة لا تغير من زهادته وتقشفه؛ فيراه الناس يسكن في كوخ، ويحمل على رأسه الأثقال. وهذا بلال الحبشي > يبلغ من فضله وصلاحه مبلغًا يلقبه فيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب > بالسيد؛ حين قال: "أعتق سيدُنا سيدَنا". وهذا سالم مولى أبو حذيفة > يرى فيه عمر موضعًا للخلافة بعد موته؛ فيقول: "لو كان سالم حيًّا لاستخلفته".

وهذا زيد بن حارثة > يقود جيش المسلمين إلى مؤتة، وفيه جعفر بن أبي طالب، وخالد بن الوليد ويقود ابنه أسامة جيشًا فيه أبو بكر وعمر وهذا أبو ذر والمقداد وأبو الدرداء، وعمار بن ياسر، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب تهب عليهم جميعًا - رضي الله عنهم وأرضاهم- نفحة من نفحات الإسلام؛ فيصبحون من الزهاد المعدودين، والعلماء الراسخين، وهذا علي بن أبي طالب، وعائشة، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس - رضي الله عنهم وأرضاهم- قد أصبحوا في أحضان النبي الأمي ﷺ من علماء العالم يتفجر العلم من جوانبهم، وتنطق الحكمة على لسانهم؛ أبر الناس قلوبًا وأعمقهم علمًا وأقلهم تكلفًا، يتكلمون فينصت الزمان، ويخطبون فيسجل قلم التاريخ.

لقد وضع محمد ﷺ مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية، فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب، أصابت الجاهلية في مقتلها أو في صميمها؛ فأصمى رميته، وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحو نحوًا جديدًا ويفتتح عهدًا سعيدًا؛ ذلك هو العهد الإسلامي الذي لا يزال غرة في جبين التاريخ. إنها الحكمة في دعوة النبي ﷺ، التي جعلت الإسلام يصل إلى هذا المستوى العظيم، أين هي الدعوة التي ننتظر منها تلك الغايات.

حاجة الدعوة إلى منهج شامل

إن الدعوة إلى الله تعالى اليوم في أَمَسّ الحاجة إلى منهج شامل يحقق للإسلام توضيحًا وبيانًا وحركة وانتشارًا، على أن تكون هذه الدعوة متوجة بالحكمة، وعلى الداعية أن يتصف بالصفات التي تجعله على تلك الشاكلة؛ فالصفات التي يجب أن يلتزم بها الداعية ليست خاصة بنفسه فحسب، بل إنها في أغلبها عمل اجتماعي يشعر الداعية من خلاله أنه في حاجة إلى الناس، والناس في حاجة إليه، وإن الدعوة تشق طريقها بتعاون كل منهما مع الآخر، وشأن الداعِيَة أن

يترصد أخيار الرجال في المجتمع ؛ فيحتك بهم، ويتعرف عليهم، ويزورهم ويعلمهم طريق ضم الجهود الإسلامية، وتنسيقها. ولا يكون داعية اليوم لا من يفتش عن الناس، ويبحث عنهم ويسأل عن أخبارهم، ويرحل للقائهم ويزورهم في مجالسهم ومنتدياتهم، ومن انتظر مجيء الناس إليه في مسجده أو بيته ؛ فإن الأيام تبقيه وحده، ويتعلم فن التثاؤب.

إن الداعية في هذا المجال يحتاج أن يتفانى في قيامه بواجبه نحو دعوته، ولو على حساب نفسه، ويقيسُ نجاحه بمدى ما يكتسبه من أعضاء ينضمون لقافلة الدعوة في كل يوم، وإلا صار كمن يحرث في الماء، أو ينفخ في الهواء. إن الداعية بحق هو الذي يعيش لسواه لا لنفسه، ويكون ديدنه الدوران حول مجتمعه، وحول المسلمين، وليس حول ذاته وهو الذي يعمل على توفير الراحة للآخرين، ولو على حساب راحته ؛ فإذا قامت هذه الوشائج بين الداعية وبين الناس ؛ تحقق الوصال والاتصال وتحقق التأثر والأثر، ونجحت المهمة، وآتت الدعوةُ أكُلها بإذن ربها، وإن كان غير ذلك لم تكن دعوة ولا داعية.

وانطلاقًا من هذا المعنى حرص الدعاة إلى الله تعالى على أن يكونوا وسط المجتمع داعين فيه إلى الله بحكمة، ومتفانين في أداء الواجب المنوط بأعناقهم.

ومن خلال هذه المشاركة الاجتماعية من جانب الداعية تتحقق عدة فوائد مواجهة الداعية للمذاهب الباطلة والدعاوى الزائفة، التي تتعاون جميعها على تحويل الأرض إلى بؤرة للكفر والإلحاد، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، فإن تخلى الداعية عن واجبه في مواجهة هذه الحركات الهدامة ؛ فإنه بهذا الصنيع قد أعطاها النور الأخضر ؛ كي تعربد كيفما شاءت في بلاد المسلمين وصدق من قال:

ومن رعى غنمًا في أرض مسبعة ❖ ونام عنها تولى رعيها الأسد

هذا؛ وفائدة أخرى: استغلال الداعية كافة طاقاته، وإمكاناته لخدمة دعوته في حين أن البُعد عن المشاركة الاجتماعية يوجد كثيرًا من أوقات الفراغ، ويعطل كثيرًا من الإمكانات مما يهيئ الفرصة لفوات الكثير من المنافع التي تعود بالأصالة على المجتمع كله، ومن ورائها الإنسانية بأكملها؛ فلا يصح للداعية أن يطاوع نفسه في العزلة، مهما تزين له المقاصد والأسباب؛ فصومعة الداعية ميدان دعوته، ومحرابه الذي يستنزل فيه من الله تعالى الهدى والمعونة، هو العمل لخير الناس، وإن الله يتجلى على العاملين في ميادينهم، بأفضل مما يتجلى عن العابدين في محاريبهم. وما أبعد الفرق بين من ينهض إلى الله يوم القيامة، ومعه أمة ومن ينهض إليه وليس معه أحد.

وفي إطار الحكمة التي ينبغي أن يراعيها الداعية في مجال دعوته وعمله الاجتماعي؛ ألا ينظر إلى القلة والكثرة إنما ينبغي أن ينظر إلى الحق، وأن يستمسك به، وإن كان أهله قلة، ومخالفوه كثرة، ويستأنس لهذا المعنى بما وصف الله به خليله إبراهيم # حين وصفه وهو فرد بأنه أمة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠]، ومراعاة هذا الأمر تجعل الداعية يشعر بالأنس في ظل إيمانه بالحق الذي يدعو إليه، وأن الناس جميعًا في ضلالهم هم الغرباء الضائعون، وأن ينظر الداعية إلى الدعوة على أنها صاحبة الفضل عليه؛ فهو بها جليل القدر عظيم الشأن.

ومن روائع الأمثلة على ذلك ما روي: "أن رجلًا قال لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: جزاك الله عن الإسلام خيرًا، فقال له عمر بن عبد العزيز: بل جزى الله الإسلام عني خيرًا".

ومراعاة الداعية لهذا الأمر تجعله لا يدخر وسعًا في بذل أقصى الجهد في سبيل الدعوة، وهو على يقين بأنه إن أحسن فلنفسه، وإن أساء فعليها، وعلى الداعية أن يحرص على دعوة الآخرين وتعليمهم؛ فلا يعيش المؤمن في هذه الحياة وحده، بل يشاركه فيها أفراد آخرون القليل منهم مؤمن، والأكثر على غير الإيمان، وصدق الله العظيم: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، كما قال تعالى أيضًا: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وأمام هذا الوضع المتردي ينبغي على الداعية أن يدعو إلى الله؛ ليُخلص الناس من رقة الجهل والكفر، ولينقلهم إلى العلم والإيمان: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وفيما يجب أن يلاحظه الداعية أثناء دعوته من الحكمة ومن الصفات الحسنة: أن تعليم العلم ونشر الدعوة يعد من قبيل الصدقات الجارية التي يظل أجرها موصولًا لا ينقطع، وإن مات صاحبها، كما في حديث النبي ﷺ: ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))، وأن يعلم أن الانشغال بتعليم العلم، فوق أنه صدقة جارية؛ فإنه حياة للعلم يحافظ المرء من خلاله على الموجود منه، ويستكثر من المفقود، كما قال ابن عباس { : "تذاكروا هذا الحديث لا ينفلت منكم؛ فإنه ليس مثل القرآن مجموع محفوظ، وإنكم إن لم تذاكروا هذا الحديث ينفلت منكم، ولا يقولن أحدكم: حدثت أمس فلا أحدث اليوم بل حدث أمس ولتحدث اليوم ولتحدث غدًا".

وهكذا يعلمنا النبي ﷺ أن تعليم العلم يتعدى نفعه للآخرين، كما في الحديث: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا،

ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ؛ لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا)). وها هو النبي ﷺ يقول: ((فو الله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير من أن يكون لك حمر النعم)). وعلى هذا النسق ينبغي أن يكون الداعية حريصًا على دعوته، وألا يكلّ وألا يملّ مراعيًا الحكمة فيما يدعو إليه، وفيما يأتي وفيما يذر، لا يُفَرّق بين أمر كبير وأمر صغير.

فهذا عمر بن الخطاب > حين طعنه أبو لؤلؤة المجوسي وعرف الصحابة أنه ميت قال عمرو بن ميمون الأودي: "فدخلنا عليه وجاء الناس؛ فجعلوا يثنون عليه وجاء رجل شاب، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين، ببشرى لك من صحبة رسول الله ﷺ وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثُمّ وليت فعدلت ثم شهادة، فقال: وددت أن ذلك كفاف لا عليّ ولا لي؛ فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض فقال > : ردوا علي الغلام؛ فقال: يا ابن أخي، ارفع ثوبك؛ فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لربك". عمر بن الخطاب > يُقدم هذه النصيحة وهو على مشارف الموت، وبينه وبين الآخرة لحظات، ويقدم هذه النصيحة وهو ينظر في شأن الأمة ومن فيمن يكون الخليفة من بعده، ويجعلها في أهل الشورى الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ.

ومن الحكمة في الدعوة: أن يكون القيام بواجب الدعوة مصحوبًا بالأمل في قبول الناس لها، حيثُ يتحركُ الداعيةُ وفق ما أمره الله ﷻ في كتابه، وما دعاه إليه الرسول ﷺ في سنته من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقوم الداعية بهذا العمل باعتباره عبادة في ذاته، سواء وجد الآذان الصاغية والقلوب المفتوحة أم لم يجد، وسواء آمن الناس أم لم يؤمنوا؛ فهو على ثقة من أنّ ما لديه هو الحق، واستجابة الناس أو عدمها شيء آخر ألا ترى إلى قوله ﷺ: ((عُرِضَت عليّ الأُمم؛ فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد)). والشاهد في

الحديث أن قلة أو عدم إيمان أحد بنبي ما من الأنبياء لا يقدح في أن ما جاء به هو الحق، ولكن نظرة الداعية إلى مجموع الأدلة القرآنية والنبوية؛ تحيطه علمًا بأن الله خلق الناس جميعًا على فطرة سوية؛ فإذا اعترى هذه الفطرة بعض الصدأ لم يكن معناه أن الفطرة ذاتها فسدت، بل يظل إمكان الإصلاح فيها موجودًا بإذن الله - تبارك وتعالى- ويستأنس لهذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٤]. ويستأنس لذلك أيضًا بما فعله الله مع نبيه موسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون الطاغية قائلًا لهما: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٤].

وعلى هذا الترتيب يتحرك الداعية بثقة، ورجاء في إيمان الناس كلهم ورغبة الجميع فيما لديه من الخير، يقول الأستاذ البهي الخولي: الداعية الفقيه يستقبل الناس جميعًا، وهم لديه في حسن الاستعداد سواء، وكله رجاء بل يقين في أن يجد من الجميع أعوان له على الخير الذي يدعو إليه؛ فإذا أعرض عنه إنسان أو رده بسوء، فإنه لا يتوقع الشر من الآخرين أبدًا؛ إذ هو يدرك أنهم ينطوون على فطرة الحق، والحق مبعث الأمل والرجاء، بل مبعث الثقة واليقين؛ ولهذا تراه يستقبل الآخرين برجاء جديد ويقين جديد، كأنه له في كل فطرة وفي كل وجه هاتفًا يهتف به: هنا النصير فلا يفوتنك هذا النصير.

وما من شك في أن مراعاة الداعية لهذا الجانب يجعله دائم العطاء، ويجعل حياته حافلة بجلائل الأعمال؛ فإن استغنى أحد من الناس عما في يديه كانت سلوته أنه أحوج إليه من غيره، والله لن يضيع له جهده مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف: ٣٠].

ومن الحكمة في الدعوة: استغلال كافة الإمكانات لنشر الدعوة الإسلامية مع وضوح الغاية ومراعاة الوسائل والأساليب ؛ فإن نظرة إلى دور التعليم ووسائل الإعلام في العصر الحديث، لترينا إلى أي مدى كيف استغلت هذه الإمكانات بتقرير الباطل وإذاعة أدوات الفساد والإفساد، وإزاء هذا لا يليقُ بالداعية أن يعيشَ في إطار وسائلَ قديمة، وإن كان جهده لا يستغني عنها ؛ لكن في ظل المبادئ الباطلة التي تتزيا بكل الوسائل الفعالة يصير جهد الداعية ضعيف الأثر، إن لم يستفد من هذه الوسائل العصرية في تحقيق أهداف الدعوة وصدق من قال:

وألف بان خلفهم هادم كفى ❖ فكيف ببان واحد خلفه ألف هادم

لذا وجب على الداعية أن يجتهد في أن تكون للدعوة مؤسسات تعليمية تحمل رايتها، وخدمات اجتماعية تُعَرّف الناس باسمها، ومواد تعليمية وإعلامية وفق الأساليب العصرية تعرف الناس بمبادئ هذا الدين وتحيط المسلم علمًا بأحوال إخوانه المسلمين في شتى بقاع الأرض.

من الحكمة: الدعوة إلى الجوانب العملية، والتخلي عما لا ينفع

كان من دعاء بعض الصالحين: "اللهم اجعلني من غرسك الذين تستعملهم لطاعتك". حول هذه الغاية يتحرك الداعية مقدرًا لكل كلمة يقولها وكل خطوة يخطوها حتى لا تضيع سدى ؛ فإن من اشتغل بغير المهم أضر بالمهم، ومن ثم ينتخب الداعية ما يقوله للناس بحيث يشتمل على جوانب عملية تطبيقية، ويتخلى عن السفسطة والعلم غير النافع. وكذلك يحرص الداعية على ترغيب الناس في فضائل الأعمال، ويحثهم على ذكر الله تعالى وقراءة القرآن ونحو ذلك.

وعليه أن يترفع عن الجدال، طلبًا لتفريغ الأوقات لما هو أهم، فمن الحكمة أن يحرص الداعية على أن يستفيد بكل لحظة في حياته، وأن يظن بوقته أن يضيع سدى؛ فالواجبات عنده أكثر من الأوقات، ولا مجال للتفريط في أغلى الأشياء، وهو الوقت. وعلى الداعية أن يزود نفسه بكثير من المعارف، وأن يطلع على أكبر قدر ممكن من حقائق الحياة، ومذاهب العلماء، وفي حركته ودعوته ينبغي أن يتحرك بدافع الإخلاص لله تعالى، مع الاستفادة من تطورات العصر الحاضر، وتجديد أساليب الدعوة وتطبيق بعض التعاليم على ضوء ما جد في الحياة من أحداث كبار وعليه بالفهم، وفي ظل هذا الفهم يصبح الخلاف في الرأي ظاهرة صحية تثري المسلم بخصوبة المعلومات، وتؤهله لرؤية الموضوع الواحد من جميع أبعاده وزواياه، وذلك بدلًا من التناحر والتقاتل، كما هو شأن الكثير من المسلمين اليوم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وتقتضي الحكمة الحذر من الفتوى بغير علم؛ فإن الداعية لا بد وأن يحل مشاكل الناس، وأن يوجههم إلى الصواب؛ فكيف يكون ذلك إذا لم يكن على علم، ولهذا العلم حكمة،

فإن الداعية مسئول أمام الله تعالى عن كل كلمة يقولها أو حكم يحكم به، فعليه أن يستشعر مسئوليته أمام الله فيما يفتي به الناس، وأن يكون وجلًا من أن يقدم على فتوى دون أن تتوفر لها الأدوات والإمكانات، ويظل الخوف يظلله؛ حتى يتقي الله ﷻ في فتواه وعليه أن يدرك خطورة الفتوى بغير علم وأنها ترفع الوزر عن الآخذ بها ليبوء القائل بالإثم كله.

وأن يمسك الداعية عن الجواب فيما لم يتضح له وجه الصواب فيه مثالًا لقول الله: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ

مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وليعلم بأن سكوته عما لا يعلم خوفًا من الله لا يقل في الثواب عن الكلام به إذا عُلم، وأن يضع نصب عينيه أن إحجامه عن الجواب فيما لا يعلم - وإن أصابه من ذلك بعض الحرج- أهون من السؤال بين يدي الله تعالى، وأن يعلم بأن عدم معرفته ببعض الأشياء لا تحط من قدره كما يتصور البعض، والأمثلة على ذلك كثيرة في حياة سلف الأمة.

هذا ومن الحكمة في أهمية الدعوة إلى الله ﷻ: أن يَخْتَار الدّاعِيةُ القول المناسب في الوقت المناسب؛ فشأنُ الدّاعية كشأن الطبيب يباشر علاج أنواع شتى من الأمراض، وإن أمراض القلب لهي أخطر من أمراض البدن، وعليه أن يتحرى أوقات النشاط للمدعوين، والعمل على استجماع همتهم؛ فإن للقلوب شهوة وإقبالًا، وإن للقلوب فترة وإدبارًا، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها ودعوها عند فترتها وإدبارها، كما قال ابن مسعود > . وقال الحسن البصري - رحمه الله- : "حدث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم؛ فإذا التفتوا فاعلم أنّ لهم حاجات".

ومن الحكمة: مراعاة آداب درس العلم التي تتعلق بالهيئة والإلقاء والآداب، ومنها أن يرتدي من الثياب أحسنها، وأن يتطهر من الأحداث والأنجاس؛ قاصدًا بذلك تعظيم العلم وتوقيره، وأن يراعي التوسط في الصوت أثناء الحديث، حيث يسمع الحاضرين ولا يُشوش على من سواهم، وليكن حديثه على مَهَل ولا يسرده سردًا ليتدبره هو ومن سمعه، كما كان كلام النبي ﷺ في الحديث عن عائشة > قالت: ((إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم))، وفي رواية أخرى: ((كان كلام رسول الله ﷺ وسلم كلام فصل يفهمه كل من سمعه)).

وينبغي على الداعية أن يُراعي في حديثه التوسط والاقتصاد، وأن يتقن ما يُعلمه لغيره، وأن لا ينتصب للتعليم في شيء لا يحسنه، وألا يحقر في نفس المتعلم سائر العلوم التي لا يتعرض في تدريسه لها، وأن يعتني الداعية بأحوال تلامذته؛ فيجعلهم بمنزلة الأولاد من الوالد، والإخوة من الأخ، وهكذا على الداعية أن يكون شجاعًا في قولة الحق، لا يخشى في الله لومة لائم، وأنّ هذه الشجاعة تلازم الصدق فبقدر أن يكون الداعية صادقًا يكون شجاعًا، وأن لا تكون هذه الشجاعة تهورًا، ولا تكون سبًّا ولا شتمًا ولا إيذاءً، كما لا تكون الحكمة تهاونًا أو تفريطًا، ولا تكون الشجاعة غلظة أو قسوة، إنما الشجاعة أن تقول الحق، ولو كان مرًّا مع مراعاة سائر الآداب المطلوبة في الدعوة من كونها من الحكمة والموعظة الحسنة، في حين أن الغلظة تعني أن توجه من تريد توجيهه بالجفاء والفظاظة والشدة، مما يحمل المدعو على مزيد من العناد والإنكار، وصدق الله إذ يقول: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالشجاعة إذًا لا تعني التهور على قدر ما تعني أن تكون صلبًا في المواقف التي تستأهل ذلك، كما وصف الله أنبياءه ورسله الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله، وكفى بالله حسيبًا.

تقتضي الحكمة من الداعية أن يكون موصوفًا بالصبر، متصفًا بالتضحية، وقد جاء ذلك في كتاب الله تعالى، وفي سنة النبي ﷺ وملئت الكتب من سيرة السلف الصالح بمثل هذه الأخلاق، وهذه الحكمة والتي منها عناية الداعية بما يصلح به أمر معيشته، وعليه أن يكون رفيقًا بالمدعوين وأن يدعو الناس بالتيسير لا بالتعسير وبالرفق لا بالتشدد، فما دخل الرفق في شيء إلا زانه، وما دخل العنف

في شيء إلا شانه، وسنة النبي ﷺ مليئة بهذا المعنى في كثير من أدلتها، وفي كثير من أحكامها.

وفي هدي النبي ﷺ وسنته، وهذه أمور تحتاج إلى تفصيل في مجال آخر - إن شاء الله- وعلى الداعية أن يكون طلق الوجه ملازم البشر، متجنبًا ما يشينه من المزاح وفضول الكلام، وعلى الداعية أن يرقى إلى مستوى الدعوة التي ينتسب إليها ويحمل رايتها، وأن ذلك يعني أن يسمو بأخلاقه عن التدني، وأفعاله وأقواله عن السقوط والتبذل، هذا الذي ذكرته مختصرًا له تفصيله في كتاب الله تعالى، وفي سنة النبي ﷺ وفي كلام السلف الصالح وهديهم، فليرجع إليه بإذن الله - تبارك وتعالى- .

الحكمة في الدعوة إلى الله ﷻ وأهميتها تبدو واضحة في قصص القرآن، حين ذكر القرآن الكريم قصة أصحاب الكهف؛ فإنها لقصة عجيبة ولا أتحدث عن القصة أو تفصيلها؛ لكني أُشير إلى موضع الحكمة في تصرف هؤلاء الفتية، وقدرتهم على تجاوز المحنة التي مروا بها؛ فقد ذكر ابن كثير نقلًا عن غير واحد من السلف والخلف أن هؤلاء الفتية كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وقد فارقوا قومهم لما رأوا ما هم عليه من عبادة غير الله؛ حيث كانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها، ولهم ملك جبار عنيد فاتفقت كلمة هؤلاء الفتية على اعتزال قومهم، واتخاذ مكان يعبدون الله - تبارك وتعالى- فيه، فعرف به قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله ﷻ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف: ١٤].

ولكن ملكهم أبى دعوتهم وتهددهم وتوعدهم إن لم يرجعوا إلى دين قومهم، وأعطاهم مهلة لينظروا في أمرهم، وبعد ذلك اجتمعوا وقرروا الفرار بدينهم مرة أخرى إلى مكان آخر، وهو الكهف الذي لجأوا إليه، وذكر الله لنا تفاصيل قصتهم في سورة الكهف، وتظهر الحكمة في قصتهم بما يلي أن هدايتهم لدين الله وعدم تقليد قومهم على ما هم عليه هو عين الحكمة، وذلك - فضل الله- يؤتيه من يشاء وأن اعتزالهم لقومهم بعد أن أدركوا أنه لا ينفع معهم نصح ولا دعوة، وهذه هي العزلة المشروعة وبخاصة عند وقوع الفتن أو الخشية منها؛ وهذا مصداق الحديث الصحيح: ((يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن)). ومن الحكمة صمودهم على الحق عند مواجهتهم للباطل وهكذا.

إنها قصة عجيبة فيها الحكمة والعبرة وبيان منهج الدعوة وحسن استخدام الوسائل، وتقدير المصالح والمفاسد، ومعرفة ما آلت إليه الأمور إلى غير ذلك من الدروس والعبر التي ينبغي أن يستفيد الدعاة منها في دعوتهم إلى الله ﷻ، ولك أن تنظر في قصة سليمان وملكة سبأ وما في القصة من حِكَم، ولعلنا نتطرق إلى شيء من ذلك عند الأسلوب القصصي في القرآن الكريم، قصة لقمان وابنه فضلًا عن أمثلة من الحكمة في سنة النبي ﷺ، لعلنا نتعرض لها إن شاء الله تعالى.

الحكمة (٣)

عناصر الدرس

العنصر الأول	: قصة سليمان -عليه السلام- مع ملكة سبأ	١٦٧
العنصر الثاني	: قصة لقمان -عليه السلام- مع ابنه	١٧١
العنصر الثالث	: أمثلة من الحكمة في السنة النبوية	١٧٢
العنصر الرابع	: من الوسائل التي تؤدي إلى الحكمة	١٨١

قصة سليمان # مع ملكة سبأ

فهذه قصة سليمان # مع ملكة سبأ، وهي قصة طويلة ذكرها الله ﷻ في سورة "النمل"، وقد فصل المُفَسّرونَ فيها وذكروا فيها عددًا من الروايات؛ لم تخلُ من الإسرائيليات، وسأقتصر على النص القرآني للوقوف عند بعض هذه المواقف التي نلتمس فيها الحكمة في التصرف، واتخاذ القرار.

وأول موقف: نراه هو عناية سليمان # برعيته، وتفقده لأحوالهم فالقرآن يقول: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ ﴾ [النمل: ٢٠].

أمر ثان: سليمان # لا يتعجل بالحكم على غياب الهدهد؛ حيث وضع الاحتمال الأول بالسؤال عن سبب عدم رؤيته ﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ ﴾ فقد يكون موجودًا، ولكن سليمان لم يره لسبب من الأسباب، أم أنه كان من الغائبين، إنه إذًا منهج للتثبت وعدم العجلة قبل اتخاذ القرار.

وأمر ثالث: عندما تأكد لسليمان # أنه كان غائبًا أصدر القرار العادل العذاب الشديد أو الذبح أو البراءة، وهي التي تنجيه من إحدى هاتين العقوبتين إن جاء بسلطان مبين وبحجة واضحة.

فسليمان # لم يغتر بملكه وقوته وقدرته؛ ليتسلط على هذا المخلوق الضعيف؛ لأنه يعلم قدرة الله عليه، وقد كان احتياط سليمان # سليمًا، ووضعه للاحتمالات كان صائبًا؛ فقد ثبتت براءة الهدهد، فقد جاء بسلطان مبين، فقال: ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ ﴾ [النمل: ٢٢]، إنه منهج للعدل يرسمه سليمان # وأسلوب في القيادة يندر له المثيل.

وأمر رابع: يسمع سليمان # خبر سبأ، كما حكاه الهدهد، والخبر في غاية الأهمية، بل إنه خبر يزلزل الجبال، ملك قوي وعرش عظيم ويعبدون غير الله، كل هذا وهم في جوار سُليمان؛ فقد يهددون ملكه ذات يوم، ومع هذا فلا يتعجل # ويلتزم منهج التثبت مع أنه يعلم أن الهدهد أقل من أن يكذب عليه، وبخاصة أن الهدهد بحاجة إلى براءة ساحته بعد تخلفه وغيابه؛ فمن المُستبعد أن يضيف إلى ذلك جريمة لا تغتفر؛ فإذا كانت عقوبة الغياب بدون إذن هو العذاب أو القتل؛ فماذا ستكون عقوبة الكذب، والهدهد يعلم أن سليمان لا يخفى عليه الكذب.

ومع أن كل الدلائل تشير إلى صدق الهدهد، وبعده عن الكذب؛ فإن سليمان # لا تأخذه العاطفة، ويظل ملتزمًا بمنهج التثبت: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل: ٢٧]، وهذا عين الحكمة وأساسها.

وأمر خامس: يكتب سليمان # الرسالة وأي رسالة وبأي أسلوب حتى مع أعدائه، وهم مشركون أيضًا إنه أسلوب رائع حكيم يقتحم شغاف القلوب، ويسيطر عليها مع الإيجاز والقوة والبيان ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١].

أمر سادس: عندما يسمع المرء خبر الهدهد، وأن هؤلاء القوم قد ولوا امرأة يتملكه العجب أليس فيهم رجال، ولكن عندما يرى كيف كانت هذه المرأة تقود قومها، وحنكتها وسياستها وحكمتها لا يستغرب ذلك، ويدرك سر هذا الاختيار، ولننظر إلى شيء من حكمتها في قيادة قومها فهي أولًا تستلزم بالشورى منهج وسلوك، ولا تقطع أمر دون عقلاء قومها وهم ملؤها، وعندما فوضها قومها باتخاذ القرار المناسب، كانت حكيمة وعاقلة، فلم تستخف بقوة سليمان

ولم يدخلها الغرور بقول قومها: ﴿ نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النمل: ٣٣]، بل كان رأيها الصائب وموقفها الحكيم: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل: ٣٤]، ولهذا كان لا بد من اتخاذ خطوة عملية تكشف حقيقة عدوها قبل الدخول في معركة قد تكون خاسرة ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل: ٣٥]. ولهذا فقد وصف الحسن - رحمه الله- هذه المرأة قائلًا: كانت هي أحزم رأيًا منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه.

أمر سابع: نستمر مع هذه التصرفات الحكيمة، والقرارات الصائبة حيث جاء جواب سُليمان على رسالتها الهدية: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧]، قارنوا بين الرسالة الأولى في رقتها ولينها وقوتها، وبين هذه الرسالة في صرامتها وحزمها وبلاغة أسلوبها، وهذه هي الحكمة وضع الشيء في موضعه؛ فالبداية كانت تقتضي مثل تلك الرسالة والنهاية تقتضي هذه الرسالة، ولقد فعل سليمان # ما ينبغي كما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي ولا غرو ولقد آتاه الله الملك والحكمة، كما آتى أباه - عليهما السلام.

أمر ثامن: أخيرًا تتخذ هذه المرأة القرار الحاسم الحكيم الذي يعجز عن اتخاذه كثير من الرجال بسبب الهوى والتعصب والتقليد، إنه قرار الاستجابة لسليمان #، ودعوته طائعة مختارة.

وأمر تاسع: أما غاية الحكمة وذروتها فهو موقف سليمان # مما حدث، فهل داخله العجب والغرور أو نسب الفضل لنفسه حاشاه من ذلك، بل قال: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل: ٤٠].

ما أحوجنا إلى تأمل هذه القصة والإفادة مما فيها بجميع أطرافها سليمان # وملكة سبأ والهدهد؛ إن إبراز مواطن الحكمة في هذه القصة تبرز من خلال ما يلي:

١- العدل.

٢- التثبت.

٣- بُعد الرؤية وسعة الأفق.

٤- إبطال قاعدة المصالح والمفاسد.

٥- القوة بدون عنف واللين بدون ضعف.

٦- أداء المسئولية على وجهها.

٧- الشورى.

٨- نسبة الفضل لأهله.

٩- التنبه والحذر من الاستدراج.

١٠- القوة في اتخاذ القرار في الوقت المناسب.

فما أعظمها من حِكَم نحنُ أحوج ما نكون إليها في الدعوة إلى الله ﷻ.

قصة لقمان # مع ابنه

وأنتقل من قصة سليمان # إلى قصة لقمان وابنه:

شهد الله ﷻ بحكمة لقمان # مع أن القول الراجح أنه ليس نبيًّا، وقد ورد في حكمة لقمان آثار كثيرة، ذكرها المفسرون منها ما هو صحيح ومنها ما هو ضعيف، ولكنني سأقف مع ما نلمسه من حكمة في القصة التي ذكرها القرآن حين وصى لقمان ابنه.

الأمر الأول: وأول ما يشدنا في هذه القصة حسن الأسلوب الذي يستخدمه لقمان أثناء دعوته لابنه، حتى إنه يخاطبه بأحب الألقاب إليه، وأقربها إلى نفسه يا بني، وبهذا يتمكن من السيطرة على قلبه وعقله، وذلك أدعى لقبول النصح والوعظ، وأن مبعثه الحب والشفقة والقربى.

أمر ثان: أن لقمان جمع في وعظه لابنه بين الأصول والفروع، والأقوال والأفعال والاعتقاد، والأمر والنهي؛ فها هو ينهاه عن الشرك، ثم يأمره بالصلاة، ويذكره بعدل الله، وشمول علمه وإحاطته، ثم نجده يأمره أن يقوم بشعيرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وينهاه عن الكبر والخيلاء والعجب والغرور حتى مشيته يُبين له كيف تكون، وصوته له ضوابط وموازين.

أمر ثالث: إن وصايا لقمان لابنه بلغت عشرًا بين أمر ونهي، وإخبار في معنى الأمر والنهي، كل هذا في كلمات قصيرة جميلة بعيدة عن التكلف، وهذا من الحكمة؛ ولهذا جاءت الحكم والأمثال من كلمات قصيرة المبنى كبيرة المعنى، وهذا ما نلمسه في وصية لقمان لابنه.

أمر رابع: أن الداعية يخرج من قصة لقمان بعدة دروس أهمها: حسن الأسلوب واختيار أفضل الكلمات للوصول إلى قلوب المدعوين، والتركيز على الأصول من التوحيد وغيره مع عدم الإخلال بالفروع، والإيجاز مع التركيز والشمول أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس بالأمر الهين واليسير؛ ولذا يخشى على صاحبه من المزالق، ويستطيع الداعية أن يتخلص من ذلك بالصبر والتواضع، والتزام منهج الوسطية في أموره كلها، وبعد فهذه لفتة سريعة من هذه القصة العظيمة التي تنبض حكمة وعلمًا وفقهًا، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

أمثلة من الحكمة في السنة النبوية

وأنتقل إلى أمثلة من الحكمة في السنة النبوية المطهرة، حيث جرت الحكمة على لسان رسول الله ﷺ كالماء الزلال، وأفعاله ﷺ كلها عين الحكمة؛ فهو المعصوم من الزلل والخطأ. فنجد حكمته ﷺ في حسن تعامله مع أصحابه ومراعاته لأحوالهم، وهذا أكثر من أن يحصى وأشهر من أن يؤتى له بمثال، وإجابة الرسول ﷺ للسائلين؛ حيث قد يبدو الخلاف والتعارض بينها، بينما هي من اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، وذلك لحكمة عظيمة وهي مراعاة حال السائلين. ولنأخذ هذا المثال: سأل عبد الله بن مسعود > رسول الله ﷺ قائلًا: ((يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة على ميقاتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله، فسكت عن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني))، رواه البخاري.

وعن عائشة > أنها قالت: ((يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد قال: لكن أفضل الجهاد حج مبرور))، وعن عبد الله بن بسر > أن رجلًا

قال: ((يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله))، رواه أحمد والترمذي إلى غير ذلك من الأحاديث التي سأل أصحابها عن أفضل العمل؛ فاختلفت إجابة رسول الله ﷺ مراعاة لحال السائلين، وإدراكًا منه ﷺ أن ما يستطيع هذا قد لا يستطيعه ذاك إلى غير ذلك من الأسباب، التي يراعى فيها حال الفرد وحاجة الأمة وقواعد الشرع.

ولو أنّ الدعاة استطاعوا أن يكلفوا كلَّ إنسانٍ بما يحسنه، ويبتعد عما لا يستطيع لحققت الأمة اكتفاءً ذاتيًا في أغلب مجالاتها، ولكن واقع أغلب الناس كما قال الشاعر:

ومكلف الأشياء فوق طباعها ❖ متطلب في الماء جذوة نار

وانظر إلى هذا الأسلوب الحكيم من لدن النبي ﷺ لمعالجة قضية مهمة تحتاج إلى الحكمة، وبعد النظر، فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: ((إن فتى شابًّا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه فقالوا: مه مه، فقال ﷺ: ادنُ، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه))؛ فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء، رواه الإمام أحمد. أرأيتم مثل هذا الأسلوب كيف جاء هذا الشاب، وقد هاجت شهوته ورغب في الحرام وعاد عفيفًا محصنًا، بعيدًا عن الشهوة والشبهة.

ولعل من أهم الأمثلة في هذا المجال أيضًا قصة الحديبية، وما وقع فيها من أحداث كانت تقتضي الحكمة في أسمى معانيها، وإلا لحدثت أمور لا تحمد عقباها، ويصعب التفصيل في ذلك حيث لا يتسع له المجال حسب المنهج الذي نحن فيه ولكن سأقتصر على قضية واحدة؛ لتكون لنا عبرة ونبراسًا، تلك القضية هي كتابة الصلح، ولنقرأ كما في (صحيح البخاري) وفيه: ((فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: أما الرحمن؛ فو الله ما أدري ما هو ولكن أكتب باسمك اللهم؛ فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم، ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله؛ فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله)) الحديث.

إن التأمل في هذه الحادثة العظيمة يبين لنا مقدار حكمة رسولِ الله ﷺ، وعدم استجابته للاستفزاز أو الوقوف عند أمر فيه سعة، مع أنه يحقق للمسلمين مكاسب باهرة، وهذا من باب النظر في المصلحتين، والسعي لتحصيل أعلاهما؛ ولذلك جاءت النتيجة بتسمية الله لهذا الصلح فتحًا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]، وقادت الدعوة بحاجة إلى وعي هذه الدروس، وعدم الاستجابة لضغط القاعدة إذا كان خلاف الحق، أو أن هناك ما هو أولى مما يريده هؤلاء ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]؛ ولئلا يتوهم متوهم أن الحكمة تقتضي التنازل دائمًا إذا كان الأمر في مصلحة الإسلام والمسلمين، كما هو واقع بعض العاملين للإسلام، والمتحمسين للدعوة مما

ينقصهم العلم الشرعي. وهذا خلل في المنهج وخطأ في التصرف وبخاصة أن هؤلاء يحتجون دائمًا لقصة الحديبية عند كل تنازل يقدمونه.

من أجل هذا أُبين أن هناك قضايا لا تقبل التنازل أبدًا، وهذه هي الحكمة وهذا كثير جدًّا في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وفعل الخلفاء الراشدين، ومن ذلك سبب نزول سورة "الكافرون": ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الكافرون: ١، ٢] السورة. وكذلك قصة قريش مع رسول الله ﷺ عندما طلبوا أن يخصص لهم مجلسًا دون الضعفة من المسلمين؛ فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨].

وكذلك عندما جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام اشترطوا أن يدع لهم اللات ثلاث سنين لا يهدمها؛ فأبى رسول الله ﷺ ذلك منهم حتى إنهم تنازلوا شيئًا فشيئًا، إلى أن طلبوا إمهال هدمها شهرًا واحدًا؛ فأبى رسول الله ﷺ، ولكنهم عندما طلبوا ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم وافقهم على ذلك رسول الله ﷺ للفرق بين الطلبين، وهنا يتميز الحكيم عن غيره، وهو الذي يتنازل عن الكل، أو يرفض الكل مع الفرق بينهما.

أما أبو بكر > وقصته في حرب الردة، وعدم تنازله عن شعيرة من شعائر الإسلام وكلمته الخالدة: "والله لو منعوني عناقًا أو عقالًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها، وحيث يبين أنه سيسوي بين من ترك الصلاة ومنع الزكاة، ولم يقبل التفريق بينهما. والقصة مفصلة في كتب الحديث والسيرة،

وهذه هي الحكمة كما عرفناها، هذا ما شهد به عمر الفاروق > ، حيث كان مخالفًا لأبي بكر > في أول الأمر، ثم عرف أنه الحق لما شرح الله صدر أبي بكر وثبت عليه.

أما أعظم أمر رأيت الحكمة متمثلة فيه من خلال منهج القرآن الكريم، وسنة الرسولﷺ فهو معالجة قضية المنافقين، وهو العلاج الذي استمر منذ هجرته ﷺ إلى المدينة وحتى غزوة تبوك، بل إلى وفاته ﷺ وكما شغل حيزًا كبيرًا من وقته ﷺ في المدينة، فقد نزلت فيها آيات كثيرة جدًّا في كتاب الله، حتى نزلت سورة كاملة في هذا الموضوع وقد اتسم علاج هذه المشكلة بعدة سمات من أبرزها:

الأول: طول المدة وهي ما بين هجرته إلى قبيل وفاته ﷺ، وهذا يدل على الصبر العظيم الذي تحلى به رسول الله ﷺ وهو يعالج هذه المشكلة العويصة بتؤدة وروية.

الثاني: الآيات الكثيرة التي نزلت في القضية؛ حيث لا يُقاربها قضية أخرى ألا قضية الشرك والمشركين، وقضية أهل الكتاب، والله سبحانه قادر على حسمها في آية واحدة، ولكن القرآن جاء ليرسم منهجًا للبشر فيه صفة الشمول والديمومة؛ لأنه دين عالمي.

الثالث: الحرص على وحدة الصف مع عدم السكوت عن الباطل وإقراره، وهذه مسألة يغفل عنها كثير من الدعاة، وقد تحقق الأمران فبقي الصف المسلم موحدًا، وتم القضاء على فتنة المنافقين بأساليب عدة.

الرابع: أخذ الناس بظواهرهم، وترك سرائرهم إلى الله وهو منهج فريد تميز به الإسلام عن سائر النظم والأديان، ومع أن المنافقين أشد كفرًا من المشركين؛ فلم يؤاخذوا إلا بما ظهر منهم مع علم الرسول ﷺ بما هم عليه من النفاق والكفر،

ولكن القضية قضية منهج، وليست قضية أفراد يتم القضاء عليهم ثم ينتهي الأمر؛ لأن المسألة أعمق من ذلك وأبعد؛ فجاء العلاج متوازيًا مع حجم المشكلة وأبعادها وآثارها.

الخامس: المحافظة على هيبة المجتمع المسلم في نظر الأعداء والخصوم، لا يتحدث الناس أن محمدًا ﷺ يقتل أصحابه، وبخاصة مع كثرة الأعداء، واستغلالهم لكل فرصة تسنح لهم داخل الصف.

السادس: تركيز القرآن على الصفات وعدم ذكر الأفراد؛ حيث لم يرد في القرآن اسم منافق واحد، وهذا المنهج حقق آثارًا إيجابية ضخمة، وكان كفيلًا بالقضاء على هذه الحركة مع تجاوز السلبيات المتوقعة؛ ولهذا قال الرسول ﷺ في نهاية المطاف ردًّا على عمر الفاروق، الذي طالما طالب بقتل المنافقين حمية لدين الله أين عمر لو قتلنا هؤلاء يوم طلب عمر لأرعدت لهم ألوف تريد اليوم قتلهم.

وهذا المنهج هو الذي أدى إلى قتلهم معنويًّا، دون الحاجة إلى قتل أي فرد منهم حسيًّا، وهذه والله هي الحكمة في أسمى معانيها إننا اليوم بأمس الحاجة إلى دراسة منهج مواجهة حركة النفاق في الصدر الأول، ومن ذلك دراسة الآيات التي نزلت في هذه القضية، وبخاصة في سورة "البقرة" و"التوبة" و"الأحزاب" و"المنافقون"، وبهذا نستطيع أن نحقق ما يلي:

الأول: معرفة الوسائل الموصلة إلى الكشف عن هوية المنافقين في مجتمعنا ومدى تأثيرهم في المجتمع.

الثاني: رسم منهج شرعي؛ لمواجهة هذه الحركة وأسلوب التعامل معها.

الثالث: شل فاعليتها ثم القضاء عليها دون إحداث فتن داخل الصف المسلم، ولن يتحقق هذا الأمر إلا بالالتزام بالحكمة التي رأينا بعض مظاهرها، وسماتها في منهج القرآن والسنة عند معالجة هذه القضية الكبرى.

الحكمة وأهميتها في تبليغ الدعوة الإسلامية تستلزم أمورًا لا بد منها، ومنها: التجرد والإخلاص والتقوى؛ فهذا هو الأساس لكل عمل والمنطلق لكل هدف وغاية الله ﷻ يقول: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ويقول: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥]، وفي سنة النبي ﷺ يقول - صلوات ربي وسلامه عليه- : ((إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم))، إننا لا نتصور حكمة بدون تجرد وإخلاص؛ ولذلك ذكرت أن من موانع الحكمة الهوى؛ فإذا كان الهوى من موانع الحكمة؛ فإن الإخلاص والتقوى أساسها ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. كذا قال ربنا: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الطلاق: ٤]، ونلمس هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٤] فإنه لن يكون إمامًا إلا إذا كان حكيمًا.

وإذا كان إمامًا المتقين، فالتقوى صفة للإمام قبل المأمومين، وللداعية قبل المدعوين ومنها: التوفيق والإلهام إن الحكمة مطلب عزيز وغاية سامية ورتبة رفيعة، ينال صاحبها سمة من سمات الأنبياء والرسل - عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- ؛ ولذا فليست متاحة لكل فرد بل هي مع بذل

الأسباب وتوافر الأركان فضل من الله ونعمة ؛ ولذا قال سبحانه : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ، وبين أنه أعطى لقمان الحكمة : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان: ١٢]، وسأل رسول الله ﷺ ربه أن يلهم ابن عباس الحكمة ، ويعلمه إياها : ((اللهم علمه الحكمة))، كما رواه البخاري.

وعندما نفقه هذه الحقيقة ؛ فإنه يتعين علينا أن نتعامل معها بما يجب أن نعمله من أسباب ؛ ليمن الله علينا بها ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ كذلك تحتاج الحكمة إلى العلم الشرعي ، والعلم من أهم قواعد الحكمة ودعائمها ؛ فكما أن الجهل مانع من موانعها فإن العلم سبب من أسبابها ، وركن من أركانها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وخشية الله من الحكمة ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]، لا يستوون في أشياء كثيرة ، ومنها إدراك الحكمة ، وقرن الله بين الحكم - وهي الحكمة- والعلم في عدة آيات من كتابه سبحانه فقال عن لوط : ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وقال عن يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [يوسف: ٢٢]، وقال عن داود وسليمان : ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال عن موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [القصص: ١٤].

هذه الآيات من أقوى الأدلة على اقتران الحكمة بالعلم ، ولذلك يقول ﷻ : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣]، الأمر المختلف فيه أو ما يشكل على العامة هو الحكمة وأولوا الأمر هنا هم العلماء ، وهكذا نفهم ارتباط العلم بالحكمة والحكمة بالعلم من قول الرسول ﷺ :

((من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين))، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. ومن خلال هذه الأدلة يتضح لنا هذا الأمر بل أن بعض العلماء فسروا الحكمة بالعلم، وممن أطال في ذلك وفصل فيه رشيد رضا، وكذلك الرازي وهذه حقيقة تلزمها تؤتى الحكمة بإذن الله.

والأمر يستلزم أيضًا التجربة والخبرة فهما من أهم أسباب التوفيق للحكمة، وقد ورد عند البخاري في الأدب المفرد: "لا حكيم إلا ذو تجربة" والمثل المعروف يقول: اسأل مجرب ولا تسأل طبيب، إن التجربة في الحياة رصيد ضخم تعادل أعلى الشهادات؛ فإذا أضيفت إلى العلم، أصبحت أهم من الشهادة وهل الشهادة إلا علم وتجربة، مع أنها في الغالب تكون تجربة قاصرة؛ ولذلك وقفت طويلًا عند آية وردت في القرآن الكريم هي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: ١٥].

فإنني ألحظ أن ارتباط بلوغ الأشد والاستواء بسن الأربعين له عدة دلالات، ومنها: أن المرء قد حصل على رصيد مناسب من التجربة، وإنني ألمس في حياة الناس أن ما قبل الأربعين رصيد التجربة فيه أقوى من رصيد العطاء، وما بعد الأربعين سمة العطاء فيه أقوى من التجربة ألا وهي الخبرة؛ حيث إن الأربعين مرحلة وسطية في عمر الإنسان، حيث إن ما قبلها من العمل يعادل ما بعدها في الأعم الأغلب، ومما يجري في سياق الآية: أن رَسولَ الله ﷺ بُعث على الأربعين الله ﷻ يقول عن موسى # : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قال الحسن: بلغ أربعين سنة.

وخلاصة الكلام: أنّ التجربة عامل مهم في حصول الحكمة وتحققها.

من الوسائل التي تؤدي إلى الحكمة

وكذلك الاستشارة؛ فإذا كانت الفردية من خوارم الحكمة، ومن وسائل تجنب الفردية: الاستشارة، والشورى لها مكانتها في الإسلام، وللدلالة على أهميتها، وعظم منزلتها أن الله - سبحانه- أمر نبيه ﷺ، وهو المعصوم الذي يُوحى إليه أن يستشير صحابته }، فقال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، بل إن هذه الآية جاءت في سياق يفيد أن هذا مقتضى الحكمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال -سبحانه- واصفًا المؤمنين ومثنيًا عليهم: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، بل إنني وجدتُ آية أخرى نص في المسألة وهي قضية فطام الولد، فقد قال سبحانه: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وفصل الولد وفطامه يحتاج إلى حكمة حتى لا يضار وهو صغير، لا حول له ولا قوة. وقد يكون ضحية خلاف بين الوالدين؛ فجعل التشاور شرطًا للفطام، وليس مجرد التشاور كافيًا، بل لا بد أن يكون تشاورًا حقيقيًّا تكون نتيجة التراضي والاتفاق، وإلا فلا. ولذلك قال ابن كثير: "أي: فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له وتشاورا في ذلك، وأجمعا عليه؛ فلا جناح عليهما"، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد في ذلك من غير مشاورة الآخر قاله الثوري وغيره.

ومن خلال ما سبق تتضح أهمية الشورى وأثرها في مواجهة الأحداث، ولو استغنى أحد عنها لاستغنى رسول الله ﷺ الذي كان يشاور صحابته عند الملمات، بل إنه كان يأخذ برأيهم، ولو خالف رأيه أحيانًا كما حدث في أحد.

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ❖ غم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

ولذا يقول الشاعر:

ومن الرجال إذا استوت أخلاقهم ❖ من يستشار إذا استشير فيطرق
حتى يحل بكل واد قلبه ❖ فيرى ويعرف ما يقول فينطق

ويقول الآخر:

إذا كنت في حاجة مرسل ❖ فأرسل حكيمًا ولا توصه"
وإن باب أمر عليك التوى ❖ فشاور لبيبًا ولا تعصه

وقد قيل: الناس ثلاثة: رجل كامل، أي: الكمال النسبي، وهو الذي له عقل ويستشير، ونصف رجل وهو الذي له عقل ولا يستشير، والثالث لا شيء وهو الذي لا عقل ولا يستشير.

وتقتضي الحكمة أيضًا بعد النظر، وسمو الأهداف، ذلك أن الذي يعيش لقضية مصيرية يختلف عن إنسان يعيش على هامش الحياة؛ فعند وقوع حدث من الأحداث، أو مواجهة قضية من القضايا سنجد الفرق بين التفكيرين؛ لأن الأول سيربط القضية بالأهداف التي يسعى إليها، ويعالجها من خلال منظور معين وهذا الذي يرمي إليه الشاعر بقوله:

ومن الرجال إذا استوت أخلاقهم ❖ من يستشار إذا استشير فيطرق
حتى يحل بكل واد قلبه ❖ فيرى ويعرف ما يقول فينطق

والشاهد هنا:

حتى يحل بكل وادٍ قلبه

أما الثاني فإنه يعطي الرأي ويتخذ الموقف بناء على الظروف المحيطة به، بعيدًا عن النظر في الأسباب والنتائج والآثار فهو بادئ الرأي، ولذا فإن علو الهمة وبعد النظر سبب من أسباب التوفيق في الرأي والسداد فيه، وصدق الشاعر:

وإذا كانت النفوس كبارًا ❖ تعبت في مرادها الأجسام

وتقتضي الحكمة في الدعوة إلى الله ﷻ أن نراعي فقه السُّنن، وهو عامل مهم في نضوج الرأي وسلامة التفكير؛ لأن التفكر في السنن الكونية والشرعية، مما حث القرآن على العناية به ﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الروم: ٩]، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الحج: ٤٦]، حيث وردت عدة مرات فنجد في سورة "الحج": ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦]، فقرن السير في الأرض وهو إما حسي أو معنوي بالعقل وهو موطن الحكمة، بل إن الآيات جاءت أمرًا بالسير في الأرض، ولم تقتصر على الاستفهام، فقال سبحانه في عدة آيات: ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾، ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾.

إن قراءة التاريخ والاطلاع على أحوال الأمم الماضية يضيف إلى رصيد التجربة رصيدًا علميًّا من تجارب الآخرين؛ ولذا قال الشاعر:

اقرأ التاريخ إذ فيه العبر ❖ ضلّ قوم ليس يدرون الخبر

وكلما تعمق الإنسان في رؤية الماضي من خلال السنن الكونية والشرعية، كان أكثر قدرة على وضوح الرؤية في المستقبل؛ ضمن الضوابط الشرعية والعقلية، وتقتضي الحكمة في الدعوة إلى الله ﷻ رجاحة العقل؛ إن العقل مكان الحكمة وبيتها، وبين العقل والحكمة اشتراك لفظي ومعنوي، وقد يطلق العاقل على

الحكيم، والحكيم على العاقل، فإذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا؛ حيث إن الحكمة أعم من العقل وأشمل، ومما يدل على علاقة العقل بالحكمة أن الله لما ذكر الحكمة فقال: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ختمها بقوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ أي: أولو العقول، قال ابن عاشور: وقوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ تذييل للتنبيه على أن من شاء الله إيتاءه الحكمة هو ذو اللب، وأن تذكر الحكمة واستصحاب إرشادها بمقدار استحضار اللب وقوته، واللب في الأصل خلاصة الشيء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان؛ لأنه أنفع شيء فيه، ولأثر العقل في تصرفات المرء وسلوكه ذكره الله في القرآن كثيرًا تنويهًا بمكانته وأثره في الحياة.

ومن الأمور المهمة في الدعوة إلى الله ﷻ المبنية على الحكمة العدل؛ حيث أمر الله بالعدل في كتابه في عدة مواضع، ولا يمكن أن تجتمع الحكمة مع الظلم والحيف والجور، قال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النحل: ٩٠]، كما قال -جل وعلا-: ﴿ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [المائدة: ٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥]، وعند التأمل في هذه الآية تتضح علاقة الحكمة بالعدل بل مكانة العدل من الحكمة: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل: ٧٦].

والحكم والحكمة اشتقاقهما واحد ومعناهما متقارب، وعند النظر في دلالات الحكمة نجد أنها في مآلاتها بمعنى الحكم؛ لأن الحُكم هو الحكم بين المتخاصمين

أو بين خصوم، والحكمة هي النظر في أمرين أو عدة أمور، واختيار الصائب أو الأصوب منها، والله ﷻ قد جعل العدل أساس الحكم: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨]، فكما أن العدل من لوازم الحكم؛ فهو من لوازم الحكمة، بل ركن من أركانها وأساس من أسسها، والعدل والحِكْمة معناهما وضع الشيء في موضعه، وإن كانت الحكمة أعم من العدل، وكل ذلك مطلوب في الدعوة إلى الله ﷯ وفي تبليغها للناس.

ومن ذلك أيضًا: التثبت؛ فمن الوسائل التي تؤدي إلى الحكمة التثبت، والتثبت منهج شرعي دعا إليه القرآن حيث قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ٦]، وبما أن العجلة والاستخفاف من خوارم الحكمة؛ فإن التأني والتثبت من دعائمها، والعجلة من الشيطان؛ ولذلك قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠ ﴾ [الروم: ٦٠]، وهذه الآية أعم من التثبت بل هي أمر بالصبر والتثبت يحتاج إلى الصبر، وفي آية "الحجرات" بعد أمر الله بالتبين قال في الآية التي بعدها: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ [الحجرات: ٧]، أي: لو أن الرسول ﷺ استجاب لما يريدون دون تثبت ولا روية؛ لأصابهم العنت والمشقة الحسية المعنوية، وهذا مما يخالف الحكمة ومقاصدها.

والذي يمعن النظر في كثير من الأحداث المعاصرة يدرك أن من أبرز آثارها السلبية العجلة وعدم التثبت، ولقد أدرك الأعداء هذه الثغرة؛ فأكثروا من الشائعات والأراجيف، وتلقاها كثير من المسلمين بدون روية ولا تبصر، ولم يلتزموا المنهج الرباني بالتثبت وردّ الأمر إلى أهله، كما أمر الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ

﴿ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]؛ ولهذا فقدنا الحكمة في كثير من الأحداث التي مرت بالمسلمين فجاءت النتائج كما نرى.

ومن الحكمة المطلوبة في تبليغ الدعوة إلى الله ﷻ: المجاهدة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، أي: لنوفقنهم بإصابة الطرق المستقيمة، كما فسرها الإمام الطبري والحكمة هي التوفيق وإصابة الحق؛ ولهذا فإن من أعظم الأسباب للتوفيق للحكمة هي المجاهدة، وهي مفاعلة من الجهاد؛ فهو جهاد بعد جهاد حمل للنفس على تحقيق مراد الله مرة بعد أخرى، وهذه الآية وعد من الله بأن من جاهد نفسه طالبًا للحكمة باحثًا عنها، أن يوفقه الله إليها، ولو بعد حين، وهذا وعد من الله، ومن أصدق من الله قيلًا لا أحد.

ومن مقتضيات الحكمة في الدعوة إلى الله ﷻ: اللجوء إلى الله بالدعاء والاستخارة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، قال ابن عاشور: الرشد إصابة الحق وفعله قد تقدم أن من معاني الحكمة الإصابة في القول والعمل، والدعاء له منزلة عظيمة وآثاره مشاهدة ملموسة وتكرر في القرآن وروده، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال ﷻ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، كما قال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

والاستخارة قرينة الدعاء بل هي نوع من الدعاء المشروع، عندما يعرض للمرء طريقان فأكثر، ولا يدري أيها يسلك؛ فإنه بالاستخارة يوفق للصواب والحكمة.

ومن الحكمة في الدعوة إلى الله ﷻ الصبر؛ فالصبر مفتاح الفرج، ولقد وردت آيتان في كتاب الله وقفت عندهما متأملًا، وخرجت بعد ذلك مستنتجًا أن الصبر

دعامة من دعائم الحكمة، بل سبب من أسبابها وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وفي "السجدة": ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، إن الصبر من أعظم أسباب توفيقهم للإمامة، ولا يمكن أن يكون إمامًا للمتقين إلا إذا كان حكيمًا، ولمنزلة الصبر وأثره في الحياة وردت آيات كثيرة تحث عليه، وتأمر به وتبين فضله، وأنه لا ينالُ هذا الفضل إلا من له حظ عظيم، ومنزلة كبيرة عند الله ﷻ وعند الناس، كما أن السنة دلت على أن الصبر نصف الإيمان.

ويحتاج الداعية أيضًا إلى الرفق ولين الجانب؛ فإن الرفق ما دخل في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه، وكما رأينا كيف كان النبي ﷺ رفيقًا بأمته حريصًا على الرفق بهم والسكينة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فلا بد من الرفق مع الإحسان؛ فإن الله كتب الإحسان في كل شيء وعلى كل شيء، حتى في القتل والذبح: ((فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)). إنها الحكمة في كل شيء، وما أحوج الدعاة بصفة خاصة إلى هذه الحكمة في مجال الدعوة إلى الله ﷻ.

الموعظة الحسنة

عناصر الدرس

العنصر الأول :	التعريف بالموعظة الحسنة، وبيان مفهومها	١٩١
العنصر الثاني :	على الداعي مراعاة حال المدعو مكانًا، وزمانًا، وفكرًا، وطبيعة	١٩٣
العنصر الثالث :	الموعظة الحسنة ومراعاة المناسبات عند المستمعين	١٩٨
العنصر الرابع :	دور الموعظة الحسنة في تقريب الناس إلى الله	٢٠٣

التعريف بالموعظة الحسنة، وبيان مفهومها

الموعظة الحسنة ؛ مفهومها : هي توجيهات لفظية تفيد القرب النفسي بين الداعي والمدعو، بما تشمله من إثارة الانفعال وإيقاظ الشعور مع وضوح أن الداعي يقصد النُّصح للمدعو ويخاف عليه، ذلك أن المدعو هو أهم ما في قضية الدعوة، والعلماء حين عملوا على تربية الدعاة وتنشئتهم نصب أعينهم، إنما أرادوا من وراء ذلك أن ينجحوا في دعوتهم على المستوى العام والخاص، ومن ثم فينبغي على الداعية أن يتمتع بموهبة وبفطانة، وأن يتصف بروح القيادة والريادة، وأن يتميز بالأخلاق الإنسانية الراقية التي تشكل شخصيته وتجعله مفطورًا بالحق، عاملًا به، متحركًا له.

إن الدعاة هم الأمل، وهم الرجاء وهم رجال الإنقاذ في عالم علت أمواجه وكثرت مخاطره، والمدعوون هم مقصد العملية الدعوية كلها، وهم الغاية التي يراد إحداث تأثير فيها، وحتى يتحقق التأثير المطلوب في المدعوين يحتاج الدعاة إلى معرفة مسبقة بالمدعوين، تمكنهم من الالتقاء بهم وإحداث نوع من التجاذب والتجاوب معهم، إن الإنسان عمومًا ينظر لغيره بمرآته ويفسر ما يرى بطبيعته ومشاعره، ويقبل على من يحرص عليه، ويسمع من يخاطب عواطفه وقلبه، هذه الحقائق الفطرية المتصلة بالإنسان تحتم معرفته قبل المجيء إليه، وإعداد الموضوع الذي سيعرض عليه، وصياغة الأسلوب المناسب لخطابه، وباللغة التي يفهمها، وبواسطة هذا الإعداد يمكن الوصول الجاد للمدعوين، مع معرفة خصائص الجمهور النفسية والفكرية وإن كان هذا الأمر ليس سهلًا، لكنه يحتاج إلى دراسات نظرية وميدانية توضح جوانب معينة في المدعوين، تتصل بأنواعهم وأجناسهم وأمزجتهم وثقافاتهم وأديانهم... إلى آخر ذلك.

فلقد اختار الله ﷻ لكل أمة رسولًا من بينها، بعد أن عايشهم وخبرهم وأحاط بمذاهبهم وأخلاقهم، وذلك من صناعة الله وتقديره، نلحظ ذلك في قصص القرآن الكريم، حيث إن نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم - عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه- قد أرسلوا إلى أقوامهم بعد أن عاشوا بينهم مدة ما قبل الرسالة؛ ولذلك كان رسل الله - عليهم السلام- يدعون قومهم إلى التوحيد وبعدها ينتقلون مباشرة إلى توجيههم نحو الصواب، ووجوب التخلص من الرذائل التي كانت متفشية فيهم.

إن الرسل كانوا يتحركون بوحي من الله تعالى، ومع ذلك فقد جعل الله حركتهم أسوة للمؤمنين يتخذونها منهجًا للدعوة، ودستورًا للعمل الخير الأمين.

نعم، هذه منطلقات الموعظة الحسنة التي ينبغي مراعاتها عند توجيه الدعوة للمدعوين، والموعظة الحسنة - كما جاء في معناها- أن الوعظ هو النصح وهو التذكير بالعواقب، ويُقال: "السعيد من اتعظ بغيره، والشقي من يتعظ به غيره"، وفي معاجم اللغة: أن الوعظ هو الوصية والأمر، والموعظة اسم منها، وكل اشتقاق مادة الوعظ في القرآن تدور حول النصح والأمر والتذكير والزجر.

كما جاء في تفسير الناس فيه عند قول الله تعالى: ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣ ﴾ [النساء: ٦٣]، أن المعنى فأعرض عن قبول الأعذار، وعظ بالزجر والإنكار، وبالغ في وعظهم للتخويف والإنذار، وهذا يشير إلى أن الموعظة الحسنة هي مجموعة العبر النافعة والخطابات المقنعة والإرشادات المخوفة، على وجه لا يخفى عن المدعوين أن الداعي يناصحهم بها، ويقصد بتوجيهها إليهم ما ينفعهم، وهي في كل أشكالها أمارات ظنية ودلائل إقناعية، بخلاف الحكمة فإنها محكمة قطعية في مقدماتها ونتائجها.

فالحكمة توجه لصنف من الخلق، وتأتي الموعظة الحسنة لتوجه لصنف آخر، كما أن المجادلة بالتي هي أحسن نوع آخر من الدعوة وله أصحابه، والله ﷻ قيّد الجَدَل والمَوعِظَة بالحُسن؛ لأن الغاية منها الوصول للحق، فلو بعد أحدهم عن هذه الغاية لا يكون حسنًا إذًا.

وهناك فرق بين المجادلة والموعظة المتصفين بالحسن، مع أن المجادلة منازعة بين طرفين متعارضين والخصم فيها ليس صامتًا، وإنما يناقش ويرد بما رسخ في نفسه من أوهام وشبه، أما الموعظة فإن المدعو بها يستمع إليها ويستثار بها، وينفعل معها بلا منازعة كلامية.

على الداعي مراعاة حال المدعو مكانًا، وزمانًا، وفكرًا، وطبيعة

وقد أمر الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ أن يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى، لتعم الفائدة سائر الخلائق المختلفين مكانًا وزمانًا وفكرًا، وطبيعة ذلك أنهم مع اختلافهم يمكن حصرهم في طوائف ثلاث متباينة:

فطائفة منهم: أصحاب نفوس مشرقة، قوية الاستعداد لإدراك المعاني، قوية الانجذاب نحو المبادئ العالية، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه، وهؤلاء يدعون بالحكمة.

والطائفة الثانية: التي نعنيها مع الموعظة الحسنة، عوام نفوسهم كدرة، ضعيفة الاستعداد، شديدة الإلف بالمحسوسات، قوية التعلق بالرسوم والعادات، قاصرة عن درجة البرهان لكن لا عناد عندهم، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة.

والطائفة الثالثة: فمعاندة مجادلة بالباطل، تقصد دحض الحق لما غلب عليها من تقليد الأسلاف ورسخ فيها من العقائد الباطلة، وهؤلاء يدعون بالمجادلة بالتي هي أحسن.

وأعود فأقول: إن الموعظة الحسنة في الدعوة إلى الله ﷻ ليست بالأمر الهين؛ فهي تحتاج إلى تفهم لطبائع الناس، ذلك أنه تختلف طبائع الناس وتتنوع عقائدهم وتتعدد ميولهم، وتبعًا لذلك انقسمت الإنسانية إلى اتجاهات وجماعات، والطريقة المثلى لتحقيق اتصال مع هؤلاء الناس هو إتيانهم من حيث اهتمامهم، ومشاركتهم في خصائص حياتهم ومعاشهم، والدعوة الإسلامية عامة ودائمة، وعليها أن تستوعب الناس علمًا بطبائعهم، وتفهمًا لاهتماماتهم، حتى تتمكن من تحريك داعية النظر عند كل جماعة على حدة، وحتى تستطيع إبلاغ الإسلام إلى الجميع، ومن هنا ملكت الدعوة أمثل الطرق في تحقيق الاتصال بالناس عن طريق الأساليب، التي تميزت بتضمنها الفهم الدقيق لحقائق الناس، والناس مختلفون أمام الحق، فحيث يقترب منه الضعفاء يعارضه المستكبرون استعلاءً وعنادًا، وحيث يقترب الفقراء يخالفهم في ذلك المترفون.

فالناس إذًا لهم أوضاع مختلفة وأوضاع مكتسبة، كما أنهم أحاطت بهم موروثات جعلتهم على أصناف متعددة، ومن الناس من هم كفار معاندون مع اختلاف اتجاهاتهم، فكل هؤلاء ينبغي أن توجه الدعوة إليهم، وأن تحارب ما عندهم من ضلالات، ومن كفريات وشركيات، ومن ثم تتغير أساليب الدعوة.

إن الأساليب كذلك تبين تعلق الإنسان بالمادة وأنه من أجلها ينسى نفسه وعقيدته، لا عن جهل بنعم الله وخيراته؛ بل على معرفة تامة بها، ولكنها معرفة غير مفيدة؛ لأن الإنسان يعرفها وينكر الواجب عليه في مقابلة شكر هذه النِّعم، إنّ الموعظة الحسنة تقتضي التعرف على طبيعة الإنسان التي تهوى الجدل والمعارضة والمخاصمة، خاصة حينما يترك الإنسان مسئوليته، ويتعلق بالدنيا مع ضآلتها وحقارتها، وعليه أن يعلم العقيدة الدينية الخاطئة التي تعطي لأتباعها

نوعًا من الأخلاق الفاسدة، وأن يستبدلها بالعقيدة الصحيحة، التي جاء بها الإسلام العظيم في قرآنه المحفوظ وسنته المطهرة.

وعلى الإنسان أن يحيط بطبائع الناس وأن يتعرف على هذه الطبائع، كما ينبغي عليه أن يتفهم الدعوة بأصولها وفروعها، وأن يقدم الأصول على الفروع وأن يبين للناس أن الدعوة عقيدة وشريعة تنبثق منهما الأخلاق، وأن يجعل دعوته موسومة بالشمول والوسطية، وذلك في حسن عرض الدعوة على الناس متخيرًا الأساليب والأوقات التي تجعل دعوته ناجحة - إن شاء الله تعالى- ، كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعلى: ٩].

والموعظة الحسنة تحتاج إلى مراعاة تقدير الإنسان وملاحظة التنوع البشري، وملاحظة التنوع الغريزي، ثم هي من بعد ذلك تنظر في قضية تقدير الدعوة وتجزئتها، ومتى يكرر الدعوة؟ ومتى لا يكررها؟ مع بيان الغاية من الدعوة، وذكر الدليل المناسب لكل قضية وجزئية، هذا وكما أجدت الحكمة مع قوم؛ فإن أقوامًا آخرين لا تجدي فيهم إلا الموعظة الحسنة التي هي طريق عرض الإسلام دونما تشويه، مع التحبيب والإغراء في الدخول إلى الإسلام، والعمل به طواعية واقتناعًا، فيراعي مقتضى الحال في الخطاب، مثل التدرج أحيانًا، أو المواجهة أحيانًا أخرى، وذلك مع الترغيب والترهيب بذكر الوعد والوعيد، والوضوح والتوضيح، كذا بضرب الأمثال وسوق القصص وذكر التجارب فيما مضى أو فيما يستجد، وذلك في القرآن كثير.

هذا والناس كما علمت أصناف، فمنه طائفة العُلماء الذين هم رءوس الناس ووجهاؤهم، وأساس الصلاح أو الفساد في المجتمع، وهؤلاء توجه الدعوة إليهم بالحكمة، ولا تحتاج دعوتهم إلى تكرار ولا إطناب، بل تقدم لهم بالحديث

اللائق معهم، وبث الثقة فيهم، وإن الإنسان عمومًا لا يحب من يصدم مشاعره، ويجب ملاحظة ذلك عند مخاطبة العلماء والقادة، ويستحسن في خطابهم أن يقوم على الحوار والقصص والمثل التمثيلي؛ ليستنتجوا من الخطيب ما يريد، مع ضرورة استثارة روح المسئولية عند العلماء والقادة، حين التوجه إليهم بالخطاب.

أما عامة الناس وفيهم المطيعون لله وهم أهل الورع والتقوى، وهم صفوة الله وأحباؤه وأولياؤه، فهؤلاء تكفيهم الإشارة والرمز؛ لأنهم علموا والتزموا وعرفوا وذاقوا، واتباعهم للخير جِبِلّة فيهم لا يحتاجون لعناء إنما يكفيهم التذكر، كما قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٥]. وفيهم الأمراء والولاة وهم أولو الحكم والسيادة، إن قاموا بواجبهم وفق أمر الله وعدلوا نُصروا، وإن ضيعوا واجبهم هَلَكُوا وأهلكوا، وهذا الصنف له هيبته وقيادته، ودعوتهم تحتاج إلى حكمة ودراية، إذ لا بد من إعطائهم ما يليق بهم من تقدير وعدم التصادم المباشر معهم، وفي نفس الوقت لا بد من نصحهم ووعظهم بالمسائل التي تنفعهم، وتنفع رعاياهم باللين والحسنى، وليس بمستحسن أن يتجه الخطيب لهؤلاء، بما ينفرهم منه ويجعلهم في عداء معه.

وأصحاب الحرف والمهن هؤلاء طوائف من الناس تقضي جل وقتها في العمل والسعي والكدح، وفيهم الحرص على الكسب والمال، وقد يفيء الله عليهم فيملكون مالًا كثيرًا، وهم لم يتعلموا، وواجب على من يخطب في هؤلاء أن يعيش مع نفسياتهم ويستدل لهم من حياتهم، ويعلمهم بأسلوب سهل ويتخولهم بالموعظة، ويحاول أن يعالج الأمراض النفسية والاجتماعية التي تنتشر بينهم، إن أصحاب الحرف يلزمهم معرفة حكم الشرع في عملهم كلٌّ في اتجاهه، وهذا واجب الخطيب.

ومن هنا كانت ضرورة ملاحظة نوعية المستمع ؛ لتكون الخطبة ملائمة له ومناسبة لمصلحته. ومن الناس من هم أهل الفقر والمسكنة، ويراد بهم من يعيش في بلاء ما، كمرض أو فقر أو سجن أو ظلم، وهؤلاء يعيشون بنفسية معينة وعقلهم وفكرهم دائمًا يعيش في مشكلاته، ويحاول أن يقارن بينهم وبين غيرهم من الناس، وخطيب هؤلاء القوم يجب أن يلحظ وضعهم ؛ فليس الحديث للمسجونين والمرضى كالحديث للأحرار والأصحاء، ولن يكون الكلام للغني هو نفسه للفقراء. ومن الناس الذين توجه إليهم الموعظة من صنوف الناس أهل الضعف كالنساء والأطفال، وهؤلاء يجب أن يعرفوا واجبهم وحقهم، وأن يخاطبوا على قدر مستواهم الذهني والعقلي.

وأما غير المسلمين من الناس ؛ فهؤلاء قد يكونون أصحاب دين أو مذهب أو لا دين لهم، ويسلكون مسلكًا فوضويًّا في مجال السياسة أو في مجال الاقتصاد، وحيث إن الإسلام دين يجب تبليغه للناس جميعًا كان على الداعية، الذي يوجه حديثه إلى غير المسلمين أن يتعب نفسه ويعرف اتجاه مخاطبيه، ولا يتصادم مع عواطفهم وتقاليدهم، ولا ينفرهم منه، وليكن حديثه من باب: ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ [آل عمران: ٦٤] و﴿ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ [البقرة: ١١١] وكذلك ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ: ٢٤]، وهؤلاء لا يفيدهم الاستدلال بالنص ؛ لأنهم لم يؤمنوا وإنما لا بد من الاستدلال لهم بآيات الله في النفس والكون والحياة، ويجب أن يعلم الداعية أن الناس منذ خلقهم الله جبلوا على احترام الذكاء النافع، أو الإخلاص الهادئ وحب الخير والسلام، وجبلوا كذلك على أن يقبلوا على من يقبلوا عليهم.

إن الاحتيال على حل مشكلة ما يجعل أصحابها يشاركون في الحل والإقبال، هذا وتقتضي الموعظة الحسنة ملاحظة الاتجاهات السائدة في كل جماعة من الناس،

حيث ينتشر اتجاه أو اتجاهات معينة تبعًا لظروف بيئية أو اجتماعية، ومن أمثال ذلك انتشار اتجاه صوفي في جماعة ما، أو تعيش الجماعة في حي يحتم على ساكنيه أن يكونوا تجارًا، أو يوجد في وسط الناس مصلح مخلص يورث فيهم حب العلم وتقدير أهله، وعلماء التربية يوجهون المشتغلين بالتعليم لملاحظة الاتجاهات، التي تسود بالضرورة بين مجتمع الشباب، أو مجتمع المرأة، أو مجتمع العمال، أو مجتمع الجنود والعلماء والمفكرين... وهكذا؛ لأنها اتجاهات متغايرة وفي نفس الوقت متحكمة في نشاط الجماعة، والمربي الموفق هو الذي ينطلق من هذه الاتجاهات، ينميها أو يعدلها على وفق ما يرى.

الموعظة الحسنة ومراعاة المناسبات عند المستمعين

إن ملاحظة الاتجاهات السائدة في المستمعين قضية علمية لا بد منها لكل من يتصدى لعملية التوجيه والتربية، وذلك لتحليل هذه الاتجاهات وبناء عملية إصلاحية على أساس فني لا يتصادم معها، ولا يبدأ بالهجوم عليها، وبخاصة إن تأصلت هذه الاتجاهات في النفوس، وسبيلها الموعظة الحسنة التي ينبغي أن تراعي أيضًا المناسبات عند المستمعين؛ فهناك مناسبات متعددة ينفعل بها الناس، يعايشونها بعواطفهم وعقولهم؛ ولذلك نجدهم يسمعون الحديث عنها ويتابعون التعليق المتصل بها، وتتأهب نفوسهم لفهم كل ما يدور حولها، وأهم المناسبات ذات التأثير في النفس هي المناسبات الدينية، يوم العيد، وموسم الحج، وأيام الصيام، تلك كلها مناسبات دينية تشير إلى انفعال الناس بها، وعلى نمطها سائر المناسبات الأخرى، وعلى الخطيب مراعاة هذه المناسبات.

إن مراعاة المناسبة يعني الاهتمام بالمستمع، ويشير إلى النجاح في عملية التأثير والإفادة، الذي هو أمل كل خطيب يعرف ما يناط به من مسئولية وواجب، ومن روعة الإسلام أنه يحتوي على كل ما يناسب الإنسان في جميع ظروفه، ولا يعني الاهتمام بالمناسبات الجاملة ومجاراة الواقع مهما كان سيئًا، وإنما المقصود هو الإجادة والحسن في أداء الرسالة عن طريق مشاركة المستمع، والتفاعل معه في القضايا التي تشغل فكره وعواطفه، كم من خطيب يقصده الناس؛ لأنه يحدثهم عن أنفسهم ويوجد الحلول لمشاكلهم، ويُظهر الحلول الإسلامية لما يثار أمامهم، وكم من خطيب ينصرف الناس عنه، ويتمنون أن يسكت حين يبدأ في الحديث.

إن المشتغلين بالتربية والتوجيه والإرشاد يهتمون بموضوع الساعة؛ لأنه المناسبة الحية المتحركة عند الناس؛ ولذا نراهم يتناولون الموضوع بالدراسة والتحليل والتعليق والشرح، وبيان كل ما يتعلق به من أحكام دينية وفوائد علمية وهكذا، وما ذلك إلا نوع من الاهتمام بالمناسبة الذي ننادي به؛ ليضعه الخطيبُ في مخططه والداعية في ذهنه، والمناسبات عديدة بعضها دوري ثابت، وبعضها طارئ مؤقت، وكلاهما يجب الاهتمام به رعاية لإفادة المستمعين.

نعم؛ الموعظة الحسنة تراعي كل ذلك عندما توجه الدعوة إلى الناس، والموعظة الحسنة تقتضي من الداعية أن يكون رفيقًا، وأن يكون ميسرًا يراعي الرفق والتيسير، ذلك أن الرفق بالناس والتيسير عليهم عامل أساسي في جذب النفوس إلى الخير وتذليل صعابها، فهو بذلك يؤلف قلوبهم ويمتلك مودتهم ويطوعهم؛ فيعطوا القيادة راغبين مختارين، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، هذا والرفق ضد العنف، والرفق لين الجانب ولطافة الفعل، واللين ضد الخشونة، يقال في فعل الشيء اللين: وهو المداراة

مع الرفقاء، ولين الجانب واللطف في أخذ الأمر بأحسن الوجوه أيسرها، ورضي الله عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: ((قال رسول الله ﷺ: إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه)).

والمعنى: أنه يتأتي معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده، وقيل: المراد يثيب عليه ما لا يثيب على غيره، قال القاضي: يتأتي به من الأغراض ويسهل من المطالب ما لا يتأتى بغيره، وفي الحديث فضل الرفق والحث على التخلق به، وذم العنف وأن الرفق سبب كل خير. وعنها < قالت: ((قال رسول الله ﷺ: إن الله يحب الرفق في الأمر كله)). وعن عائشة < أن النبي ﷺ قال: ((من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة))، فالرفق يدخل على صاحبه الخير كله ويزينه ويجمله، وينفعه في بيته مع أهله وأولاده، فيسعدون به ويعيشون في كرامة وفي استقرار ويحاكونه في أخلاقه، فيسعد هو الآخر بهم، وهكذا تكون ثمرة الرفق بين الناس، وعن عائشة < عن النبي ﷺ قال: ((إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه))، كما روت < أن النبي ﷺ قال: ((ارفقي؛ فإن الله إذا أراد بأهل بيت خيرًا أدخل عليهم الرفق)).

وعن ابن عمر { أن النبي ﷺ قال: ((ما أعطي أهل بيت الرفق إلا نفعهم))، وفي الحديث أيضًا: ((من يحرم الرفق، يُحْرَمَ الخيرَ))، ودعا النبي ﷺ لأهل الرفق على أمته، فقال: ((اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به)).

ومن الأمثلة العملية عن أنس بن مالك < : ((أن أعرابيًّا بال في المسجد، فقاموا إليه فقال رسول الله ﷺ: لا تزرموه، ثم دعا بدلو من ماء فصب عليه))، وقوله: ((لا تزرموه))؛ أي: لا تقطعوا عليه بوله، إنما تركوه يبول في المسجد؛ لأنه كان شرع في

المفسدة، فلو منع لزادت إذ حصل تلويث جزء من المسجد، فلو منع لدار بين أمرين، إما أن يقطعه فيتضرر، وإما ألا يقطعه فلا يأمن من تنجيس بدنه أو ثوبه أو مواضع أخرى من المسجد. وفيه الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف، إذا لم يكن ذلك منه عنادًا، ولا سيما إن كان ممن يحتاج إلى استئلافه، وفيه رأفة النبي ﷺ وحسن خلقه، وفيه تعظيم المسجد وتنزيهه عن الأقذار.

وعن معاوية بن الحكم السُّلمي، قال: ((بينا أنا أُصَلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إليّ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما قهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن))، وفيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به، وفيه رفقه بالجاهل، ورأفته بأمته، وشفقته عليهم، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة، ينبغي أن يتخلقوا بخلق رسول الله ﷺ في الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه، فإن هذا مما يعين على الاستجابة، ويؤلف النفوس ويجذب القلوب ويجعل الناس يكبرون الداعية، ويحترمونه ويحبونه وينقادون له ويتأثرون بدعوته، وكما كان هذا عن الرفق، فماذا عن اليسر؟

اليسر ضد العسر، وتيسر واستيسر أي: تسهل، والسهل نقيض الحزن، والسهولة ضد الحزونة، والسهل كل شيء إلى اللين وقلة الخشونة، والتسهيل التيسير، وقال الحوالي: اليسر عمل لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم، ولقد حث النبي ﷺ على

التيسير، وأن يكون المسلم سهلًا سمحًا في أمره كله، ونهى عن التعسير من كل وجه، وبين أن التيسير يؤلف القلوب ويقربها، والتعسير ينفر القلوب ويبعدها، وأن خير الأمور أيسرها، ما لم يكن في ذلك سخط الله ﷻ، وعن أنس بن مالك > قال: ((قال النبي ﷺ: يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا))، وهو أمر بالتيسير، والمراد به الأخذ بالتسكين تارة، وبالتيسير أخرى، من جهة أن التنفير يصاحب المشقة غالبًا، وهو ضد التسكين، والتبشير يصاحب التسكين غالبًا وهو ضد التنفير.

وقال الطبري: المراد بالأمر بالتيسير فيما كان من النوافل مما كان شاقًّا؛ لئلا يفضي بصاحبه إلى الملل فيتركه أصلًا، أو يُعجب بعمله فيحبط، أو أن يترك ما رخص له كالفرائض، كأن يُصلي الفرض قاعدًا عند العجز، وأن يفطر في الفرض عند السفر، ونحو هذا. وفي الحديث دلالة على أن الغلو ومجاوزة القصد في العبادة مذموم، وأن المحمود من جميع ذلك ما أمكنت المواظبة معه وأمن صاحبه العجب وغيره من المهلكات. وعن عائشة > أنها قالت: ((ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين قط، إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه))، وفي الحديث استحباب الأخذ بالأيسر والأرفق ما لم يكن حرامًا أو مكروهًا. قال القاضي: ويُحتمل أن يكونَ تخييره ﷺ هنا من الله تعالى، فيخيره فيما فيه عقوبته وفيما بينه وبين الكفار من قتال وأخذ الجزية، أو في حق أمته في المجاهدة في العبادة أو الاقتصار، وكان يختار الأيسر في كل هذا.

وفي الحديث الحث على ترك الأخذ بالشيء العسر، والاقتناع باليسر، وترك الإلحاح فيما لا يضطر إليه، ويؤخذ من ذلك الندب إلى الأخذ بالرخص ما لم يظهر الخطأ، وفي الحديث أيضًا عن أبي هريرة > ((عن النبي ﷺ أنه قال: إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا))، وفي الحديث الأمر بالاقتصاد

في العبادة، وترك الحمل على النفس بما يئودها، فإن الله ﷻ لم يتعبد خلقه، بأن ينصبوا آناء الليل والنهار فلا يستريحوا، بل أوجب عليهم وظائف في وقت دون وقت، فليخلطوا طرف الليل بطرف النهار وليجموا فيما بينهما أنفسهم.

قال الحسن: إنّ دينَ الله وُضِع فوق التقصير ودون الغلو، هذا وعلى الداعية أن يكون متواضعًا، وأن ينبذ الكبر، وفي الحديث عن عياض بن حمار ((عن النبي ﷺ أنه خطبهم فقال: إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد))، وعن أبي هريرة > قال: ((قال رسول الله ﷺ: من تواضع لله رفعه الله))، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، فينبغي على الداعية أن يكون متواضعًا لله ﷻ، فهذا التواضع الواجب المحمود الذي يرفعُ الله به صاحبه في الدارين، والتواضع كسائر الخلق، الأصل فيه أنه محمود ومندوب إليه ومُرَغّب فيه إذا قُصد به وجه الله تعالى، ومن كان كذلك رفع الله قدره في القلوب وطيب ذكره في الأفواه، ورفع درجته في الآخرة. وأما التواضع لأهل الدنيا ولأهل الظلم، فذلك الذل الذي لا عز معه، والخيبة التي لا رفعة معها، وليترتب عليه ذل الآخرة وكل صفقة خاسرة.

دور الموعظة الحسنة في تقريب الناس إلى الله

والموعظة الحسنة تحبب الناس إلى الله وتقربهم منه، فينبغي على الداعية أن ييسرها، وأن يشعر المخاطب أن الداعية معه، وأن دوره إنما هو دور الناصح له، الرفيق به، الباحث عما ينفعه، ويدخل إلى قلبه برفق، ويعمق مشاعره بلطف، ويزين له الحسن، ويرغبه في فعله، وينهاه عن القبيح، ويحثه على تركه حرصًا

منه على نفعه وخيره، وتقتضي الموعظة الحسنة تجنب الانفعال الحاد والحماس الزائد، الذي يدفع الخصم إلى التصرف غير اللائق، كما تقتضي الدقة والحذر والاتصال بالمدعوين فرادى، أو في جماعات صغيرة، تتيح فرصة التفكير والتأمل، بعيدًا عن شعور الجماعة وحماسها الزائد، ويساعد على تحقيق الغاية من الموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) ﴾ [سبأ: ٤٦- ٥٠].

ذلك أن اجتماع المخالفين يجعلهم يفكرون ويشعرون، ويعملون بطريقة تخالف طريقة تفكيرهم وشعورهم وعملهم، وهم في معزل عن بعض؛ نتيجة الشعور بعدم المسئولية، والعدوى التي تسري من فرد إلى آخر، وانعدام الوجود الشخصي في وسط الجمع الحاشد، ومواجهة الداعية للعدد القليل أو للفرد الواحد يجنبه مثل هذه الأمور، فتجدي موعظته الحسنة حين يجعله يفكر معه، ويُقَلّب الأمر على مختلف الوجوه، ورسل الله - عليهم الصلاة والسلام- حرصًا منه على الوصول إلى هذه الغاية التزموا بهذا المنهج، وبدأوا الدعوة إلى الله تعالى سرًّا، ثم كان بعد ذلك الجهر بها والإعلان. قال تعالى على لسان نوح # : ﴿ث ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ [نوح: ٨- ١٢].

هذا؛ والدعاة إلى الله تعالى، كما يستمدون من القرآن الكريم الدعوة يستمدون منهاجها ووسائل العمل، وزاد الطريق وهو لهم خير معين، وأبو الأنبياء - إبراهيم # يسلك مع قومه سبيل المناجاة الذاتية متمثلة في حديث النفس، ويتلمس الطريقة ليثير التفكير فيما عليه القول؛ ليصلوا في النهاية معه إلى الحقيقة الراسخة التي وصل إليها، ويعلن التوجه بوجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا. وموسى وهارون - عليهما السلام- يأمرهما الله ﷻ بالذهاب إلى فرعون لدعوته، وليقولا له قولًا لينًا لعله يتذكر أو يخشى، والقول اللين يجعل المخاطب بالدعوة يحافظُ على هدوئه واتزانه، ويتجنب الإثارة والصخب. ويسلك شعيب # مع قومه سبيل الموعظة الحسنة، ويستثير عوامل الخير فيهم، فيقول لهم: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦]، ويقول لهم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود: ٨٤].

واستعراضُ الطّريقة التي سلكها رسل الله - عليهم السلام- في الدعوة، يظهر بجلاء أنهم قد أرسوا أسس الدعوة، وبينوا قواعدها ومبادئها ومسائلها ووسائلها وطرائقها، ووضعوا بذلك المنهج للدعاة، والدعوة إنما تكون إلى سبيل الله تعالى، وليست لشخص الداعي ولا لقومه، وأجره عليها من الله ﷻ، ونظر الداعية إلى أحوال المدعوين وظروفهم يجعله يقدر ما ينبغي عليه فعله، حتى لا يثقل عليهم قبل الاستعداد النفسي الذي يعينهم على القبول، كما أن التنويع في الطريقة التي يخاطبهم بها؛ يدفع السآمة والملل، على أن يتجنب في موعظته الحسنة الزجر والتأنيب في غير موجب، ويصفح عن الأخطاء التي قد تقع منهم عن جهل أو حسن نية، ولا يتحامل على المُخالف ولا يرذله حتى يطمئن إليه

ويشعر أن هدفه هو الإقناع، والوصول إلى الحق والأمر لله من قبل ومن بعد ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

هذا؛ والموعظة الحسنة تقتضي مخاطبة الناس على قدر عقولهم، وهذا من الأهمية بمكان؛ فانظر إلى أفهام الأشخاص قبل أن تحدثهم، ولا تفتن الناس بحديث، وانظر ماذا تريد منهم، ومن ثم وجه الخطاب بالقدر الذي يفهمونه ويتحملونه، فحينئذ يفهم عنك مراده وتجاب إلى طلبك، أخرج البخاري من حديث علي > قال: "حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟"، وفي (صحيح مسلم) من حديث ابن مسعود > قال: "ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة".

وها هو رسولنا ﷺ يخبر بعض أصحابه ببعض أنواع العلوم دون الآخرين، ففي (الصحيحين) من حديث أنس بن مالك > أن النبي ﷺ ومعاذًا رديفه على الرحل قال: ((يا معاذ، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثًا، قال: ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله، صدقًا من قلبه، إلا حرمه الله على النار، قال: يا رسول الله، أفلا أُخبر به الناس، فيستبشروا؟ قال: إذًا يتكلوا))، وأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا؛ فانظر إلى قوله: ((إذًا يتكلوا))، وفي الرواية الأخرى: ((ألا أبشر الناس؟ قال: لا، إني أخاف أن يتكلوا))، ونحوه في (صحيح مسلم) من حديث أبي هريرة >: ((أن النبي ﷺ أمر أبا هريرة أن يبشر بذلك الناس، فلقيه عمر فدفعه، قال: ارجع يا أبا هريرة، ودخل على إثره، فقال: يا رسول الله، لا تفعل فإني أخشى أن يتكل الناس، فخلهم يعملون، فقال: فخلهم)).

فانظر إلى الكلام النافع الذي ينتفع به الناس؛ فحدثهم به، أما الكلام الذي يُفهم على غير وجهه فاتقه واجتنبه، وخاصة إذا كان الناس سيقعون في الضرر بسببه، هذا ولا يجهر بكل كلام مع الناس، ففي (الصحيح) عن علقمة قال: "كنت مع عبد الله فلقيه عثمان بمنى، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن لي إليك حاجة فخليا"، فإذا كنت تريد من أحد مسألة خاصة أو توجيهًا خاصًّا، فلا تجهر لمسألتك ولا بنصيحتك أمام الناس، ولكن أسر إليه ما تريد، وقد أسر النبي ﷺ إلى بعض أزواجه حديثًا، وأسر رسول الله ﷺ إلى فاطمة ابنته أيضًا بحديث.

ومن الموعظة الحسنة: مراعاة حرمات الأوقات والأماكن وأقدار الناس، فقد قال الله تعالى عن الحج: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٩٧]، قال عن الصيام: ((إذا كان يوم صوم أحدكم؛ فلا يَرفُث ولا يصخب؛ فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم))، قال عمر لمن رفع صوته عند مسجد رسول الله ﷺ: "ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ لو كنتما من هذه البلدة لأوجعتكما ضربًا"، وقال تعالى في شأن الحرم: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [الحج: ٢٥].

وهكذا ينبغي مراعاة هذا كما ينبغي خفض الصوت عند مخاطبة أهل الفضل، وعدم إعادة الكلام المذكر بالأسى والحزن، مع الأدب فيما ينكر عن الله ﷻ، ولفت نظر المخاطب وجذب انتباهه لاستماع الحديث وتهيج مشاعر الناس لفعل الخير. نعم، هذه كلها أمور ينبغي مراعاتها مع الموعظة الحسنة.

تابع: الموعظة الحسنة

عناصر الدرس

العنصر الأول :	نماذج من القرآن والسنة والتراث الإسلامي للموعظة الحسنة	٢١١
العنصر الثاني :	من السمات التي ينبغي أن تتسم بها الموعظة الحسنة	٢١٧
العنصر الثالث :	على الداعية أن يفرق بين النصيحة والتعيير في الموعظة الحسنة	٢٢٠
العنصر الرابع :	من أساليب الترغيب والترهيب تذكير القوم بما هم عليه من نِعم	٢٢٥

نماذج من القرآن والسنة والتراث الإسلامي للموعظة الحسنة

فالموعظة الحسنة أخذت أفضل صورها في خطب النبي ﷺ من حيث حسن البيان وجوامع الكلم، ومن حيث الهيئة والشكل، ومن حيث التناول والعرض، ذلك أن بلاغة النبي ﷺ كانت أعظم المثل الذي ينبغي على الدعاة أن يحتذوا حذوه، وأن يقتدوا بهديه؛ فلم يقف على منابر الدنيا أفضل ولا أقدر من رسول الله ﷺ، فقد جمع الله لنبيه ﷺ بين المهابة والحلاوة، فلم تسقط له حجة، ولم تعثر له كلمة، ولم يغلبه خصم، يقول الرافعي: يجيء النبي ﷺ فتجيء الحقيقة الإلهية معه؛ لتكون أقوى أثرًا وأيسر فهمًا وأبدع تمثيلًا، وليس عليها خلاف من الحس، وهذا هو الأسلوب الذي جعل إنسانًا واحدًا في الناس جميعًا، كما تكون البلاغة في لغة بأكملها، قال شوقي:

وَإِذا خَطَبتَ فَلِلمَنابِرِ هِزَّةٌ ❖ تَعرو النَدِيَّ وَلِلقُلوبِ بُكاءُ

والمعنى: أن رسول الله ﷺ إذا خطب تكون للمنابر هزة تحت قدميه لتأثير بيانه وقوة كلماته، وتسيطر هذه الحال على الحاضرين، فتدمع قلوبهم، وهذا هو الأهم والأعمق في وصف بيانه ﷺ؛ لأن غاية ما يريد الداعية أن يبلغه هو ألا يسمع الناس كلماته فقط، وإنما يغرس هذه الكلمات في النفوس ويخط لها مكانًا في القلوب، وهكذا كان بيان النبوة الساطع، وكيف لا يكون بيان النبوة على هذا النمط العالي من البلاغة وقوة التأثير، وقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، وتفجرت من بين شفتيه الشريفتين ينابيع الحكم، عن أبي هريرة > أنّ رسول الله ﷺ قال: ((فضلت عن الأنبياء بست))، وذكر منها: ((أعطيت جوامع الكلم))،

وجوامع الكلم: جمع المعاني الكثيرة في ألفاظ يسيره؛ ولذا ورد عنه ﷺ إنه قال: ((واختصر لي الحديث اختصارًا)).

وجوامع الكلم التي خص بها النبي ﷺ نوعان: أحدهما ما هو في القرآن، والثاني: ما هو في كلامه ﷺ وهو منشر موجود في السنن المأثورة عنه، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٠]، قيل: ((إن أكثم بن صيفي لما بلغته بعثة النبي ﷺ أرسل رجلين ليقفا على خبر هذا النبي، فأتيا رسول الله ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفي وهو يسأل من أنت؟ وما أنت؟ فقال ﷺ: أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا، فأنا عبد الله ورسوله، ثم تلا عليهما هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ الآية، فقالا: ردد علينا هذا القول، فردده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم، فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب، وسطًا في مضر، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهن أكثم، قال: يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوسًا ولا تكونوا فيه أذنابًا)).

ومن جوامِع كَلمه ﷺ في السُّنة النبوية، قوله ﷺ: ((زُر غِبًّا تزدد حبًّا))، وقوله ﷺ: ((تهادوا تحابوا))، وقوله ﷺ: ((الحرب خدعة)).

ومن هدي النبي ﷺ في الهيئة والشكل: اتخاذ منبر للجمعة، يقول ابن القيم - رحمه الله- : "خطب النبي ﷺ على الأرض وعلى المنبر وعلى البعير وعلى الناقة، وكان منبر رسول الله ﷺ ثلاث درجات، يقف النبي ﷺ على الثانية ويجلس على الثالثة، والحكمة من كون الخطبة على المنبر أن ذلك أبلغ في

الإعلام، كما أن الناس إذا شاهدوا الخطيب كان أبلغ في وعظهم؛ فإن لم يكن منبر استحب أن يقف الخطيب على موضع عالي، وإلا فإلي خشبة ونحوها والخطابة قائمة، وذلك مستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ [الجمعة: ١١]. أي: على المنبر تخطب، وفي هذا دليل على أن الإمام يخطب قائمًا.

والسلام على الناس إذا صعد المنبر، فعن عطاء قال: ((كان النبي ﷺ إذا صعد المنبر أقبل بوجهه على الناس، فقال: السلام عليكم))، عن ابن عمر { قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد يوم الجمعة، سلم على من عند منبره من الجلوس، فإذا صعد المنبر توجه إلى الناس فسلم عليهم))، والجلوس بين الخطبتين من هدي النبي ﷺ، كما في الحديث عن ابن عمر { قال: ((كان النبي ﷺ يخطب خطبتين، يقعد بينهما))، وعن جابر بن سمرة قال: ((رأيت رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة قائمًا، ثم يقعد قعدة لا يتكلم، ثم يقوم فيخطب خطبة أخرى))، وعليه بالإشارة بالسبابة عند الدعاء، كما قال ابن القيم - رحمه الله- : "وكان ﷺ يشير بإصبعه السبابة في خطبته عند ذكر الله تعالى ودعائه".

ومن هدي النبي ﷺ في خطبته في باب التناول والعرض، البدء بحمد الله والتشهد، قال ابن القيم - رحمه الله- : وكان النبي ﷺ لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله، ويتشهد فيها بكلمتي الشهادة، ويذكر فيها نفسه باسمه العلم، عن ابن مسعود > : ((أن رسول الله ﷺ كان إذا تشهد قال: الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمد عبده

ورسوله)) الحديث. وقول "أما بعد" بعد التشهد، عن المسور بن مخرمة قال: ((قام رسول الله ﷺ فسمعته حين تشهد يقول: أمّا بعد))، ثم الاستشهاد بالقرآن الكريم، فعن أبي بن كعب > : ((أن رسول الله ﷺ قرأ يوم الجمعة "تبارك" وهو قائم فذكرنا بأيام الله))، وعن أم هشام بنت حارثة، قالت: ((ما أخذت ﴿ قٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس)).

قال النووي تعليقًا على هذا الحديث: فيه القراءة في الخطبة وهي مشروعة بلا خلاف، واختلفوا في وجوبها، والصحيح عندنا وجوبها وأقلها آية، وسبب اختياره ﷺ لهذه السورة لما اشتملت عليه من ذكر البعث والموت والمواعظ الشديدة والزواجر الأكيدة، لكن ينبغي أن نلحظ أمرًا؛ هو أن فعله ﷺ كان لقوم يفهمون معاني القرآن ويدركون أسراره، فيتأثرون به أعظم التأثر، ويتعظون به أجل الاتعاظ، أما قراءة هذه السور وغيرها عند قوم لا يفهمون معانيها ولا يدركون مغازيها، فلا ينبغي إلا مع الشرح والبيان حتى يتحقق المقصود.

ومن هديه ﷺ تفخيم شأن الخطبة، فعن جابر بن عبد الله { قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم))، قال الطيبي: شبه حاله ﷺ في خطبته وإنذاره بحال من ينذر قومه عند غفلتهم بجيش قريب منهم، يقصد الإحاطة بهم بغتة، فكما أن المنذر يرفع صوته وتحمر عيناه ويشتد غضبه على تغافلهم، فكذا حال الرسول ﷺ عند الإنذار، وفيه أنه يُسن للخطيب أن يفخم أمر الخطبة، ويرفع صوته ويُحرك كلامه، مع مراعاة التنوع في الموضوع.

يقول ابن القيم: وكان مدار خطبه ﷺ على حمد الله، والثناء عليه بآلائه وأوصافه، وتعليم قواعد الإسلام، وذكر الجنة والنار والمعاد، والأمر بتقوى الله، وتبيين موارد غضبه، ومواقع رضاه، ويقول أيضًا: وكانت خطبته ﷺ تقريرًا لأصول الإيمان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وذكر الجنة والنار، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خشيته إيمانًا وتوحيدًا، ومعرفة بالله وأيامه، لا كخطب غيره التي إنما تفيد أمرًا مشتركًا بين الخلائق، وهو النوح على الحياة والتخويف من الموت، فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيمانًا بالله ولا توحيدًا له ولا معرفة خاصة به ولا تذكيرًا بأيامه، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم يموتون، تقسم أموالهم ويبلي التراب أجسامهم، فليت شعري أي إيمان وأي توحيد وعلم نافع حصل به.

وينبغي في الخطبة مراعاة مقتضى الحال، يقول ابن القيم: "وكان ﷺ يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم"، ويقول أيضًا: "وكان ﷺ يأمرهم بمقتضى الحال في خطبته، فإذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها". كما ينبغي مراعاة نفسية المخاطبين، كما كان ﷺ خبيرًا بالنفوس، قديرًا على قراءتها وتلمس ما ينفعها، فربما سأله سائل فيكتفي برده بكلمات قصار، وربما سُئل عن أمر فتلطف بالرد غاية اللطف، بأن جعل الجواب في ثنايا موعظة مؤثرة، وربما صرف ذهن السائل إلى قضية أو قضايا أكثر أهمية من القضية المسئول عنها، وربما أجاب السائل بسؤال جوابه معروف مستقر في البديهة، في صنوف من الأساليب الحكيمة التي تستهدف غرس الحقيقة في نفوس

المخاطبين من أقرب طريق، وبقاؤها حية فاعلة بين حارسين من يقظة العقل وصحوة الوجدان. سئل ﷺ عن أمر يعتصم به الإنسان، فقال: ((قل: ربي الله ثم استقم))، وسئل ﷺ عن التوضؤ من ماء البحر، فقال: ((هو الطهور ماؤه، الحل ميتته))، وسئل ﷺ عن الساعة، فقال للسائل: ((وماذا أعددت لها؟)).

ومن مظاهر مراعاته ﷺ لنفسية المخاطبين اغتنام أوقات النشاط والرغبة، فعن أبي وائل قال: "كان عبد الله يذكرنا كل يوم خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إنا نحب حديثك ونشتهيه، ولوددنا أنك حدثتنا كل يوم، فقال: ما يمنعني أن أحدثكم إلا كراهية أن أملكم، إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا، مع الاقتصار في الموعظة"، يقول جابر بن سمرة: ((كان رسول الله ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة، إنما هن كلمات يسيرات))، ويقول أيضًا > : ((كنت أصلي مع رسول الله ﷺ فكانت صلاته قصدًا، وخطبته قصدًا))، بل كان النبي ﷺ يرى هذا القصد علامة على فقه الخطيب. يقول أبو وائل: خطبنا عمار فأوجز وأبلغ، فلما نزل قلنا: يا أبا اليقظان، لقد أبلغت وأوجزت، فلو كنت تنفست، فقال: ((إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن طول صلاة الرجل، وقصر خطبته مئنة من فقهه - أي: علامة من فقهه- فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة)). فأين هذا الهدي النبوي من خطيب نراه يهوي في خضم من الشرح والتفصيل والاستطراد! حتى لتحسبه يريد أن يشرح تعاليم الإسلام التي مكث رسول الله ﷺ ثلاثًا وعشرين سنة يبلغها للناس، في جلسة واحدة غير عابئ بطاقات الناس، ولا مراع لتفاوت أفهامهم؛ لهذا لا نستغرب إذا ما وجدناه يهيم في واد والمخاطبون في وادٍ آخر.

من السمات التي ينبغي أن تتسم بها الموعظة الحسنة

ومن الموعظة الحسنة:

الاهتمام بالكيف لا بالكم، فعن عروة بن الزبير، عن عائشة > أنها قالت: ألا يعجبك أبو هريرة، جاء فجلس إلى جنب حجرتي يُحدث عن النبي ﷺ يسمعني ذلك، وكنت أسبح، فقام قبل أن أقضي سبحتي ولو أدركته لرددت عليه، ((أن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم))، والمعنى: أنه ﷺ كان يحرص على الإفهام، لا على حشد المعلومات، ويهتم بالكيف لا بالكم، فحسب الناس جملة قصيرة ذات معنى جامع يفهمونها ويطبقونها، يكون فيها الغناء عن سرد كلام طويل لا يفرغ من آخره حتى ينسى أوله، وتقول > : ((إن النبي ﷺ كان يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه)). أي: لو عد كلماته أو مفرداته أو حروفه لأطاق ذلك وبلغ آخرها، والمراد بذلك المبالغة في الترتيل والتفهيم.

ومن الموعظة الحسنة: إثارة الانتباه وطالما استعان النبي ﷺ بوسائل عدة لإثارة الانتباه إلى موعظته، ومن تلك الوسائل:

- السؤال عن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياه، فطرحت عليه ثم طرح في النار)).

- وأيضًا: القسم، عن أبي شريح > أن النبي ﷺ قال: ((والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: هو من يا رسول الله؟، قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه)) أي: شروره.

- ومنها: ضرب الأمثال، عن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم، يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)).

- ومنها: الحركة، فعن أبي بكرة > قال: ((قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت)).

- ومنها: الإضمار، عن أبي سعيد > أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر؛ فقال: ((عبد خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا به)).

- ومنها: الاستعراض، فعن علي > قال: ((أخذ رسول الله ﷺ حريرًا بشماله، وذهبًا بيمينه، ثم رفع بهما يديه، فقال: إن هذين حرام على ذكور أمتي، حل لإناثهم)).

- ومن أساليب الموعظة الحسنة: قطع الخطبة للحاجة، ومن تلك الحاجات التي عرضت لرسول الله ﷺ فقطع الخطبة لأجلها؛ التعليم كما في قصة سليك

الغطفاني، فعن جابر بن عبد الله { قال: ((جاء سليك الغطفاني يوم الجمعة، ورسول الله ﷺ يخطب، فجلس، فقال له: يا سليك، قم فاركع ركعتين وتجوز فيهما)) الحديث، وكما في حديث أبي رفاعة > قال: ((انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه، قال: فأقبل علي رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليّ، فأتي بكرسي حسبت قوائمه حديدًا، قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها)).

ومنه الرحمة بالصغير، عن بريدة > قال: ((كان رسول الله ﷺ يخطبنا، إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ ﴾ [التغابن: ١٥]، فنظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما)).

وعن معاذ بن جبل > قال: ((بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل، فقال: يا معاذ بن جبل، فقلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، فقال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق العباد على الله ألا يعذبهم)).

يقول الدكتور محمود عمارة: لقد كان من الممكن أن يلقي رسول الله ﷺ هذه الموعظة على سمع معاذ في لحظة واحدة وينتهي الموقف، لكنه ﷺ يشق لها في

النفس مجرى عميقًا لتستمر ثم لتستقر، فليس المهم أن تكون العظة بليغة، وأهم من ذلك إعداد القلوب لاستيعابها، وثقل الإرادة لتنشط في تطبيقها، فلينظر الدعاة إلى هذا الحديث؛ ليتعلموا كيف تكون إثارة الانتباه، وكيف يتم إعداد المخاطب، وتهيئة ذهنه لتلقي الحقائق، كان ذلك بأسلوب النداء الذي بدأ هادئًا مترفقًا ((يا معاذ بن جبل))، هكذا بالجمع بين حرف النداء ونسبته إلى أبيه ليعلم أن الأمر خطير، وحقيق بأن يستجمع له كل مشاعره، ويجيب معاذ متلهفًا ((لبيك وسعديك))، ولكن النبي ﷺ يسكت عنه ساعة، أي: لحظات، يزداد فيها شوق معاذ لمعرفة ما يلقيه إليه ﷺ، وهنا يجيء النداء الثاني من الرسول ﷺ ((يا معاذ)) استحضارًا لعقله الذي شغله الفكر فسار بعيدًا، ويجيب معاذ بما أجاب به من قبل، ولكن النبي ﷺ لا يجيبه في المرة الثانية وإنما يسكت عنه ساعة أخرى، وبهذا أصبح معاذ كله آذانًا سامعة وقلبًا حاضرًا وذهنًا متوقدًا، يريد أن يعلم ويعي ويحفظ ويتفقه في دينه ويتدبر، وهنا يأتيه النداء النبوي الثالث ((يا معاذ بن جبل))، وبعد هذا التشويق والإثارة يأتي التعليم عن طريق الحوار ((هل تدري ما حق الله على عباده؟)).

على الداعية أن يفرق بين النصيحة والتعيير في الموعظة الحسنة

وهكذا نتعلم أساليب من النبي ﷺ في الخطبة والموعظة الحسنة، التي ينبغي أن يلتزم بها الدعاة إلى الله ﷻ، وعلى الداعية أن يفرق بين النصيحة والتعيير؛ فإنهما يشتركان في أن كل منهما ذكر الإنسان بما يكره ذكره، وقد يشبه الفرق بينهما عند كثير من الناس - والله الموفق للصواب- ، فاعلم أن ذكر الإنسان بما يكره محرم إذا كان المقصود منه مجرد الذم والعيب والنقص، فأما إن كان فيه مصلحة لعامة المسلمين أو لخاصتهم، كان المقصود منه تحصيل تلك المصلحة،

فليس بمحرم بل مندوب إليه، وهو على شاكلة ما قرره علماء الحديث في كتبهم من علم الجرح والتعديل، وذكروا الفرق بين جرح الرواة وبين الغيبة، وردوا على من سوى بينهما.

ومن ثَمّ فينبغي على الداعية أن يكون منصفًا، وأن يفرق بين النصيحة والتعيير؛ فإذا نصح فلا يفحش في الكلام ولا يسيء الأدب في العبارة، وعليه أن يقيم الحجج الشرعية والأدلة المعتبرة، وأنه إذا نصح فعليه ألا يذكر أسماء، إنما يأخذ هدي النبي ﷺ: ((ما بال أقوام))، وألا يقول للرجل في وجهه ما يكرهه؛ فإن كان هذا على وجه النصح فهو حسن، ولقد قال بعض السلف لبعض إخوانه: لا تنصحني حتى تقول في وجهي ما أكره؛ فإذا أخبر الرجل أخاه بعيب ليجتنبه كان ذلك حسنًا لمن أخبر بعيب من عيوبه أن يعتذر منها إن كان له منها عذر، وإن كان ذلك على وجه التوبيخ بالذم فهو قبيح مذموم، وقيل لبعض السلف: "أتحب أن يخبرك أحد بعيوبك، فقال: إن كان يريد أن يوبخني فلا".

فالتوبيخ والتعيير بالذنب مذموم، وقد نهى النبي ﷺ أن يسرب الأمة الزانية مع أمره بجلدها فتجلد حدًّا ولا تعير بالذنب ولا توبخ به. وكان السلف يكرهون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على هذا الوجه، ويحبون أن يكون سرًّا فيما بين الآمر والمأمور؛ فإن هذا من علامات النصح، فإن الناصح ليس له غرض في إشاعة عيوب من ينصح له، وإنما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها، فالمؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويعير. والأحاديث في فضل السر كثيرة جدًّا، وقال بعض العلماء لمن يأمر بالمعروف: "واجتهد أن تستر العصاة؛ فإن ظهور عوراتهم وهم في الإسلام أحق شيء بستر العورة".

هذا ؛ ومما ينبغي في الموعظة الحسنة أيضًا ، أنه ينبغي للداعي أن يحدد الداء ويصف الدواء ؛ فإن الداعية طبيب للأرواح ، كما أن الطبيب طبيب الأبدان ، ولئن كان طبيب الأبدان يشخص الداء أولًا ، ثم يعين العلاج ثانيًا ، فالداعي إلى الله تعالى طبيب القلوب والأرواح ، عليه أن يسلك نفس الأسلوب في معالجة الأرواح ، فيشخص الداء أولًا ، ثُمّ يُعين العلاج ثانيًا ، ولا يقف عند أعراض الداء محاولًا علاجها تاركًا أصلها وعلتها ، فما أصل داء البشر؟ وما هو أصل الدواء؟ أصل داء البشر هو أصل دوائهم ، أصل داء الناس في القديم والحديث جهلهم بربهم وشرودهم عنه ، أو كفرهم به ورفضهم الدخول في العبودية الكاملة له ، والسير على النهج الذي جاء به محمد ﷺ من ربه ، واغترارهم بالدنيا وركونهم إليها ، وغفلتهم عن الآخرة أو إنكارهم لها ، هذه هي مقومات الداء وهي تجتمع مع الكفر بالله ، وتتفرق مع أصل الإيمان به ، كما نجده في ضعاف العقيدة من المسلمين ، فإذا وجد أصل الداء بكل مقوماته ، وجدت الشرور والمفاسد بكل صنوفها وأنواعها ، وإذا وجدت بعضها وجدت من الشرور والمفاسد بقدرها.

أما أصل الدواء لهذا الداء فهو الإيمان بالله ربًّا وإلهًا ، لا إله غيره ، والكفر بالطاغوت بكل أنواعه ومظاهره ، والإقبال على الله وعدم الركون إلى الدنيا ، كما قال تعالى عن نوح # : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وكذلك قال سيدنا محمد ﷺ لرؤساء قريش ، وقد جاءوا إلى أبي طالب يسألونه ماذا يريد منهم محمد ﷺ ، فقال ﷺ : ((تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه)) ، وهكذا قالت رسل الله جميعًا بلا استثناء : ﴿ و وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، ومن ثم فينبغي التركيز على معاني العقيدة الإسلامية.

وكذلك من أساليب الدعوة في الموعظة الحسنة الاهتمام بالترغيب والترهيب، ونقصد بالترغيب: كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، ونقصد بالترهيب: كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، والملاحظ أن القرآن الكريم مملوء بما يرغب الناس في قبول دعوة الإسلام والتحذير من رفضها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا الأسلوب، الذي هو أسلوب الترهيب والترغيب في الدعوة إلى الله تعالى، سيما مع الموعظة الحسنة، وعدم إهماله من قبل الداعي المسلم.

أما بما يكون الترغيب والترهيب؟ فالأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضا الله ورحمته، وجزيل ثوابه في الآخرة، وأن يكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة، وهذا هو نهج رسل الله الكرام، كما بينه القرآن الكريم وجاءت به السنة النبوية المطهرة؛ فمن الآيات القرآنية قوله تعالى عن نوح # : ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف: ٦٣]، وعن نوح # أيضًا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نوح: ١- ٤].

وقال تعالى عن رسوله محمد ﷺ: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [التغابن: ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد: ١٢].

وفي السنة النبوية، كان ﷺ يعد المبايعين له بالجنة، ومن ذلك ما قاله ﷺ لأصحاب بيعة العقبة الأولى: ((فإن وفّيتم فلكم الجنة))، وكان ﷺ يمر بآل ياسر وهم يعذبون بسبب إسلامهم، فيقول لهم: ((صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)) ومع أن الأصل في الترغيب والترهيب يكون بالجزاء في الآخرة، فإنه يجوز أن يكون بما يصيب المدعوين في الدنيا من خير في حالة استجابتهم، وما يصيبهم من شر في حالة رفضهم، على ألا يغفل الداعي أبدًا عن الترغيب والترهيب بالجزاء في الآخرة، ومن أدلة هذا الجواز ما يأتي: قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ ﴾ [النور: ٥٥].

ويقول تعالى حكاية عن قول نوح # لقومه: ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ ﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

وما قاله رسول الله ﷺ عندما جاء أشراف قريش عمه أبا طالب؛ ليحدثوه بشأن رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يكلمه ليكف عنهم ويكفوا عنه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه، فقال: ((يا بن أخي، قد اجتمعوا لك ليعطوك ويأخذوا منك، فقال رسول الله ﷺ: يا عم، كلمة واحدة تعطونيها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فقال أبو جهل: نعم، وأبيك وعشر كلمات، فقال رسول الله ﷺ: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه)).

من أساليب الترغيب والترهيب تذكير القوم بما هم عليه من نِعم

وإن من شأن ذلك أن يدعوهم إلى طاعة الله الذي أنعم عليهم بهذه النعم، والتحذير من فقدهم لها إذا امتنعوا من الاستجابة وكفروا بالله، ومع زوال النعم نزول العذاب، ومن ذلك الآيات الكريمة المبينة لهذا النوع من الأسلوب، في قوله تعالى عن هود # : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وعن هود # أيضًا: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٢- ١٣٥].

ومن وسائل الموعظة الحسنة: التربية المؤثرة جدًّا، بالاتصال بكتاب الله العظيم، تلاوة وتأملًا وفهمًا، وفتح منافذ الإنسان إلى هذا الروح العظيم - القرآن- ؛ لتنساب أنواره إلى كيان المسلم؛ فتزيل أدواءه وظلمته، وتبعث فيه الحياة الحقيقية، فإن القرآن كما وصفه الله تعالى: نور وهدى وشفاء وروح، ولا يبقى مع النور ظلمًا، ولا مع الهدي شك، ولا مع الشفاء داء، ولا مع الروح موت، قال تعالي: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢]، ومن ثم ينبغي بعد الاتصال بالقرآن الاتصال الدائم للسيرة النبوية الكريمة والسنة المطهرة وسيرة الصحابة الكرام، حتى يصبح المسلم كأنه يعيش مع رسول الله ﷺ وصحبه متخطيًا حدود الزمن، مسلحًا بروحه للحاق بهم، والتأسي بسيرتهم، إنّ على الداعي المسلم أن يعين المستجيبين على

هذا النمط من التربية، وبهذا الأسلوب وغيره، حتى يثبتوا على الإسلام ويكونوا دعاة إلى الله؛ فإن الإسلام يحتاج إلى المزيد من الدعاة الفاهمين.

ولا ينبغي أن نغفل القدوة الحسنة؛ فإن صلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس إلى الإيمان، وإن خلقه الفاضل هو السحر الذي يجذب إليه الأفئدة ويجمع عليه القلوب، أتظن جمال الباطن أضعف أثرًا من وسامة الملامح؟ كلا، إن طبيعة البشر محبة للحسن والالتفات إليه، وأصحاب القلوب الكبيرة لهم من شرف السيرة وجلال الشمائل ما يبعث الإعجاب بهم والركون إليهم، ومن ثم؛ فإن الداعية الموفق الناجح هو الذي يهدي إلى الحق بعمله، وإن لم ينطق بكلمة؛ لأنه مثلٌ حي متحرك للمبادئ التي يعتنقها، وقد شكا الناس في القديم والحديث من دعاة يحسنون القول ويسيئون الفعل، والواقع أن شكوى الناس من هؤلاء يجب أن تسبقها شكوى الأديان والمذاهب منهم؛ لأن تناقض فعلهم وقولهم أخطر شغب يمس قضايا الإيمان ويصيبها في الصميم، ولا يكفي لكي يكون المرء قدوة أن يتظاهر بالصالحات أو يتجمل الأعين الباحثة؛ فإن التزوير لا يصلح في ذلك الميدان. ولا بد أن ينكشف المخبوء على طول المعاملة وامتداد الزمن وتمحيص الأحداث، وسرعان ما يبدو معدن النفس على الحقيقة العارية، ذلك أن النفس المتحركة من هذا الروح فهي كالآلة الدائرة بما يعمر خزانها من وقود. أما النفس المحرومة من هذا الروح فهي كالآلة التي تدفع باليد حينًا، لا يلبث أن يغلبها العطل والعطب فتتوقف وتسكن.

والمصيبة الطامة أن بعض المنافقين يحسبون أن تمثيل دور الإيمان لا يحتاج، إلا إلى شيء من التكلف والمصانعة، كما أن بعض المتهاونين يحسبون أن لباس التقوى

يمكن نسجه بشيء من إدمان الرسوم وإتقان الهمهمة وهذا ضلال بعيد، فالأمر أخطر مما يظنون، إن التدين الحقيقي صورة لجوهر النفس بعدما استكانت لله نزلت على أمره، واصطبغت بالفضائل التي شرعها، وترفعت عن الرذائل التي حرمها، واستقامت على ذلك استقامة تامة، هذا التدين وحده هو الذي تلتمس منه الأسوة ويقتبس منه الهدى، ويؤسفني أن أقول: إن هذا الضرب من التدين العالي نادر الآن، وأن أشعة الكمال المنبعثة من وهجه لا تكاد ترى، بل إن نفرًا من الناس الذين لا دينَ لهم أقرب إلى المسلك الصحيح، وأجدر بالقوامة على شتى الوظائف من الذين انتسبوا إلى الدين، وحملوا عنوانه دون اصطباغ به وتشرب لروحه، وعندما ينكب الدين بأقوام كثيرين على هذا الغرار فالمجال واسع لشيوع الإلحاد، وانتشار المعصية والعدوان، قال لي صديق: "إن فلانًا الأوربي إذا وكلت إليه مهمة خرجت من بين يديه متقنة الأداء ظاهرة الجودة، أما فلان الذي يكثر الصلاة فقل ما يريحني في إحسان واجب". لقد جزعت لهذه المقابلة بين الشخصين، ولم يسؤني منها أنها باطل إذ هي حق، وإنما ساءني منها أن ذلك المتدين الكسول دعاية شنيعة ضد الصلاة.

إنها القدوة الرديئة تعمل عملها ضد المثل الرفيعة والمبادئ الفاضلة، ولقد لاحظت أن الأجنبي في أغلب الأحيان، يرى خدشًا لكرامته وطعنًا في كيانه أن يصدر العمل عنه ناقصًا، فهو يجوده احترامًا لنفسه وصيانة لشخصه، على حين تجد مواطنًا ينتمي إلى الدين كما يزعم، ثم هو يقوم بالعمل على أسوأ الوجوه، ويبسط لسانه بالجدل الطويل في تسويغه وإقناع الآخرين بقبوله.

ولعلنا لم ننس قصة المهندس الذي أشرف على بناء جسر السلطان أبي العلاء، وكان أجنبيًّا، فإنه لما رأى عمله لم يصل إلى درجة الكمال التي ينشدها، رمى

بنفسه من فوق الجسر العالي، فهوى بين أمواج النيل، وكاد اليم يبتلعه لولا إسعاف المنقذين، لقد أحس غضاضة من أن يعيش بعدما فشل في إحسان العمل الذي كلف به. إنما أثبت هذه القصة؛ لأني أعرف أناسًا مثله وقعوا في شرٍّ من تفريطه، وخرج العمل من بين أيديهم مبتورًا مشوها، فلما عوتبوا شرع كل منهم يتنصل ويعتذر أو يهز كتفيه ملقيًا التبعة على غيره، ولعله بعد ذلك جلس إلى مكتبه يجرع القهوة في كبرياء، أيصلح هؤلاء أمثلة للإسلام؟ قل لي بالله، كيف يهوي سلوك الفرد منا إلى هذا الحد ثم ينتظر أن يحترم الإسلام ويقبل عليه؟.

إن الدعوة إلى الإسلام تكون أولًا بعرض ثماره في الأخلاق والأحوال، أعني ثماره في أتباعه المؤمنين، ويومئذ ترجى الإجابة ويرتقب الاهتداء، ولنعد إلى أسباب انتشار الإسلام أيام السلف الصالحين، إن خلق الدولة وصلاح أنظمتها وكفالتها أكبر حظ من العدالة والسعادة للأفراد كان الباعث الأعظم على دخول الناس في دين الله أفواجًا، وقبولهم عن طيب خاطر الانضواء تحت راية الإسلام، بل غبطتهم؛ لأن دائرة هذا الدين بلغت في الرحابة حدًّا جعلتهم يأوون إليها وهم وافرون أعزاء، حتى أيام اضطراب أجهزة الحكم في الدولة الإسلامية، وقصورها عن التعليق مع المثل الرفيعة التي نشدها الإسلام في اختيار الحكام، إن هذا القصور لم يقدح في مدى الخير الذي يحرزه الناس على اختلاف اللون والمذهب تحت علم الدولة الجديدة، ذلك أنه أعلى درجة ألف مرة من الخير الذي رأوه في ظل أكاسرة فارس وقياصرة الروم.

وحيث تتابع أوصاف المسلمين الفاتحين كما شرحها بعض المنصفين من المستشرقين، تجد أن الجماهير رمقت حملت العقيدة الظافرة بشيء من الدهشة، ورأت فيهم نماذج خلابة للفضل والعدل، فلم يمكثوا غير قليل حتى زاحموهم

عليها، أجل زاحموهم عليها ونافسوهم فيها واعتنقوها؛ ليعملوا بها مثل أو أجل من أصحابها الذين نقلوها، مصداق قول الرسول ﷺ: ((رُب مبلغ أو عام سامع، رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)).

الإعجاب بالإسلام في أحوال الفرد، والإعجاب بالإسلام في أحوال الدولة هو وحده السبب الفعال في تزاحم الخاصة، والعامة على هذا الإسلام وارتضائهم له، والإعجاب لا ينبت في النفس خبط عشواء، أتظن العقول النضرة تعجب بالعقول المخرفة؟ أتظن الأخلاق الراضية تعجب بالأخلاق الرديئة؟ أتظن المتقدم في أفكاره ومشاعره يعجب بالمتخلف في هذه وتلك؟ كلا كلا، إن المسلمين استحقوا أن يتأسى الناس بهم، وأن ينسجوا على منوالهم، وأن يقلدوهم في أقوالهم وأعمالهم، وأن يهجروا لغاتهم الأصلية إلى اللغة العربية الوافدة؛ لأن المسلمين كانوا يمثلون في العالم نهضة مجددة راشدة مسعدة، والمعجب بك قد يذوب فيك، وذلكم هو ما حدث في المستعمرات التابعة من قرون للشرق والغرب، أعني لفارس والروم يوم زحفت عليها جيوش الإسلام وانساب في جنباتها.

إن من الغباء البالغ أن تنتظر أحدًا يؤمن بك عقب انتصار في معركة جدل، أو انتصار في ميدان حرب، إن المقهور في أحد الميدانين قد يستسلم راضيًا أو ساخطًا، بيد أنه لن يتبعك عن إخلاص، ولن يشاركك الشعور والفكر أبدًا، ومن ثم ترى لزامًا علينا التوكيد بأن القدوة وحدها، وما يبعث على الاقتداء من إعزاز وإعجاب هما السبيل المهد لنشر الدعوة في أوسع نطاق.

المجادلة بالتي هي أحسن

عناصر الدرس

العنصر الأول : تعريف الجدال، وحكمه، وحكمته، وصوره ٢٣٣
العنصر الثاني : الجدل الذي نهى عنه الإسلام ٢٣٩

تعريف الجدال، وحكمه، وحكمته، وصوره

فأحدثك عن وسائل الدعوة التي لخصها القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقد سبق الكلام عن الحكمة وعن الموعظة الحسنة، وحديثنا في هذه المرة عن "المجادلة بالتي هي أحسن"، فما تعريف الجدال؟ وما حكمه؟ وما حكمته وصوره؟ وما هي أهميته في مجال الدعوة الإسلامية؟

أبدأ بالكلام - بإذن الله تبارك وتعالى- عن تعريف الجدال:

قال ابن منظور في كتابه (لسان العرب): "الجدل: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادله مجادلة وجدالًا، ورجل جَدِلٌ وجِدَلٌ ومجدالٌ، شديد الجدل، ويقال: جادلت الرجل فجدلته جدلًا، أي: غلبته، ورجل جَدِل إذا كان أقوى في الخصام، وجادله: أي خاصمه، مجادلة وجدالًا، والاسم الجدل وهو شدة الخصومة، والجدل مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة، والجدل ينقسم إلى قسمين: قسم حسن طيب، وقسم خبيث سيئ، فأما الجدل الحسن الطيب فقد أمر القرآن به، وحض أهل الإيمان عليه، ورغب الدعاة فيه؛ لأنه يظهر الحق وينصره، ويوضح الباطل ويخذله، وإظهار الحق واجب، وكذلك إبطال الباطل واجب، وكما قال السادة الأجلاء والثقات الأثبات من العلماء الذين تخصصوا في علم الأصول، قالوا: "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".

فإذا كان إظهار الحق وإحقاقه واجبًا، وهذا الواجب لا يتم إلا بهذا النوع من الجدل الحميد، الذي هو مقارعة الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان، والدليل

بالدليل، كان ذلك الجدل واجبًا؛ ولذلك نجد القرآن الكريم حينما يخاطب الدعاة الوعاة، مبينًا لهم الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله تعالى، يأمرهم بالجدل، وحتى لا يلتبس الأمر على بعض الناس فيظنوا أن الله يأمر بأي نوع من أنواع الجدل، نجد أن القرآن يفصّل في القضية ويوضح معالم ذلك الجدل، وكنهه بأنه جدل بالحسنى، جدل على بينة، جدل لا يفسد للود قضية؛ لأنه لا يتعلق بالأشخاص والذوات وإنما يتعلق بإظهار محاسن الإسلام الذي ارتضاه لنا فاطر الأرض والسماوات، فيقول ﷻ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالدعوة إلى الله تعالى لها مراحل وأطوار، والجدل مرحلة من هذه المراحل فهو أصل من أصولها، وقاعدة من قواعدها، وأسلوب من أساليبها، لا بد للداعي من أن يكون متقنًا لها، ملمًّا بها، عالمًا بأحوالها، حتى يتمكن من إبلاغ دعوته على الوجه الأكمل، وبالأسلوب الأمثل، فإنه إن كان على هذا القدر من الفهم والدراية والعلم، استطاع أن يفحم خصومه وأن يقحمهم وأن يدحض حجتهم، وأن يفند مفترياتهم، وأن يوضح لهم معالم الطريق، فإن استجابوا كان على الله أجرهم، وإن لم يستجيبوا كان عليهم وزرهم.

فإن الداعية ما هو إلا مذكر ليس على المدعوين بمسيطر، بيد أن عليه البلاغ وعلى الله تعالى الحساب، وعندما ننظر إلى القرآن الكريم نجده قد عرض لنا على صفحاته، وفي محكم آياته بعض الأمثلة التي توضح لنا معالم الجدل الحميد، فها هو أول رسول إلى البشر، وهو نوح # ذلك العبد الشكور الذي كان واسع الصدر، عظيم الصبر، دامث الخلق، لين الجانب، بشوش الوجه، رقيق الكلام، يعرض القرآن الكريم علينا حكايته مع قومه وأمته، فتؤكد الآيات الكريمات أن

قومه # كانوا يعبدون الأصنام، ويستمسكون بها ويعكفون عليها ويذبحون لها ويتقربون إليها، فنهاهم عن ذلك، ودعاهم إلى عبادة مالك الممالك ﷻ فرفضوا دعوته، وهجروا ملته، وأصروا على ذلك، واستكبروا استكبارًا، فأخذ يناقشهم ويحاورهم فلم تنفع معهم المناقشة والمحاورة، فلجأ إلى المناظرة والمجادلة، حرصًا عليهم وخوفًا على مصلحتهم.

والقرآن الكريم يعرض دعوته بهذا التدرج الكريم، والعرض البين العظيم، الذي سلكه معهم #، فقد جاءهم من قبل الله تعالى وقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [نوح: ٢- ٤]، ولكنهم رفضوا هذا الكلام، وأعرضوا عن ذلك الداعية والإمام، جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكبارًا، فلجأ # إلى ترقيق القلوب، وتوجيهها إلى علام الغيوب، فقال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح: ١٠- ١٢]، بيد أنهم أعرضوا عنه واستهزأوا به وسخروا منه، وقالوا له: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ۝٢٧﴾ [هود: ٢٧].

فبدأ # يناظرهم ويجادلهم ويبين لهم خطأهم وضلال فكرهم، وأنه # ما جاءهم من عند نفسه ولا يريد أن يتفضل عليهم، بل جاءهم من عند خالقهم ومالك أمرهم، وأنه ﷻ قد اصطفاه عليهم وآتاه من البينات ما لم يؤتهم، قال تعالى على لسانه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ

عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [هود: ٢٨- ٣٢]، هكذا كانت مجادلته لقومه، ما كانت إلا بصدق، وما كانت إلا إحقاقًا للحق.

ولكن هؤلاء الحمقى الجهلاء والبله الأغبياء، لم يستفيدوا من هذا الكلام الفصيح والجدل الطيب المليح، بل اعتبروا ذلك جدلًا عقيما، لا خير فيه ولا طائل تحته ولا منفعة من ورائه، فردوا عليه بهذا الرد المشين القبيح: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾، فكان ردهم سيئًا قبيحًا إذ أنهم أساؤوا إليه وأخطأوا فيه وتطاولوا عليه، ومع هذا كله لزم طريقته في دعوته؛ لأن الأمر لا يتعلق بذاته وشخصيته، وإنما يتعلق بتبليغ دعوة ربه ﷻ فهي مهمته ورسالته، فأتم # الحوار معهم على نفس النهج والنسق، فقال لهم: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [هود: ٣٣، ٣٤].

وها هو نبي الله وخليله إبراهيم # يعرض علينا القرآن الكريم حكايته، حينما جادل الملائكة المقربين في قوم لوط # قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود: ٧٤]، روى ابن كثير في تفسير هذه

الآية الكريمة أنه: لما ذهب عن إبراهيم الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أتهلكون قرية فيها مائة مؤمن؟، قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: رأيتكم إن كان فيها رجل واحد أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾ [العنكبوت: ٣٢]، فسكت عنهم واطمأنت نفسه.

وليس هذا الجدال الذي وقع من الخليل الكبير المتعال جدلًا عقيمًا إنما هو جدل حميد، أراد من خلاله أن يستبين حقيقة أمر، وأن يعرف إلى ما يأول أمر لوط # وأمر أهله، فلما علم أنه ناجٍ، وأنهم يعرفونه ويعلمون بوجوده في تلك القرية، رضي بذلك وسكنت نفسه واطمأن قلبه وقرت عينه، ولم يعد يجادلهم، وهذه شيمة الكرام الأعلام، إنهم لا يجادلون من أجل الظهور والشهرة، إنما يجادلون من أجل أن يتبين لهم الحق، فإذا بان وظهر أحجموا عن الخوض في الجدل، فإنهم لم يلجئوا إليه إلا مضطرين، من أجل أن يبينوا الحق لغيرهم، حتى ينتفعوا به في معاشهم ومعادهم، أو من أجل أن يستبينوا هم الحق لأنفسهم، كما وضح من خلال مجادلة الخليل # للملائكة المقربين، لما علم أنهم جاؤوا من أجل أن يهلكوا قرية لوط # فساءه ذلك؛ لأن لوطًا # نبي كريم ورسول عظيم، بلغ دعوة ربه وحاول إصلاح شأن قومه وجاهد في سبيل دينه، طمعًا في أن يعيد قومه إلى صوابهم، بأن يتركوا الذكران من العالمين، وأن يتمتعوا بما خلق لهم ربهم من أزواجهم، فهو لا يستحق بعد ذلك كله أن يخسف به معهم.

وها هي المرأة المسلمة، والإنسانة المؤمنة، والزوجة الصالحة التي عاشت مع زوجها عمرًا مديدًا، وأمدًا بعيدًا، فقد وهبته حياتها كلها، وعاشت معه على مودة ورحمة، فلما كبر سنها وشاب شعرها ووهن عظمها ظهر منها، واعتبرها حرامًا عليه كظهر أمه، وكان هذا الطلاق سائدًا عندهم في الجاهلية، وهو ما يسمى عندنا في شريعة نبينا ﷺ بالظهار، كان ذلك الحدث الذي حدث لتلك المرأة قبل أن ينزل حكم الظهار في القرآن الكريم، فقد ورد في (أسباب النزول) للواحدي النيسابوري، عن عروة قال: ((قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله، أبلى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قال: فما برحت حتى نزل جبريل # بهذه الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ①﴾ [المجادلة: ١])).

وجاء في بعض كتب التفسير: ((أن خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت، أراد زوجها مواقعتها يومًا، فأبت فغضب وظاهر منها، فأتت رسول الله ﷺ، وقالت: يا رسول الله، إن أوسًا ظاهر مني بعد أن كبرت سني ورق عظمي، وإن لي منه صبية صغارًا، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، فما ترى؟ فقال لها: ما أراك إلا قد حرمتي عليه، فقالت: يا رسول الله، والله ما ذكر طلاقًا، وهو أبو ولدي، وأحب الناس إليّ، فجعل رسول الله ﷺ يعيد قوله: ما أراك إلا قد حرمتي عليه، وهي تكرر قولها، فما زالت تراجعه ويراجعها، حتى نزل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١])).

وروى البخاري عن عائشة < أنها قالت: ((تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة خولة بنت ثعلبة، فكلمت رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت، أسمع كلامها ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها، وتقول: يا رسول الله أبلى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل # بهذه الآيات)).

فانظر أخا الإسلام إلى هذا الجدل الحميد، الذي أرادت المرأة المؤمنة من خلاله أن تتوصل إلى ما يعيد العلاقة بينها وبين زوجها مرة أخرى، فكان جدالها سببًا في الخير لها ولغيرها من مثيلاتها اللاتي يظاهر منهن أزواجهن، فلما كانت عاقبة الجدل الحميد خيرًا، دعا الإسلام إليه، وحض المسلمين عليه حتى ينتفع الناس به.

الجدل الذي نهى عنه الإسلام

وأما الجدل الخبيث السيئ، فهو الجدل الذي نهى الإسلام عنه، وحذر الإسلام منه؛ لأنه مدخل من مداخل الشيطان، التي بها يستطيع غواية وإضلال الإنسان، فقد جاء في القرآن الكريم ما يؤكد لنا أن الجدل البيزنطي العقيم إنما هو وحي من الشيطان، فقد جاء في سورة "الأنعام" قول ربنا الرحمن: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، تؤكد الآية الكريمة أن الشياطين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، فهم يتحيلون الفرص، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر، حتى يردوهم ويلبسوا عليهم دينهم، ويصرفوهم عن كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، ولكن الله تعالى لا يتخلى عن عباده، وإنما يؤيدهم بنصره، حتى ينتصر المؤمن على عدوه.

فقد روى الإمام الحافظ ابن كثير > في كتابه (تفسير القرآن العظيم): قال ابن أبي حاتم عن أبي زميل: قال: "كنت قاعدًا عند ابن عباس، وحج المختار بن أبي عبيد، فجاءه رجل فقال: يا ابن عباس، زعم أبو إسحاق أنه أوحي إليه الليلة، فقال ابن عباس: صدق، فنفرت وقلت: يقول ابن عباس: صدق؟، فقال ابن عباس: هما وحيان: وحي الله، ووحي الشيطان، فوحي الله إلى محمد ﷺ ووحي الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ ﴾"".

وروى أيضًا عن سعيد بن جبير، قال: "خاصمت اليهود النبي ﷺ، فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله، فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ ﴾"، وعن عكرمة عن ابن عباس قال: "لما نزلت: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ ﴾، أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمدًا وقولوا له: فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله ﷻ بشنفير من ذهب -يعني: الميتة- فهو حرام. فنزلت هذه الآية: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَـٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢١]"، أي: وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش. رواه الطبراني من حديث الحكم بن أبان.

فمثل هذه الأخبار التي سقناها وعرضناها تؤكد لنا أن الجدل العقيم إنما هو وحي من وحي الشياطين، يوحي به بعضهم إلى بعض، حتى يضلوا الناس عن صراط ربهم المستقيم، فإذا ما اجتالوهم واجتاحوهم وأزالوهم وأذلوهم، كانوا بعد ذلك عجينة لينة في أيديهم يشكلونهم كما يريدون، ويوجهونهم إلى ما يشاءون، فبئس القائد وبئس المقود وبئس الوجهة وبئس الورد المورود وبئس الصحبة

وبئس الرفد المرفود، فإنهم يوجهونهم إلى السفسطة والجدل حتى يكون مآلهم إلى عذاب صقر، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ [الحج: ٣، ٤]، وهذه الآية الكريمة غاية في الإيضاح والبيان لأحوال الحمقى والمغفلين من أتباع وأشياع الشيطان الذين يأتمرون بأمره، ويسيرون خلفه، وينفذون خطته، فهم يهرفون بما لا يعرفون، ويخوضون فيما يجهلون، ويكذبون بما لم يحيطوا به علمًا، ولم يأتهم تأويله، وهم مع هذا الضلال يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وهم أخسر الناس أعمالًا؛ إذ يجادلون فيما ثبتت صحته ووضحت دلالته، وعرفوا من طريق اليقين وقوعه، ولكن الغرض مرض.

تعرض الآية الكريمة حكاية هؤلاء الذين يكذبون بالبعث والنشور، وينكرون العودة والمآب إلى العزيز الغفور، ويعتبرون الكلام في ذلك الأمر من سفاسف الأمور، وأن الذي يقول أو يؤمن بهذا إنما هو في نظرهم أحمق مغفل جهول، فضرب القرآن لهم مثلين عظيمين يدلان على وقوع البعث والنشور، والحياة بعد الموت والخروج من القبور، أحدهما يتعلق بالإنسان، والآخر يتعلق بالنبات، فأما الذي يتعلق بالإنسان هو أصل خلقته وبداية فطرته، وأن أباه الأكبر آدم # إنما هو مخلوق من تراب، وأن سلالته بعد ذلك جاءت من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلقة كانت أو غير مخلقة، ثم يخرج إلى هذه الحياة طفلًا ضعيفًا، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، يخرجون من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، ثم يحصلون ويتعلمون بما خلق لهم ربهم من جوارحهم وحواسهم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا

تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨].

ثم يعودون بعد هذا العلم والدراية والفهم إلى ما كانوا عليه من قبل من الضعف، وعدم الإدراك والعلم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ ﴾ [الحج: ٥].

وأما المثل الثاني: فهو متعلق بالنبات وأن الأرض الميتة الخاشعة الهامدة إذا أراد الله تعالى إحياءها، أنزل عيها الماء من السماء، فتهتز وتربو، وتنبت من كل زوج بهيج، قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج: ٥]، فهذان الدليلان يؤكدان قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، فالذي خلق الإنسان من تراب وأوجده من العدم قادر على إعادته وجمع عظامه، وإخراجه وتسوية بنانه، والذي أحيى الأرض بعد موتها قادر على إحيائه؛ ولذلك تعقب الآيات الكريمات على هذين المثلين هذا التعقيب المبارك الكريم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج: ٦، ٧]، يعني ذلك الكلام دليل على أن الإله الحق قادر على إخراج من في القبور، حتى يحكم فيهم ويفصل بينهم، وذلك يوم البعث والنشور.

ومع هذا الإيضاح والبيان ترى الحمقى والمغلين الذين يتبعون منهج الشيطان، يجادلون في الحق بعدما تبين، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، فتعقب

الآيات على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ﴾ [الحج: ٨]، فتلك قضية خاسرة، وأصحابها في الآخرة، وجوههم باسرة، تظن أن يفعل بها فاقرة، ولكن الجدل يعمي صاحبه عن الحق إذا بان وظهر، وكان في وضوحه وجلائه أجلى من الشمس وأوضح من القمر، فمن ذا الذي يماري في وضوحهما إلا من كان في قلبه زيغ، وفي عينيه عمى، وفي عقله ضعف وخبل، صدق القائل حين قال:

وليس يصح في الأذهان شيء ❖ إذا احتاج النهار إلى دليل

ويعرض علينا القرآن الكريم صورة أخرى من صور هؤلاء المجادلين، الذين يتبعون الهوى ووحي الشياطين، فيعرض علينا حكاية المكذبين بالقرآن الكريم المتهمين لسيد الرسل وخاتم النبيين، سيدنا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، تعرض علينا الآية الكريمة حال الكفرة والمشركين الذين كانوا يأتون النبي ﷺ ليسمعوا منه القرآن الكريم، لا من أجل أن يؤمنوا، ولا من أجل أن يسلموا، وإنما من أجل أن يلغوا فيه ويشككوا، بالرغم من علمهم اليقيني بأن هذا الكلام كلام الله تعالى، وأن المصطفى ﷺ لم يأتِ به من عند نفسه؛ لأنه لم يكن يقرأ ولا يكتب، فكيف يأتي بهذا القرآن العربي الذي لا عوج فيه.

وكذلك لم يأتِ به من عند الأحبار ولا الرهبان كيف يأتي به من عندهم، وهم الأعاجم الذين يتكلمون بلسان أعجمي، وهذا القرآن بلسان عربي مبين، ومع هذا فهم يجادلون فيه فتارة يقولون: أساطير الأولين اكتتبها، فهي تملى عليه بكرة وأصيلًا، وتارة يقولون: إنما يعلمه بشر، وليس ذلك تكذيبًا منهم للمصطفى ﷺ

إنما هو مكابرة وجحود لآيات الله تعالى، بعدما عرفوها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًّا.

فقد روي: "أن سادتهم وكبراءهم، كأبي سفيان وذلك قبل أن يسلم، والأخنس بن شريك، وأبي جهل عمرو بن هشام، كانوا يحبون أن يسمعوا القرآن من النبي العدنان ﷺ، فكان الواحد منهم يستتر من قومه، ويأتي إلى الكعبة في خفية حتى لا يراه أحد، ثم يختبئ تحت أستار الكعبة ليسمع القرآن وهو يظن أنه يفعل ذلك وحده، وأنه ليس في المكان أحد إلا هو، واستمروا على ذلك فترة من الزمن، ثم شاءت إرادة الله تعالى أن يعرف كل منهم خبر الآخر، إذ أن الطريق جمعتهم ذات ليلة وهم راجعون، فتعاتبوا على ذلك ولام كل منهم الآخر، ثم تعاهدوا على ألا يرجعوا مرة أخرى حتى لا يراهم أحد من قومهم فيفعل مثلهم، ولكن حلاوة القرآن وعذوبة صوت النبي العدنان ﷺ جذبتهم، فجاء كل منهم في خفية، ثم جلس في مكانه الذي يختبئ فيه حتى يسمع القرآن، فلما فرغ المصطفى ﷺ من قراءته قفلوا راجعين، فإذا بالطريق تجمعهم وعرف كل منهم أن الآخر كان يسمع القرآن، فوقع بينهم الملام والعتاب، وتعاهدوا أيضًا على ألا يعودوا مرة أخرى، ولكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

جاءوا في الليلة الثالثة، فلما فرغ النبي ﷺ من القراءة، وقفلوا راجعين، جمعتهم الطريق، فأسرع الأخنس بن شريك، كان رجلًا ماكرًا لئيمًا، قال لأبي سفيان: أخبرني برأيك في محمد، فقال أبو سفيان: والله إني لأخشى أن أقول في محمد مقولة فينزل بها القرآن فيفضحني، فتركه وأسرع وراء أبي جهل، وقال له: يا أبا الحكم أخبرني برأيك في محمد، قال أبو جهل: تنازعنا الشرف نحن وبنو عبد مناف - يعني: شرف خدمة وسدانة البيت الحرام- حملوا فحملنا - يعني:

حملوا الضعاف من الحجيج الذي لا يقدرون على تأدية المناسك- وأطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، حتى إذا تجافينا على الركب، وكنا كفرسي رهان - يعني: كفرسين في أرض السباق- قالت بنو عبد مناف: منا نبي يوحى إليه من السماء فوالله لا نؤمن به ولا نصدقه".

فهاتان شهادتان أقر بهما اثنان من كبار القوم على أن النبي ﷺ رسول الله حقًّا، وأن القرآن كلام الله صدقا، ومع هذا كله فهم يجادلون فيه ويشوشون عليه حتى يصرفوا الناس عنه وينفروا الناس منه، ولكن هيهات هيهات، فالإسلام دين ظاهر على كل الملل والنحل، والقرآن كتاب مهيمن على كل الكتب والصحف، وهؤلاء أمامه ضعاف مهازيل، لا يقدرون على صرف الناس عنه أو تنفير الناس منه، بل هو الكتاب الذي تهفو القلوب إليه، ويتوافد الناس عليه، وكيف لا وهو الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير؟.

وهنا أعرض حكاية تؤكد أن القرآن الكريم يأخذ بمجامع القلوب، ويجذب الناس إلى الإيمان بعلام الغيوب، ويجعل الإنسان يقلع عن ذنبه ويتوب، لما فيه من وعد وعيد، وترغيب وترهيب، بلسان عربي فصيح، وعرض واضح صريح، أو إشارة وإيماء وتلميح، فهو قول فصل، ليس فيه شيء من الهزل، روي: "أن أبا بكر > كان رجلًا بكاءً عند سماع القرآن أو تلاوته، وأن كبار قومه من المشركين خافوا على نسائهم وأولادهم منه، فإنه كان يجهر بالقرآن عند الكعبة، حتى إن النساء والصبيان كانوا يجتمعون حوله، يسمعون القرآن منه ويتأثرون به، فمنعوه من الجهر بالقراءة حتى لا يفتن به النساء والصبيان".

وقد روى ذلك الخبر مفصلًا أبو نعيم في كتابه (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء): أن عائشة > قالت: "لما أنفذت قريش جوار ابن الدغنة، قالوا له: مر أبا بكر

فليعبد ربه في داره، وليصل فيها ما شاء، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا، ولا يستعلن علينا بالصلاة والقراءة في غير داره، قالت: ففعل أبو بكر > ثم بدا له، فابتنى مسجدًا في فناء داره، فكان يصلي فيه ويقرأ، فتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يتعجبون منه وينظرون إليه، كان أبو بكر > رجلًا بكاء، لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع عليّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في عقد رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله ورسوله".

هكذا تعرض تلك الرواية حال نساء المشركين وأبنائهم، عند سماع القرآن من الصديق > وأرضاه بأنهم كادوا يكونون عليه لبدًا، فخاف الملأ من القوم على نسائهم وأولادهم من السماع أن يسلموا، فطلبوا من ابن الدغنة الذي أعطى أبا بكر العهد والجوار، أن يمنع الصديق > من الجهر بالتلاوة، وهذا دليل آخر على علمهم بأن القرآن كلام الله تعالى، وأن له في النفوس أثرًا، وأن له على القلوب هيمنة، وكذلك شهد للقرآن الكريم علماؤهم وبلغاؤهم ونصحاؤهم.

فقد روى ابن إسحاق في كتاب (السيرة): عن محمد بن كعب القرظي، قال: ((حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيدًا، قال يومًا: وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا، لعله أن يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، وذلك حين أسلم حمزة > ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من السلطة في العشيرة والمكان

في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل بعضها، قال: فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد شرفًا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرأك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له: حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقرأ ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [فصلت: ١- ٧]، ومضى رسول الله ﷺ وهو يقرأها عليه، فلما سمع عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمدًا عليها، يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا

معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب، فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم)).

وفي رواية البغوي، عن جابر > : "أن عتبة لما رجع من عند رسول الله ﷺ واتهمه قومه بأنه قد صبأ إلى محمد وأعجبه، غضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمدًا أبدًا، وقال: والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالًا، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة، فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت: ١٣]، فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمت أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب فخشيت أن ينزل بكم العذاب".

بعد كل هذه الشهادات التي تفيد علم اليقين عندهم، بأن سيد الرسل، خاتم النبيين ﷺ لم يكن من الكاذبين، بعد هذا كله تراهم يعرضون ويجادلون، صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف: ٥٤]، والآية الكريمة تؤكد أن الإنسان عمومًا أكثر شيء جدلًا، فكيف إذا كان هذا الإنسان كافرًا، لا بد من أن يكون الجدل شيمته؛ ولذلك عقب ﷻ على تلك الآية السابقة بقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ ﴾ [الكهف: ٥٥- ٥٧].

هكذا يكون الجدل سببًا في عمى بصر الإنسان وبصيرته، حتى إنه ليستعجل عقوبة ربه، وإنه ليعتبر الحق باطلًا، والباطل حقًّا، فيجادل بالباطل ليدحض به الحق، ويتخذ آيات الله تعالى هزوًا وسخرية، ويتخذ العبادات مكاءً وتصدية، فكان خليقًا بأن يعاجله الله بالعقوبة القاسية بأن يجعل على قلبه غطاءً، وفي أذنيه وقرًا، حتى لا يعقل ولا يتدبر ولا يسمع، كالصم البكم الذين لا يعقلون، فهو يستحب العمى على الهدى، ويفضل من حقت عليه كلمة العذاب على من وجبت له المحبة والرضا؛ لذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ﴾ [الأنعام: ٢٥]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧].

هكذا يحكم القرآن على أهل الجدل والكفر والطغيان، والمماراة في القرآن بأن بينهم وبين الهدى أمدًا بعيدًا وبونًا شاسعًا، إذ إنهم لم ينتفعوا بجوارحهم وحواسهم، فقد عطلوا السمع والأبصار والأفئدة، فلم يسمعوا سماع تدبر، ولم ينظروا نظر اعتبار وتفكر، بل كانوا كالحمقى والمغفلين الذين طلبوا من نبيهم أن ينزل عليهم من السماء مائدة، والجدل خصلة ذميمة وعادة قديمة، اعتادها الناس خاصة أهل الكفر منهم، فهم منذ أن بعث الله تعالى الأنبياء والرسل، فما من نبي جاء إلى قوم يدعوهم إلى التوحيد وعبادة ربه، إلا وقد وجد من القوم العنت والجدل الذي لا يستند إلى دليل قوي متين، ولا برهان ساطع مبين، بل كل حجتهم في هذه المجادلة أنهم يتبعون آثار أبائهم الأولين، وأنهم وجدوا آباءهم على أمة، وأنهم على آثارهم مهتدون، وأن هذا الذي وجدوا عليه آباءهم من عبادة الأصنام أفضل عندهم من عبادة الملك العلام ﷻ.

فها هو نبي الله ورسوله هود # جاء إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن عبادة الأصنام، فرفضوا تلك الدعوة، واتهموه بالسفاهة وأنه غير صادق فيما يقول من كلام، فبين لهم # أنه ليس بسفيه، ولكنه رسول اصطفاه عليهم وأرسله إليهم من لا تأخذه سنة ولا ينام، ثم ذكرهم نعمة الله عليهم، إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح # وأنه سبحانه زادهم في الخلق بسطة، فكانت نعمة الله عليهم ظاهرة وباطنة، وأن نعمة الله توجب على الإنسان الشكر، وأنه لا يجوز للإنسان أن يقابل هذه النعم بالجحود والكفر، ولكنهم استحبوا العمى عن الهدى وأعرضوا عن طريق النجاة، وأقبلوا على طريق الهلاك والردى، فوقفوا يجادلونه بجهل وغباء وصلف وكبرياء، يقولون له: أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، فكانوا حمقى مغفلين، بأسلوب الجدل جاهلين، إذ كانت حجتهم داحضة وأدلتهم باطلة فاسدة.

فأكد لهم هود # أن قضيتهم خاسرة، إذ استحبوا العمى عن الهدى، والعاجلة على الآخرة، وجادلوا بالباطل في أسماء سموها هم وآباؤهم، ليس لها دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، ولا تملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا تملك لهم موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل تبعوا في ذلك مسلك الشيطان، وكان الشيطان لربه كفورًا، فاستحقوا بكفرهم وجدلهم أن يعاجلوا بالعقوبة من ربهم، قال تعالى على لسان رسولهم ونبيهم هود # : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٧١، ٧٢].

ويجيء من بعده نبي الله ورسوله صالح # الذي أرسله الله تعالى إلى قوم، كانوا يعبدون الأصنام؛ ليدعوهم لعبادة ربهم، وينهاهم عن عبادة أصنامهم؛ لأن ربهم ﷻ المستحق للعبادة، قد أنعم عليهم وجعلهم خلفاء من بعد عاد، وبوأهم في الأرض، يتخذون من سهولها قصورًا، وينحتون الجبال بيوتًا، ويستعدون ليوم الميعاد، ولكن هيهات هيهات، إذ ماتت قلوبهم وصمت آذانهم وعميت أبصارهم، فلم يكن للوعظ أثر في نفوسهم بل لم يجد الكلام معهم، بل كان الكلام معهم والنداء عليهم كالنفخ في الرماد، وصدق من قال من الشعراء:

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ❖ ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو نارًا نفخت بها أضأت ❖ ولكن أنت تنفخ في رمادِ

وقف الملأ الذين كفروا من قومه يجادلونه ويقولون له: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦٢]، فبين لهم # أنهم في شكهم مخطئون، وأنهم بعبادة الأصنام كافرون، وأنه جاءهم بالبينات التي على مثلها يؤمن العاقلون، جاءهم بناقة ربه العجيبة في مجيئها، في طبيعتها وتكوينها، إذ أنها خرجت من الصخرة كانت تشرب الماء كله في يومها، كانوا يأخذون ما يكفيهم جميعًا من لبنها، ومع هذا كله لم يؤمنوا ولم يتوبوا ولم يرعووا، بل لجأوا إلى الضعاف منهم الذين آمنوا بصالح # قائلين لهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ﴾ [الأعراف: ٧٥]، فأجابهم هؤلاء الكرام: المؤمنون بأن صالح # مرسل من عند رب العالمين، وأنهم بما جاءهم به مؤمنون، فأنكرت قلوبهم وضاقت صدورهم وعبست وجوههم، وقالوا منكرًا من القول وزورًا.

قالوا: ﴿إِنَّا بِالَّذِيَ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [الأعراف: ٧٦- ٧٩]، وهكذا تكون نهاية المجادلين الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق وهم يعلمون؛ ولهذا وذاك نهى الإسلام عن الجدل العقيم الذي لا خير فيه ولا طائل تحته ولا منفعة من ورائه، ولكن الغرض مرض، والجنون فنون، فالله نسأل أن يجنبنا الزلل، وأن يعافينا من الجدل، وأن يحفظنا من المجادلين، وأن يجعلنا من الذين يتركونه ولو كانوا من المحقين، اللهم آمين.

تابع: المجادلة بالتي هي أحسن

عناصر الدرس

العنصر الأول :	كيفية المجادلة بالتي هي أحسن	٢٥٥
العنصر الثاني :	أهمية المجادلة في مجال الدعوة إلى الله تعالى	٢٦٨

كيفيـة المجادلـة بـالتي هـي أحـسن

أذكر لك مزيدًا من الكلام عن الجدل أو المجادلة بالتي هي أحسن، وبيان أهميتها في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

فالمجادلة بالتي هي أحسن: هي الطريقة التي يواجه بها الداعية رد الفعل، الذي تثيره الدعوة لدى المخاطبين، نتيجة اختلاف أفكارهم، عما جاءتهم به من عقيدة وسلوك وغير ذلك، والداعية يبذل جهده لتحرير العقول من الرواسب التي ورثت عن الآباء والأجداد، وهو لهذه الغاية يروض نفسه ويوسع أفقه، ويتسامح ويراعي الظروف ويلاحظ الواقع، ويشجع على التخلص مما ترسخ في العقول وأصبح عادة في السلوك؛ ليستطيع الأخذ بيد القوم إلى السبيل القويم، والمجادلة بالتي هي أحسن، هي الطريقة العملية للوصول إلى هذا الغرض؛ لأنها لا تجرح الكرامة، ولا تشعر المخاطب بأنه مغلوب، وتصور الداعية إلى الله بالناصح الأمين، والمدعو يقابل النصح والتوجيه؛ ليواصلا معًا السير على الطريق الصحيح، والقرآن الكريم يدعو للمجادلة بالتي هي أحسن في كل شيء.

ولا شك أن الداعية إذا التزم بهذا المسلك الذي أرشده إليه القرآن، اجتمعت حوله القلوب وأذهب الموجدة من النفوس، يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٣- ٣٥]، ويقول تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وحتى إذا ما أعرض القوم عن الدعوة والداعية، فإنه يجتهد وسعه في دفع الحزن عن نفسه حتى لا يضيق، فيخرج عن التي هي أحسن، وأن يعلم أن الله حافظه وهو صاحب الدعوة، وأن الهدى والضلال بيده وحده، ومهما يكن فإن الداعية لا يستطيع أن يفرض على الناس قبول دعوته، وإنما عليه البلاغ وحده، والداعية لا يتخلى عن مسلك الدعوة والمجادلة بالتي هي أحسن، وهو في ذلك ملتزم بما وجهه إليه القرآن، من الجدل والحوار وتبادل الآراء، ولا يتجاوز في ذلك كله، الدائرة التي تحدد موضوع الدعوة إلى الحق، وهو التهذيب والتبصير والحسنى، حتى مع أولئك الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والإصرار عليه، وإن كان مثلهم لا يجادل، ولا يتبادل معه الرأي في شأن الحق الذي جحدوه، لفقدانهم الصلاحية لهذا الحوار، وعليه إعلان إيمانه بكل ما أنزل إلى الرسل جميعًا من الإيمان بوحدانية الله تعالى وما يترتب عليه، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وهذا غاية ما يصل إليه المسلك المهذب مع أعداء الدعوة، الذين من شأنهم أن يكونوا أكثر من غيرهم لجاجة وجدلًا في القول والرأي، وقد أخبر القرآن الكريم أن الرسل - عليهم السلام- قد جادلوا بالحسنى، كما قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ ﴾ [هود: ٣٢]، كما أورد القرآن مجادلة الكفار والاحتجاج عليهم كما ذكرنا.

والمجادلة قد تكون مع أهل الذمة والهدنة والأمان، ومن لا يجوز قتاله بالسيف، وقد تكون في ابتداء الدعوة، وقد تكون لبيان الحق وشفاء القلوب من الشبه، والرسل - عليهم السلام- جميعًا أرسلوا بالهدى ودين الحق، وبالآيات البينة

الدالة عليه، ومن الممتنع أن يرسل الله –سبحانه- رسولًا يأمر الناس بتصديقه، ولا يكون هناك ما يعرفون به صدقه، ومن قال: إني رسول الله، فمن الممتنع أن يجعل مجرد خبره المحتمل للصدق والكذب دليلًا وحجة على الناس، وفي الصحيح عن النبيﷺ أنه قال: ((ما من نبي من الأنبياء، إلا وقد أوتي من الآيات، ما على مثله آمن البشر، وإنما كان الذي أوتيت هو وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة))، والبينات التي أوتيها رسل الله - عليهم السلام- هي الأدلة والبراهين البينة في نفسها، وبها يتبين غيرها، والهدى بيان ما ينفع الناس ويحتاجون إليه ضد الظلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

والدعوة إلى الحق لم تكن في يوم من الأيام خالية من المشقات والمتاعب، غير أن العزيمة الصادقة والإرادة القوية كفيلة بالتغلب على كل المصاعب، وبعث الأمل ودفع اليأس، وقد وجد رسل الله - عليهم السلام- العون على النجاح في الدعوة من الدعوة نفسها، فهي دعوة فطرية إلى دين هو الفطرة، التي فطر الله الناس عليها، وهي دعوة عامة واسعة المجال، وفي الإنسان الاستعداد والقابلية لها، وفيه إمكانية التفاعل معها، إذا ما تحركت الهمم وشحذت العزائم، كلما بذل أعداء الدعوة جهودهم في صد الناس عنها، واصل حملاتها الجهود وسلكوا كل سبيل لدفع الزيف ورد الباطل وكف الأذى.

والداعية إلى الله محتاج إلى السلاح الفكري، والموضوعية في مجادلته بالتي هي أحسن، وليس من مصلحته ولا مصلحة دعوته في شيء، مواجهة التحدي

بالعواطف الفارغة، والخطب الرنانة الخالية من المحتوى والمضمون الفكري العميق، ومنهج الرسل - عليهم السلام- كما صوره القرآن الكريم، فيه مقارعة الحجة بالحجة ومقابلة الفكرة بالفكرة، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، وهو ما يعطي الداعية إلى الله القدوة والمثال الذي يحتذى.

وتظل المجادلة بالتي هي أحسن المنهج المتبع والأسلوب المأخوذ به إلى أن يقع اعتداء على الدعاة، وهو عمل مادي يدفع بمثله إعزازًا لكرامة الحق، ودفعًا لغلبة الباطل، والأمر في ذلك لا يتجاوز قول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٦- ١٢٨]، وهي دعوة إلى العفو عند المقدرة والصبر على الأذى، عندما يكون ذلك أعمق أثرًا وأكثر نفعًا للدعوة، ونظرًا لاحتياج الصبر إلى مقاومة الانفعال وضبط النفس، وصلة القرآن الكريم بالله ﷻ وزين عاقبته.

هذا والمجادلة بالتي هي أحسن تقتضي تحديد الموضوع الذي يدور حوله الجدل، والتزام التهذيب في القول وكظم الغيظ والحلم والرأفة، بمن أدخل نفسه في غمار الأشرار، والتشمير في تخليصه مع عدم الشماتة فيه، ولها قيمتها وفاعليتها، إذ بها يزداد أهل الحق ثباتًا، كما يزداد موقف أهل الباطل حرجًا، وتهن حججهم أمام نصاعة الحق ونوره الغالب.

والدعاة إلى الله تعالى الذين ذكرهم القرآن الكريم، كانوا يقذفون بالحق الذي معهم في وجه الباطل الذي يستمسك به خصومهم، ويأخذون عليهم أسماعهم

ويملكون قلوبهم، ويحيطون بهم من جميع الجوانب، حتى لا يستطيعون التفلت ولا يجدوا بدًّا من التسليم بالحق والخضوع له، وكانوا يحاورونهم على سبيل الغرض وإرخاء العنان، ثم يكرون عليهم بإبطال عقائدهم الفاسدة وتنبيههم إلى الخطأ الذي وقعوا فيه، وإرشادهم إلى طريق النظر والاستدلال، وإذا كان خالق القلب البشري - جل وعلا- أعلم بطاقته واستعداداته ومداخله ومساريه، فإنه قد أرشد الدعاة إلى الحق، أن يسلكوا سبيل المجادلة بالتي هي أحسن لما لها من الأهمية في الدعوة إلى الله ﷻ، فقال تعالى: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومهما غالى الخصوم فإن الدعاة إلى الحق لا يخرجون عن التي هي أحسن، ولا يشعرون بغربة ولا هوان؛ لأنهم يعيشون للحق الذي شرفهم الله به دون مبالاة بعرف سائد أو تقليد متبع أو لدد في الخصومة، وتربية الله ﷻ لهم سكبت في قلوبهم معرفة وتذوقًا وثقةً وسكينةً، أكسبتهم الأسلوب المهذب في جدالهم، حتى تركوا الباب مفتوحًا، لعل خصومهم يعودون بعد أن تنكشف لهم جوانب الحق، الذي بقي صاحبه مصرًّا عليه، صابرًا لا يحيد، وعندما أحسوا منهم القلق من عاقبة أمرهم ومصيرهم، عاودوهم المرة بعد المرة ووضعوا أمامهم الأمل، إدراكًا منهم للطبيعة البشرية التي لا تعرف الأمل وحده ولا اليأس وحده، إنما هي طبيعة مركبة، تحتاج إلى دعاة يبددون اليأس ويحيون الأمل، ويعرضون حين لا يجدي غير الإعراض، ويقبلون حين تتاح الفرصة من جديد.

والمجادلة بالتي هي أحسن اقتضت من الدعاة إلى الله ﷻ، التزام الدقة في العرض والصواب في الرأي، ويقظة العقل والضمير، حتى لا يضن الدعاة بالبيان عند طلب الحقيقة، وهي تقتضي كذلك ألا يقصد الدعاة الإفحام وإنما الإقناع

والإيضاح ؛ لأن ذلك أقرب لاستجابة المدعويين، وأدنى لهدايتهم إلى الطريق الذي به تصلح أمور الناس وتستقيم.

والمجادلة بالتي هي أحسن، اقتضت من الدعاة البحث عن نقاط الوفاق، والالتقاء بينهم وبين من يدعونهم، للالتقاء عليها والوقوف عندها، والانطلاق منها إلى بقية التفاصيل، تجنبًا للتركيز على مواطن الخلاف والنزاع في بدء الطريق، وهذا المسلك يمهد للالتقاء على قاعدة يؤمن بها الطرفان، ويشعرهما بأنهما ليسا بعيدين عن بعضهما كل البعد، بل هناك ما يشدهما ويربطهما برباط القربى، لينطلقا بعد ذلك بروح جديدة إلى التفاصيل.

ولا شك أن التركيز من أول وهلة على نقط الخلاف يوجد جوًّا مشحونا بالحقد والبغضاء، ويوحي بالفوارق والفواصل، ويولد التعصب والعناد والشك والحذر، وكل ذلك لا يساعد على كسب المدعويين إلى جانب الحق، إذ يعمل الدعاة إلى الله ﷻ على نصرته، ويبذلون في سبيله ويتحملون، ومهمة الدعاة إلى الله جر الناس إلى طريق الحق، بإحياء القوة الباطنية التي لا تقتصر على نصحهم وهدايتهم، وإنما توجه إليهم بالمعنى الصريح أوامر بأن يفعلوا أو لا يفعلوا.

والحوار الذي دار بين الدعاة إلى الله وأقوامهم يؤكد هذا المسلك، ويوضحه بما لا يحتاج بعده إلى مزيد بيان، وتجدر الإشارة هنا إلى ما فعله رسول الله محمد ﷺ وهو يبعث بكتبه إلى الملوك والحكام ؛ ليذكرهم بتلك الآية الكريمة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤]، هذا وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

والجدال في الإسلام لا بد أن يكون بالتي هي أحسن، ومع ذلك إذا وصل الجدال إلى حد المراء فينبغي تركه، كما قال ﷺ: ((أنا زعيم بيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء ولو كان محقًّا))، ولما ذهب رسول الله ﷺ إلى علي وفاطمة يوقظهما لصلاة الليل، قال له علي: ((إن أنفسنا بيد الله، فانصرف رسول الله ﷺ ويضرب بيده على فخذه قائلًا: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾))، وكذلك لما جاء المشركون يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر، لم يستطرد معهم رسول الله ﷺ في الحديث، ونزل قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٨، ٤٩].

والجدل الذي هو اللدد في الخصومة والقدرة عليها، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة، لما كان الأمر كذلك، كان لا ينبغي للرجل أن يجادل أخاه، فيخرجه إلى ما لا ينبغي، والجدل صفة ملازمة للإنسان عن غيره؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤]، فالإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصر لطريق النجاة، وقال الزجاج: "كل ما يعقل من الملائكة والجن يجادل، والإنسان أكثر هذه الأشياء جدلًا"، وعن أبي أمامة > عن النبي ﷺ قال: ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾)) [الزخرف: ٥٨].

فالجدال يقسي القلب ويمرضه، ويملؤه بالشحناء والحقد والحسد وغيرها من الأمراض الفتاكة، التي تقتل طالب العلم من حيث لا يدري، قال مسلم بن يسار: "إياكم والمراء، فإنه ساعة جهل العالم، وعندها يبتغي الشيطان ذلته"، وقال حماد: "فقال لنا محمد - يعني: محمد بن واسع- : هذا الجدال"، وقال

مالك بن أنس: "ليس هذا الجدال من الدين في شيء"، وقال: "المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن"، وقال لقمان لابنه: "يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك"، وسمع رسول الله ﷺ قوما يتدارءون، قال الرمادي: يتمارون، فقال: ((إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنما نزل كتاب الله ﷻ يصدق بعضه بعضًا، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوه، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه))، وعن عبد الله بن عمرو قال: ((هجرت إلى رسول الله ﷺ يومًا، فقال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب، فقال: إنما هلك من كان قبلكم، باختلافهم في الكتاب)).

فالاختلاف لا يأتي بخير، بل إنه يوغر الصدور ويولد الخصومة ويظهر الفتنة، ويدفع للشك وللاستدلال بالمتشابه، ولذلك كان اختلاف رجلين على عهد رسول الله ﷺ، سببًا في إبهام ليلة القدر، بعد أن علمها النبي ﷺ، فعن أنس > قال: ((أخبرني عبادة بن الصامت > أن النبي ﷺ خرج ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: إني خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم فالتمسوها في التسع والسبع والخمس)).

وعن عائشة > عن النبي ﷺ: ((إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)) الألد: أي شديد الخصومة، واللدد: الجدال والخصومة، يقال: لددته ألده إذا جادلته فغلبته، وسمي الخصم الألد؛ لأنك كما أخذت في جانب الحجة أخذ هو في جانب آخر منها، وعن مالك بن أوس بن الحدثان > : ((أنه كان مع رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: وجبت وجبت وجبت، فقال أصحابه: ما هذا

الذي قلته يا رسول الله؟ قال: من ترك المراء وهو محق بني له في ربض الجنة، ومن ترك الكذب بني له في ربض الجنة، ومن حسن خلقه بني له في ربض الجنة)).

ومن ذلك يتبين لنا فضل ترك الجدل الذي هو مذموم؛ لأنه لا يأتي بخير، فالجدل يريد صاحبه أن ينتصر ولو بالباطل، فتركه أولى من الاستمرار فيه، وإن كان الحديث يرغب من له الحق في ترك الجدال لما سيوصل له، فالمجادل بالباطل من باب أولى، أما الجدال للوصول إلى الحق والذي لا يبتغي به صاحبه إلا استبانة الحق في المسألة، فهو مباح بل مطلوب، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فالجدال الحسن مع طالب حق، أما الظالم المعتدي الذي لا يبتغي الحق فلا يجادل بالتي هي أحسن؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فمن الناس من تنفعه الحكمة وهي الحجة القاطعة المزيلة للشبهة، وهي الكلام الطيب الذي يقع من النفس موقعًا حسنًا، ومنهم من ينفعه الترغيب والترهيب والموعظة المقنعة والعبر النافعة، ومنهم من يعاند ويجادل بالباطل ليدحض به الحق، بما غلب عليه من تقليد الأسلاف ورسخ فيه من العقائد الباطلة، فصار بحيث لا تنفعه المواعظ والعبر، بل لا بد من إلقامه الحجر بأحسن طرق الجدال، لتلين عريكته وتزول شكيمته، وهؤلاء الذين أمر ﷺ بجدالهم بالتي هي أحسن.

ومن هذا الجدال الحسن: جدال المرأة التي قال لها زوجها: أنت علي كظهر أمي، فهذه المرأة جاءت تجادل حتى تصل الحق وقد كان، فهو جدال حسن للوصول إلى الحق، وفيه تمسك بالشرع مع الأمل والرجاء، في أن يرفع الله ﷻ عنها الهم والحزن والحرج.

أما الجدال العقيم فلا يتولد منه خير، بل لا يندفع إليه إلا من حرم الخير، والجدال من العقبات الصعبة أمام طالب العلم؛ ولذا يجب تخطيها والاستعانة بالله ﷻ عليها، حتى ينتفع بالعلم ولا يبذله إلا لمستحقيه.

كما ينبغي أن يميز الداعية بين ما هو بحث علمي وبين ما هو جدل ومراء مذموم، فالبحث العلمي هو الذي تتوفر فيه روح الوصول للحقيقة، حيث يكون كل طرف في موقف الحياد من القضية المطروحة، وأن يكون حرص الجميع مركزًا على إظهار الحق لوجه الله، لا تشم فيه رائحة الذاتية ولا المصلحية، ولا التقيد بفكرة مسبقة مع محاولة الدفاع عنها، ويتوفر فيه معنى التعادل، حيث لا يكون أحد الطرفين سيدًا للآخر، ولا قاهرًا له بفضل أو سلطان أو سواه، فقلما يتصور وجود التعالي بين جندي في الجيش وبين القائد العام مثلًا، وبين خدم المنازل وأصحابها، وتتوفر فيه أسباب استكمال مادة البحث لكلا الجانبين على السواء، فقد يحرم أحدهما من الحصول على المراجع أو المستندات لسبب أو لآخر، ولذلك نرجح كفة من يملك الدليل رجحانًا ظالمًا للسبب المتقدم.

أما الجدل فهو الحوار الذي يقوم على غير أساس واضح أو على غير تكافؤ ظاهر، تبرز فيه الأنانية وترتفع فيه الأصوات وتبدو فيه الخصومة، وقد نهى عنه رسول الله ﷺ في مواطن كثيرة، منها قوله: ((أنا كفيل ببيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء ولو كان محقًّا))، وإذا كان من أهداف الدعاة ربط الناس على المحبة، فالجدل يفضي إلى البغضاء، ويقضي على المحبة ويزرع البغضاء.

ولذلك وردت آثار كثيرة في النهي عن الجدال والمراء في القرآن، ومن ذلك روى سعيد بن المسيب وأبو سلمة عن أبي هريرة > أن النبي ﷺ أنه قال: ((المراء في القرآن كفر))، ولا يصح عن النبي ﷺ غير هذا بوجه من الوجوه، والمعنى أن

يتمادى اثنان في آية يجحدها أحدهما ويدفعها أو يصير فيها إلى الشك، فذلك هو المراء الذي هو الكفر.

أما التنازع في أحكام القرآن ومعانيه، فقد تنازع أصحاب رسول الله ﷺ في كثير من ذلك، وهذا يبين لك أن المراء الذي هو كفر، هو الجحود والشك، كما قال ﷻ: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ [الحج: ٥٥].

ونهى السلف - رحمهم الله- عن الجدال في الله - جل ثناءه- في صفاته وأسمائه، وأما الفقه فأجمعوا على الجدال فيه والتناظر؛ لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع على الأصول، للحاجة إلى ذلك وليس الاعتقادات كذلك؛ لأن اللهﷻ لا يوصف عند الجماعة أهل السنة، إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ أو أجمعت الأمة عليه و﴿ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [الشورى: ١١]، فيدرك بقياس أو بإمعان نظر، وقد نهينا عن التفكر في الله وأمرنا بالتفكر في خلقه الدال عليه، وللكلام في ذلك موضع غير هذا، والحمد لله رب العالمين.

وهناك مما ينبغي النظر فيه ونحن نتحدث في قضية المجادلة بالتي هي أحسن، كلمات تضاهي هذا المعنى، المناظرة والمكابرة والمجادلة، فقد عرفت هذه الثلاثة في التعبير اللساني عند العرب، وتعني على الجملة: نقاش بين طرفين متخاصمين، إلا أنها تختلف في المفهوم الاصطلاحي.

فالمناظرة: هي توجه المتخاصمين في النسبة بين الشيئين إظهارًا للصواب، حيث يحاول كل طرف إثبات صحة رأيه وإبطال الرأي الآخر بالدليل.

والمجادلة: هي المنازعة لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم.

والمكابرة: هي المنازعة لا لإلزام الخصم ولكن لمجرد الرد وإثبات الذات، فالمناظرة هي الأولى بالاعتبار.

ومع ذلك نلاحظ أن القران الكريم يأمر بالجدل في قوله تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وفي قوله ﷻ: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، مما يجعلنا نبحث عن المراد الحقيقي لله تعالى في أمره النبي والمؤمنين بالجدل، محال أن يأمر الله بغير طريق الصواب، أو يجعل رسله يسلكون غيره، ومن هنا نرى صاحب (المصباح) يذكر صوابًا، ويخرج كلمة "جادل" عن أصلها الأول إلى التوسع في استعمالها، فيقول: "جادل مجادلة وجدالًا إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب"، هذا أصله، ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها وهو محمود، إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم.

ويقول الرازي: "الجدل المذموم في القرآن، محمول على الجدل في تقرير الباطل وطلب المال والجاه، والجدل الممدوح، محمول على الجدل في تقرير الحق ودعوة الخلق إلى سبيل الله، والذب عن دين الله تعالى".

ومادة الجدل في القرآن الكريم، تدور حول المدافعة بالقول، من أجل الدفاع عن العقيدة والشريعة والأخلاق، إن كانت من قبل الله، أو من أجل الباطل إن كانت من قبل المكابرين، وكل آية تحدد اتجاه جدلها، إن الجدل المتجه للصواب يراد منه المناظرة الاصطلاحية، ويجوز أن تطلق المناظرة على المكابرة أو المجادلة، حين تخرج عن قصدها، يقول الغزالي في رسالة (أيها الولد): أيها الولد إنني أنصحك بثمانية أشياء، اقبلها مني لألا يكون علمك خصمًا عليك يوم القيامة، تعمل منها أربعة وتدع منها أربعة، أما اللواتي تدع فإحداها: ألا تناظر أحدًا ما استطعت؛ لأن فيها آفات كثيرة"، ومعلوم أن آفة الحوار لا تكون إلا من المكابرة والمجادلة الاصطلاحيتين، كما أن الغزالي في كتابه (الإحياء) يذكر في الباب الرابع آفات المناظرة وضررها على الأخلاق، وعدم تشبهها بمناقشات الصحابة.

ومن البدهي إذًا أن يطلق الجدل القرآني، على ما يشمله الاصطلاح الخاص بالجدل والمناظرة معًا، ولعله في الموضع الواحد يوجد الجدل والمناظرة، كمناقشة سيدنا إبراهيم # للنمرود في سورة "البقرة"، فسيدنا إبراهيم يناظر ويقول: ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، والنمرود يجادل ويقول: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقد يشمل الموضع الواحد على مجادلة ومناظرة ومكابرة، تبعًا لقصد المتخاصمين أو إحداهما، والقصد قابل للتبديل في كل وقت من المناقشة، ولا يجري الجدل القرآني على النظام المنطقي الذي يأتي بمقدماته قبل نتيجته، إلا أنه مع ذلك يصنع النفس ويملؤها باليقين، ويرضي العامة والخاصة بحلاوة أسلوبه ودقة معناه وتركيزه على الهدف الذي سبق له، وبعده عن سيئ القول ورداء المناقشة ورداءة النقاش، ويسمو دائمًا بالحوار إلى آفاق القيم النبيلة والسلوك القويم.

وقد يقع الجدل في شكل قصة قرآنية، إلا أننا هنا نضع فرقًا رقيقًا بين الجدل والقصة، هو أن الجدل مدافعة قولية ومخاصمة بين طرفين متقابلين في مسألة ما، كل يقصد إثبات مدعاه وإبطال مقابله، وأما القصة فهي تعبير عن أحداث متآلفة، والحوار فيها لا يقف على مجرد رد القول الآخر، ولا يكتفي بمسألة معينة، وإنما يتعداه إلى ظاهر الأشخاص وحركات الذهن والنفس والخاطر، كما أن حوار القصة بين الأشخاص والأحداث، هو مجموعة من المواقف المتعاقبة المتغايرة، فمثلًا موقف سيدنا إبراهيم # من النمرود، يعد جدلًا بخلاف موقفه من أبيه ومن عبدة الكواكب وعبدة الأصنام، فهي إلى القصة أقرب، هذا مع أن القصة فيها عموم وسعة يجعل الجدل بعض أجزائها.

أهمية المجادلة في مجال الدعوة إلى الله تعالى

والجدل الذي نتحدث عنه، جعله القرآن أسلوبًا من أساليب الدعوة، حيث يحتاج الرسل والدعاة إلى معرفة الجدل؛ ليؤثروا في معارضيهم؛ لأن تغيير العقائد ليس أمرًا سهلًا، وقد أعطى الله رسله البيان وأرسلهم بلغة أقوامهم، ومنحهم القدرة على المخاصمة، لكي يردوا جدل المعارض ويقنعوا السائل ويأخذوا بيد الجميع، عن طريق المناقشة الحرة العاقلة، والجدل بحسنى أسلوب حسن للدعوة.

أولًا: الجدل يبين للداعية بعض ما سوف يصادفه من أعداء دعوته، ويبصره بمشاق الطريق الذي سوف يسلكه، وذلك؛ لأن المعارضين دائما يقفون ضد دعوة التغيير، فإذا لاحظنا أن الدعوة الإسلامية تطالب المعاندين بتغيير جذري يشمل الحياة كلها لظهر سر قوة المخاصمة وشدة العناد، وإذا ما علم الداعية أنه أمام موقف صلب من الناس، لزمه أن يستعد له بقوة عقلية ونفسية، ويخوض طريقه الصعب صابرًا محتملًا، والنبي ﷺ هو القدوة في هذا المجال، فلقد كان القوم يحاولون هدم رأيه ويصفونه بمختلف الأكاذيب، ومع ذلك يذكر الجدل أنه كان يقف يرد رأيهم ويثبت ضلالهم، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سبأ: ٤٣].

فهؤلاء الكفار حينما سمعوا رسول الله ﷺ يتلو عليهم الآيات البينات ويذكرهم بالأدلة الواضحات، قالوا: إن محمدًا رجل كاذب وساحر، يهدف إلى إبعاد الناس عن دين آبائهم، وقرآنه كلام مختلق ودينه سحر مبين، فتراهم اتهموا

رسول الله ﷺ وكتابه ورسالته خصومة وجدلًا، إن الله ﷻ مع من يدعو إلى دينه، يدافع عنه وينصره؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ أن يرد بالطريقة الجدلية على اتهامات معارضيه، فلئن تباهوا بما لهم من مال ولد وظنوا أن ذلك يدفع العذاب عنهم، وقالوا: نحن أكثر أموالًا وأولادًا وما نحن بمعذبين، فإن الله تعالى يعلم رسوله ﷺ الرد ويأمره، فيقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)﴾ [سبأ: ٣٦، ٣٧].

وهكذا يرد الله مباهاتهم بمالهم؛ لأن هذا المال رزق أعطاه الله لهم، وهو قادر على إزالته من ملكيتهم، ولن يكون المال أيًّا كان بمقرب من الله والجنة ومانع من العذاب والنار، ولكن الإيمان والعمل الصالح هما أساس الحساب خيرًا كان أو شرًّا، ولئن وجهوا اتهاماتهم إلى القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥)﴾ [الفرقان: ٥]، فإن الله تعالى يعلم رسوله ﷺ الرد ويأمره به في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦)﴾ [الفرقان: ٦]، ولئن كانوا يستبعدون القيامة ويقولون: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١)﴾ [النمل: ٧١]، فإن الله يأمر الرسول ﷺ بالرد، فيقول: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)﴾ [سبأ: ٣٠].

ومن هذه الآية نرى أن مجادلة النبي ﷺ هادفة، فهو يأخذ مكابرتهم ويرد عليها ردًّا مقنعًا، قاصرًا على المعترض عليه، والداعية يأخذ من هذه المواقف، صورة التأييد الإلهي لرسوله ﷺ الداعية الأول، ويسير على الدرب في الدعوة، متوقعًا

المعارضة البشرية متأكدًا من التأييد الإلهي، ويجب عليه أن يصبر على كل ما يلقاه، فلقد أمر الله الرسول ﷺ من قبل بقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ [المزمل: ١٠]، أي: إذا دعوتهم وعارضوك وتقولوا عليك الأقاويل، فاصبر عليهم وتجلد لقولهم وأعرض عنهم إعراضًا، لا يشوبه أذى ولا شتم ولا مقاومة، وعليك أن تكل الأمر إلى الله تعالى في النهاية.

ثانيًا: الجدل يبصر بالدعوة ويبين أساسياتها، ويعرض القرآن في هذا الموضع جدل سيدنا إبراهيم # مع النمرود، إثباتًا للإلوهية، يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهذا جدل حول إثبات الإلوهية بأدلتها، تراها أدلة مفحمة ملزمة من أقرب الطرق، وقد ترك سيدنا إبراهيم دليل الإحياء والإماتة، حينما أوجد النمرود شبهة شكلية عليه انتقل إلى دليل لا شبهة فيه عند النمرود، وهو مطلع الشمس ومغربها، وهنا بهت النمرود، ولم يحرِ جوابًا، وهو نوع من أنواع الجدل يعرف بالانتقال، وهو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان أخذ فيه، لعدم فهم الخصم وجه الدلالة من الاستدلال الأول.

وهذا الدليل يبطل عبادة الأشخاص، ولا يثبتها للإله الواحد القادر على كل شيء المتصرف في سائر الأمور عند الحياة والأحياء، ولقد جادل المكيون رسول الله ﷺ في شأن دعوة التوحيد، وقال أنصار الشرك والتعدد: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾، وقال الدهريون المنكرون للإله بالكلية: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقال المقلدون: ﴿ قَالُوا۟

﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠]، هذه المكابرات من القرشيين توضح موقفهم من دعوة التوحيد.

وهنا يبين الرسول ﷺ لهم القول الفصل في هذا الأساس الوطيد، ويقول كما أمره الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]، ففي هذه الآية وغيرها رد على المكابرة الكاذبة، التي أعلنها المعاندون، فالله هو الذي ينفع ويضر، أما آلهتهم فإنها لا تملك شيئًا ولا تقدر على فعل أي شيء، وقد تحداهم النبي ﷺ في الآية، متسائلًا وهل تستطيع الآلهة المدعاة أن تدفع عني ضررًا قدره الله، أو تمنع رحمة أرادها، وبعد التساؤل الإنكاري يوضح الحقيقة، في أن الله وحده هو الكفيل بكل شيء وهو المعين وعليه يتوكل المتوكلون، وفي الآية الثانية يبين الله للمجادلين، أن الله سوحده يكفي في الشهادة على باطله، وهو يعلم بكل شيء، وعلمه ممتد شامل لكل ما في السماوات والأرض، فمن آمن به نجا وفاز ومن كفر وطغى فقد ضل وخسر: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٥٢].

وفي سورة "المؤمنون" يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩]، وفي هذه الآيات يسجل الله اعترافه، بأن الله مالك الأرض ومن فيها، وهو رب السماوات السبع ورب

العرش العظيم، وأنه يغيث من يشاء، ولا يغيث أحد منه أحدًا، إذا كانوا يعترفون بذلك، فما لهم يشركون ولا يتذكرون ولا يخافون، إنهم مخدوعون في موقفهم، ولا يصح إلا الإيمان والطاعة لله الواحد المتصرف في ملكه وفق علمه وإرادته.

وهكذا يجادلهم الرسول ﷺ بالأمور المسلمة لديهم؛ لأن تسليمهم بها يجعل النتائج مسلمة كذلك، بل إنه يجادلهم بالأمور البدهية؛ لتكون الحجة قطعية، فيقول كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فترى الآية تتضمن جدلًا يسلم بمظنوناتهم ثم يناقشهم فيها، وبالمناقشة يظهر بطلان رأيهم، فكأنه قال: ليس مع الله إله آخر، ولو سلمنا بوجود آلهة أخرى معه كإدعائهم الكاذب، فإننا لا بد وأن نرى على ما هي العادة فساد السماء والأرض، واستقلال كل إله بما خلق، وكون لنفسه ملكًا خاصًّا به، ولحدث الشجار والتعالي بين الآلهة، ولو كانت الآلهة أصغر من الإله الأكبر صاحب العرش، لطلب الآلهة سبيلًا إلى الله معاندة ومبالغة، وكل ما كان منتظرًا كنتيجة للفرض المظنون لم يحدث، إذ لم تفسد السماء والأرض، ولم تستقل الآلهة بملكها، ولم يتعال إله على إله، ولم تطلب الآلهة طريقًا إلى الله الأكبر، والنتيجة المحتمة هو أن التسليم باطل والفرض مظنون كاذب لا صحة فيه، والثابت المؤكد هو أنه لا إله إلا الله، كما يقول الشيخ محمد عبده: "فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، لكان الفساد ممتنعًا بالبداهة، فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله".

هذا والآيات مشتملة على نوع من الجدل يعرف بالتسليم، حيث تسلم ظاهرًا بالمستحيل من باب المجاراة، وتناقش على أساسه ليظهر بطلانه، ولذلك يصدر

هذا النوع بـ"لو" كآيتي الأنبياء والإسراء، أو يصدر بأداة النفي كآية المؤمنون، دلالة على أنه يسلم بالممتنع المنفي، وهكذا ساهم الجدل مع سائر الأدلة في إثبات الأساس الأول للدعوة، وهو الإيمان بالله وحده، ورد افتراءات المعارضين هكذا.

وأما عن الأساس الثاني: وهو إثبات الرسالة لسيدنا محمد ﷺ فقد كثر الجدل حوله، إذ جحد المعارضون الرسالة، واستبعدوا أن يكون الرسول بشرًا من الناس وكذبوه ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القمر: ٢٤]، ولم يستبعدوا إرسال البشر فقط، بل أخذوا في توجيه الاتهامات الباطلة، يقول الله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥].

ودارت مكابراتهم حول هذه الاتهامات، فهو شاعر وكاذب وساحر وناقل، ولكن الرسول ﷺ جادلهم في دعاويهم، فلما قال الكافرون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣] أمره الله تعالى أن يرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٣]، ذلك؛ لأنهم جاهلون بالحقيقة ويكفي أن يعلمها الله، ويعرفها من عنده علم الكتاب، ويؤكد الله لسيدنا محمد ﷺ أن المعاندين مغالطون في دعاويهم، فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]، وذلك؛ لأنهم اتهموا النبي ﷺ بأنه يأخذ الكتاب من رجل أعجمي، لكنه يتلى عليهم بلسان عربي، فكيف التوفيق خاصة وأن النبي ﷺ أمي، ولم ينزل كتاب من قبل هذا، وأيضًا فهم يطالبون بأن يكون الرسول ملكًا، وهذا خطأ؛ لأنه لا بد من حصول الفهم المشترك والقدرة على الخطاب، ولا يقدر على ذلك مع البشر إلا بشر منهم.

ثالثًا : الجدل يعرف بالناس ويبين طبائعهم واتجاهاتهم ، فإليهم توجه الدعوة ، والعلم بأحوالهم ضرورة للداعية ، ليتمكن من الأخذ بيد مدعويه على وجه لائق ومناسب ، وقد بينت هذا الجانب مع أساليب الدعوة من قبل هذا.

وإذًا الجدل الذي ينادي به القرآن ، هو الجدل بالتي هي أحسن ، وليس الجدل الذميم أو العقيم.

ضرب الأمثال

عناصر الدرس

العنصر الأول : معنى الأمثال في اللغة، وفي الاصطلاح، وفي كتاب الله -عز وجل. ٢٧٧
العنصر الثاني : أهمية ضرب الأمثال ٢٨٩

معنى الأمثال في اللغة، وفي الاصطلاح، وفي كتاب الله عز وجل

فأنتقل بك إلى أنواع أخرى من وسائل الدعوة، تتمثل في ضرب الأمثال والأسلوب القصصي والكتابة والقدوة الحسنة والتعليم والخطابة.

وأبدأ هذه المحاضرة في الكلام عن ضرب الأمثال - إن شاء الله تبارك وتعالى- متحدثًا عن تعريف الأمثال وأهميتها، ونماذج من القرآن والسنة والتراث الإسلامي.

فأقول - وبالله التوفيق بادئ ذي بدء- : استعمل العرب المثل في كلامهم، وأرادوا به الشيء العجيب المدهش في صفته وحقيقته، وكثيرًا ما أتوا به على صورة التشبيه بأركانه، وفي أحيان أخرى أتوا به مشبهًا مسبوقًا بلفظ "مثل"، وفي حالة ثالثة: يقصدون به المثل السائر المضروب لحالة سبقت، حيث يشبهون مضربه بمورده إظهارًا للمضرب.

والمثل في كل أحواله يقرب المعاني، ويضع صورتها مثيرة لدى المستمع، ويجعلها مع القرب والإثارة في وضع ثابت بالدليل، وسواءً أرادوا بالمثل في لغتهم الحقيقة أو المجاز، فهو أحد أقسام علم البيان الاصطلاحي، الهادف إلى تأدية المعنى بصورة أوضح وأتم في تراكيب مختلفة.

والعرب لم تصنع أمثالها عبثًا، بل لا بد من أسباب أوجبتها وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيء، وليس في كلامهم أوجز من المثل ولا أشد اختصارًا منه.

ومن الأمثلة العربية: قول لبيد:

وما المال والأهلون إلا ودائع ❖ ولا بد يومًا أن ترد الودائع

معنى الأمثال في اللغة، وفي الاصطلاح، وفي كتاب الله ﷻ

فأنتقل بك إلى أنواع أخرى من وسائل الدعوة، تتمثل في ضرب الأمثال والأسلوب القصصي والكتابة والقدوة الحسنة والتعليم والخطابة.

وأبدأ هذه المحاضرة في الكلام عن ضرب الأمثال - إن شاء الله تبارك وتعالى- متحدثًا عن تعريف الأمثال وأهميتها، ونماذج من القرآن والسنة والتراث الإسلامي.

فأقول - وبالله التوفيق بادئ ذي بدء: استعمل العرب المثل في كلامهم، وأرادوا به الشيء العجيب المدهش في صفته وحقيقته، وكثيرًا ما أتوا به على صورة التشبيه بأركانه، وفي أحيان أخرى أتوا به مشبهًا مسبوقًا بلفظ "مثل"، وفي حالة ثالثة: يقصدون به المثل السائر المضروب لحالة سبقت، حيث يشبهون مضربه بمورده إظهارًا للمضرب.

والمثل في كل أحواله يقرب المعاني، ويضع صورتها مثيرة لدى المستمع، ويجعلها مع القرب والإثارة في وضع ثابت بالدليل، وسواءً أرادوا بالمثل في لغتهم الحقيقة أو المجاز، فهو أحد أقسام علم البيان الاصطلاحي، الهادف إلى تأدية المعنى بصورة أوضح وأتم في تراكيب مختلفة.

والعرب لم تصنع أمثالها عبثًا، بل لا بد من أسباب أوجبتها وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيء، وليس في كلامهم أوجز من المثل ولا أشد اختصارًا منه.

ومن الأمثلة العربية: قول لبيد:

وما المال والأهلون إلا ودائع ❖ ولا بد يومًا أن ترد الودائع

أولًا: معنى المثل: لا شيء أخطر من تصور سهولة تقرير معاني الكلمات، وخاصة إذا كانت كثيرة التداول بين الناس، ولفظة مثل بصيغها المختلفة، من أكثر الألفاظ تداولًا وشيوعًا، فقد لاكتها ألسن العامة والخاصة على حد سواء، لذا فإن تصور سهولة تقرير معناها، لم يكن بمنجي عن تلك الخطورة، فصار لزامًا على باحث الأمثال أن يقف، ويطيل الوقوف على مختلف الجهود التي بذلت للكشف عن دلالتها أو تقرير معناها، قبل المجازفة بتقرير معنى بعينه أو دلالة بذاتها.

لما كانت الأمثال قد نالت اهتمام اللغويين والمفسرين والبلاغيين، والذين عنوا بجمعها أو دراستها وحظيت بجهود هؤلاء كلهم، فليس لنا أن نغض الطرف عن كل تلك الجهود أو بعضها، في الوقت الذي نستشعر فيه مثل هذه الصعوبة، وندرك أن جهود كل فئة ممن حظيت باهتمامهم قد لا تغني عما بذلته الأخرى، إذا كان من الطبيعي أن يعود باحث الأمثال إلى معاجم اللغة لمعرفة دلالة اللفظة لغة، ويعود إلى كتب البلاغة والأمثال؛ ليتبين مدى العلاقة بين معناها اللغوي والاصطلاحي، فإن من الطبيعي كذلك أن يعود باحثها وباحث الأمثال القرآنية منها على وجه الخصوص إلى كتب التفسير لكثرة ورود اللفظة في القرآن الكريم، ومحاولة المفسرين إيضاح معناها فيما وردت فيه من آيات، والذي يزيد في ضرورة الرجوع إلى كتب التفسير، والوقوف على ما قاله المفسرون فيها أن أصحاب المعاجم اللغوية، كانوا قد أخذوا معظم ما ضمنوه معاجمهم تحت هذه المادة من الاستعمال القرآني لها.

ومن هنا رأيت أن أقف على ما قيل عنها في معاجم اللغة وكتب التفسير، وما قاله فيها من كان له فضل السبق في بحثها ودراستها، وأن أناقش هؤلاء وأولئك، ومن ثم أعرض خلاصة ما توصلت إليه.

المثل في معاجم اللغة:

شعر الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة مائة وخمس وسبعين من الهجرة، بما بين المَثَل والمِثْل من فارق، فقال: يقال: "هذا عبد الله مِثْلك، وهذا رجل مِثْلك"؛ لأنك تقول: "أخوك الذي رأيته بالأمس مثلك"، ولا يكون ذلك في "مثل"، واكتفى أبو بكر بن دريد بالإشارة إلى معرفة الناس بالأمثال السائرة، فقال: "والمثل السائر معروف من الأمثال"، وجمع "مثل" "أمثال" وكذلك "مثل"، ويبدو أن تفريق الخليل بين اللفظين، لم يحل دون ربط أكثر اللغويين بينهما، وإن خصوا "المثل" بما لم يخصوا به "المِثل" من معاني، فقال إسحاق بن إبراهيم الفارابي: "والمَثل واحد الأمثال" و"المثل الوصف" و"المثل بمعنى المِثل"، كما يقال: "شبه وشِبه"، وذهب إسماعيل بن حماد الجوهري إلى مثل ما ذهب إليه الفارابي، فقال: يقال: "هذا مثلُه ومثلَه"، كما يقال: "شبهُه وشبهَه" بمعنى والمثل: ما يضرب به من الأمثال، و"مَثل الشيء" أيضًا صفته.

وصرح أحمد بن فارس لرجوع مصطلح المثل السائر إلى الشبه، قائلًا: الميم والثاء واللام أصل صحيح، يدل على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مثل هذا أي نظيره، والمثل والمثال في معنى واحد، والمثل والمثل كشبه وشبه، والمثل المضروب مأخوذ من هذا؛ لأنه يذكر مورًّى به عن مثيله في المعنى، وللحسين بن محمد الراغب الأصفهاني في الأمثال السائرة، مثل هذا القول مع شيء من التفصيل، فالمثل عنده قول في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة؛ ليبين أحدهما الآخر نحو قولهم: "الصيف ضيعت اللبن"، فإن هذا القول يشبه يشبه قولك: "أهملت وقت الإمكان أمرًا".

وعلى هذا ما ضرب الله تعالى من الأمثال، ونقل إضافة بعضهم على حد قوله معنى الوصف، على قلة للمثل والمثل إضافة على السواء قائلًا: قال بعضهم: قد يعبر به عن وصف الشيء أيضًا، نحو قوله: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، قيل: المثل هنا بمعنى الصفة، وظل الذين جاءوا بعدهم يؤكدون معنى الشبه، ويصدرون به ما تضمنته معاجمهم من المادة اللغوية، وإن كانوا قد أضافوا للمثل معاني أخرى، فمحمد بن منظور ابتدأ المادة بنفس ما ابتدأها به الجوهري، وذهب في الأمثال المضروبة إلى مثل ما ذهب إليه، فقال: مثل كلمة تسوية، وقالوا: هذا مثله كما قال شبهه وشبهه بمعنى، والمثل الشيء الذي يضرب لشيء مثلًا فيجعل مثله، وفي (الصحاح): "ما يضرب به من الأمثال".

قال الجوهري: "ومثل الشيء أيضًا صفته"، وأورد في موسوعته اللغوية أكثر ما قيل عن هذه المادة، فضمنها معاني للمثل لم تتضمنها المعاجم السابقة كالعبرة والآية والحديث نفسه، فقالوا: "قد يكون المثل بمعنى العبرة ومنه قوله ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]، ومعنى قوله: ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عبرة يعتبر به المتأخرون، ويكون المثل بمعنى الآية قال الله ﷻ في صفة عيسى # : ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩] أي: آية تدل على نبوته، والمثل: الحديث نفسه قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، جاء في التفسير أنه قول: لا إله إلا الله، وتأويله أن الله أمر بالتوحيد ونفى كل إله سواه وهي الأمثال".

وهذه المعاني مما ذهب إليها المفسرون في تفسيرهم للمثل، هذا ولم يقتصر ما أضافه ابن منظور على المعاني السابقة، فقد أضاف كذلك معنى العالمية، فقال:

"المَثْلُ مأخوذ من المثل بالتحريك؛ لأنه إذا شنع في عقوبته، جعله مثلًا وعلمًا"، وأهم من هذا كله تفسيره للمثل بالمثال، في قوله: "والمثل ما جعل مثالًا أي: مقدارًا لغيره يحذى عليه"، وهو ما أفاده من قول محمد بن يزيد الثمالي المعروف بالمبرد: "إنما المثل مأخوذ من المثال والحذو".

وكما أضاف ابن منظور هذه المعاني، قد أضاف محمد بن يعقوب الفيروزأبادي إليها معنى الحجة، فقال: "المِثَل بالكسر والتحريك والمَثيل كأمير الشبه، والمثل الحجة والحديث والصفة، وجمع محمد مرتضى الزبيدي ما تضمنته المعاجم السابقة عن المادة ولم يزد عليها زيادة تذكر، غير ما رواه عن شيخه أبي عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي من احتمال إطلاق المثل على الصفة مجازًا، فقال: قال شيخنا: "ويمكن أن يكون إطلاقه عليها من قبيل المجاز لعلاقة الغرابة"، وأورد الشيخ أحمد رضا كل تلك المعاني، غير أنه قيد الآية بقوله: الدال على الشيء، وربما كان قد تأثر في هذا بقول ابن منظور السابق في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ "أي: آية تدل على نبوته"، وقد اقتصر المعجم الوسيط في الحديث عن المثل على القول: "المثل المثل"، وجملة من القول مقتطعة من كلام أو مرسلة بذاتها، تنقل عمن وردت فيه إلى مشابهة بدون تغيير، مثل: "الصيف ضيعت اللبن" و"الرائد لا يكذب أهله"، والأسطورة على لسان حيوان أو جماد كأمثال (كليلة ودمنة)".

ومن هذا كله يتضح أن اللغويين قديمهم، وحديثهم كانوا قد أجمعوا أو كادوا على أن المثل الشبه، وربط أكثرهم بين المثل والمثل، وإن أشار قسم منهم إلى ما بين اللفظين من فارق، كالذي ذكره الخليل من "أن المثل بالتحريك لا يوضع موضع المثل بالسكون"، وكالذي نقله أحمد بن محمد الفيومي بقوله: "والمثل

بفتحتين والمثيل وزن كريم، كذلك، وقيل: المكسور بمعنى شبه والمفتوح بمعنى الوصف".

والواقع أن المثل وإن تضمن معنى الشبه، فإن هذا لا يدعو إلى ربطه بالمثل مثل هذا الربط المحكم حتى لكأن اللفظين لفظ واحد؛ لأن المثل يمكن أن يطلق على عموم المماثلة وليس المثل كذلك.

وقد نبه الراغب الأصفهاني إلى ما في المثل من عموم، فقال: "والمثل عام في جميع ذلك"؛ ولهذا لما أراد الله تعالى نفي التشبيه من كل وجه، خصه بالذكر، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ومن هنا فإن تفسير المثل به تعميم، لا يوضح دلالة المثل بدقة، وإذا تجاوزنا معنى الشبه إلى العظة والعبرة والآية والحجة والحديث نفسه وما أشبه ذلك عدا الصفة، نجد أن كل هذه المعاني مما ذهب إليها المفسرون في تفسير المثل، لم تتضمنها أكثر المعاجم اللغوية قبل (اللسان)، ويمكن أن نرجئ الحديث عنها عند عرض أقوال المفسرين في المثل.

أما الصفة فإن من بين أصحاب المعاجم من لم يتعرض لذكرها منهم ابن دريد وابن فارس، كما لم يذكرها جار الله محمود بن عمر الزمخشري في (أساس البلاغة)، وإن من اللغويين القدامى من رفض تفسير المثل بها، ونقل ابن منظور اختلافهم هذا بقوله: "قال الجوهري: "ومثل الشيء أيضًا صفته"، قال ابن سيده: "قوله - عز من قائل - : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال الليث: مثلها هو الخبر عنها، قال أبو إسحاق: معناه صفة الجنة، ورد ذلك أبو علي فقال: بأن المثل الصفة غير معروف في كلام العرب إنما معناه التمثيل، قال عمر بن خليفة: سمعت مقاتلًا صاحب التفسير يسأل أبا عمرو بن العلاء عن قول الله عز وجل: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ ما مثلها؟ فقال: فيها أنهار من ماء غير أسن، قال: ما

مثلها؟ فسكت أبو عمرو، وقال: فسألت يونس عنها فقال: مثلها: صفتها، قال محمد بن سلام: ومثل ذلك قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩] أي: صفتهم، قال أبو منصور: ونحو ذلك روي عن ابن عباس، قال أبو منصور: وللنحويين في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قول آخر: قال محمد بن يزيد الثمالي في كتابه (المقتضب) قال: "التقدير في ما يتلى عليكم ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ثم فيها وفيها، قال: ومن قال: إن معناه صفة الجنة فقد أخطأ؛ لأن ﴿مَّثَلُ﴾ لا يوضع موضع صفة إنما يقال: صفة زيد أنه ظريف وأنه عاقل، ويقال: مثل زيد مثل فلان، إنما المثل مأخوذ من المثال والحذو، والصفة تحلية ونعت"... إلى آخر ما قاله اللغويون في هذا الباب.

والمثل القرآني يكون حقيقة، فيطلق على نفس الشيء وذاته، كقول الله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، أي: كمن هو في الظلمات، وكقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣]، أي: حكايتهم كواقعها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، أي: طريقة خلقه كطريقة خلق آدم في الغرابة والبشرية، وإنما أطلق على الحقيقة اسم المثل، لكونها مشتملة على وقائع مثيرة بشكل واضح مؤثر، كأنها مثل مضروب أو شبه بين، يقول صاحب (المثل السائر): "والوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام فإنها كالأمثال في الاستشهاد بها، لما لها من دور في البيان والتوضيح"، ويكون المثل فرضيًّا غير حقيقي، فيأتي على صورة التشبيه، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، فشبه اليهود الذين كلفوا علم التوراة والعمل بما فيها ولم يعملوا فكأنهم لم يحملوها، بالحمار يحمل الكتب النافعة ولا يستفيد بها، قد عقب

القرآن على هذا التشبيه بقوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

ومن هذه الصورة التشبيهية للمثل جاء تعريف صاحبي (لباب التأويل وفتح البيان للمثل)، حيث عرفوه بأنه "عبارة عن قول يشبه قولًا آخر بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوره"، ويقول الشيخ محمد عبده مشيرًا إلى هذا النوع من المثل: "وأبلغه تمثيل المعاني المعقولة والصور الحسية وعكسه، والمماثلة بين شيئين تفيد عموم المشاركة بينهما، لئن كان الشبيه يشارك في الكيفية، والمساوي يشارك في الكمية، والشكل يساوي في القدر والمساحة، فإن المماثلة تعم كل هذه المشاركة، ولذلك حسن تسمية التشبيه القرآني بالمثل؛ لأن تشبيه القرآن فيه دقة وشمول، والفرق بين المثل والتشبيه حينئذ أن المثل لا بد أن يكون الأمر الجامع بين طرفيه متحصلًا بالتأويل.

أما التشبيه فقد يكون بينًا بلا تأويل أو محتاجًا إلى تأويل بسيط، فكل تشبيه تمثيل ولا عكس، كما أن الوجه في التمثيل يؤخذ من جملة أو جملتين أو أكثر، تضامت كلماتها حتى صارت خيطًا ممتدًّا ممتزجًا، فصور باختلاطها صورة خاصة غير الصورة التي توجد من وحدة كلمة واحدة على حده أو من الكلمات التي يراعى فيها الإنفراد والتعدد، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [يونس: ٢٤]، فانظر كيف كثرت الجمل فبلغت عشرة، لكنها تداخلت في بعضها حتى كأنها جملة واحدة، والشبه أخذ بمجموعها.

والمثل الذي تضمنته الآية، يعلق عليه عبد القاهر فيقول: "من الأمثال ما لا بد من وروده جملة، يتقدمها مذكور يكون وروده مشبها به، مع عدم إمكان حذف المشبه، إلا أنه مشبه بمن صفته وحكمه مضمون تلك الجملة، ويأتي المثل وهو غير حقيقي أيضًا على صورة الاستعارة، وحينئذ فهو عبارة عن القول السائر الممثل مورده بمضربه، ويتفق هذا مع تعريف البلاغيين للمثل؛ لأنه في اصطلاحهم اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة بين مضربه ومورده مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

انظر قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل: ١١٢]، فقد ذكر الله أمر هذه القرية في حالتي إيمانها وكفرها، وضربه مثلًا أورده للكافرين ولأهل مكة لما بينهما من شبه، يقول الزمخشري: "إن الله جعل القرية التي هذه حالها مثلًا لكل قوم أنعم الله إليهم، فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا، فأنزل الله بهم نقمته، أو يجوز أن تكون قرية من قرى الأولين كانت هذه حالها، فضربها مثلًا لمكة أنذرهم من مثل عاقبتها".

والمثل المضروب يأتي ذكرًا لحال من الأحوال مشتملًا على ما يناسبها ويشابهها، مبينًا من حسنها أو قبحها ما كان خفيًّا، وهو لذلك لا يكون إلا قولًا بديعًا فيه غرابة، تجعله خليقًا بالقبول وجديرًا بالتيسير في البلاد، ومن هنا يقول أبو السعود: "استعير لفظ المثل لكل حال أو صفة أو قصة، لها شأن عجيب وخطر غريب، من غير أن يلاحظ بينها وبين شيء آخر تشبيه"، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي: الوصف الذي له شأن عظيم وخطر جليل، و﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: قصتها العجيبة الشأن.

وأمثال القرآن تنقسم باعتبار آخر إلى قسمين: أحدهما ظاهر مصرح به، والثاني كامن لا ذكر للمثل فيه، فمن أمثلة الأول قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] أخرج ابن أبي حاتم وغيره، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: "هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام، فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا سلبهم الله العزة كما سلب صاحب النار ضوءه وتركهم في عذاب"، ومن أمثلة الثاني قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، فإنه يشير إلى مثل كامن فيه تعرفه العرب وهو قولهم: "خير الأمور أوساطها"، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]، فإنه يتضمن مثلًا كامنًا هو قول العرب: "الحية لا تلد إلا حية"، كقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩]، فإنه يتضمن مثلًا هو قول العرب: "من جهل شيئا عاداه".

هذا وفي القرآن ألفاظ جرت مجرى المثل وهو ما يعرف بالمثل السائر، ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١] يضرب وقت ظهور الشيء واتضاحه، قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] يضرب للمتعارضين، رغم اختلافهم فالكل فرح بوجهته، وقوله تعالى: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] يضرب حين انتهاء متنازع فيه بأي وجه كان، وأشباه هذا كثير في القرآن الكريم.

وقد جاء ذكر المثل في القرآن كثيرًا، لما له من فائدة وأثر، يقول أبو السعود: "التمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل، واستنزاله من مقام الاستعصاء، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمع صورة الجامح الأبي، كيف لا

وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبرازها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداء المنكر في صورة المعروف، وإظهار الوحشي في هيئة المألوف".

وجاء في (أسرار البلاغة): "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة وأكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا، وقصر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفًا، فإن كانت مدحًا كان أبهى وأفخم وأنبل في النفوس، وأعظم وأهز للعطف وأسرع للإلف، وإن كان ذمًّا كان مسه أوجع وحده أحد، وإن كان حجاجًا كان برهانه أنور وبيانه أبهر وكان شأوه أبعد وشرفه أجد، وإن كان اعتذارًا كان إلى القلوب أقرب، وإن كان وعظًا كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلي الغيابة ويبصر بالغاية، ويبرئ العليل ويشفي الغليل.

وقد اختير لفظ الضرب مع المثل؛ لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيج الانفعال، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعًا، ينفذ أثره إلى قلبه وينتهي إلى أعماق نفسه، وقد يشتمل المثل على قصة وهنا يمكن أن نطلق عليها اسم القصة التمثيلية، وهي تحمل في الغالب صورة فرضية سيقت لمجرد التصوير، وإبراز المعقول في صورة المحسوس.

وبعد أن بينت بفضل الله ﷻ معنى الأمثال في اللغة وفي الاصطلاح وفي كتاب الله ﷻ، أذكر جانبًا من أهميتها قبل ذكر نماذجها.

أهميـــة ضـــرب الأمثـــال

ليس لدينا أبدع مما كتبه الإمام محمد بن الترمذي الحكيم، تقديمًا لكتابه المخطوط (الأمثال في الكتاب والسنة)، لنبين به هذا الجانب، قال:

"اعلم أن الله تعالى ضرب الأمثال لعباده في تنزيله لقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، وقال - جل ذكره- : ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] ثم اعلم أن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء وخفيت عليه الأشياء، فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء، فضرب الله لهم مثلًا من عند أنفسهم لا من عنده، ليدركوا ما غاب عنهم، وأما من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إلى الأمثال، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

فلا جرم ضرب الله الأمثال من نفسه لنفسه، وكيف لا ولا مثل له ولا شبيه له، فلذلك قال - جل ذكره- : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، فالأمثال نموذجات الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار، لتهتدي النفوس بما أدركت عيانًا، فمن تدبير الله لعباده أنه ضرب لهم الأمثال من أنفسهم، لحاجتهم إليها ليعقلوا بها، فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة، فمن عقل الأمثال سماه الله تعالى في كتابه عالمًا، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فالأمثال مرآة النفس، والأنوار أنوار الصفات وهي مرآة القلب، والله تعالى جعل على الأفئدة أسماعًا وأبصارًا، وجعل في الرؤوس أسماعًا وأبصارًا، فما أدركت أسماع الرؤوس وأبصارها أيقن به القلب، واستقرت النفس واتسعت في العلم

وانشرح الصدر بذلك، وما غاب من أسماع الرءوس وأبصارها وجاءت أخباره عن الله تعالى، وتلك الأشياء المكنونة، أيقن القلب بذلك، ولكن تحيرت النفس وتذبذبت، والنفس مستقرها في الجوف، والقلب مستقره في الصدر فوق النفس، فالقلب كدلو معلق في الصدر بعروقه وبما فيه من المكنون، وتحته النفس وفيها الشهوات الهوائج، من تنفس النار خرجت إلى محل الشهوات بباب النار، واحتملت نسيمها وأفراحها حتى أوردتها على النفس، فإذا هبت ريح الهوى وجاءت بذلك النسيم إلى النفس، تحركت النفس وفارقت في العروق طيبها ولذتها في أسرع من اللحظة، فإذا أخذت النفس في التذبذب والتمايل والائتناس إلى ما تصور لها، وتمثل في الصدر تحرك القلب وتمايل هكذا، وهكذا من وصول تلك اللذة إليه.

فإذا لم يكن في القلب شيء يسكنه مال إلى النفس، واتفقا واتسقا على تلك الشهوات، فإذا كانت تلك الشهوات منهيًّا عنها وبرز إلى الأركان فعلها، صارت معصية وذنبًا، وإنما يثقل القلب بالعلم بالله؛ لأن العلم بالله يورث الخشية، فإذا تأدت تلك الخشية إلى النفس ذبلت، وتركت التردد فاستقر القلب، والعلم بالله يورث الحياء فإذا تأدى ذلك الحياء إلى النفس انكسرت وخجلت، وإذ جهل القلب ربه صارت صفة القلب مع النفس على ما وصفنا، والقلب موقن بالله تعالى بيقين التوحيد، فإذا جاءت نوائب الأمور استقر القلب بذلك اليقين؛ لأنه ليس في القلب شهوة، وترددت النفس وتذبذبت بالشهوة التي فيها، فإذا ضربت لها الأمثال صار ذلك الأمر لها بذلك المثل، كالمعاينة وكالذي ينظر في المرآة فيبصر فيها وجهه ويبصر بها من خلفه؛ لأن ذلك المثل قد عاينه ببصر الرأس، فإذا عاين هذا أدرك ذلك الذي غاب عنه بهذا، فسكنت النفس وانقادت للقلب

واستقرت تحت القلب في معدنها، فهي كالعماد لسطح البيت فإذا تحرك العماد تحرك السطح، وانهار وتبدد العماد.

فضرب الله الأمثال للعباد؛ حتى يدركوا ما غاب عن أسماعهم وأبصارهم الظاهرة بما عاينوا. والأمثال بيان للغوامض، فحين يريد الحق أن يجلي قضية تغمض على بعض الناس، يشرحها بمثل معروف للناس لذلك يضرب الأمثال.

والمثل والحكمة من أبواب الأدب العريقة، فالمثل أن تأتي بشيء حصل، فقيل فيه قول جميل جامع ومعبر، فتأخذ هذا القول وتستعمله في كل حالة تشبه الحالة التي قيل فيها المثل، كان رجل يريد أن يخطب فتى وكانت الخاطبة اسمها عصام، فأرسلها لتخطب له فلما ذهبت وعادت، قال لها: ما وراءك يا عصام؟ فقالت: أدى المخض عن الزبد، أي: انتهى مخض اللبن إلى استخراج ثمرته وهو الزبد، فصار القولان يضربان مثلًا لكل عمل ناجح، والمثل لا يتغير فيخاطب به المثنى والجمع والمفرد، والجمع مؤنثًا ومذكرًا بلفظه الذي ورد عن العرب.

والمثل والمثل الشبه أي: شيء غامض عن ذهن السامع، يجليه المتكلم بشيء معروف له، ولما كانت المعقولات أخفى من المحسوسات، فالمتكلم يجلي المعقولات بشيء محسوس، فمثلًا حين يريد الشاعر أن يصور لنا تنافر القلوب بعد مودتها يقول:

إن القلوب إذا تنافر ودها ❖ مثل الزجاجة كسرها لا يشعب

أي: لا يجبر، أنت لم ترَ معركة بين قلبين، هذه مسألة غيبية عنك؛ لأن الذي يحدث في قلب كل من الطرفين لا يرى، فالتنافر لا يرى، فالتنافر أمر غيبي يجليه الشاعر بشيء محسوس، وشاعر آخر يريد أن يعطينا صورة لرجل أحدب، فمثلًا هناك رجل لم يرَ الأحدب ونريد أن نصوره له، والأحدب كما هو معروف كتفاه

مرتفعتان وله سنام في ظهره ورقبته غائصة بين كتفيه، هذا هو الأحدب، والشاعر يريد أن يجلي هذه الصورة فيقول:

قصرت أخادعه وغاص قذاله ❖ فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة ❖ وأحس ثانية لها فتجمعا

فإذا قرأنا البيتين فقد تجلت لنا صورة الأحدب، وصارت صورة واضحة، هذا هو المثل، المثل يجلي لك أمرًا غامضًا، وإن كان محسن لا تقع عليه العين، يأتي لك بأمر محسن تقع عليه العين، أو يجلي أمرًا معقولًا معنويًّا، فيأتي به في صورة المحسن.

بيان قمة اليقين، قمة اليقين الإيماني هو الله، والله تعالى حين يريد أن يجلي لنا هذه القمة في التوحيد يقول: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، يريد الحق سبحانه أن يبين لنا حلاوة الإيمان، فقال: سأضرب لكم مثلًا هناك عبد يملكه عشرة ويا ليتهم متفقون، إنما هم شركاء في العبد ومختلفون، وعبد آخر يملكه واحد فقط، أيهما يعيش مستريحًا، طبعًا عبد الواحد، لماذا؛ لأنه يعيش مرهونًا لأمر واحد ونهي واحد وإرضاء واحد، أما عبد الشركاء حتى لو كانوا متفقين فلكل واحد منهم هوى، فما بالك وهم مختلفون، وكل يريد أن يسير العبد على هواه، إذا يتبدد العبد.

فالله سبحانه يريد أن يجلي قمة اليقين الإيماني في وحدانية الإله بالمثل، وهو العبد المملوك لشركاء مختلفين والعبد المملوك لواحد هل يستويان، فالإيمان بالله الواحد مريح للإنسان أم لا؟ بالطبع نعم مريح للإنسان، ويأتي الحق سبحانه فيقول: سأضرب لكم مثلًا من أنفسكم، لماذا تجعلون لي شركاء؟ سأطلب منكم أن

تعاملوني كما تعاملون أنفسكم، هل مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم، فأنتم فيه سواء؟ أعطيت لبعضكم رزقًا وله مملوكون باليمين، فهل يأخذ ما أعطيته ويوزعه على العبيد، وهو لا يعمل ذلك مع عبيده فكيف يعمل هذا معي.

ومثل آخر في الصفة: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ [النور: ٣٥]، فنوره سبحانه غامض علي ويريد أن يوضحه لي، هل تعرف الطاقة هي فتحة كفتحة الشباك ولكنها مسدودة، وفي الريف يضعون فيها المصباح، فالمشكاة ضيقة وفيها المصباح وهي حيز ضيق، فإذا وضع المصباح في حيز ضيق، أصبح نوره أشد وأشمل، وهذا المصباح غير عادي؛ لأنه في زجاجة، والزجاجة حجزت الهواء وصفت النور وعكست الأشعة، والزجاجة ليست عادية فهي في صفائها ونقائها مثل الكوكب الدري، أي: هي مضيئة بذاتها والمصباح يوقد من زيت الزيتون، والزيتون معتدل المزاج، فلا هو شرقي ولا غربي بل يأخذ حد الوسط، فألوان الطيف التي يحتوي عليها الضوء سبعة، ثلاثة عن اليمين وثلاثة عن الشمال وواحد في الوسط وهو الأخضر وهو الذي منه أشعة ليزر.

هذا هو مثل النور وليس هو النور، أيوجد في الحيز الضيق مع هذه المواصفات في المصباح، من أنه في مشكاة، وفي زجاجة من كون الزجاجة ككوكب دري وأنه يوقد بزيت لا شرقي ولا غربي، أيطلق في الحيز الضيق؟ كذلك نور الله في السماوات والأرض، تضيق السماوات والأرض عنه كما تضيق المشكاة بذلك المصباح، هذا مثل نور الله وليس هو نور الله.

هذا والأمثال وعاء حكمة الأمم وخزائن تجاربها، ووسيلة من أهم وسائل حفظ تلك التجارب والحكم وتناقلها بين الأجيال، وهي قبل ذلك وبعده من أدق أساليب التعبير، وأوجزها وأبلغها تأثيرًا في النفوس، وحين تقصر أساليب التعبير الأخرى عن استيعاب مراد المتكلم، أو يضيق إدراك المخاطب عن فهم المراد منه، فإن ضرب المثل يجعل ذلك كله سهلًا ميسرًا، مع إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه، ولذلك اعتبرت العرب الأمثال جزءًا من أهم أجزاء ديوانها تعود إليها تستنطقها، لتستفيد منها تاريخ أحداث ووقائع وسير وأشخاص، وغير ذلك من مكنون الحكم وصميم الفوائد التي اشتملت الأمثال عليها.

ولقد تناول الأمثال وكتب فيها الجهابذة من الأدباء والحكماء والبلاغيين، واللغويين والمفسرين من شتى المدارس، وفي مختلف العصور، فكتب فيها الأصمعي وأبو زيد وأبو عبيدة، والنضر بن شميل والمفضل الضبي وابن الأعرابي وأبو القاسم عبيد بن سلام من المتقدمين، وعدد لا يحصى من الذين جاؤوا بعدهم، ولا تزال الأمثال موضع اهتمام الكثير من أهل العلم والأدب حتى يومنا هذا، أما أمثال القرآن العظيم فهي مظهر من أهم مظاهر بلاغته، وإعجازه ودقة تصويره الفني وسحر أسلوبه، فهي قد سحرت العرب مؤمنهم وكافرهم، وبانت حلاوتها وظهرت طلاوتها لعامتهم وخاصتهم، وبان تأثيرها فيهم أجمعين.

والأمثال القرآنية تمثل علمًا من علوم القرآن الهامة، وبحثًا لم يغفله أحد من المفسرين أو البلاغيين أو الكاتبين في علوم القرآن، ولكنهم قل أن يتناولوها بشكل شمولي، يبرز صور الإعجاز الجمالي الفني فيها مع إصابة المعنى الموضوعي بأتم شكل وأكمل وجه، وبعض أمثال القرآن تجسد النموذج

وتشخصه، حتى لا نكاد ننظر إليه ماثلًا شخصًا وعملًا وسلوكًا وأخلاقًا وتصرفات، فتشهد أقبح إنسان وأسوء عمل وأردئ سلوك يصدر عن إنسان، وأسوء مصير يمكن أن يصير إليه، فلا تملك إلا أن تفر بنفسك وبدينك من مشابهته ومماثلته بأي شيء من الأشياء، واقرأ إن شئت ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

وعلى العكس من ذلك ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١]، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥- ١٧٧]، إنه مثل يضربه الله تعالى للانحراف عن سواء الفطرة ونقض العهد مع الله تعالى، والنكوص عن آياته بعد العلم بها وفهمها، ولكنه مع علمه وفهمه ينسلخ عن آيات الله التي كانت تحيط به كثوبه.

هذا وعلى الجملة فإن ضرب الأمثال في الكلام، له من حسن الأثر ما يجلي غامضه ويوضح مبهمه ويدني نافره ويقرب بعيده، ويحل مشكله ويقرب معناه إلى الأفهام، ويجعله من المدارك والعقول على طرف التمام، ويضاعف قوته في تحريك النفوس وتوجيه القلوب وامتلاك الأفئدة، والسيطرة على المشاعر

واستمالة الأسماع واسترعاء الأبصار، حتى كأن الكلام لا تتم فائدته إلا به، ولا يأخذ سبيله إلى العقول إلا بعون منه، وقد جاء القرآن الكريم وهو أسمى مثال للبيان العربي، على مناهج العرب في أساليب كلامها ومناحي بلاغتها، ومألوف عادتها في ضرب الأمثال، فإذا تدبرت آياته الحكيمة ألفيته يأتي في أعقاب الكلام، بأمثال رائعة حكيمة تذخر بالحكم والأسرار، وتجري في نفس التالي أو السامع شوطًا بعيدًا، وتترك فيها أثرًا بليغًا.

تابع: ضرب الأمثال

عناصر الدرس

العنصر الأول : الأمثال في القرآن الكريم كوسيلة من وسائل الدعوة ٢٩٩

العنصر الثاني : الأمثال في: السنة، ولغة العرب، وتراثنا الإسلامي ٣١٥

الأمثال في القرآن الكريم كوسيلة من وسائل الدعوة

ساق القرآن الكريم أمثاله لتكون أحد أساليبه في إبلاغ الدعوة؛ ولذلك نراها تشتمل على الخصائص التالية:

أولًا: لا تترك الداعية وحده أمام معارضيه المعاندين، بل تمده بسلاح الصبر والتحمل، وتعرفه أن الابتلاء ليس مقصورًا عليه وحده، إن المؤمنين السابقين أوذوا في سبيل عقيدتهم، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم ونزل بساحتهم كثير من العناء والتعب والجهد والمشقة فما زادهم ذلك إلا إيمانًا فوق إيمانهم وتسليمًا بسلامة جهادهم وعملهم، يقول الله - تعالى- : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فهذه الآية تذكر مثلًا من شأنه أن يقوي الإرادة ويجعل المؤمن يتحمل المعاناة من أجل مبادئه، فما البلاء إلا ابتلاء نهايته فوز محقق ونصر أكيد، يقول أبو السعود: خُوطِب بهذه الآية رسول الله ﷺ والمؤمنون معه حثًّا لهم على الثبات والمثابرة على مخالفة الكافرين، وتحمل المشاق من جهتهم إثر ذكر ما لقي الأنبياء ومن معهم من مكابدة الشدائد، ومقاساة الهموم وكانت عاقبة أمرهم النصر، وحتى يملك الداعية ثقة بنفسه أمام المظاهر المادية التي يملكها المعارضون وفيها الجاه والمال والمظهر ضرب الله مثلًا للمؤمن ومثلًا للكافر يبين به ميزة المؤمن وأفضليته على الكافر؛ فقال - تعالى- : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، فهذا مثل ضربه الله للمشرك حيث شبهه بالعبد يتولى أمره شركاء متنازعون

متغالبون لكل منهم رغبة، واتجاه مما يجعل العبد في حيرة وضلال، وضربه كذلك للمؤمن الموحد بالرجل الذي يلي أمره شخص واحد فقط، فلا منازعة ولا مغالبة مما يحقق للعبد المؤمن الاستقرار والهدوء.

يقول الرازي: فهو مثل ضُرِبَ في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد، وهكذا يحمل المثل المؤمن في وضعيته في هذا الوجود؛ فلا يتألم إن تعالى أمامه كافر معاند ويثق في النصر الإلهي له، والداعية من المؤمنين يكتسب منهم الصبر والتحمل واليقين.

ثانيًا: تبصر بالدعوة وتوضح أساسياتها وتعطي الداعية مبادئها لكي يعمل على هدي بها، وأول هذه الأساسيات معرفة الله - تعالى- والإيمان به عن اقتناع كامل ويقين دقيق، وفي هذه النقطة يضرب القرآن الكريم الأمثال له موضحًا الأدلة السليمة لوجود الإله الحق ﷻ، وهادمًا للآلهة المزعومة المتعددة، وهذا مثل يبين الله فيه أن الإله المدعاة لا تستحق أن تكون آلهة؛ لأنها ضعيفة لا تخلق شيئًا ما حتى ولو كان ضعيفًا، ولا تستطيع أن ترد عن نفسها إيذاءً ولو من ضعيف، هذا المثل يذكره الله في قوله - تعالى- : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، ولقد بيّن هذا المثل ضعف الشركاء ومهانة سائل الآلهة المدعاة وعجزها بصورة حية شاخصة أمام البصر والبصيرة؛ وذلك بأن صدر المثل بالنداء فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فإذا ما اجتمع الناس بالنداء أخبرهم أنهم أمام مثل ضرب؛ ليضع قاعدة ويقرر حقيقة يجب أن يستمع الناس إليها وأن يتدبروا فيها؛ وهي أن الآلهة

الكاذبة رغم تعددها وتنوعها؛ من صنم ووثن وأشخاص وكواكب وغيرها، هذه الآلهة جميعًا لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، وإيجاد الذباب كإيجاد غيره من المخلوقات الكبيرة الحجم؛ لأنها جميعًا تحتوي على الروح سر الحياة، ولكن القرآن الكريم اختار الذباب حين ضرب هذا المثل؛ لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس صورة الضعف بينة أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل مثلًا.

ثم يعطينا المثل واقعًا واضحًا عن الضعف المزري لهذه الآلهة، حين يذكر أن الآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها منها.

وفي مثل آخر يبين حقيقة الإله الذي يستحق التعظيم والعبادة، ويضربه حين ذِكره لمثل رجلين في سورة "الكهف"، حيث جعل الله - تعالى- لأحد الرجلين جنتين من أعناب محفوفة بالنخيل، وبينهما زروع ونبات وأنهار، ولكن هذا الرجل يغتر ويكفر بأنعم الله ويقول ما حكاه الله عنه: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥]، وأعلن كفره صراحة بقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، هذا الوضع الغريب دفع صاحبه أن يخطئه في اتجاهه ويشرح له أدلة الألوهية في خلقه ويستنكر كفره وبعده عن الإيمان؛ فيقول له: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف: ٣٧- ٣٩]، وهكذا يستمر المثل في روايته حوار الرجلين، وفي النهاية يبين النتيجة الحتمية التي وجدها الكافر، وكانت كما قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]، وهكذا هلك ماله وضاعت كل ثروته، فأخذ في الندم ولات ساعة مندم.

وهذا المثل يبين دليل القدرة فيما خلق الله من إنسانٍ وحياةٍ، وكذلك في إهلاك لمن يريد إهلاكه، ويبين أيضًا دليل الكمال حيث إن المخلوقات كلها يوجدها الله كاملة، فالجنتان كانتا مثلين رائعين في الكمال والجمال حيث الزرع والنخيل والأنهار والثمار، تبين كذلك دليل الغاية أن كل مخلوق له غاية؛ فالجنتان أتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا، والرجل كما قال الله: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾، وهكذا يبين المثل كافة الأدلة القرآنية الدافعة إلى ضرورة الإيمان بالله أول أسس الدعوة.

ومع وضوح الأدلة نجد أقوامًا يعيشون النعم ويسمونها، ثم يهملون الإيمان بالله، وهنا نجد المثل يكشف حقيقة هؤلاء الناس وما لهم فيقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فالكافرون بسبب تعطيلهم للحواس مثلهم كمثل الأنعام بل الأنعام أفضل؛ بسبب أن الأنعام كما يقول أبو السعود: تدرك ما من شأنها أن تدركه من المنافع والمضار؛ فتجتهد في جلبها وسلبها غاية جهدها مع كونها بمعزل عن الخلود، وهؤلاء ليسوا كذلك حيث لا يميزون بين المنافع والمضار بل يعكسون الأمر؛ فيتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد، ولذلك لا يستفيدون من الأدلة مهما تعددت أمامهم مغالاة في اعتقادهم وإلغاء لكل ما يسمعون.

وذلك كالنصارى الذين أدعوا أن عيسى # لا يناظره شخص آخر لكونه وجد من غير أب، وبالغوا في هذا الإنكار حتى أنكروا نبوة محمد ﷺ، وتمسكوا بنبوة عيسى ووصلوا به إلى الألوهية فرد الله عليهم بقوله - تعالى- : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]

يصور المثل ردًّا مفحمًا عليهم، يقول ابن كثير: يذكر الله ﷻ أن مثل عيسى في قدرة الله حيث خلقه من غير أب كمثل آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم، بل خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون، فالذي خلق آدم من غير أب ولا أم قادر على أن يخلق عيسى بطريق أولى؛ لأن له أم.

ومعلوم بالاتفاق أن دعواهم في ألوهية عيسى # أشد بطلانًا، وأظهر فسادًا عند ذوي الألباب، إن إفحام النصارى في قولهم بألوهية المسيح يثبت الرسالة المحمدية؛ لأن القوم لو اعترفوا ببشرية عيسى # ، وهو رسول لسلموا بإثبات الرسالة للبشر، وتوقعوها من أي شخص معه المعجزة الدالة على صدق رسالته، وقد جاءهم محمد ﷺ بمعجزات عديدة على رأسها القرآن الكريم؛ ولذا كان العلماء يثبتون رسالة محمد ﷺ مع النصارى بالتدليل أولًا على أن المسيح بشرًا وليس إلهًا قط.

يقول الرازي: اتفق لي حيث كنت بخوارزم أن أُخبرت أنه جاء نصراني يدعي التحقيق والتعمق في مذهبهم، فذهبت إليه وشرعنا في الحديث فقال لي: ما الدليل على نبوة محمد ﷺ؟ فقلت له: أظهر الخوارق على يديه كظهورها على يدي موسى وعيسى - عليهما السلام- ؛ لأن الاستواء في الدليل يقتضي الاستواء في المدلول، فقال النصراني: إن عيسى ما كان نبيًّا إنه كان إلهًا، فقلت له: الكلام في النبوة لا بد وأن يكون مسبوقًا بمعرفة الإله، فمن هو النبي الذي عرفكم بألوهية عيسى؟ وأخذ الرازي يبين له بطلان قوله في ألوهية عيسى ويثبت بشريته؛ لأن إثبات بشرية عيسى # مقدمة لإثبات نبوة محمد ﷺ.

ويبين المثل أسباب تكذيب الناس للرسل، ويرد عليهم حيث يقول تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: ١٣- ١٧]، فيبين المثل سبب الكفر ويذكر أنه منحصر في كون الرسل بشرًا، لكن الرسل يردون بأن الكافرين مع إيمانهم بالرحمن إلا أنهم يكذبون بما أرسل الرحمن، ولو نظروا في البلاغ البين الواضح لعلموا أنه لا يكون إلا من الرحمن ﷻ، وليس على الرسل إلا هذا البلاغ فلما يكفرون إذًا.

وأيضًا يثبت المثل قضية البعث، فيقول تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وهذا المثل ساقه الله تعالى لمن ينكر البعث، كذلك الرجل الذي استبعده، وقال عن القرية الخاوية مستنكرًا: كيف يحيي هذه الله بعد موتها؟ وكان المثل الشاهد في نفسه حيث أماته الله مائة عام وحماره معه ثم بعثهما من جديد بعد المائة، فوجد الرجل طعامه كحاله يوم شرائه، فلما رأى ذلك آمن بالبعث وقال: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يعلق الحكيم الترمذي على هذا المثل فيقول: أمر الله هذا الذي تحيرت نفسه أن ينظر إلى حماره كيف أحياه فأراه بما حضره ما غاب عنه.

ثالثًا: تبصر بالمدعوين وتعرف بهم وبالدنيا التي يعيشونها؛ وذلك لكي تساهم مع بقية الأساليب في تبصير الداعية بالجو العام الذي يدعو فيه؛ فيتصرف في رسالته على ضوء ما يرى لذلك يساهم المثل في البيان والبصيرة، ومن هذه المساهمة توضيحه لما يلي:

الجدل طبيعة إنسانية فالإنسان جدلي بطبعه ودائمًا يثير المحاورة والمناقشة حول كل ما يعرض له، ولقد جادل الأقوام رسلهم، وما آمنوا إلا بعد حوار طويل وجدلًا كثير، والجدل في الإنسان حقيقة بينها الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، وهكذا جادل الإنسان رغم كثرة الآيات وشمولها ووضوحها وملاءمتها للطبيعة البشرية؛ لأنها جاءت مناسبة لسائر الناس، ولو ترك الإنسان بحريته لآمن وصدق، هذه الحقيقة عن الإنسان يبينها المثل في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧، ٥٨].

يذكر أبو السعود في هذا المقام مثل ابن مريم ضربه ابن الزبعري على ما ورد في بعض الروايات، حين جادل رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال: "أهذا لنا ولآلهتنا أو لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: ((هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم))، فقال اللعين: خاصمتك ورب الكعبة؛ أليس النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيرًا، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فإن كانوا هؤلاء في النار قد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرح به قومه وضحكوا وثبتوا على ما كانوا عليه من الإعراض، وقالوا: إن عيسى خير من آلهتنا، فإن كان هو في النار وحاشاه، فلا بأس أن نكون مع آلهتنا فيها".

ولكن هذا القول كله جدل ومخاصمة لا يهدف الحق في الشيء؛ لأنهم قوم أشداء في الخصوم مجبولون على اللجاج كشأن الإنسان في كل حياته يقول تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

فرغم أن الله خلقه من نطفة إلا أنه سرعان ما ينسى الفضل، ويخاصم ربه بجدل باطل كعادته المستمرة المستقرة في طبيعته وغريزته، كذلك المثل يبين ضآلة الدنيا، فالدنيا فترة امتحان للبشر والآخرة بعدها دار قرار، ونتيجة أعمال الدنيا تظهر في الآخرة، ومن هنا كان على الإنسان أن يقدر هذا الواقع، ويقصر سعيه كله على أن يحافظ على سعادة الآخرة و أمنها، لكنه كثير ما يفتن بمباهج الدنيا ويغتر بسيطرته عليها ويكفر بالله ونعمه، وينسى أن تملك الدنيا آية إلهية تدفع إلى الإيمان بدل الكفر، وتحيل على الواقعية بدل الضرر، إن على الإنسان أن يعمل للآخرة ويأخذ نصيبه من الدنيا، وبهذا فقط يكون على الطريق المستقيم؛ لأن الدنيا قصيرة العمر قليلة النفع، والآخرة خير وأبقى.

ولو أحس الناس يقينًا حقيقة الدنيا لآمنوا بالله وبسائر تعاليم الله، ولذلك يبين الرسل للناس حقيقة الدنيا، وقد وضحتها الدعوة للناس أيما وضوح بكافة الوسائل، فجاءت أمثلة كثيرة توضح شأن الدنيا ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، فقد ضرب الله للدنيا مثلًا بالمطر ينزل فيختلط بالنبات، فتتزين الأرض بألوان بهجة كالعروس، وهنا يغتر الإنسان صاحب هذه الأرض بجمالها وزخرفها، ولا يذكر سواها إلا أنه فجأة تأتي نقمة عظيمة دفعة واحدة في ليل أو نهار تهلك الزرع والثمار، وهنا يتحسر المالك ويشتد حزنه.

يقول الرازي: فكذلك من وضع قلبه على لذات الدنيا وطيباتها، فإذا فاتته تلك الأشياء يعظم حزنه وتلهفه عليها، وهذا المثل ضربه الله ليبين سرعة زوال الدنيا حتى لا يطمئن أحدًا إليها كما هو الواجب، ويبقى عامل للآخرة التي هي دار القرار الحقيقي، ومن هنا كانت معرفة هذه الحقيقة عن الدنيا من أساسيات النجاح للداعي والمدعوين.

رابعًا: موعظة حسنة؛ لأنها تثير الانفعال وتخاطب الوجدان وتصور المعقول بالمحسوس، وتغري على الخير وتبعد عن الشر، يقول الشيخ محمد عبده: ويأتي المثل عند إرادة التأثير وقصد الانفعال، ويلجأ هذا الأسلوب إلى الممثل به الواضح المعروف سلفًا ليجعله دليلًا للممثل له، وبذلك فهو إقناعي تلمح فيه المناصحة والإرشاد والدليل.

يقول الإمام السيوطي نقلًا عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام: إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيرًا ووعظًا، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب أو على إحباط عمل أو على مدح أو نحوه فإنه يدل على الإحكام، وهكذا يشتمل المثل على التذكير والوعظ ونتيجة العمل والمدح والذم مما يجعله موعظة حسنة.

وأخيرًا يأتي المثل على قدر الطاقة البشرية من أجل أن يستنزل المعاني الصعبة، ويجعلها في متناول العقل الإنساني، وذلك في بيان معجز وترتيب عجيب.

فنية المثل في إبلاغ الدعوة؛ جاء المثل في القرآن الكريم ليقوم بدوره كما أراد الله له كأحد أساليب الدعوة؛ لذلك اشتمل على عدد من الخصائص ومنها ما يلي:

الدقة والواقعية: فالناظر في المثل القرآني يلحظ دقته الفريدة المؤثرة، فهو دائمًا لا يمثل بالغريب، وإنما يتخير من المحسوسات الموجودة ويجليها بأوصافها ويضعها في

المثال شاهدة واضحة على ما يريد ذكره وبيانه، وفي الممثل به لا يضع وصفًا زائدًا أو خياليًّا لتكون صورته صادقة ملموسة.

ومن ذلك قول الله - تعالى- : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، حيث يضرب الله هذا المثل ليبين أن قدرة الله هي القدرة وما عداها من قوة فهو هزيل ولا اعتبار له، والذي يتعلق بقوة غير قدرة الله - تعالى- ، فهو كالعنكبوت التي تتعلق بالواهي والضعيف؛ حيث تتخذ لنفسها بيتًا ضعيفًا واهيًا، بل هو أضعف البيوت على الإطلاق والكل يعرف ذلك أنى كان؛ لأن العنكبوت توجد في كل مكان تنسج بيتها فيه؛ لذلك ضرب الله هذا المثل وكله دقة وواقعية؛ لأن ضعف العنكبوت وبيته لا ينكر، كما أن وجوده معروف للجميع.

ومن علامة الدقة في الأمثلة القرآنية أنه حينما يضرب المثل بصورة غير موجودة بالفعل تجده يأتي بها صورة يمكن أن توجد حقيقة؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، فقد ضرب الله لليهود الذين كلفوا العمل بما في التوراة فأهملوها مثلًا بالحمار؛ يحمل الكتب الضخمة النفيسة المليئة بالعلم ولا يستفيدوا منها، هذا المثل موجود، وإن لم توجد صورته في الواقع فهي ممكنة الوجود.

ومن هذه الدقة قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٦١]، إذ إنه لا يوجد من يمنع وجود هذه السنابل بحباتها الكثيرة الناتجة من الحبة الواحدة على النحو المذكور، ولكي تكون هذه الواقعية أكبر في الدقة نجد المثل يذكر من

الأوصاف والقيود ما يجعله مستساغًا سهلًا، فيبين كيف تتحول الحبة الواحدة إلى مئات من الحب؛ وذلك لأنها تزرع فتنبت سبع سنابل وفي السنبلة الواحد مائة حبة، وهذا ممكن مشاهد.

ومع واقعية المثل نرى دقة وجه الشبه فيما ضرب المثل له ووضوحه فيه أكثر من اتضاحه في الممثل به؛ لأن القصد من التمثيل القرآني هو الممثل له وحده، كقوله - تعالى- : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩]. فهذا العبد المملوك لعدد من الرجال المتنازعين هو مثل الكافر المشرك الذي يعبد آلهة عددًا، وهو بشركائه واقع في حيرة في عقيدته وعبادته ومناسكه، واضطرابه أشد من اضطراب العبد المملوك المضروب به المثل؛ لأن العبد يطيع من يأمره أيًّا كان، أما المشرك فإنه خاضع لباطل معطل للإرادة مضيع للعقل بلا معنى معين أو مفهوم محدد، وهكذا الشأن في المثل المضروب للمؤمن؛ لأن إيمانه بالله الواحد يعطيه ثقة وإيمانًا ورضا كالعبد المملوك لرجل واحد مع وضوح الممثل به؛ لأن الثقة في المؤمن أعمق وأشمل، حيث تدور مع الظاهر والباطن وسائر عمله.

وهكذا يتضح وجه الشبه فيما ضرب المثل له، وهي ميزة مع الدقة تجعل المدعو يرى الصورة توًّا وفي بيان، والمثل القرآني يترك المخاطب بعد الدقة والوضوح يستنتج وجه الشبه شحذًا لعقله ومشاركة في العمل، وهذا من شأنه أن يدفع إلى الإيمان بحماس واقتناع.

كما أنه يضرب المثل أحيانًا ويترك بعض جوانبه عمدًا لكي يفكر المستمع فيها؛ وذلك كقوله - تعالى- : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ

ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، حيث شبه أعمال الكافرين برماد طيرته رياح شديدة، وفي يوم القيامة لا يجد الكافر أثر لعمله، والمثل يذكر أنه لا أثر لعمل الكافر بينما الواقع أن له عقوبات كثيرة تركها المثل لكي يجتهد المستمع في تفحصها واستنتاجها.

وقد جاء الاستفهام عقب بعض الأمثال لهذا الهدف يقول الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٢٤]، والمثل مضروب للمؤمنين والكافرين، فالمؤمن بصير سميع والكافر أعمى وأصم، وبعد ضرب المثل أتى الاستفهام: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ ، هو استفهام إنكاري ينفي ما استفهم عنه ويثبت أن الفريقين لا يستويان أبدًا، هذا المنهج في النفي والإثبات أفضل من النفي ابتداءً.

وهكذا تتضح بعض دقة المثل في صدق جوانبه ووضوح وجه الشبه في مضربه، واشتراكه مع عقل المخاطب في استنتاج بعض أهدافه، وهذا يؤثر في الإنسان حيث يجذب الانتباه إليه ويجعله يربط بين الممثل به وله، ويستنتج من خفايا المثل الكثير، كلها مفيدة للدعوة ولأهدافها.

ومن خصائص الأهداف القرآنية التأثير النفسي، تستمد الأمثال القرآنية عناصرها من الطبيعة الإنسانية والكونية؛ لتظل قريبة من الإنسان أيًّا كان؛ تعيش معه تؤثر فيه، ومن هنا فإن روعة التصوير التي بدت فيها ضرورية لها، وحتى يؤدي المثل دوره التأثيري تمامًا رأيناه يعيش مع الحياة الكونية يقتبس منها صوره، فمن نباتها نرى الحبة تنبت سبع سنابل، ونرى الشجرة الطيبة والخبيثة والزرع الذي أخرج شطأه، ومن الحيوانات نرى الحمار والكلب، ومن الحشرات نرى البعوض والعنكبوت، ومن الطيور نرى الهدهد، ومن الجماد نرى الرماد الصلد والجبل،

إنما كان الأمر كذلك ؛ لأن القرآن الكريم لا يقصد الاهتمام بالمثل به بقدر ما يهتم من اقتراب الصورة في نفس المدعو مع شدة وضوحها وتأثيرها.

هذا وإن بدا في بعض الأمثال أنها غير مستمدة من الكون، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥]، فإنها لا تبعد عن الطبيعة كثيرًا؛ لأن هذا المصباح ملازم لكل الناس حيث لا يستغني عنه أحد، ووقود المصباح زيت وغلافه زجاج؛ ولأن الهدف هو التأثير النفسي نرى المثل القرآني، حينما يقصد تحقير الشيء يضرب له المثل الذي يثير في النفس اشمئزازًا ونفره كقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

يقول صاحب (المنار): واللهث التنفس الشديد مع إخراج اللسان ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو العطش، أما الكلب فيلهث في كل حال، وهذا الرجل صفته كصفة الكلب في حالته هذه وهي أخس أحواله وأقبحها.

والمراد أنه كان من إخلاده للأرض واتباعه هواه في أسوأ حال تراه لاهث من الإعياء والتعب، وإن كان ما يعنون به ويحملون همه حقير لا يتعب ولا يغني ولا تراه راضيًا بما أصابه، بل يزداد طمعًا وتعبًا.

وهكذا يحقر المثل هذا الرجل بأن يمثله بالكلب في أسوأ حالاته، وهذا يؤثر في نفس المستمع تأثيرًا يجعله يبعد عن صورة هذا الكافر ويفتح ذهنه للآيات

والأدلة، وحينما يكون الهدف هو تعظيم ما ضُرب المثل له نجد القرآن الكريم يحيط المثل بما يحقق هذه العظمة فيه، كقوله - تعالى- : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

فيمثل الكلمة الطيبة عمت أو خصت بشجرة رائعة عظيمة؛ لأنها عالية مثمرة منتظمة الثمر مطيعة لربها لا يصيبها ضرر الرياح ولا تهدمها معاول الطغاة، وما دام هذا شأن الكلمة فإن على الإنسان أن يتمسك بها.

ومن أمثلة القرآن ما فيه ترغيب وترهيب، فيهدف المثل إلى التأثير في المدعوين عن طريق ترغيبهم في الخير والثواب وترهيبهم من الشر والعقاب؛ لأنهم بذلك ينفعلون وجدانيًّا ويندفعون إلى الإيمان بالدعوة وتطبيق تعاليمها، ويلجأ المثل إلى الترغيب والترهيب عن طريق استعراضه لطوائف الناس تجاه الدعوة وبيان ما لكل طائفة، وهذا منهج عملي يجعل المستمع يتمنى أن يكون مع الطائفة الناجية ويبتعد عن الطائفة الخاسرة.

إن طوائف الناس تجاه الدعوة ثلاث؛ فمنهم المؤمن ومنهم الكافر ومنهم المنافق، هذه الطوائف يضع المثل لها ما يجليها ويبين قيمتها وقيمة عملها، فيقول - تعالى- : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وهكذا مثل القرآن هؤلاء الكافرين المقلدين بالبهائم التي تسمع صيحات راعيها، ولا تفهم منه شيئًا ولا تعقل أمرًا ولا نهيًا، وهذا الكافر لا أثر لكل نشاطه الدنيوي ونفقته هباء يقول تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ

رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وهذا المثل يشبه ما أنفقوا في ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعودوا عليهم منهم نفع ما بحرث كفار ضربته ريح استأصله، ولم يبق لهم فيها منفعة ما بوجه من الوجوه وسائر عملهم ضياع، يقول تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾، والمراد من المثل تشبيه أعمال الكفار في ضياعه بالرماد الناعم الدقيق، الذي لا يقوى على البقاء أمام الرياح الشديدة العاصفة.

ومشهد الرماد يشتد به هذا الريح في يوم شديد العصف يجسم في السياق معنى ضياع الأعمال، بحيث لا يقدر أحدًا من أصحابه على الاستمساك بشيء منها ولا الانتفاع بها، هذا المشهد ينطوي على حقيقة ذاتية في أعمال الكفار؛ لأنها لا تقوم على قاعدة إيمانية، ولذلك فهي مفككة كالرماد لا قوام لها ولا نظام ولا أثر.

وعن المنافقين يقول الله - تعالى-: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧]، هو مثل يوضح حقيقة المنافق وأنه يعيش بين الإيمان ظاهرًا إلا أنه صنع بنفاقه حجاب بينه وبين نور الهدى، وعملهم ضائع كالكافرين؛ لأنهم في رأي الإسلام أسوأ وضع منهم.

وعن المؤمنين قال - تعالى-: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١]، وهو مثل يبين حقيقة المؤمن وأنه لا تغره مظاهر الحياة الدنيا يذكروا الله فكرًا وقولًا وعملًا انتظارًا للفوز في الآخرة، ويعتمد على الله في حاجاته ومطالبه، فامرأة فرعون المؤمنة في بيت ملك وغنى وقوة، ومع ذلك أهملت هذه المظاهر الدنيوية واتجهت إلى الله داعية أن يكون لها

بيت في الجنة، وأن ينجيها من فرعون وطغيانه وحاشيته، وعمل المؤمن؛ لأن عيشه شريف وغايته دينية يبارك الله فيه ويزيده فائدة وأثر.

ومن الترغيب والترهيب بالمثل أن أخذ القرآن في وصف الجنة وصفًا شيقًا يبرز محاسنها، فيقول - تعالى- : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول - تعالى- : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

وهكذا يبرز المثل الجنة في صورة حسنة جميلة نافعة حيث الأنهار والظلال والثمرة والماء واللبن والخمر والعسل، وكله كثير لا يتغير له طعم أو مذاق، كله معد للمتقين الذين يطيعون الله ويخافونه ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ﴾، أما الكافرون فلا يتمتعون بشيء من هذا، وعاقبتهم وخيمة مؤلمة جزاء عصيانهم، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، وترسم هذه الآية مشهدًا مثيرًا ومؤثرًا ذلك؛ لأن أعمال الكافرين كسراب يلمع في أرض واسعة خالية فيتبعه صاحبه الظامئ وهو يتوقع الري، وفجأة نرى صورة عجيبة؛ فهذا السائر الظمآن يصل إلى ما ظنه ماءً فلا يجده ماء، وإنما يجد آثار قدرة الله الذي كفر به ينتظره هناك كانتظاره له يوم القيامة؛ ليحاسبه على كفره وجحوده والله سريع الحساب ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

وهكذا يحقق المثل القرآن دوره بواقعيته وتأثيره.

والأمثال في القرآن الكريم كثيرة وكثيرة جدًّا تكتب فيها كتب، وتؤلف فيها رسائل، وقد ألفت فيها رسائل من قبل ذلك.

الأمثال في: السنة، ولغة العرب، وتراثنا الإسلامي

ومن القرآن إلى السنة، نجد النبي ﷺ استخدم ضرب الأمثال في بيان الحقائق لأصحابه يقرب الأشياء الغريبة، والمعنوية بأشياء قريبة أو محسوسة، فيقول ﷺ: ((مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكر الله كمثل الحي والميت))، كذلك نجد النبي ﷺ يضرب المثل للمؤمن بالنخلة فيقول: ((إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المؤمن))، فمثل النبي ﷺ المؤمن بالنخلة؛ لأنها نافعة كلها، وكذلك ينبغي أن يكون شأن المؤمن في أنه يكون نافعًا لنفسه ولإخوانه ولأمته.

وهكذا نجد الكثير أيضًا في سنة النبي ﷺ من ضرب الأمثلة، التي ينبغي أن يستفيد الداعية منها في دعوته، ويثري بها مادته العلمية وخطبته وتوجيهه للناس وتقريب المعاني.

وإن الأمثال كما هي في القرآن والسنة كذلك نجدها في لغة العرب، وفي تراثنا الإسلامي، فالأمثال هي الأقوال التي لم يرد قائلوها أن تكون أمثالًا، لكنها لطرافتها وإصابتها شاكلت الحق فأعجبت الناس فأجروها على ألسنتهم، وجعلوها أمثلة تدور على ألسنة الناس في أحاديثهم وفي خطبهم، وذلك مثل قولهم: "سبق السيف العذل"، "وإن غدًا لناظره قريب"، "وإن العصا من العصية" "ووافق شن طبقة"، وهكذا.

ومن الأمثال ما أراد قائلوها أن تكون أمثالًا؛ ليشبهوا بها حالًا بحال وصفة بصفة لتضفي على كلامهم حللًا من الوضوح والبيان، وإيرادها يسمى بالتمثيل، وأمثال القرآن كلها من هذا النوع الأخير ضربها الله للناس لعلهم يتفكرون.

ولدقة مسالك الأمثال القرآنية ولطف مآخذها، وعمق أسرارها لا يعقلها ولا يغوص على دررها، إلا العلماء الراسخون الذي يقفون على حقائق الأشياء ويحيطون بدقائقها خبرًا؛ ولذلك يقول الله - تعالى- : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

هذا، وتوسيع الكلام بالأمثال مما يزيده نصوعًا ووضوحًا وبيانًا، ويخلع عليه حلة من الروعة والجلالة ويجعله إلى الأذهان أسرع وبالقلوب أوسط وبالنفوس أعلق، وحسب الكاتب أو الخطيب أو المتكلم أن يرصع قوله بمثل من الأمثال يتجلى فيه الحسن كاملًا والبيان رائعًا والجلال غير منقوص، فيأخذ بمجامع القلوب ويملك الأسماع ويختلب الألباب.

ومن الأمثال أيضًا: "إياك أعني واسمعي يا جاره"، "أخو الظلماء أعشى بليل"، "إنك لا تسعى برجل من أبي"، "إن الشقي ينتحى له الشقي"، "إذا تلاحت الخصوم تسافهت الحلوم"، "إن غدًا لناظره قريب"، "بعض الشر أهون من بعض"، "بنان كف ليس فيها ساعد"، "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها"، "أختي أخنى عليها الذي أخنى على لبد"، "رب رمية بغير رامٍ"، "رب ساعد لقاعد"، "رب أخٍ لك لم تلده أمك"، "رب ملوم لا ذنب له"، وغيرها كثير من أمثال العرب مما يماثلها وجرى مجراها، وإنها لحكم ينبغي أن تعرف وألا يستغنى عنها.

ومن الأمثال ما كان من أيام الجاهلية كقولهم: "إلا لم يكن وفاق ففراق"، و"أول الحزم المشورة"، و"إن من الحسن لشقوة"، "أم الجمال لا تفرح ولا تحزن"، و"خير سلاح المرء ما قواه"، "رب ساع لقاعد" وهكذا.

كما تضمن القرآن الكريم كثيرًا من هذه الأمثال التي جاءت مجملة بليغة من أبلغ الحكم قوله - تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، وغيرها مما سماها العرب أمثال سائرة أو كامنة أو جارية مجرى الأمثال السائرة، وأكثروا مما أوردوه منها في كتبهم.

وهكذا نجد أنفسنا أمام أنواع من الأمثال لا يستغني عنها الداعي بحال، ولا بد وأن يتوج بها دعوته وأن يجعلها مهمة في أداء رسالته.

الأسلوب القصصي وأهميته في الدعوة إلى الله

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول :	مفهوم القصة في القرآن والسنة	٣٢١
العنـــصر الثـــاني :	أهمية القصة في الدعوة إلى الله -عز وجل	٣٢٣

مفهـــوم القـــصة في القـــرآن والـــسنة

فحديثي إليك في هذه المرة - بإذن الله تعالى- عن الأسلوب القصصي يدور في فلك مفهوم القصة، وأهميتها في الدعوة إلى الله، ونماذج من قصص القرآن الكريم، والسنة المطهرة، والتراث الإسلامي.

فبادئ ذي بدء نذكر مفهوم القصة أو تعريفها، فنقول - وبالله التوفيق- : وردت مادة القصة في القرآن الكريم في عدة مواضع ولها عدة معانٍ؛ فقد وردت بمعنى تتبع الأثر؛ ومن ذلك قوله - تعالى- : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]، أي: تتبعي أثره، كقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]، أي: رجع من الطريق الذي سلكاه يقصان أثر سيرهما بمعنى يتتبعانه.

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة > في مقتل خبيب بن عدي، والتسعة الذي كانوا معه متوجهين بأمر من رسول الله ﷺ؛ ليكونوا عيونًا على المشركين جاء فيه: "حتى إذا كانوا بالهدة بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رامٍ فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه، فقالوا: تمر يثرب فاتبعوا آثارهم". والشاهد في هذا الحديث استعمال لفظة فاقتصوا آثارهم أولًا، وذكر ما يرادفها ثانيًا في قوله: فاتبعوا آثارهم، وهذا هو المعنى الأصلي للفعل قص، ووجه الشبه بين من يلقي القصة وبين من يتتبع الأثر كون القاص يتتبع الأحداث فيخبر بها.

ويرد الفعل قص بمعنى "بَيَّنَ" منه قوله - تعالى- : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦] بمعنى يبين لهم ما اختلفوا فيه،

وهذا المعنى راجع إلى الأول ومرتبط به على اعتبار أن القاص في تتبعه للآثار، وإخباره بها يبين من المعاني والمرامي ما قد يختلط على الناس فهمه.

وقد يرد بمعنى "الإنباء"، ومنه قوله - تعالى- : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، أي: أنبأناك بأخبار بعضهم ولم نطلعك على ما كان من شأن آخرين منهم، وهذا المعنى أيضًا راجع إلى المعنى الأول على اعتبار أن تتبع الآثار ليس مقصودًا لذاته، بل للإنباء بها والتوجيه من خلالها.

ومن هنا نجد أن المفهوم اللغوي لكلمة "قصة" يدور حول التتبع لأمر ما وبيانه والأخبار به.

أما القصة بالمعنى الاصطلاحي لدى علماء الأدب فهي: إخبار بإحدى الحوادث المستمدة من الخيال أو الواقع أو منهما معًا، وتبنى على قواعد معينة من الفن الكتابي، وقد قسم العلماء القصة من حيث الطول والقصر إلى أقسام هي النوادر يقصد بها القصة القصيرة، التي اشتد قصرها حيث لا تزيد على بعض صفحات، ويمكن تسميتها بالأقصوصة، والقصة القصيرة هي أطول قليلًا من الأقصوصة، وتعد في نظر بعض الأدباء أقوى تأثيرًا في توصيل المعلومات من الرواية الكبيرة باعتبارها تركز على فكرة واحدة وتعزلها عن كل شيء، فضلًا عن تمكن القارئ من مطالعتها في جلسة واحدة مما يمكنه من تلقي تأثيرها كاملًا دفعة واحدة.

وكذلك الرواية وهي قصة ذات أبواب وفصول، وتطول حتى تستغرق أحيانًا عدة مجلدات.

وجديرًا بالذكر أن نفرق بين القصة في القرآن والسنة والقصة في الأدب المعاصر؛ فقصص القرآن والسنة محكوم بهدف التوجيه والتربية وليس التأريخ، والذي قصه هو الله ﷻ الذي قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، أو هو رسول الله ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، فكلامه ﷺ قليل في مبناه كثير في معناه.

وانطلاقًا من هذا نرى أن قصص القرآن والسنة يتحقق فيه مدلول القصة بوجه عام، سواء قصرت نصوصه أو طالت بحسب الغرض، فالمهم هو أن يأتي مصورًا لحدث متكامل له بداية ووسط ونهاية.

أهميـــــة القـــــصة في الـــــدعوة إلى الله ﷻ

وبعد تعريف القصة لغة واصطلاحًا نأتي - إن شاء الله تعالى- إلى الكلام عن أهمية القصة في الدعوة إلى الله ﷻ، وذلك حيث لازمت القصة الإنسان منذ وجودة وارتبطت بحياته يصنعها ويتحدث عنها ثم يستمع لها استثارة بوقائعها وتجديدًا لأحداثها، وقد عاشت البيئة العربية شدة قاسية من أجل لقمة العيش، فعملت ورحلت وشاهدت طغيانًا واستغلالًا وجاهدت وكافحت، وسجلت حياتها قصصًا باقيًا للرواة يحفظونها ويتناقلونه على الزمن، وفي سائر البقاع.

يذكر ابن إسحاق أنه لما وقعت حادثة الفيل، وكانت القصة العجيبة من إهلاك أبرهة وجيشه بالأبابيل ونجاة الكعبة والعرب، لما حدث ذلك سجله العرب في أشعارهم، يقول أبو قيس بن الأصلت:

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا ❖ بأركان هذا البيت بين الأخاشب

فعندكم منه بلاء مصدق ❖ قداة أبي يكسون هذه الكتائب
كتيبة بالسهل تمشي ورجله ❖ على القاذفات في رءوس المناقب
فلما أتاكم نصر ذي العرش ردهم ❖ جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا صراعا هاربين ولم يأب ❖ إلى أهله ملجيش غير صائب

على هذا النمط اهتم العرب بقصصهم فذكروها كواقعها، ولم يرتضوا لأنفسهم حشو أخبارهم بالوهم والخيال والتزيد، وكانت القصة تثير العربي، وتؤثر فيه وتجذب انتباهه؛ ليعيش مع أحداث عناصرها، إن قريشًا كانت تستملحها كما حدث من النضر بن الحارث الذي كان يشتري كتب الأعاجم ويحدث بها قريش، ويقول: "إن محمدًا يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة".

ونظرًا لهذا الدور الخطير للقصة جعلها القرآن الكريم أحد أساليبه في نشر الدعوة الإسلامية، يبين بها الدعوة ويشرح أسسها وأحداثها، ويضع في ثنايا عناصرها ما يجعلها هادفة ومؤثرة، ومن هنا وجدنا القصة تظهر مبكرة، وتبدأ في الظهور مع بداية الدعوة في مكة لتقوم بدورها في نشر الدين وإبلاغه.

لقد قدم القرآن الكريم كثيرًا من أخبار وأحوال الأمم السابقة؛ فذكر معاشهم ووصف حياتهم ونشاطهم وبين عقائدهم ومذاهبهم، ووضح مواقفهم من رسل الله إليهم، وبذلك حفظ لنا مادة طيبة للقصة القرآنية المشتملة على الأحداث والأشخاص والزمان والمكان، ووضحت كلمات القرآن الكريم الحكمة من إيراد القصص القرآني، وبينت أنه للاعتبار والعظة يقول الله - تعالى- : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]، ويقول ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

كما بينت أنها قصص واقعية حقيقية لا خيال فيها أبدًا يقول - تعالى- : ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الكهف: ١٣]، وقال - تعالى- : ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

والقصص مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين يُرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة، فيزيد عن الحسن الذي تضمنه القصص شيء آخر؛ إذ يثبت للقصة القرآنية قوة التأثير والهداية والإرشاد والإنجاء مع حسن اللفظ ودقة المعنى.

وعلى ضوء ما ذكر العلماء يمكننا أن نفهم القصة القرآنية على أساس أنها كلام حسن في لفظه ومعناه، مشتمل على أحداث حقيقية سابقة، ومتضمن على ما يهدي إلى الدين ويرشد إلى الخير، ولا يصح أن نطلق اسم الحكاية على القصة القرآنية؛ لأن الحكاية يلاحظ فيها المحاكاة والوقوف على ما جرى، بغض النظر عن العبر التي فيها أو الاستفادة منها، كما أن الحاكي لا يهدف التأثير والتوجيه من حكايته، أما القصة فهي تكشف عن آثار الماضي وتنقب عن حوادثه وتعرضها في أسلوب معجز مشتمل على العبرة والعظة أخذًا بالعقل والوجدان إلى زمن القصة، وأدوارها وأشخاصها مهما كانت كثيرة وبعيدة لإحداث تأثير معرفي وعملي في المستمع والقارئ للقصة.

وقد تحدث العلماء عن القصة الحديثة، ورأوا قيامها على عدد من العناصر كالحوادث التي يدور حولها العمل والحوار، والأشخاص الذي يقومون بالحركة والنقاش، والمكان الذي تدور فيه الأحداث، والزمان التي تقع فيه الأمور، ويرى العلماء والمؤلفون قصصهم ضرورة وجود عقدة في القصة تمثل مركز الحوار، وأساس النقاش من أجل حلها في نهاية القصة.

والقصة القرآنية تملك العناصر الفنية ؛ فالمكان والزمان والأشخاص والحوادث والحوار كل ذلك واضح فيها ، إلا أنها لكونها هادفة تركز مرة على أحد هذه العناصر ومرة أخرى على غيره ؛ لأنها تراعي الهدف الذي تدعو إليه.

فمثلًا يبرز المكان في بعض القصص بالذات توضيحًا لغرض مقصود من القصة ، ففي قصة يوسف # نعلم أن الأحداث تدور في مصر ؛ إذ ينتقل يوسف من الجب إلى بيت العزيز الملك ، ويخرج من البيت ليدخل السجن وبعد مدة يترك السجن ؛ ليستقر أخيرًا في حظيرة الملك ، وقد أفاد إبراز المكان في هذه القصة مدى عفة يوسف # وعصمته ، فرغم أنه نشأ وتربى في بيت الملك والجاه إلا أن ذلك لم يغير من طهارته ، وهذا يجعله يستحق في النهاية أن يكون على خزائن ملك مصر ، بغناها وشهرتها وأن يكون رسولًا مطاعًا من الناس.

وأيضًا فإن الهدهد ساعة أن غاب عن سليمان بين له أنه ذهب إلى مكان بعيد ، ورأى ملكًا وعرشًا لامرأة كافرة فقال له : ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل : ٢٢ ، ٢٣]، فذكر المكان توضيحًا لبعده وتهدئه لثائرة سليمان عليه وتوعده له.

وفي قصة الإسراء يبرز المكان إبرازًا لشرف الحدث وسموه يقول الله - تعالى- : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء : ١].

وعن الزمان كعنصر من عناصر القصة نرى القرآن الكريم يركز عليه في مواضع تفيد العبرة منه ؛ ففي قصة سيدنا نوح # يبين ذكر الزمن إخلاص الرسول في الدعوة ومدى تحمله وصبره ؛ يقول الله - تعالى- على لسان نوح # : ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح : ٥]، ويقول ﷻ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت : ١٤].

فتراه # بهذه الإشارة إلى الزمن يوضح أنه دعا قومه طوال الوقت في الليل والنهار، وأنه مكث فيهم زمنًا طويلًا بلا توان ولا كسل.

وفي قصة أصحاب الكهف أيد الله الفتية بقوته ورحمته، وأحاطهم بالعناية وهم في الكهف الذين أووا إليه، وحتى يتضح هذا التأييد وتلك الإحاطة جاء ذكر الزمن الطويل الذي مكثوه فيه يقول الله - تعالى- : ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥].

وعن الأشخاص كعنصر في القصة فهو موجود في جميعها، سواء كان الشخص من الأنبياء أو من غيرهم، بل إن شخصيات القصة أحيانًا تكون هدهد أو نملة، كما أن شخصية المرأة ظهرت في القصص القرآني كامرأة عمران ومريم وامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون، إلا أن الاهتمام حول المرأة ليس هو لبيان الجمال أو إثارة الجنس، إنما هو لتقرير مبدأ أو لتحقيق عبرة أو عظة.

وحينما تتحدث القصة القرآنية عن الجنس تعرضها في صورة طاهرة عفيفة تنشر الإيمان وتحارب الفجور؛ انظر قوله - تعالى- : ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، تجد المرأة قد تهيأت وراودت إلا أن ذلك يحاط بالاستعاذة بالله، وتذكر حقه في الطاعة وعدم فلاح المعتدين.

ويلاحظ أن الحوار الدائر بين الأشخاص في القصة القرآنية لا يقف عند الظاهر، بل يتعداه إلى حركات الذهن وفكر النفس وما يجول في الخاطر؛ فمثلًا قصة ولدي آدم # وكان الغرض منها الدعوة إلى الإيمان بالله والتسليم له، والخوف منه ومحاربة الأنانية البشرية، نجدها تركز في حوارها على ما يؤدي إلى هذه الأغراض وتصور خواطر الأخوين وأحاسيسهم الباطلة، والقصة تبدأ بأن قدم كل واحد من

الأخوين قربانًا لله، فتقبل الله من أحدهما قربانه ولم يتقبل من الآخر، وهنا يبدأ الحوار يقول الذي لم يتقبل منه لأخيه ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، فيرد عليه أخوه الصالح بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧- ٢٩]، إلا أن الذي لم يتقبل منه تصر نفسه على أحقادها ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

وهكذا نرى الحوار يظهر النفس الحاقدة الكافرة للذي لم يتقبل منه ومدى استعدادها للجريمة وسهولة القيام بها، فبرغم أن هذا الذي لم يتقبل منه سمع من أخيه تسامحه وتسليم الأمر لله وخوفه من مغبة الإثم في الآخرة، رغم ذلك سولت له نفسه الطاغية قتل أخيه فقتله، وبعدها عاش نادمًا، وهذه النفسية تخالف نفسية من تقبل منه حيث يشير الله إلى حقيقتها، فيقول صاحبها الذي قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهكذا تبين القصة القرآنية حقيقة النفس وحركات الخاطر، ولا تقف عند الظاهر فقط وآثار الاعتقاد في الفكر والسلوك، وكما وجد الأشخاص في جميع القصص القرآني وجد الحدث باعتباره عنصر ضروري للقصة لا تقوم إلا به، ولا تتكون إلا على وجوده، إلا أن القرآن يتخيل من الحوادث الماضية ويقص منها قصة هادفة، فمثلًا حينما يكون الهدف هو فضح الكافرين في تكذيبهم للنبيﷺ، وإنذارهم وتخويفهم من مواقفهم المعاندة نرى القصة تركز على التكذيب كحدث، وما ترتب عليه من أحداث مخوفة يقول - تعالى- :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٩- ١٧].

فنلحظ في هذه الآيات أن الهدف هو التأثير في أهل مكة، وتخويفهم من تكذيبهم للدعوة وإنذارهم بمثل العذاب الذي وقع على قوم نوح، حيث إن المكيين يكذبون كقوم نوح، ولبيان هذا الهدف قال - تعالى- : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الحج: ٤٢]، ونلحظ كذلك إن الآيات لم تذكر شيئًا عن معيشة قوم نوح ولا عن مكانهم ولا عن دعوة نوح لهم وطول مدة بعثته فيهم، لكنها تمت بتكذيب القوم لرسول الله نوح حيث قالوا له: ﴿مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾، أي: هو مجنون قد ازدجرته الجن وتخبطته.

ونلحظ أيضًا أن الآيات وضحت أنواع العذاب الذي لحق قوم نوح بسبب تكذيبه، حيث انهمر الماء من السماء وتفجرت العيون في الأرض، ولم يعد ممكنًا بعد ثورة الماء أن يعيش على الأرض، إلا من يؤمن مع نوح ويركب سفينته.

ونلحظ أخيرًا أن الآيات تبين أن المكذبين أينما كانوا سينالون جزائهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ وعلى الناس أن يتأملوا ويتذكروا أحداثها، فيقول - تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، وهكذا تأتي النهاية على وجه الاستفهام لتوقظ أسماع المخاطبين لأحداث هذه القصة، وما فيها من عذاب ونذير.

وعلى نمط التركيز على الأحداث المعينة في هذه القصة صورت سورة القمر بقية قصصها ؛ فقصة عاد وهود وقوم لوط ذكرت مختصرة ، وجاءت مبتدئة بالإنذار والعذاب ومختتمة بقوله - تعالى- : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ؛ لتضع المستمع أمام مقتله إن هو لم يؤمن ويصدق بالدعوة الإلهية ، إلا أننا نشير هنا إلى أن الحدث والأشخاص عنصران لازمان لتركيب القصة ، أما المكان والزمان فإيرادهما يأتي ثانويًّا تبعًا للمقصد والهدف.

وعلى ضوء ما تقدم نقول أنه ليس بلازم أن تأتي عناصر القصة جميعًا ، ولا أن تروى في القرآن على ترتيبها التاريخي ، وإنما تأتي عناصرها وترتب أحداثها تبعًا للغرض المقصود من إيراد القصة.

يقول الشيخ محمد عبده : أن قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن الكريم لم يقصد بها سرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنتها ، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها ، وبيان النعم بعللها لتتقى من وجهتها ، وما دام هذا هو الغرض من السياق ، فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه ، الذي يكون أبلغ في التفكير وأدعى إلى التأثير.

وهكذا فالقصة بعناصرها وحقيقتها موجودة في القرآن الكريم ؛ لتكون وسيلة هادفة وطريقًا للتأثير والإرشاد.

نعم القصة في القرآن أو في السنة أسلوب للدعوة ، لقد اشتملت القصة القرآنية على الخصائص التي تجعلها أسلوب حسنًا للدعوة ؛ لأنها تملئ الداعية بالثقة وتقوية بالأمل وتحتوي على كل جوانب الإسلام وتتحرك بإيجابية ، وتأثير في المدعوين بعدما تحيط بهم وتكشف حقيقتهم الظاهرة والباطنة.

إن القصة القرآنية تقوم بوظيفتها أسلوب للدعوى على وجه متقن دقيق؛ فهي أولًا تلازم الداعية وتملؤه انفعالًا بدعوته وتصيره متحمسًا له، وتجعله مجاهدًا ضد أعدائها واثقًا من النصر والنجاح للدعوة في نهاية الأمر، وذلك كله يتضح بما أفاضه القصص القرآني من طمأنينة على نفسه ﷺ مكنته من مواصلة دعوته بعد أن كاد اليأس أن يجد سبيله إلى نفسه، وعلى نمطه يكون الدعاة بعده.

وقد دارت القصة بأحداثها موضحة أخبار السابقين مبينة ما كان من الأمم، حيث كذبوا الرسل واتهموهم في عقولهم وألحقوا الأذى بهم، لكن الرسل - عليهم السلام- صبروا وثبتوا حتى انتصروا، وبذلك يطمئن قصصهم نفس الداعية ويثبت فؤاده يقول الله - تعالى- : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

يقول الرازي عند تفسيره لقصة سيدنا نوح # في سورة "يونس": إنما قص الله - تعالى- قصص الأنبياء لأسباب منها؛ أن يكون للرسول ﷺ ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء؛ فإن الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه، كما يقال: إن المصيبة إذا عمت خفت.

وقد استفاد النبي ﷺ والدعاة معه من القصص، وعلموا أن عليهم أن يتحملوا الأذى وإن كان من أقرب الناس إليهم، ولا يتأثروا به كما حدث مع السابقين فإن قصة سيدنا إبراهيم # تفيد أنه حين دعا أباه إلى الإيمان رد عليه بقسوة وشدة، كما يقول الله - تعالى- : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦]، فما تأثر من موقف أبيه بل رد عليه قال: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧].

وعلى الدعاة أن ينتظروا النصر بعد الصبر، ويستمروا على تفاؤلهم ؛ لأن سائر القصص تشير إلى انتصار الدعاة بمبادئهم، كما وعد الله في قوله - تعالى- : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

إن القصة القرآنية عمومًا تمد الداعية بمجموعة من المعاني والقيم ؛ فهو من قصة آدم يحب التزام طريق الله وطاعته ويكره إبليس ويحذر من غوايته، ومن قصة نوح يحب الهدي والنفع والطاعة ويكره الجدل والمراء والغرور، ومن قصة مدين يتمنى العدل ولا يريد التطفيف، ومن قصة لوط ويوسف يتمسك بالطهر والعفة ويبتعد عن غيرها، ومن قصة إبراهيم يطلع على أدلة التوحيد وبطلان الشرك والشركاء، ومن قصة فرعون يكره الظلم والجبروت ويتمنى الاستقامة والأمان.

وإنما يستفيد الداعية من القصة القرآنية كل هذا ؛ لأنها دائمًا تظهر هذه المعاني وتصورها داعية إليها ومرغبة فيها، وتبين القصة القرآنية علاقة الداعية بمن يدعوهم، فتذكر أنها لا بد أن تكون علاقة مودة وإخاء ؛ فالداعية حريص على الناس يتمنى لو أنهم اتبعوه ليسعدوا في الدنيا والآخرة، والداعية المخلص لدعوته يرى سعادته في التوافق مع مدعويه ؛ لأن ذلك أساس نجاحه، ومن أجل هذا التوافق اختار الله الرسل من أقوامهم ؛ فعاد أخوهم هود، وثمود أخوهم صالح، ومدين أخوهم شعيب.

وعمل جميع الرسل على تحقيق الخير للناس وإيجاد مودة معهم، كما قال - تعالى- على لسان شعيب # لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وصالح # يقول لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، وموسى وهارون - عليهما السلام- يقولان لفرعون: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]، ومحمد ﷺ شبيه بالرسل تمامًا حريص على أمته بالمؤمنين رءوف رحيم.

والدعاة هم ورثة الأنبياء وعليهم أمانة التبليغ من بعدهم، فهم يوحدون الأمة على كلمة الله ومبادئ الحق، ويجددون فيها الأمل والنصر وهم في ذلك يستفيدون من القصة القرآنية ضرورة الصبر حتى النصر ومودة الناس وحبهم.

والقصة ثانيًا تعرف بمبادئ الدعوة، وتوضح دعائمها الأساسية مع ذكر أدلة الصدق لهذه المبادئ، وهذه المعرفة ضرورية لكي يعمل الداعية على أسس محددة، ويشعر المدعوون أنهم أمام وضع بين معروف، والناظر في القصة القرآنية يرى هذه المبادئ واضحة والتدليل عليها أوضح؛ ذلك أن العقيدة الإسلامية مكونة من الإيمان بالله والرسل والملائكة والكتب المنزلة واليوم الآخر، وأهم هذه الأركان شيئان هما الإيمان بالله، والتصديق بالرسول ﷺ؛ لأن الإيمان بهما يستلزم الإيمان الضمني بالملائكة الذين ينزلون بالوحي من الله لتوصيله إلى الرسول، وبالكتاب الذي ينزل إلى الرسول من الله، وباليوم الآخر الذي عرف به الرسول.

يقول الشيخ محمد عبده: للإسلام في الحقيقة دعوتان؛ دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده، ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ على أن الاعتقاد بالله يتقدم على الاعتقاد بالنبوات؛ لأنه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله تعالى، وأول واجب يلزم المكلف أن يأتي به النظر، والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله وتحصيل الإيمان بالرسل، وما أنزل عليه من الكتاب والحكمة.

والقصص القرآني يوضح كل ذلك، فعن الإيمان بالله الذي هو أول الأسس نلمح اهتمام القصص به؛ ففي قصة نوح # نقرأ قوله تعالى قاصًّا قول نوح #

لقومه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح: ٣]، وإنما أمر قومه بالعبادة؛ لأن العبادة أقوى مظاهر التوحيد، وكانوا يفهمون أن الاتجاه بالعبادة إلى غير الله لا ينافي التوحيد، فعبدوا الأصنام لتقربهم إلى الله الخالق الأكبر، وكانوا يتصورون أن عبادة الأصنام تقربهم إلى الله الواحد، ومن هنا طلب نوح من قومه أن يعبدوا الله وحده ويهجروا عبادة غيره؛ لأنها تضييع للتوحيد ولا فائدة فيها، فإن أطاعوه فهم موحدون بحق ومقدرون لله قدره، وقد أشار قول نوح إلى ملمح لطيف حيث طالب بتخصيص العبادة والتقوى لله، أما عن الطاعة فطالبهم بطاعته فيما يدعوهم إليه، وكل ما يطلبه منهم في الواقع هو التوحيد والتقوى.

ولا يقف القصص عند حد طلب توحيد الله وعبادته، بل نراه يذكر الأسباب التي من أجلها يجب أن يوحد الإنسان ربه ويعبده؛ فالله هو صاحب النعم هو المالك للدنيا والآخرة، ففي مقطع من قصة سيدنا إبراهيم # نقرأ هذه الأسباب، وفيها يقول الله - تعالى- : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٢].

وهكذا فالله هو الخالق الهادي الرازق صاحب المغفرة والرحمة، وهي كلها نعم أعطاها الله للإنسان، إن الله صاحب النعم وهو الخالق للأرض وللسماء، ويجب أن يعبد وحده.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: والألوهية هي استحقاقه العبادة وحده، ولكن العبودية لا تكون إلا إذا كان هو المتفضل بالنعم وحده، فهو الذي أنعم بالوجود وشكر المنعم واجب بحكم العقل والمنطق، وبحكم كل نظام يستمد من الحق قوته، ولا ينفرد بالعبادة إلا إذا كان منفردًا بذات وصفات لا يشاركه فيها أحد

هذا عن الله، أما عن التصديق بالرسول ﷺ، فإن القصة تناقشه على أساس أنها انتهت من مسألة الألوهية، وعرفت الناس بضرورة تخصيص العبادة لله وحده، وهي في موقفها مع المكذبين للرسول تناقشهم في سبب تكذيبهم، فإن كان السبب بشرية الرسول كقول قوم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، كقول قوم صالح له: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: ٢٤]، كقول كفار مكة حيث تعجبوا وقالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

إن كان السبب هو ذاك فإن الرد سهل وموجز؛ حيث أتى الله بالمعجزة على يد الرسول البشر؛ ليظهر صدقه عمليًّا أمام المكذبين نظريًّا بدعواه، ولقد كانت المعجزة تأتي من جنس ما تفوق الناس فيه حتى يتمكنوا من إدراك صدقها وكونها خارقة للعادة، وليست من فعل بشر، ولسان حالها ينطق بصدق الرسول ﷺ فيما يبلغ الناس به عن الله؛ هذا هو سيدنا موسى # يبعث إلى قوم اشتهروا بالسحر فيأتيهم بمعجزة من نوع تفوقهم إذ يأمره الله بإظهارها ويقول له: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

وسيدنا عيسى يقول لقومه الذين اشتهروا بالطب: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩] إن دور المعجزة أن تثبت الرسالة أمام من ينكرها، يقول العقاد: لا يمتنع عقلًا أن تقع المعجزة، وإنما الذي يمتنع عقلًا أن تقع عبثًا من غير ضرورة مع إمكان الاستغناء عنها، إذا تبين أن إقناع المكابرين كان ممكنًا لغيرها، وإن كان المكذبون بالرسول البشر يصدقون برسول آخر قبله، فإن الرد سهل علمه الله لرسوله حين كلفه بسؤال اليهود الذين آمنوا

بموسى وقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: ٩١]، فأمره الله أن يسألهم ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام: ٩١].

بل إن القصة القرآنية وهي تتحدث عن الأمم تشير إلى أن الله بعث فيهم رسل منهم، وهو دليل على إثبات النبوة للبشر، وبالطبع ينطوي القصص في ثنايا أدلته على إنزال الوحي والكتب؛ لأن أول الدعوة دائمًا هي دعوة إلى التصديق برسول موحى إليه بواسطة الملك، ومتى آمنوا وصدقوا به لزمهم التصديق بكل ما يأمر به من أصول وفروع، والقصة وهي تصحح أسس العقيدة تعيش مع اختلاف الناس وتنوعهم عملًا وعقيدة، وتناقش عبدة الكواكب والأصنام والأشخاص والدهرية، سواء كانوا في بيئة زراعية أو صناعية أو تجارية، وهكذا تصنع منهج التعامل مع جميع الناس.

والقصة ثالثًا تبصر بالمدعوين وتبين حقائق طبائعهم، وغرائزهم واتجاهاتهم مستدلة على ذلك بما سبق من البشر؛ ذلك لأن تكرار الظاهرة الواحدة في الأمم كلها، وعلى نمط واحد دليل على أن هذه الظاهرة سنة إنسانية مسلمة، وتركيز القرآن الكريم عليها في قصصه يفيد أنها من الأحكام العامة، والنواميس الطبيعية التي لا تختلف في أي زمان أو في أي مكان، ويجب أن تفهم على أنها إنباء عن ملامح الأمة التي جاءتها الدعوة الإسلامية، وعلى الرسول والدعاة من بعده أن يلحظوا هذه الوضعية؛ ليكيفوا أسلوب الدعوة على وفقها، ومن هذه الطبيعة الاجتماعية الثابتة في خلق الناس ما يلي:

اختلاف الناس أمام الحق؛ جرت طبيعة الناس على أنهم ليسوا سواء أمام الحق ودعوة الله، فهم لا يعادونها كلية ولا يؤمنون بها كذلك، والعادة فيهم أنهم يختلفون دائمًا، كما يقول الله - تعالى- : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن

﴿رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، يقول النسفي: أي خلقهم للذي علم أنهم سيصيرون إليه من اختلاف واتفاق.

والقصة تبين هذه الحقيقة يقول تعالى في حديثه عن قصة قوم صالح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]، فتراهم يختلفون أمام دعوة صالح # وينقسمون إلى فريقين؛ فريق مؤمن وفريق كافر، ويؤخذون في الجدل والخصام والمعاندة على نحو رسمه القرآن الكريم، حيث يقول الله - تعالى- : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الأعراف: ٧٥]، وهذا سؤال يوجهه المستكبرون الكافرون فيرد عليهم المستضعفون، حيث قالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]، لكن المستكبرين يعاندون ويقولون: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦].

ومن هذه المناقشة يتضح الخلاف والجدل والتخاصم بين الفريقين يقول أبو السعود: إن سؤال المستكبرين: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ استهزاء بالأشخاص المؤمنين وبعلمهم، ورد المستكبرين القائل: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ إظهار للخلاف الشخصي وردًّا لمقالتهم بذاتها، وأيضًا فإن إجابة المستضعفين فيها إهمال واضح للمستكبرين لعدولها عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا: نعم، أو نعلم أنه مرسل من الله - تعالى- ، ومنها كذلك تقريع للمستكبرين ونص على قصور فهمهم؛ لأنهم سألوا عن أمر ظاهر لا ينبغي أن يسأل عنه، وإنما الحقيق بالسؤال هو الإيمان بما أرسل به؛ لأنه الحق الثابت المستمر كما ينبأ عنه التأكيد، والجملة الاسمية تقدم الجار والمجرور؛

ولذلك أجابوا بقولهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾. وهكذا وجد الخلاف وتشعب في قوم صالح.

وفي قصة قوم موسى يقول الله - تعالى- : ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ [هود: ١١٠]، ومظهر الاختلاف في قوم موسى يتضح من إيمان فريق بموسى ودعوته وكفر آخرين؛ ولأن سبب الخلاف عداء شخص، وكراهية بلا سبب محدد تلقاه يصل إلى حد الاستهزاء والطعن في الفكر والتهديد الشديد؛ إذ يقول فرعون رأس الكافرين للمؤمنين: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ٧١]، فرد المؤمنون عليه: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

وهذا القول دافع المؤمنون عن أنفسهم وردوا شبه فرعون، فهم لم يؤمنوا بالخاطر الأول، ولكنهم آمنوا بعد الآيات والأدلة الواضحات التي برزت لهم ووضحت، فأوجدت اليقين التام والبصيرة الكاملة، وهم كذلك لم يخضعوا لمؤامرة مع موسى، وإنما كان خضوعهم في الحقيقة لفرعون الذي أكرههم على السحر والخطايا من قبل.

وبهذا نرى أن السحرة استهزئوا بفرعون خلال ردهم؛ لأن الذي يذكره له هو محض الدنيا، ومن المعلوم أن كل منافع الدنيا ومضارها لا تعارض منافع الآخرة ومضارها، ولكن فرعون بقوته وسلطانه لا يعد شيئًا بجانب الله الفاطر المربي الذي يغفر خطيئة التائب، وإن كان فرعون قد سأل: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ٧١]، على وجه الاستهزاء بموسى، فإنهم يردون عليه سؤاله في حقيقة

واضحة ويقولون: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]، وبهذا الرد بينوا حقيقتهم وتمسكهم بالخير، وعرفوا فرعون بمقامه أمام الله الغافر الرحيم.

وهكذا الشأن في كل الأمم إذ يختلفون أمام دعوة الله ويعادون الرسل، ويحاولون التصدي لهم عنادًا وتكبرًا كما قال - تعالى- : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٣١]، كما قال - تعالى- : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾ [المطففين: ٢٩- ٣٢].

ومثل هذا قوله - تعالى- : ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧﴾ [البروج: ٤- ٧].

كما ركزت القصة في القرآن الكريم على الغني والفقير أمام الدعوة، وبينت حال الأغنياء والمترفين وكيف عادوا الدعوات السماوية، وأن الفقراء كانوا أكثر الناس إيمانًا بالأنبياء والرسل، فحديث القرآن على الملأ يأتي في جانب الاستكبار والكفران ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأعراف: ٦٠]، ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ﴾ [الأعراف: ٨٨]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وأشارت القصة أيضًا إلى اهتمام الناس بموروثات الآباء أمام الدعوة مع وضوح الحق، كما حدث من قوم نوح حين قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٣]، وحين قابل قوم هود نبيهم بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وكذلك ما كان من قوم صالح: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [هود: ٦٢].

وهذا سيدنا شعيب يسمع من قومه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

وسيدنا إبراهيم يسمع من قومه: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، وسيدنا موسى يسمع: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ [يونس: ٧٨].

وهكذا وقد قال الله ﷻ متحدثًا عن هذه القضية على لسان الأمم جميعًا مواجهين الأنبياء والرسل: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤].

وقال الله - تعالى- متحدثًا عما قاله قوم النبي - عليهم الصلاة والسلام- له حين قال لهم: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [المائدة: ١٠٤].

ونجد أيضًا في قصص القرآن الحديث عن وحدة الكافرين أمام الدعوة؛ فالكفر ملة واحدة وإن تنوعت صوره وتعددت عقائده، والكافرون دائمًا يعارضون دعوة الله بأسلوب واحد واعتمادًا على فكرة واحدة مهما باعد بينهم المكان والزمان.

ومن الحقائق التي تكررت في قصص القرآن موقف المعارضين المتحد في الاتجاه وسبب الكفر، إن المعارضين جميعًا كفروا بالدعوة وحصروا كفرهم في صورتين:

الصورة الأولى: معارضتهم لفكرة عبادة الإله الواحد فقط وتمسكهم بعبادة ما اتخذوا من الإلهة.

وكذلك ما كان من قوم صالح: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

وهذا سيدنا شعيب يسمع من قومه: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

وسيدنا إبراهيم يسمع من قومه: ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، وسيدنا موسى يسمع: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ [يونس: ٧٨].

وهكذا وقد قال الله ﷻ متحدثًا عن هذه القضية على لسان الأمم جميعًا مواجهين الأنبياء والرسل: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤].

وقال الله - تعالى- متحدثًا عما قاله قوم النبي - عليهم الصلاة والسلام- له حين قال لهم: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ﴾ [المائدة: ١٠٤].

ونجد أيضًا في قصص القرآن الحديث عن وحدة الكافرين أمام الدعوة؛ فالكفر ملة واحدة وإن تنوعت صوره وتعددت عقائده، والكافرون دائمًا يعارضون دعوة الله بأسلوب واحد واعتمادًا على فكرة واحدة مهما باعد بينهم المكان والزمان.

ومن الحقائق التي تكررت في قصص القرآن موقف المعارضين المتحد في الاتجاه وسبب الكفر، إن المعارضين جميعًا كفروا بالدعوة وحصروا كفرهم في صورتين:

الصورة الأولى: معارضتهم لفكرة عبادة الإله الواحد فقط وتمسكهم بعبادة ما اتخذوا من الإلهة.

لكن تكذيبهم جميعًا لا حق لهم معه، وهو مردود عليهم لا يستقيم أبدًا ومنشأه عدم تقديرهم للآلهة.

هذه الحقائق التي عرفتنا بها القصة القرآنية لا تختلف في الناس، وقد وضعها الله في قرآنه؛ لتكون مصباحًا منيرًا أمام الدعاة، وعلى ذلك تكون القصة قد صنعت البصيرة المطلوبة في أساليبها، إذ عرفت بالمدعوين وبالدعوة وأكسبت الدعاية ثقة وطمأنينة، ولست أعني أن القصة قدمت كل ما يبصر الداعية بدعوته وبمدعويه، لكن الذي أعنيه أنها قدمت في هذا الإطار نماذج لها قيمتها وتركت الباقي لبقية الأساليب، ولجهد الداعية وأفقه.

رابعًا: القصة تعتبر موعظة حسنة؛ لأنها بعناصرها وتأثيراتها تلفت نظر المدعوين برفق، وتعطيه من عبر الماضي ما يجعله يقتنع ويشعر أن الداعي ينصحه ويقصد نفعه، وتشتمل القصة القرآنية على الحوار الطيب والمجادلة بالتي هي أحسن كما هو ثابت في الآيات التي أوردتها، ومن خلال الحوار في القصص القرآني نرى الحكمة الدقيقة والتوجيه الموجز والبرهان البين، وبذلك تتضمن القصة القرآنية ملامح الأساليب كلها.

خامسًا: القصة تناسب طاقة البشر؛ لأنها رواية عن أخبار البشر، وقد اختارها الله بدقة وقص منها على الخصوص ما هو هادف ومؤثر، وجعله وحيًا باقيًا يلائم البشر دائمًا، وأيضًا فهو إذ يفيد الدعوة يفيد مقاصدها كذلك؛ لأنه يُعرِّف بها ويحث عليها، وسبحان الله جعلها هكذا وهو الحكيم الخبير.

تابع: الأسلوب القصصي وأهميته في الدعوة إلى الله

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	استكمال الحديث عن أهمية القصة وأثرها في الدعوة	٣٤٥
العنصر الثاني	:	كيفية تبليغ الدعوة، وقوة تأثيرها في نفوس الناس وعقولهم	٣٥٠
العنصر الثالث	:	نماذج من القصص في القرآن الكريم والسنة المطهرة	٣٦٢

استكمال الحديث عن أهمية القصة وأثرها في الدعوة

فبعد الكلام عن الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وضرب الأمثال شرعنا نتحدث عن الأسلوب القصصي من حيث: مفهوم القصة، وأهميتها في الدعوة إلى الله، ولا يزال الكلام موصولًا مع الأسلوب القصصي وحيث أهمية القصة في الدعوة إلى الله تعالى، مع ذكر نماذج من قصص القرآن والسنة الصحيحة والتراث الإسلامي. فعلى بركة الله تعالى نبدأ ونقول:

أهمية القصة وأثرها في الدعوة إلى الله ﷻ تأتي بعدة فوائد؛ القصة تتمتع بالقدرة على توصيل المعلومات، وتحقيق جمل من الفوائد تتقاصر عنها سائر فنون النثر، ويمكن تلخيص هذه الفوائد فيما يلي: أن الإنسان يولع بالقصص ويميل بفطرته إليها، وإذا ما قص عليه جزء من القصة حرص على متابعة أحداثها؛ ليعرف مدى ما وصلت إليه، فهي بمثابة غريزة حب استطلاع التي تعلق عين السامع وأذنه، وانتباهه بشفتين قصصي البارع استشرافًا لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء.

ومما يدل على هذا الميل الفطري نحو القصة، والرغبة في تتبع أحداثها ما ورد في صحيح الحديث أنه ﷺ ذكر قصة موسى مع الخضر، ثم قال: ((وددنا أن موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما))، وما من شك في أن إقبال الناس على القصص وتعلقهم بأحداثها يعمق مضامينها في نفوسهم، ويمكنهم من الاستيعاب الجيد والتأثر بالأحداث؛ إذا كانت الأوامر والنواهي نظرية فقط دون أن يكون لها من الواقع ما يؤيدها، فإنها حينئذٍ تكون مدعاة للتفلت من الالتزام بها تحت ستار أنها فوق الطاقة ودون الوسع، فكان القصص هو أسلوب التربية العملية

الذي يكبح جماح الشهوات المنطلقة، ويشد من أزر المتمسكين بالحق، والثابتين عليه أسوة بمن سبقوهم على الطريق.

يقول ابن القيم: النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير، ومن ثم كان النبي ﷺ يوجه أصحابه إلى استقراء التاريخ؛ تاريخ الثابتين على الحق إذا أراد أن يقوي عزائمهم، ويشد من أزرهم في مواجهة الصعاب؛ فعن خباب بن الأرت قال: ((شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق نصفين، ما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون)).

ويضاف إلى ما سبق أن القصة أداة سهلة الفهم، كما أنها تحظى بالقبول من العامة والخاصة على السواء، ومن ثم فقد لازمت الإنسان منذ وجوده، وما زالت تؤدي دورها في عالمنا المعاصر بصورة متقدمة جعلتها صاحبة المكانة الأولى في عالم الأدب اليوم.

من أجل هذه الفوائد كلها كانت القصة دعامة من دعائم الدعوة ووسيلة من وسائلها؛ فعن طريق حب الناس للقصص، وميلهم إليه تصبح النفوس أوعية مفتوحة يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ ما يريد.

وبالمشاركة الوجدانية لأحداث القصة، وأشخاصها ممن يتابعونها يتمكن الداعية من إثارة المشاعر وتوجيهها الوجهة السديدة، ودلت التجربة التربوية على أن

أشد المواعظ الدينية نفاذًا إلى القلوب ما عرض في أسلوب قصصي يحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص، والتأثر بالأحداث والانفعال بالمواقف، وبعرض مبادئ الدعوة في صورة قصصية واقعية يضيق المرء ذرعًا بأصحاب المسالك الملتوية، وينشرح صدره لذوي الخير منهم، ويحمله ذلك على الاجتهاد في أن يتوقى مسالك الأشرار ويتحرى مسالك الأبرار.

ومن ثم زخرت نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة بهذا الطابع القصصي؛ لتشد الناس نحو مبادئ الدين وتعاليمه السامية؛ وليكون ذلك عونًا في وسائل الدعوة إلى الله ﷻ في إيجاد الفرد الصالح والمجتمع السليم.

وتستحوذ القصة على جانب كبير من توجيهات القرآن الكريم؛ إذ تشمل ما يقارب الربع منه أو الثلث، كما أن هذه الوسيلة قد بدأ ظهورها مع أوائل ما نزل من القرآن في مكة المكرمة؛ لتسهم في تأسيس قواعد الدين وتوضيح معالمه، وفي شأن قصص القرآن يقول الله - تعالى - : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]، وفي بيان الغاية من سوق القصص في القرآن الكريم يقول - تعالى - : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال - تعالى - : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

وإنما اتجه القرآن الكريم إلى أسلوب القصص في ترسيخ مبادئ الدعوة لما لها من فوائد في تحقيق المراد من هداية العباد، فضلًا عن رغبة العربي في القصص واستملاحه لها؛ فقد أورد الزمخشري في تفسير قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ ﴾ [لقمان: ٦]،

أن النضر بن الحارث كان يشتري كتب الأعاجم، ويحدث بها قريش ويقول: إن محمدًا يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بأحداث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، ومن ثم استحوذت القصة على الجانب الأكبر من توجيهات القرآن، وبدأ ظهورها مع أوائل ما نزل من القرآن في مكة؛ لتسهم في تأسيس قواعد الإسلام وتوضيح مبادئه.

هذا، وقد كان لجوء القرآن الكريم إلى استخدام القصة كأسلوب من أساليب الدعوة مشجعًا لكل من ارتبط بالقرآن؛ لكي ينهج نهجه في توظيف القصة لخدمة الدعوة، وبدا هذا واضحًا في سلوك صاحب الدعوة الأول ﷺ، والذي كان يستملح قصص القرآن ويجد فيه لذة ومتعة، كما دل على ذلك قوله ﷺ في قصة موسى والخضر - عليهما السلام- : ((يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما))، ولم يكن تأثره ﷺ بقصص القرآن تأثيرًا سلبيًّا بحيث لم يتجاوز مجرد الإعجاب والمتعة، بل ظهر تأثره ﷺ، وانفعاله مع قصص القرآن في مظهرين هما:

المظهر الأول: تأثره بالقصة في سلوكه وأخلاقه، ومن أمثلة ذلك ما ورد في الحديث الصحيح من أنه ((ﷺ قسم يوم حنين الغنائم، فآثر أناسًا فقال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله، فقال ﷺ: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر)).

وورد في الحديث الصحيح، عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: ((ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكًا حتى أري منه لهواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف في وجهه، قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا؛ رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية،

فقال: يا عائشة ما يؤمني أن يكون فيه عذاب؛ عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا)) يعني بذلك قوم هود # .

فهذا برهان على تأثره ﷺ بقصص القرآن، والتعامل مع الأشخاص والأحداث بمقتضى ما تمليه القصة من عظات وعبر.

المظهر الثاني: لجوء النبي ﷺ إلى الأسلوب القصصي في بعض أحاديثه، وتركه ﷺ لنا مجموعة من القصص البناء في شتى موضوعات الدعوة، بحيث اعتبر هذا القصص النبوي في المنزلة الثانية بعد قصص القرآن الكريم، يقول الأستاذ البهي الخولي: إن القصص الذي يجب أن تستعين به قصص رسول الله ﷺ، وهو قصص كان يختاره ﷺ من تاريخ السابقين؛ ليشرح ما يريد من المعاني بالأمثلة الحية الواقعية، وهذا القصص يأتي في المرتبة بعد قصص القرآن الكريم.

هذا، وتمتاز القصة بأنها تصور نواحي الحياة؛ فتعرض لك الأشخاص وحركاتهم وأخلاقهم وأفكارهم واتجاهات نفوسهم وبيئتهم الطبيعية والزمنية؛ تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال، ومضيت مع الحوار والنقاش عرفت ما يستكين في النفوس من طباع وما يهجس فيها من خواطر، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم وضقت ذرعًا من ذوي النفوس المظلمة والوسائل الملتوية، حتى لكأنك تراهم رأي العين وتسمع منهم سمع الأذن وتعاشرهم وتحيا بينهم.

هذا، ويملك القصص دائمًا الإثارة والجاذبية إلا أن بعضه هو الذي يستحق البقاء؛ لأنه يبغي هدفًا ويقصد خيرًا للفرد والجماعة، والقصة القرآنية من هذا النوع الهادف القائم على الحق الذي يسوق لغرض محدد، وكل ما فيها من فنية مؤثرة هو أصل هدفها المطلوب، فهو الذي يحدد مساقها ويبرز بعض جوانبها ويخرجها للناس لفظًا وموضوعًا.

يقول الشيخ محمد عبده: جاءت آيات القصص على أسلوب القرآن الكريم الخاص الذي لم يسبق إليه ولم يحلق به؛ فهو في القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكُتَّاب في تنسيق الكلام، وترتيبه على حسب الوقائع التي في القصة الواحدة، وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ويحرك الفكر إلى النظر تحريكًا ويهز النفس للاعتبار هزًّا؛ ذلك لأن القرآن هو كتاب الدعوة ولا بد أن يفي لها بالتأثير والهداية عن طريق بيانه المتعدد ومنه القصة.

كيفية تبليغ الدعوة، وقوة تأثيرها في نفوس الناس وعقولهم

إن القصة تملك قوة التأثير بواسطة أسلوبها والأحداث التي تحتويها؛ وذلك بسبب الخصائص الموجودة في الأسلوب والأحداث، أما خصائص الأسلوب فهي كثيرة نلمحها في كل لفظة على حدة، وفي الجملة مركبة من عدد من الألفاظ، سنذكر بعضها على النحو التالي:

فالكلمة القرآنية أولًا تمثل في موقعها من القصة دقة مشتملة على أعلى درجات الفصاحة والبلاغة؛ فحروفها متلائمة في رقة بلا غرابة أو تنافر، وتتماسك الكلمة في انسجام تام وتكامل واضح، وكل من له حس فني يرى هذا الترابط التام بين الحروف في الكلمة الواحدة؛ فترى كل حرف يتناغم مع شركائه في الكلمة، وكأن كل حرف وجد؛ ليوضع في هذا الموضع وحده لما يصنعه من موسيقى في النفس والحس.

يقول الرافعي: وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرجه فيه مدًّا أو غنّةً أولينًا أو شدةً، ولما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه، وتتابعه على

مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع والإطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الارتفاع والاهتزاز، وبُعد المد ونحوها مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.

ولقد دلت الوقائع على آثار الكلمات القرآنية في نفوس مستمعيها، ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن هشام في بيانه سبب إسلام عمر بن الخطاب > ، فقد ذكر أن السبب هو قراءته لبعض كلام القرآن الكريم، وقد وصفها بقوله: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، ومن أمثلته ما قاله عتبة بن ربيعة يصف القرآن لأهله: سمعت قولًا ما سمعت مثله قط.

والكلمة ثانيًا قد تكون في حد ذاتها ثقيلة، فإذا ما جاءت في القصة القرآنية برزت في صورة جميلة وأدت دورها بوفاء، وتعاونت مع الكلمة حولها، وصنعت الموسيقى الصوتية والمعنوية التي تزيل الثقل وتستبدل به الحسن، ومن أمثلة هذه الكلمات لفظة النذر جمع نذير، وهي كلمة وردت كثيرًا في قصص سورة "القمر".

يقول الرافعي عنها: الضمة ثقيلة في لفظ "بالنذر" لتواليها على النون والذال، فضلًا عن جسأت هذا الحرف ونبوه في اللسان، وخاصة إذا جاءت فاصلة للكلام، ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته؛ انظر قوله -تعالى- : ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٦]، وتأمل هذا التركيب، وأنعم ثم أنعم على تأمل وتذوق مواقع الحروف، ومواضع القلقلة في الدال؛ دال ﴿وَلَقَدْ﴾ وفي طاء ﴿بَطْشَتَنَا﴾، وهذه الفتحات المتتالية في ﴿فَتَمَارَوْا﴾ مع الفصل بالمد كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات؛ إذ هي جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة مستحقًا بعد، ولتصيب هذه الضمة موقعها، ثم

ردد النظر في "تماروا"، فإنها ما جاءت إلا مساندةً لراء "النذر" حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف ولا تغلظ ولا تنبو فيه.

والكلمة ثالثًا لا تكون إلا لهدف وغرض ومعنى، وما قاله البعض من أن بعض الألفاظ جاءت زائدة، ويضربون لذلك أمثلة بعضها في كلم القصص، ومنها "لا" الأولى في قوله - تعالى- : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، و"أنْ" في قوله - تعالى- : ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [يوسف: ٩٦]، و"الواو" في قوله - تعالى- : ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٣- ١٠٥].

ومن المعلوم أن وصف الكلمة بكونها زائدة يعني أنه لا فائدة منها، وأن وجودها كعدمه تمامًا، وما المحافظة عليها مع زيادتها إلا؛ لأنها نزلت بالوحي المحفوظ الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل، ويجب أن يبقى محفوظًا كما نزل إنما قاله هذا البعض مردود بأحد الطريقين:

الأول: إن هذه الحروف لها فوائدها حيث تشارك في معنى ما حواليها، ومعنى كونها زائدة حينئذٍ؛ أي إنها زائدة في الإعراب فقط، أما في المعنى فليست بزائدة؛ لأن "لا" في الآية الأولى تؤكد معنى القسم بتوكيدين حول المقسم عليه لأهميته، و"أن" في الآية الثانية لتصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه، ولصنع غنّة ترمز على الطرف الذي جاء به البشير، و"الواو" في الآية الثالثة؛ ليكثر المبنى دلالة على كثرة المعنى ليطول نفس القارئ أمام هذا الموقف العجيب والمثير.

الثاني: إن هذه الحروف ليست زائدة لا في الإعراب ولا في النظم؛ فإن نظمها يفيد المعاني السابقة وإعرابها موجود حيث تعرب "لا" نافية لقول المنافقين المقدم،

والمعنى ليس الأمر كما يقولون، ثم استؤنف القسم بعدها، وتعرب "أن" مصدرية؛ لتصنع مع الفعل بعدها فاعلًا لفعل مضمر تقديره؛ فلما ظهر أن جاء البشير، وتعرب "الواو" عاطفة في ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ ويجعل جواب الشرط مقدرًا وسعد سعادة عظيمة، ويقول الرازي: وحذف الجواب ليس بغريب في القرآن الكريم، والفائدة فيه أنه إذا كان محذوفًا كان أعظم وأفخم.

هذا عن الكلمة الواحدة فلو تركناها للجملة المركبة من كلمات لوجدنا أولًا تهتم الجملة بالبيان الراقي النابع من لفظ قليل، ولرأينا كيف تؤدي الكلمات القليلة المعاني الكثيرة مع المحافظة على جمالها الرنان وجرسها الحسن، وهذه الخاصية للتراكيب القرآنية مكنت للقصة؛ فوضحت بالقليل من الألفاظ ورآها المستمع حية متحركة أمامه إذا قرئت قراءة حسنة؛ اقرأ قوله - تعالى- قاصًّا إجابة موسى لفرعون حين سأله عن ربه ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] ترى أنه # ذكر أدلة وجوب وجود الله المعتمدة على قدرته، وعنايته بالإنسان حيث هداه للخير، وذلك كله في هذه الجملة القصيرة الذي يحتاج تفصيلها إلى كتب كثيرة.

يقول الرازي: الشروع في بيان عجائب حكمة الله في الخلق والهداية شروع في بحر لا ساحل له، واقرأ قوله - تعالى- قاصًّا مقالة الهدهد لسليمان: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، فقد بين الهدهد بهذه الكلمات الأربع أن غيبته كانت لغاية كبرى تفيد سليمان وتهمه، وقد أتى الهدهد بها من مكان بعيد ناء، وإن هذه الغاية تحمل أخبارًا لم تعرف من قبل، ولم تكن محتملة، وهي أخبار صادقة لا تحتمل الكذب أبدًا، قد وضعت في جمال وحسن يبدوان من الإدغام والغنة، وتنوع شكل الحروف، وهكذا سائر التراكيب.

يقول الباقلاني: ما رأيك في قوله - تعالى- : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

فإن هذه الآيات تشتمل على ست كلمات أو جمل سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد؛ إنها تشتمل على جملة وتفصيل وتفسير؛ حيث ذكر العلو في الأرض فسره باستضعاف الخلق وذبح الولدان وسبي النساء، وإذا تحكم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما، ثم ذكر الفاصلة التي ردت آخر الكلام إلى أوله بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، ولعل إجابة موسى على فرعون وإجابة الهدهد، ووصف فرعون لو حاول بشر أن يصوغها ابتداءً لاستوفاها بأضعاف أضعاف كلماتها.

ثانيًا: والجملة تتكون من كلمات متفقة ومؤتلفة ومتعاونة في أداء المعنى، وكأن كل كلمة لفق لجارتها لفظًا ومعنًى، اقرأ قوله - تعالى- في قصة نوح # : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، فإن كلماتها مرتبطة ومؤدية لكثير من المعاني.

يقول عبد القاهر معلقًا على هذه الآية: إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثانية بالثالثة وهكذا إلى أن تستقر بها كلها، ثم يقول: إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها، وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من آية؛ مثل: ﴿ابْلَعِي﴾ واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها

وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت، ثم إن كان النداء بياء دون أي، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء، ثم إن نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ثم أتبعه بنداء السماء، وأمرها كذلك بما يخصها، ثم إلى بناء الفاعل "غِيض" للمجهول للدلالة على أنه لم يرد إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم أن تأكيد ذلك وتقريره بقوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾، ثم إلى ذكر ما هو نتيجة لهذه الأمور جميعًا وهو الاستواء على الجودي، ثم إلى إضمار السفينة على الذكر للتعظيم والتفخيم، ثم إلى مقابلة قيل في الخاتمة بقيل في الفاتحة؛ أي: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهكذا نرى أن الأسلوب القصصي في القرآن الكريم صور الحقائق في براعة نادرة أخذت بلب البلغاء وأدهشتهم، وجعلت العرب هم أرباب البلاغة معنًى وبيانًا وبديعًا يقفون أمامها وليس لهم إلا التأثير والتسليم.

والجملة.

ثالثًا: تراعى عملية التأثير في نفسية المستمعين على حسب وضعهم؛ لأنها تتجه لما سبقت له بدقة؛ ففي القصص المكي لما كان المسلمون غير آمنين في حياتهم ومعاشهم، والمشركون منصرفين عن القرآن إلى الماديات المثيرة لوجدانهم ومشاعرهم، في هذا الوقت كان على القصة أن تستولي على القلوب بأسلوب مناسب للنفوس القلقة من حيث قصره وإيجازه، وتصويره لموقف أخاذ أو إيراده حادثة تطمئن المضطرين وتخوف ظالميهم.

وهذا الأسلوب لا بد أن يكون على السجع العربي؛ لأن ذلك هو الذي يثير العربي ويوقظ مشاعره ويشده إليه، اقرأ قوله - تعالى-: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ

﴿بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ٦- ١٤]، هذه الكلمات القليلة تعبر عن المعاني الكثيرة بدقة وإيجاز؛ فحين تقرأ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ندرك أن العلم بهذه الأخبار يقين كالمشاهدة الحسية تمامًا، ومن جملة الآيات نعرف عادًا وموطنها وضخامة أشخاصها بصورة لا نظير لها، ونعرف ثمود الذين قطعوا الصخر؛ ليصنعوا بيوتهم بالوادي منه، ونعرف فرعون لكثرة جنوده، ونعرف أن هؤلاء جميعًا عاد وثمود وفرعون كانوا طغاة ظالمين مكثرين في إفسادهم بالكفر والقتل والظلم، وكانت عاقبتهم أليمة، واستحقوا ما فعل الله بهم حيث رصد الله أعمالهم كلها.

وهكذا اشتملت هذه الآيات القصيرة على مجموعة من الأقاصيص غايتها واحدة؛ هو بيان شدة العذاب ودوامه؛ إذ الصب يشعر بالدوام، والسوط يشعر بزيادة الآلام.

ولعل هذه الموسيقى المؤثرة الواضحة من مقاطع الآيات القصيرة هو السر في نزول القصص المكي غالبًا على هذا النمط.

ولك أن تتأمل سورة "القمر" "وسورة ص" و"الصافات" و"الشعراء" و"الأنبياء" و"المؤمنون" و"الحجر"، وكلها ركزت على التأثير الصوتي بالأسلوب، والتأثير المعنوي بالحدث المقصود، والتوجيه المباشر نحو الغاية والهدف، ونجد في السور المكية إتحاد رنين المقاطع وتقارب مخارجها وإن اختلف كسورة "ق" التي تدور مقاطعها حول الباء والجيم والدال والراء والصاد والطاء والظاء، وكلها متقاربة المخرج.

على أنه يجب أن يبقى معلومًا أن من القصص المكي ما ورد على غير هذا الأسلوب، كالقصص في سورة "الأعراف" و"هود" و"الأنعام"، فإن أسلوب هذه السور بعيد عن الرنين الموسيقي والتركيز على الحدث الواحد، وإنما يجري على شكل محاورة فيها كثير من الجوانب التي جاءت لأغراضها المقصودة، وهذا النمط قليل الورود في السور المكية، فإذا ما تركنا الأسلوب بكلمه وجمله إلى المعاني المستفادة من الأسلوب القصصي في القرآن الكريم، نجدها تسمع التأثير الفني على النحو التالي:

فهي أولًا لا تعطي أحداثها دفعة واحدة، بل تتخيل حدثًا مفيدًا للغرض وتهتم به، وبذلك تحقق شيئين لا بد منهما في الدعوة إلى الله تعالى؛ هما تجزئة القصة الواحدة وتكرار الحدث الواحد، وبهذا تتحقق أغراض القصة في سهولة ويسر؛ لأن التجزئة لا تثقل على السامع، والتكرار في حد ذاته له تأثير عجيب، فإن أدركنا أن التكرار القرآني لا يعني الالتزام بسورة واحدة دائمًا، وإنما هو في القرآن الكريم جديد في كل مرة بزيادة أحداث، والتركيز على جوانب معينة مع تغير الصنيع وتنوع التوجيه وتعدد الأهداف، حين ندرك ذلك - وهو حق- نعلم ما في القرآن الكريم من دقة وإعجاز، وبخاصة في التكرار والتجزئة.

وحين نتبين هذين الشيئين في قصص القرآن نقرأ قصة نوح # ، كما جاء بها القرآن الكريم فهي في سورة "الأعراف" تحتل الآيات من تسع وخمسين إلى أربع وستين، وتركز على ضلال القوم بشكل عام، وتبين استغراقهم فيه وتشير إلى عاقبة الكفر والاستكبار وجزاء الإيمان والطاعة.

وهي في سورة "هود" من آية خمسة وعشرين إلى آية ثمانية وأربعين تركز على بيان الأدلة الواقعية على الإيمان بالله؛ إذ هو مصدر الرحمة ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾

[هود: ٢٨]، والأجر والحق عنده ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، والنصر منه وحده ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ [هود: ٣٠]، وهو العليم بالخفي والظاهر ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١]، ومشيئته مطلقة في إنزال العقوبة ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾ [هود: ٣٣]، وإليه المرجع والمآب ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

ونرى من مناقشات القصة في سورة "هود" أن نوح # كان يديرها نحو الأدلة، ولم يسترسل معهم في المجادلة الباطلة.

وهي في سورة "الأنبياء" تحتل آيتي ست وسبعين وسبع وسبعين، وتركز على النعم التي جعلها الله لنوح بشكل مجمل وموجز، وفي سورة "المؤمنون" تأتي القصة في الآيات من ثلاث وعشرين إلى ثمان وعشرين، وتركز على نعمة الإنجاء بواسطة السفينة، وهي نعمة تستحق الحمد ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨)﴾ [المؤمنون: ٢٨].

وفي سورة "العنكبوت" تركز على بيان المدة التي مكثها نوح مع قومه أو في قومه؛ لأنه # مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

وفي سورة "القمر" تركز على تهويل سورة العذاب وكيف يبدو من قوله -تعالى- : ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢].

وفي سورة "نوح" نرى التركيز على أعمال نوح # ، يقدمها إلى ربه موجزًا عمله خلال مدة بعثته طالبًا من الله أن ينزل العقاب على الضالين الكافرين، ويذكر له نتيجة خبرته الطويلة معهم، وكأنها في سورة "نوح" بيان ختامي يقدمه نوح # لله رب العالمين.

فهذه سبع مرات لقصة نوح، ولكل مرة أحداثها البارزة الواضحة، المركزة على جانب معين لتكون مفيدة في هذه النقطة، وليأخذ من نزل القرآن لهم من تجزئة القصة درسًا لهم.

فالعلم بعاقبة المؤمنين والكافرين درس من القصة في سورة "الأعراف"، والأدلة الإيمانية درس من سورة "هود"، وضرورة الحمد على النعم درس من سورة "المؤمنون"، كما أن بيان رفعة منزلة النبي ﷺ عند الله درس من سورة "الأنبياء"، والإحاطة بقدرة الله في تعريف قوة الطبيعة درس من سورة "القمر".

وهكذا جزأ القرآن أحداث قصصه؛ ليوسع الفائدة بها ويوجد الدافع للتأثير والهدف.

إن القصص القرآني في تكراره على النمط السابق يصنع فائدة جليلة للدعوة؛ لأنه بذكره الأحداث مجزأة يراعي أحوال المدعوين، ويتدرج معهم من الأسهل إلى السهل وهكذا، وفوق ذلك فهو يراعي طبائع الناس المختلفة؛ لأن منهم من يتأثر بحادث، ومنهم من يتأثر بأكثر، ومنهم من لا بد له من القصة كلها.

ولذلك حينما يكون التركيز على حدث في القصة، فإنه يأتي مصحوبًا بموجز سريع عن بقية أحداث القصة؛ لكي تتلاءم مع المدعوين المختلفين بالضرورة الذين يتنوعون في درجة الاستفادة من الدعوة والإفادة بها، كما قال النبي ﷺ مبينًا اختلاف الناس في الطباع والتوجه بقوله ﷺ: ((مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم؛ كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا؛ فكان منها نقيًّا قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا

تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل منفقها في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به))، فناسب اختلافهم أن تختلف الأساليب معهم وتتكرر.

واختلاف الأساليب لا يستدعي كذبًا في أحداث القصة أو خيالًا؛ لأننا لو جمعنا سائر أجزاء القصة من القرآن كله، وجعلناها كلًّا واحدًا، فإن الأحداث تكون صادقة أو متآلفة بلا تناقض أو خلل، وما جزء القرآن أحداثها إلا ليحقق السهولة والتكرار، فإن السهولة تفيد التدرج في إصابة الغرض، والتكرار في حد ذاته مؤثر بشكل واضح.

وإن الداعية يستطيع أن يؤثر في النفوس عن طريق التتابع والاستمرار والتنظيم، ويجب علينا أن نعيد ونكرر نفس الشيء من زوايا مختلفة.

ومعاني القصة ثانيًا: مجال خصب للترغيب والترهيب الذي هو فن جميل الأثر في الدعوة، بل إنه من أهم مؤثراتها؛ وذلك لأن الإنسان إذا استثير شوقه إلى شيء ما زاد اهتمامه به، وسرعان ما يتحول هذا الشوق إلى نشاط يملأ حياة الفرد عملًا وتحمسًا وتعلقًا بما تشوق له، ورغبة في الحصول عليه.

وكما يُرغب القصص في الخير يخوف من غيره حين يبين عاقبة المكذبين للرسل الكافرين بالدعوة الموجهة إليه، وهو عذاب رهيب بحق يدفع العقلاء إلى الابتعاد عنه بتجنب كل ما يؤدي إليه، فيصدقون الرسول ويؤمنون بالدعوة؛ لأنهم لو كذبوا فسيأتيهم ما أتى ثمود وعاد من عذاب بينه الله - تعالى- في مثل قوله - تعالى- : ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ

عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة: ٥- ٧].

ومن ثم على الدعاة في العصر الحديث، وهم يواصلون تبليغ الدعوة أن يستعينوا بكل ما في القرآن الكريم من دروس وعبر، وفي القصص القرآني العديد من هذه الدروس؛ إذ تصلح القصة بذاتها درسًا إلهيًّا يتجه به الداعية مباشرة إلى الناس يقصها بتفاصيلها، ويأخذ العبر من أحداثها وحوارتها، وموقف الأشخاص وما حل بهم فيها، ومن المعلوم أن الاعتبار بالقصة قوي الأثر شديد المفعول، وتصلح أجزاء القصة وحدها للاستشهاد على المعنى الذي يريده الداعية من المدعوين في موقف أو حال أو هدف، على أن أبلغ الفائدة تكون في معرفة حقيقة الإنسان وصفاته الإنسانية من خلال القصص؛ لأن هذه المعرفة تمكن الدعاة من وضع مخططهم وفق حال الناس، والدعوة بالمنهج الحسن الجميل وعدم التصادم المباشر مع المعاندين الجاحدين.

ومن إعجاز القرآن الكريم في قصصه أنه قدم سور واضحة لحقائق كل أفراد النوع الإنساني، الذي يمكن الداعية من النجاح ويسهل له العمل.

ولعل ما في القصص من دروس تربوية يجعل الدعاة يهتمون بالرونق الجميل، والمظهر الطيب مع تخيل الموضوع القصير وتكراره بأوجه مختلفة، وإبراز العواقب الوخيمة والنتائج الطيبة ترغيبًا وترهيبًا للمدعوين.

إن القرآن الكريم كتاب الدعوة ودستورها، ويجب أن يستمر مددًا وزادًا للدعوة والدعاة على طول الزمان.

نماذج من القصص في القرآن الكريم والسنة المطهرة

ومن نماذج القصص في القرآن الكريم والسنة المطهرة قصص الأنبياء:

والغاية من قصص الأنبياء؛ أن قصص الأنبياء من أهم العوامل النفسية التي لجأ إليها القرآن في الجدال مع مخالفيه، وفي التبشير برضوان الله والتحذير من معصيته، وفي شرح مبادئ الدعوة الإسلامية وأهدافها وفي تثبيت قلب النبي ومن اتبعه، وفي الدلالة على صدق نبوة محمد ﷺ وأنه مبلغ عن ربه، فحين جاء محمد ﷺ بهذا القصص الرائع عن الأنبياء قبله بهذا البيان والتفصيل المحكم، وهو النبي الأمي الذي لم يتتلمذ على أحبار اليهود ورهبان النصارى وسواهم، كان بذلك يقدم أعظم دليل على أن ما يأتي به هو وحي إلهي، وقد أشارت بعض الآيات إلى هذا الغرض في مقدمات بعض القصص أو في ذيولها قال - تعالى- مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، كما قال الله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود: ٤٩].

كما أن الغاية من قصص الأنبياء بيان أن الدين كله من عند الله من عهد نوح إلى عهد محمد ﷺ، وأن المؤمنين برسل الله - عليهم السلام- كلهم أمة واحدة، والله الواحد هو رب الجميع، فليس بين الأديان السماوية أو الرسالات السماوية من يهودية ومسيحية وإسلام تنافر في الأصل، بل إنها جميعًا تستقي من نبع واحد، وكل نبي إنما يأتي برسالة متممة ومكملة لرسالة النبي الذي سبقه، قال - تعالى- مخاطبًا أمة محمد ﷺ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ [الشورى: ١٣].

والقرآن الكريم حين يعرض قصص الأنبياء وغيرهم نراه يأخذ مواد القصص من أحداث التاريخ ووقائعه، لكنه يعرضها عرضًا أدبيًّا ويسوقها سوقًا عاطفيًّا، ويبين المعاني ويؤيد الأغراض، ويؤثر بها التأثير الذي يجعل وقعها على الأنفس وقعًا استهوائيًّا يستثير منها العاطفة والوجدان، ويخرج بها من الدائرة التاريخية إلى الدائرة الدينية، ومن هذا الاتجاه الذي يقصده القرآن لا يصح حينئذٍ أن يؤخذ عليه أنه لا يتناول القصة من جميع أطرافه، وأنه لا يتسلسل في إيراد حدوثها مرتبة منظمة، وأنه يصعب فهم القصة من القرآن على من لم يطلع عليها من مصدر آخر؛ ذلك أن القرآن يأخذ من القصة ما يحقق أهدافه من التهذيب والوعظ، فحينًا يقص القصة كلها محبوكة الأطراف موصولة الأجزاء مرتبط بعضها ببعض في تسلسل واتساق يسلمك السابق منها إلى لاحقه حتى تصل إلى خاتمتها، كما نراها في سورة "يوسف".

وفي معظم الأحيان يأخذ من القصة بعضها؛ لأن في هذا البعض ما يحقق الهدف، وقد يلمح القرآن ويشير إلى القصة تلميحًا يستغني به عن الإطالة اعتمادًا على أن القصة معروفة مشهورة، أرأيت الخطيب حين يستشهد بقصة من القصص أتراه يعمد إلى القصة كلها فيسردها، أم أنه يعمد أحيانًا إلى جزء من القصة يورده في خطبته، وأحيانًا يكتفي بالإيماء إلى القصة والإشارة إليها من غير أن يكون في مثل هذا العرض نقص في الخطبة أو اعتراض على الخطيب.

وأسلوب قصص الأنبياء ظاهرة بارزة تلفت النظر في أسلوب القرآن في قصصه وغيرها، هو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس، وذلك من تأثير بلاغته التي ترجع إلى جمال ألفاظه وحسن نظمه وسمو معانيه، فإنك لا ترى شيء من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا ولا أشد تلازمًا وتشاكلًا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي

تشهد لها العقول بالتقدم في أبوبها، والترقي في أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

يقول الباقلاني: إن أسلوب القرآن خاص به لا يضارعه فيه غيره، كما أنه خارج عن الأساليب المعروفة، فلم يوجد ولن يوجد في العربية أثر يجاريه في بلاغته بحيث يحفظ جمال الأسلوب مع هذا المقدار من الطول، والاشتمال على الموضوعات المختلفة من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد والقصص، ومما يختص به أسلوب القرآن ذلك الإيقاع الموسيقي، الذي ينجم عن ترابط الكلمات بشكل خاص يكون نغمًا معينًا رتيبًا من مجموعة مقاطع صوتية، كما ينجو من الفاصلة واضطرابها أو تغيرها في نسق معين، فالفاصلة هي مفتاح الوزن القرآني وموسيقى نظمه.

هذه البلاغة القرآنية وما تحمل من معاني الهداية هي التي أخذت بألباب العرب في بدء الإسلام، فكانت أكبر حافز لهم للهداية، وهي التي شهد الكتاب والشعراء في كافة العصور بتفوقها، واستحالة مجاراتها.

هذا، ونجد هذا الكم العظيم في قصص الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم نماذج، ينبغي أن يستفيد منها الدعاة إلى الله ﷻ ما الذي يمكن أن يذكر من هذه النماذج أو يترك؛ إنه منهج متكامل تكفي فيه الإشارة إليه والإلماحات إليه على نحو ما فعلنا، ولا نستطيع أن نقف مع هذه النماذج القرآنية، ولو على سبيل الأمثلة السريعة، لكن هي الإشارات التي تغني عن العبارات والإجمال الذي يغني عن التفصيل.

ولعله حتى تستبين بقية عناصر هذه القضية أن نشير إلى القصص في سنة النبي ﷺ، فلقد أوردت لنا سنة النبي ﷺ الكثير من القصص؛ ليعيش الناس واقعًا عمليًّا مدعمًا بهذه الشواهد.

فهذا النبي ﷺ ذكر لأصحابه قصة الرجل الذي قتل مائة نفس، والحديث مشهور ومعروف، وذكر لهم النبي ﷺ قصة الرجل الذي أمر أهله أن يحرقوه بعد موته، كما ذكر لهم النبي ﷺ قصة الأعمى والأبرص والأقرع، وذكر لهم النبي ﷺ قصة الرجل وغصن الشوك، والحديث هنا يمكن أن نذكره في قوله ﷺ: ((بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخذه، فشكر الله له فغفر له))، وذكر لهم النبي ﷺ قصة الرجل الموسر الذي كان ينظر المعسرين، فتجاوز الله عنه، وذكر لهم ﷺ قصة الرجل الذي سقى كلبًا، فشكر الله له فغفر له، وذكر لهم ﷺ قصة السحابة المأمورة بسقي حديقة رجل صالح، وذكر لهم قصة الرجل الذي زار أخًا له في قرية أخرى حبًّا في الله فأحبه الله لحبه إياه، وذكر لهم ﷺ قصة أصحاب الأخدود في حديث مطول مليء بالعظات والعبر.

وذكر النبي ﷺ قصصًا أخرى أراد بها النبي ﷺ نشر الجوانب الخلقية، والتحذير من المفاسد الإنسانية، ولقد كان للقصة في السنة دورها الذي لا ينكر في ترسيخ وتدعيم الجوانب الأخلاقية، والتحذير من التصرفات الذميمة واللا أخلاقية، وقد ذكر النبي ﷺ طرفًا من ذلك حين ذكر قصة الرجل الذي كان يجر إزاره خيلاء فخسف به، وقصة المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها وعذبتها، وحين ذكر ﷺ قصة القرد الذي اهتدى لسرة نقود رجل غشاش فأتلف نفسها وأبقى الآخر، وقصة رجل شرب خمر فلم يمتنع من سائر الكبائر، وهكذا.

كما ذكر النبي ﷺ قصة أصحاب الغار، قصة المتكلمين في المهد.

إذًا القصة لها دورها الكبير في كتاب الله ﷻ، وفي سنة النبي ﷺ كما امتلأ بها تراثنا الإسلامي.

الأسلوب الكتابي وأهميته في مجال الدعوة إلى الله

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول :	خصائص الأسلوب الكتابي	٣٦٩
العنــــصر الثـــاني :	أهمية الأسلوب الكتابي في مجال الدعوة	٣٧٨
العنــــصر الثالـــث :	نماذج من الكتابات الدعوية	٣٩٢

خصائص الأسلوب الكتابي

فمع الكتابة من حيث خصائص الأسلوب الكتابي، وأهمية الكتابة في مجال الدعوة، ونماذج من الكتابات الدعوية، فبإذن الله - تبارك وتعالى- نرجو التوفيق والسداد من الله ﷻ.

ذكرت لك في بداية الحديثة عن التفرقة بين وسائل الدعوة وأساليبها، فذكرت على الجملة من الوسائل الوسائل المكتوبة والمطبوعة، وهناك قلنا: استعمل الإنسان هذا النوع قديمًا، ولكن بصورة بدائية، فحينما اخترعت الكتابة، كان الإنسان يكتب على الجلد وورق الشجر، وورق البردى وما شاكل ذلك، وبهذه الطريقة استفاد الإنسان منذ القديم بالكتابة حيث ضمنها ما أراد من آراء وأخبار، وأوصلها إلى غيره أو تركها للأجيال متعاقبة من بعده.

وهذه الوسيلة هي التي عرفت الناس حديثًا بالحضارات القديمة، وسجلت ما وقع لها من حروب وأحداث، وما كان فيها من ممالك ودول.

وفي عام ١٤٥٤ ميلادية تمكن الإنسان من اختراع المطبعة، الأمر الذي ساعد على إعطاء صور عديدة، وأشكال متعددة لنقل الفكرة والدعوة إليها؛ إذ يمكن إبراز الرسالة في شكل كتاب أو في نشرة أو في صحيفة أو في خريطة، وهكذا.

وتتميز الوسائل المطبوعة بما يلي:

الأول: تقوم على الرأي المدروس؛ لأن المصدر لا يكتب رسالته إلا بعد بحث وتأمل، ويحاول أن يصوغها في قالب بياني مشوق، دال على معناه بيسر وسهولة.

الثاني: تسمح للقارئ بتكرار قراءتها، والتحكم في ظروف التعرض لها مكانًا وزمانًا، وبذلك يتمكن من فهمها واستيعاب المراد منها، ولهذا نادى بعض الباحثين بأن نقدم الرسائل المعقدة في صورة مطبوعة لتحقيق الهدف منها؛ لأن الرسالة الشفهية سرعان ما تنسى، وقد يعود المستمع ويتساءل عن أمور سمعها، فلا يجد من يرد عليه، أما الرسالة المكتوبة فالرجوع إليها أمر ممكن في كل وقت، كما أن العودة لمصدرها أمر سهل ميسر.

الثالث: تتمكن الرسالة المطبوعة من الوصول إلى الجماهير المتخصصة والصغيرة الحجم لقلة تكلفتها، إذا قورنت بالوسائل الأخرى.

الرابع: تساعد الرسالة المطبوعة على الإقناع؛ لأنها لا تخترق السمع، ولا تفاجئ العين، وإنما يقدم القارئ عليها مختارًا راضيًا مما يجعله جزءًا من موضوعها، فيتخيل ويفسر ويرضى أو يرفض، وتلك هي مراحل الاقتناع.

الخامس: تؤدي الرسالة المطبوعة إلى الفهم الدقيق الهادئ؛ لأن القارئ يمكنه أن يقرأها عددًا من المرات، ويمكنه أن يجزء قراءتها، وله أن يتأكد من صدق ما جاء فيها بالبحث والتحري والتأمل.

وقد أدى التطور بالوسائل المطبوعة إلى قيام مؤسسات ضخمة ساعدت على اتساع النشر، وضخامة التوزيع مما جعلها بحق وسيلة للاتصال الجماهيري العريض.

هذا، ولقد علم المسلمون أهمية القراءة والكتابة منذ ظهور الإسلام، ولذلك كتب القرآن الكريم وقرأوه، واستمروا في محافظتهم عليه بالكتابة والقراءة والحفظ والفهم، واستفاد النبي ﷺ بهذه الوسيلة، فأرسل للملوك والرؤساء كتبًا تتضمن دعوتهم إلى الإسلام.

وفي العصور الحديثة تطورت الكتابة والطباعة بصورة رائعة، وأصبح من الممكن الاستفادة بهذه الوسيلة في الدعوة إلى الله تعالى بصور عديدة منها:

أولًا: الكتاب: يعد الكتاب وسيلة للدعوة إلى الله تعالى؛ لأن المؤلف حين يضع كتابه يقدم خلاله دراسة كاملة تحليلية لموضوعات هامة، مثل: الانفصال بين العقيدة والسلوك، الأسباب والعلاج، ظاهرة الوهن في المجتمع المسلم، الدعوة المثالية في القرية المصرية، العولمة الفكرية وموقف الإسلام منها، الداعية المثالي بين التصور والواقع، المحافظة على نفسية المدعوين.

طرق الإقناع في الدعوة إلى الله تعالى:

والمؤلف خلال إعداده للكتابة يقرأ العديد من المراجع التي تساعده في إخراج مؤلفه، ولذلك يغلب على الكتاب الإسلامي دقة النظر، وشمول التحليل، ووضوح النتائج، وهذا يساعد الدعاة والمدعوين.

ويجب أن نتذكر دائمًا أن العلوم الإسلامية مثل: التفسير والحديث والفقه والتوحيد، حفظها الكتاب للأجيال المتعاقبة.

ويمكن للكتاب الواحد أن يقدم عددًا من الموضوعات، ونستطيع أن نؤكد بوجه عام أن التغيرات، التي حدثت في المجتمع الإنساني على مر العصور أثرت تأثيرًا كبيرًا على الكتاب من ناحية شكله، وحجمه وموضوعه، ونوع الورق والتجليد وجمال الطباعة وغير ذلك.

وأصبح الكتاب في كل بلاد العالم هو الغذاء الروحي والعقلي، الذي يطالب به الجميع مثل رغيف العيش، فكما أن رغيف العيش يغذي الجسم، فكذلك الكتاب يغذي الروح والعقل، وقد ازدادت أعداد الكتب، وارتفع نتيجة لذلك

عدد المكتبات في العالم، فالكتب وسيلة هامة للثقافة، ونقل المعرفة، وهذا يساعد على تكوين الرأي العام، بالإضافة إلى فوائد المعرفة العلمية والمهنية.

وعلى كل حال فإن الكتب لها تأثير كبير في تكوين آراء الطبقة المثقفة بوجه عام، والطبقة الممتازة منهم بوجه خاص، وهؤلاء الذين يمثلون الرأي العام المستنير أو المسيطر.

ثانيًا: الكتيب: والكتيب تصغير كتاب، وهو عبارة عن فكرة سريعة توضع في كلمات موجزة، وفائدة الكتيب تظهر في إمكانية الحصول عليه، وإمكانية قراءته في أوقات كثيرة، وأثناء الحركة والعمل، والكتيب صغير الحجم قليل الصفحات، وهذا يسهل وضعه في جيب صغير مع سرعة الانتهاء من قراءته وسرعة فهمه؛ لأنه يعرض الموضوع مجملًا وبأسلوب سهل.

وقد أعد كثير من العلماء كتيبات إسلامية في موضوعات شتى، تخدم الناس مما يسهل عرض قضايا إسلامية على الكثيرين، ومن هذه الكتيبات: (حكم حلق اللحى)، (أداء مناسك الحج)، (ضرورة ستر العورة)، (فضل ليلة القدر)، (حكم شرب الدخان)، (كيف نستقبل رمضان؟) وهكذا.

ثالثًا: الصحيفة اليومية: الصحيفة اليومية وسيلة اتصال جماهيري؛ لأنها تصل للجماهير الغفيرة، ويجد الجميع خلالها مرادهم؛ لأنها تحتوي على أبواب وموضوعات شتى.

وقد اصطلح على أن الصحيفة هي التي تصدر كل يوم أو مرة في كل أسبوع بحجم معين، وصفحات كبيرة معدودة، أما المجلة الأسبوعية فعدد صفحاتها كبير يشبه الكتاب، وتهتم بالصور مع الحدث، وتتناول بالتحليل والتعليق في كافة موضوعاتها.

وتتميز الصحيفة عمومًا بما يلي :

أ- متابعة الأخبار في العالم كله بواسطة المندوبين والمراسلين، ووكالات الأنباء وهذا يقدم للقارئ صورة للعالم كله كل يوم.

ب- سهولة الحصول على الصحيفة كل يوم لقلة ثمنها ؛ ولأن المشرفين على الصحف يتبارزون في السبق إلى القارئ.

ج- تخدم الصحيفة الجانب الذي قامت له، فهناك الصحف الاقتصادية والزراعية والسياسية، ويجب أن تظهر صحف الدعوة ؛ لتهتم بنشر الإسلام وتبليغه للناس.

د- الصحف الإسلامية الجادة هي التي لا تنشر الصور العارية، ولا الأخبار الفاضحة، ولا الإعلانات المحرمة، فإذا أشارت إليها كأحداث، فإنها تقدمها بشكل منفر.

وعلى الدعاة أن يهتموا بهذه الوسيلة لخطورتها ولأهميتها عند القراء، ولانتشارها الواسع، إنها لا تحتم قراءتها في وقت معين، تترك للقارئ الحرية في اختيار وقت قراءتها، كما أنها تسمح بقراءتها عددًا من المرات ؛ ليرجع إليها من يحتاج لذلك في الوقت الذي يريده.

لذلك يجب على المسلمين في أنحاء المعمورة استغلال الصحافة اليومية لصالح الدعوة الإسلامية، ويجب نشر المواد الإسلامية بها من أخبار وتفسيرات لها وآراء وتحقيقات، كما يجب بيان أحكام الإسلام وشرح مفاهيمه للناس.

إن الصحف اليومية والنصف أسبوعية والأسبوعية إلى جانب المجلات تعتبر سلاحًا قويًّا وفعالًا ومفيدًا لو أحسن استغلاله لصالح الإسلام، إن الفقهاء

يقولون: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولذلك نقرر أن استخدام الصحافة في نشر الدعوة الإسلامية أمر واجب على كل مسلم يستطيع ذلك.

والصحيفة لها أبوابها المختلفة، وتتسع لأشكال الكتابة المختلفة، وفيها الكتّاب والصحفيون المتعمقون فيما يكتبون والفاهمون لما ينشرون.

من هنا كانت أهمية الصحيفة لخدمة الدعوة الإسلامية، فهي تستطيع أن تناقش القضايا الإسلامية خاصة القضايا التي اختلف الناس حولها في العصر الحديث مثل قضية تطبيق الشريعة الإسلامية، وهل تطبق فورًا ومرة واحدة أو بالتدرج؟ وهل الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان أم لا؟

وهناك القضايا التي يحاول أعداء الإسلام تشويهها مثل تعدد الزوجات والطلاق، إن كثيرًا من الناس ينقصهم معرفة أن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، وأنها واجبة التطبيق على الفور، وجملة واحدة في الجرائد اليومية يمكن أن تقوم بدور كبير في ذلك، كذلك الأسبوعية وكل المطبوعات إذا استخدمت لصالح الدعوة الإسلامية.

لقد اهتم الساسة ورجال الأحزاب في العصر الحديث بهذه الوسيلة، فأصدروا صحفًا تنطق باسمهم، وتزين سياستهم، وتحبب الناس فيهم، والدعاة هم الأولى بذلك خدمة لدين الله تعالى ونفعًا للناس أجمعين.

د- الدوريات: ويراد بالدوريات المطبوعات التي تقدم للقارئ بصفة دورية كل ثلاثة أشهر أو نصف سنة أو سنة، ويراد بالحوليات المطبوعات التي تصدر كل عام، والدوريات أو الحوليات تتضمن دراسة موضوعات بحثية طويلة، فليس دورها نشر الأخبار ومتابعة الأحداث.

وتصدر الحوليات والدوريات من هيئات كبيرة متخصصة، والدوريات تفيد العلماء والخاصة؛ ولذلك يحتاج إليها الدعاة، ويمكن عرض موضوعات دعوتها خلالها.

هذا، وعلى الدعاة إلى الله ﷻ أن يختاروا من وسائل نشر الدعوة والاتصال بالناس أنجح الوسائل، وأقواها في العصر الذي يعيشون فيه، حتى تصل دعوتهم إلى كل مكان، شأن الدعاة إلى الله الذين ذكرهم القرآن الكريم، حتى قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠] أن دعوة الرسل وصلت إلى جميع أنحاء المدينة وإلى أقصاها.

وقد أوجد التقدم العلمي من وسائل الاتصال ما يعتبر ذا أهمية بالغة في تكوين الأفكار ونشر المعتقدات، ومنها على سبيل المثال: الصحف والمجلات والإذاعة بنوعيها، المسموعة منها والمرئية، وكلها تيسر سبيل الدعوة إذ لا يستطيع أحد من الناس اليوم أن يجمع الملايين في مكان واحد، ولا أن يتصل بهم عن طريق الخطابة فيهم، ولكنه بكتابة مقال في صحيفة أو مجلة، أو بنشر حديث في إذاعة يستطيع أن يتصل بهم ويؤثر في أفكارهم، ويشارك في تكوين عقائدهم عن طريق الكلمة التي تفعل فعلها في المجتمعات.

والمقال من الداعية يأخذ سمتًا متميزًا عن مقال الذين يبحثون عما يروج ويستغرب، بدافع الكسب المادي يخوضون فيه دون نظر إلى اعتبار ديني أو أخلاقي، والدعاة يكتبون مقالاتهم لكافة الناس، ويقتضيهم ذلك أن يتبسطوا فيها؛ ليستفيد السواد الأعظم من الأفراد، فتكون المقالة سهلة، وكلماتها واضحة نابعة من قلب مفعم بالإيمان والحب، موجهة إلى الخير، داعية إلى فعل المعروف عن فهم لتوجيهات الدين، يخاطب الناس بما تطيقه عقولهم، كما هو التوجيه السديد السليم.

والتزلف والتبذل لا يحقق الغرض الذي يرمي إليه الدعاة، وعليهم أن يتخذوا لأنفسهم منهجًا يجمعون فيه بين المعقول والمنقول بحيث لا يجحف أحدهما بحق الآخر، كما يختارون من الأبواب ما يمس قضايا الحياة، ويعالج نواحي القصور، ويدعم الإصلاح، ويقصد الخير، وينصر الحق، ويدفع عن المظلوم، ويرد العدوان، فقد تكفل الله ﷻ بنصرة الحق، وإن طال الزمن.

ويكون أسلوب الدعاة في مقالاتهم واقعيًّا لا خياليًّا، فلا يطالبون بما يصعب تنفيذه أو يشق على الناس اتباعه، والدين يسر لا عسر وتوجيهات الرسول ﷺ لأصحابه: ((يسروا ولا تعسروا، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين)).

والمقالة الحاضرة، والموضوع المناسب، والمادية القوية وسيلة لا غنى عنها لمن يريدون لدعوتهم النجاح، والفشل مرة لا يمنع من تكرار المحاولة وإعادة الكرة، وإذا صدق العزم وضح السبيل وذللت العقبات.

والرد على مقالات الكاتبين الذين يسيئون إلى المفاهيم الإسلامية واجب، والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، ولعل الله ﷻ قد ادخر لدعاته هداية إنسان إلى الحق، وعودته إلى الرشاد، فبسببهم يعدل عما كتبه، أو يصلح ما أفسده، والسكوت على المنكر يفسح المجال لمن يريد هدم حصون الإسلام، والغيرة على حرمة الدين تدفع الدعاة إلى الدفاع عنه، ومن عرف الحق عز عليه أن يراه مهانًا بين الناس.

والصحف والمجلات ذات أثر فعال، والمقالات فيها لا تقل أهمية عن خطبة تلقى أو محاضرة أو حديث، والكلمة الطيبة ترفع العبد عند الله درجات.

والنصوص صريحة في المطالبة بالتبليغ بكل القدرة والطاقة، والمؤمنون مأمورون بالنفرة لتلقي العلم من الرسول ﷺ، أو ممن يخلفه في أمته ممن يقوم بالدعوة

والهداية إلى الله لتقوم الحجة على العباد، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

كما أمر الله ﷻ بالهجرة في سبيل نصرة الدعوة، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٠].

كما أوجب الله على الأمة الدعوة إلى الخير، وبين أن السكوت عن الشر يؤدي إلى استفحاله، ولا بد من البيان حتى لا تقود الأمة الأهواء والشهوات، وقد قال ﷺ: ((لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر؛ أو ليوشكن الله أن يعمكم بعذاب، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لكم)).

كما تقتضي الأسوة التي تجب على المؤمنين برسول الله ﷺ الاهتداء بهديه، وإعلان ما أعلنه من وسائل الدعوة، والدعاة إلى الله تعالى لا يحقرون أنفسهم، وإذا رأوا أمرًا لله فيه مقال قالوه، ولا يخشون في الحق لومة لائم، وهم يعرضون أفكارهم واضحة دون تعقيد أو تشويه يخرجها عن طبيعتها الفطرية البسيطة حتى لا تستعصي الدعوة، وتلقى القبول لدى الناس.

والإسلام بطبيعته لا يثير مصاعب عقلية، ولا ينزع منازع الخيال، ويخاطب الفطرة بما يتفق عليها؛ لأنها فطرة الله التي فطر الناس عليها، فإذا احتاج الدعاة إلى ما هو أكثر من المقالات، وصدق منهم العزم، وعلت الهمة فإن الله ﷻ ييسر لهم السبيل وينفع بهم، ويهديهم سواء الصراط.

أهميــة الأسـلوب الكتــابي في مجــال الــدعوة

هذا، وقد ورد في فضل الكتب والنظر فيها والعناية بالدفاتر، وما هو مكتوب في كتب أهل العلم من ذلك الكثير، وقد جاء في الأثر عن أحمد بن عمران قال: كنت عند أبي أيوب أحمد بن محمد بن شجاع، وقد تخلف في منزله، فبعث غلامًا من غلمانه إلى أبي عبد الله بن الإعرابي صاحب الغريب، يسأله المجيء إليه، فعاد إليه الغلام، فقال: قد سألته ذلك، فقال لي: عندي قوم من الإعراب، فإذا قضيت إربي معهم أتيت، قال الغلام: وما رأيت عنده أحدًا إلا بين يديه كتبًا ينظر فيها، فينظر في هذا مرة وفي هذا مرة، ثم ما شعرنا حتى جاء، فقال له أبو أيوب: يا أبا عبد الله سبحان الله العظيم تخلفت عنا، وحرمتنا الأنس بك، ولقد قال لي الغلام: أنه ما رأى عندك أحدًا، وقلت أنت: مع قوم من الأعراب، فإذا قضيت إربي معهم أتيت.

فقال ابن الأعرابي:

لنا جلساء ما نمل حديثهم	❖	ألباء مأمونون غيبًا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى	❖	وعقلًا وتأديبًا ورأيًا مسددا
بلا فتنة تخشى، ولا سوء عشرة	❖	ولا نتقي منهم لسانًا، ولا يدا
فإن قلت: أموات فما أنت كاذبًا	❖	وإن قلت: أحياء فلست مفندا

وقيل لأبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب: توحشت من الناس جدًّا، فلو تركت لزوم البيت بعض الترك، وبرزت للناس كانوا ينتفعون بك وينفعك الله بهم، فمكث ساعة ثم أنشأ يقول:

إن صحبنا الملوك تهوى علينا ❖ واستخفوا كبرًا بحق الجليس
أو صحبنا التجار صرنا إلى البؤس ❖ وصرنا إلى عداد الفلوس
فلزمنا البيوت نستخرج العلم ❖ ونملأ به بطون التروس

وقال غيره:

نعم المؤانس والجليس كتاب ❖ تخلو به إن ملك الأصحاب
لا مفيشًا سرًا، ولا متكبرًا ❖ وتفاد منه حكمة وصواب

وقال آخر:

يسلي الكتاب هموم قارئه ❖ ويبين عنه إن قرأ نصبه
نعم الجليس إذا خلوت به ❖ لا مكره يخشى، ولا شغبه

وهكذا نعرف فضل الكتاب وفضل الكتب، تلك التي قيد فيها العلم حتى قرأنا عن عمرو بن العلاء قال: ما دخلت على رجل قط، ولا مررت بابه فرأيته ينظر في دفتر وجليسه فارغ إلا حكمت عليه، واعتقدت أنه أفضل منه عقلًا.

وكان عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز لا يجالس الناس، ونزل المقبرة، فلا كان لا يكاد يرى إلا وفي يده دفتر، فسأل عن ذلك، فقال: لم أر قط أوعظ من قبر، ولا أمتع من دفتر، ولا أسلم من وحدة.

وروى الحسن اللؤلؤي إن صح عنه أنه قال: لقد غبرت لي أربعون عامًا ما قمت، ولا نمت إلا والكتاب على صدري. وسئل عبد الله بن محمد بن إسماعيل البخاري عن دواء للحفظ، فقال: إدمان النظر في الكتب.

وقد أكثر أهل العلم والأدب في جمع ما في هذا الباب من المنظوم والمنثور، مما يدل على فضل الكتابة، سيما إذا ما استخدمت في الدفاع عن دين الله، وفي الدعوة إلى الله.

ونريد أن يلاحظ الداعية أنه إذا كتب أن يكتب للناس كافة عالمهم وجاهلهم، الأمي منهم وغير الأمي، وهذا يقتضيه أن ينزل إلى المستوى الذي يألفه الجمهور في فهم ما يقرأ أو يسمع مستوى الألفاظ السهلة والأفكار الواضحة، وحسب الفكرة وضوحًا أن تكون نابعة من القلب، فتكون مثلًا تعبيرًا عن عاطفة وطنية، أو تصويرًا لوجدان ديني، أو عرضًا لمثل إنساني، أو نقدًا توجيهيًّا لأعمال المجتمع وأحوال الناس، فإذا كانت الفكرة ماضية بروح العاطفة، فهي لا شك سهلة واضحة.

هذا ووضوح الفكرة لا يغني عن وضوح اللفظ أو عن نزول اللفظ إلى مستوى الجماهير، سأل أحد الدعاة: ما رأيك في كتابتي؟ فقال له صاحبه: إن أسلوبك سما ببضاعتك فوضعها في شرفات الدور الأعلى، فرجل الشارع لا يراها، ولا يتأثر بها، وإن كان أهل الطبقة العليا يرونها ويعرفون لها مزاياها، ولو أنك نزلت ببضاعتك، فوضعتها في معارض الدور الأول لرآها الجميع، وانتفع بها رجل الشارع، فقال الداعية، وقد أحس لهذا القول مرارة: إننا مكلفون أن نرفع الجمهور لمستوانا، لا أن ننزل إلى مستوى الجماهير، فقال له صاحبه: لو أنك أستاذ في اللغة والأدب لحق لك أن تقول هذا، ولكنك صاحب دعوة، وقائم على رسالة، مكلف أن تقابل الجميع، وأن تكلم الجميع، وأن تفهم الجميع، فإذا لم تخاطب الناس على قدر عقولهم أضعت الوقت وأخفقت في الرسالة، ألا ترى إلى التاجر يحتال في عرض تجارته وتنسيقها تنسيقًا مغريًا بالوقوف عليها أو الشراء منها؟! فأنت كذلك تعرض على الناس تجارة، فانظر كيف تثير أشواقهم وأذواقهم إليها.

ونقرر على ما مضى أن الجماهير من حيث الإقبال على القراءة كالطفل المعود؛ أي: الذي بمعدته مرض إذا رأى الطعام أشاح بوجهه، وانقبضت معدته في جوفه، فلا يزال به أبواه يغيرانه ويلطفانه ويثيران شهوته، ويحتالان لتحبيب الطعام إليه لعله أن يأخذ منه شيئًا يقيم به أوده.

نعم قد نرى كثيرين من العامة يقرأون، ولكنهم يقرأون ما لا يسمن، ولا يغني من جوع، يقرأون كتب التسلية وقصص اللهو الفارغ، الذي يقطعون به أوقاتهم ويرتاحون بها من أنفسهم.

ومن هنا نرى الصحافي اللبق يدرك هذه الحقيقة، ويأتي إلى الجمهور متطامنًا خفيف الخطى، فإذا عرض عليه خبرًا عرضه مثلًا في قصة قصيرة أو نكتة لبقة، أو فيما يشبه هذا، فهو يحتال على طفله المعود ليعطيه ما يشاء من فنه وفكرته، فتروج صحيفته وتغمر الأسواق، وتسيطر على الأندية وتدخل البيوت، وتستقر مع القراء في المخادع، وعلى الداعية أن يفهم هذا، وأن يدخل الطفل المعود في حسابه، وليس له أن يحتج بأنه لا يستطيع فعل الصحافي، وأن وقار الدعوة وجلال معانيها ليس مما يعرض هذا العرض، فإنه إذا تحرك وحاول وجرب لا يعدم نتيجة طيبة، وثمرة مبشرة بخير كثير، ليس ضروريًّا أن يتبذل الداعية، ولكن ليس ضروريًّا أن يتزمت أيضًا.

وليس من الحتم أن يجري كلامه كله عاميًّا، ولكن ليس من الحتم أن يجعله كله جاريًا على ما حوت القواميس من الألفاظ اللغوية الصحيحة، ومما يهون على الداعية مهمته أنه لم يكتب للجمهور عن الرق في الإسلام، أو كيف سما الإسلام بالمرأة أو نحو هذا مما يدخل في باب الموضوعات العلمية، لم يكتب للجمهور في هذا، إنما سيتحدث في هذا عن واقع الحياة اليومية.

وإن واقع الحياة اليومية هو تاريخ الإنسانية الحاضر، وهو مستودع أخطائها وصوابها، فإذا أخذ الداعية مادة حديثة من صميم ما يجري في هذه الحياة، وتحدث عن صوابه وخطئه، وصور كلًّا في صورة الطبيعية الدارجة، وعالجه بروحه الربانية ووزنه بميزانه الإلهي، فقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وسيجد أن كلامه قد غمر الأسواق، وسيطر على الأندية، ودخل البيوت، واستقر مع القراء في المخادع؛ لأن الحياة تولت حمله إلى كل ذلك.

وليس عليك من حرج بعد هذا أن تكون قد أجريت في كلامك لفظًا عاميًّا، أو عبارة متداولة أو مثلًا سائرًا أو نحو هذا مما يخفف على وقعه على الأسماع، ويعين على بيان حقيقة المراد، ولأمر ما كره رسول الله ﷺ الثرثارين المتفيهقين، والذين يخاطبون الناس بما لا يفهمون، وكان ﷺ يدخل في كلامه ألفاظًا أجنبية، ويعدل عن لهجته الأصلية؛ ليخاطب وفود القبائل بما يفهمون من لهجات، فهل نعتبر!.

هذا، وإن كانت الخطابة من شعائر الإسلام، ودلائل امتلائه بالحياة، وسعيه إلى الامتداد، وربما كان تأثيرها الروحي نفاذًا أخاذًا، وأن الخطيب يشعر الجماهير حوله، وأن الخطيب يشبه مولد الكهرباء الذي يولد الإيمان في نفوس سامعيه، فمع هذه المنزلة للخطابة وما ارتبط بها من أجواء عاطفية يجعل مجالها متجهًا إلى المشاعر قبل كل شيء، مع الاعتماد على سلامة المنطق بداهة، لكن الكتابة على العكس، إنها تتجه إلى العقل وتقوم على الاستعراض المنظم المتأني للأدلة المؤيدة والمفندة.

ولا بأس أن ينضم إلى ذلك أسلوب جيد وسياق جذاب، ثم إن الخطابة موقوتة الفرص، منتهية بانتهاء مجالسها وانفضاض مجامعها، أما الكتابة، فهي أخلد على

الزمن، وأعصى على الفناء، والواقع أن الخطب النفيسة تتحول إلى أدب مكتوب، فإن كانت حافلة بعلم نافع أو وعظ بليغ كان بقاؤها في الصحف امتدادًا في إمكان النفع بها، وإن كان صاحبها قد مات وضاع الأثر المقترن بسماعها منه، وهي تنبض بالحياة من فمه، وتخرج مفعمة بخصائص نفسه.

والكتب المؤلفة في خدمة الرسالات المختلفة كثيرة، ومداها في نشر الدعوات بعيد، وحسبنا أن الإسلام يعتمد في خلوده ونضارة رسالته، وتجدد دعوته على كتاب فذ هو معجزة الدهر، وصوت السماء الصدوق المبين ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

ومنذ بدأ الإسلام والمؤلفون دائبون على مد رواقه بالقلم، حتى لقد روي في الأثر تمجيدًا لهذا الجهد: يوزن مداد العلماء بدم الشهداء يوم القيامة.

والكتابة العلمية تزحم تراثنا الثقافي، وتدفع به للطليعة في المواريث الأدبية لأهل الأرض، بل نستطيع الجزم بأن دينًا من الأديان، أو مبدأ من المبادئ لم يصنع الحركة العقلية الجبارة التي صنعها الإسلام في العالم، والتي أنشأ بها حضارة ما زالت غنية كل الغنى بأسباب القوة والازدهار.

والمنقبون الآن في مخلفات الفكر الإسلامي، كأنما ينقبون في أرض مليئة بآبار البترول أو مناجم الذهب والحديد، كلما بحثوا عثروا على كنوز مدفونة وخير خبيء، وعظمة غطاها التراب، ولا عجب، فإن الفجر الذي طلع به القرآن عن الوجود أنعش العقل الإنساني إنعاشًا لا نظير له، وأطلقه ينشط ويجوب ويكدح، وإذا كان هنا لك مآخذ على هذا النشاط، فهو أنه بلغ أحيانًا حد الإسراف الذي يجهد ولا يغني.

وطبعي أننا لا نريد هنا أن نؤصل للكتابة العلمية أو أن نتحدث عنها بأصولها وفروعها، فذلك أمر تفرد له مجلدات، إنما نريد هنا إثبات ملاحظتين صغيرتين، تتعلقان بموضوع الكتابة من أجل الدعوة:

أولاهما: أن الكتابة الأدبية في خدمة الإسلام ليس لها اتساع الكتابة الفنية وانتظامها؛ وأعني بالكتابة الأدبية ما يذكي العاطفة الإنسانية بعد ربطها بالإسلام، وأخذها بتعاليمه وعباداته، وقد تكون للصوفية كتابات مشحونة بما يذكي المشاعر ويرقق الأفئدة، ويحول تكاليف الإيمان إلى أعمال مستحبة، لكن شطحات الصوفية وأخطاءهم الكثيرة تشوب هذا اللون من الأدب، وتجعل الاستفادة منه عسرة أو خطرة.

وفي عصرنا هذا ارتقت الكتابة الأدبية التي أنوه بها في آثار رجلين جليلين، هما: الشاعر الهندي محمد إقبال، والأديب العربي مصطفى صادق الرافعي في كتابه (وحي القلم)، والذي أريده لونًا من الأدب الديني يرسم معالم الإسلام، كما يرسم الشاعر المفتون بالطبيعة الحدائق الناضرة، والسماء الضاحية والنجوم الزاهرة والليل الساجي.

نحن فقراء في هذا الضرب من الكتابة الراقية، مع شدة الحاجة إليها في تربية العواطف وصقلها باسم الله.

والملاحظة الأخرى أن الكتابة العلمية التي استفحلت قديمًا، ثم جمدت أيام الانحلال والتخلف وهجوم الاحتلال، لا تزال دون تقدم الوعي الإنساني في هذا العصر، ودون اتساع دائرة التعلم والتعليم، وانكماش الأمية الفكرية في كل قطر.

إن المحدثين ما زالوا عالة على القدامى، ولولا صلاحية القرآن بشتى الأمصار، لكان تخلف المسلمين العلمي سببًا في زوالهم، والمطلوب أن ينتفض الجيل المعاصر انتفاضة الحياة، ويشرع في خدمة الإسلام الخدمة العلمية المناسبة لهذا العصر. وإنني لأذكر محزونًا مكروبًا أن العلماء المجددين لأمر الإسلام يكافحون في وجه عنت هائل، ويبذلون جهود الجبابرة، ثم يطويهم الجهل والغمط والنكران، فما يكاد أن ينتفعوا بآثارهم إلا الأقل الأقل.

لقد مات محمد فريد وجدي بعد حياة مليئة بالمجد العلمي، وها هو ذا قد مرت سنين على موته، فما ذكره أحد بكلمة رثاء، ولا طبع له كتاب نقد، ويوشك أن يطويه ومؤلفاته النسيان، فما هذا، والحال كذلك بالنسبة للشيخ محمد رشيد رضا العالم الأديب الجليل الشأن، وأعرف غيرهم من أصحاب الأسماء التي لم تحظ بالشهرة، وإن أسدت للإسلام أعظم المنافع.

فالشيخ أحمد عبد الرحمن البنا رتب (مسند ابن حنبل) وفق الأحكام الفقهية في خمسة وعشرين مجلدًا، ومع ذلك فقد ترك الدنيا، وكأنه رجل أمي لم يخط حرفًا فضلًا عن أن ينشأ هذا العمل الضخم.

إن قليلًا جدًّا هم الذين أحسوا فقده، ولسنا نأسى على الموتى، فقد أفضوا إلى الله الذي يضاعف الحسنات، وإنما نأسى على الأحياء الذين لا يحسنون الانتفاع بثمرات المجددين الذين عاشوا مع الزمن يدافعون عن الإسلام، ويحرسون أركانه ويجلون بريقه.

إن الكتابة العلمية الواجبة في هذا العصر يجب أن تتسع وتطرد، وهناك أمور ذات بال، نحب أن نلفت النظر إليها حتى يؤدي القلم حق الإسلام عليه في ذكاء، وحصافة ومقدرة وفق مقتضيات الأزمان.

هذا، ولعلك أدركت أهمية الكتابة والتأليف في مجال الدعوة، لقد امتلأت الدنيا بالمؤلفات، وأصبح في كل بيت مكتبة، بل في كل مكتب مكتبة، وشجع تقدم فن الطباعة وصناعة الورق وسهولة النقل على مضاعفة المطبوعات بشكل هائل، وانتهى عهد النسخ على الشمعة وصناعة الوراقة الضعيفة، فما هي نوعية تلك التآليف؟

إن الكتب والمجلات الجنسية الآن تحتل مكان الصدارة دون جدال، ثم تأتي بعدها الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والدورية، ثم تأتي الروايات والقصص وكتب الجريمة والفساد، وقد تأتي الكتب الدينية في آخر القائمة، وهذا شيء منطقي في كل المجتمعات المادية، التي لا ترى لها حاجة للدين، فالذي لا شك فيه أن الغذاء الفكري المتداول للكبار والصغار على السواء، ليس هو الأفضل، ولا هو الأنسب.

إذًا لا بد للدعاة من الانتقاء والتأليف، ونعني بالانتقاء اختيار ما يصلح من الموجود للتثقيف الشخصي، وحسن تنشئة الجيل الجديد، أما التأليف فلا بد منه لإكمال النقص الظاهر في سوق الكتب، ويكون التأليف ذا شقين.

الشق الأول: اختصار الكتب الكبيرة النافعة، وإعادة طبعها بتبويب حسن وإخراج جميل يشجع على القراءة.

والشق الثاني: تأليف كتب جديدة في أبواب نافعة، تناسب العصر ذلك العصر المتقدم علميًّا، المتمرد نفسيًّا، المتخلف عقليًّا.

ونقد المؤلفات، وفي دنيا الكتب اليوم عدد لا يستهان به من الكتب العربية التي ألفت في البحوث الدينية، وإذا استثنينا عددًا قليلًا منها، فيمكن أن توجه لأكثريتها الانتقادات التالية:

الأول: التكرار؛ إذ لا تكاد توجد رابطة التنسيق بين المؤلفات، فكل إنسان يكتب ما يعن له.

الثاني: ضعف المستوى العلمي، وفقدان المنهجية والدراسة المسبقة.

الثالث: سوء الإخراج: كضآلة الحروف وكثرة الأغلاط وسوء الترتيب.

الرابع: عدم الموضوعية، وإهمال الأبواب المطلوبة فعلًا مثل ربط الدين بواقع الحياة، ونقص الدراسات العلمية لمواجهة الأفكار المضادة، والعناية بمناهج البحث السليمة.

وعلاجًا لهذه الفوضى التأليفية، نقترح على المنشغلين بالدعوة الإسلامية أفرادًا، وجماعات أن تنشأ لجنة ثقافية على مستوى التجمع الإسلامي الكبير، تكون مهمتها مراجعة مشروعات التأليف الإسلامي، وتقديم التوصية بشأنها دون محاباة، ولا مجاملة، بشرط أن تعرف مكانتها، وتنجو من أي سيطرة سياسية أو مذهبية أو محلية، ولا مانع من أن تدفع لها رسوم معينة، كأجور للمراجعة، كما توصي دور النشر باحترام هذه اللجنة، أو بوضع أسمها على المؤلفات المعتمدة لتعطيها مزيدًا من الثقة.

وتكون مهمة هذه اللجنة أن تتناول المخطوط الذي يقدم لها، وتنظر فيه ثم ترد على مرسله خلال مدة معينة بمثل قولها: نشر في موضوعه كتاب كذا وكذا، وغيره أولى بالنشر منه، أو تقول: كتاب جديد في موضوعه جدير بالنشر، ربما يلقى معارضة من جهة كذا، أو تقول: يحسن أن تضاف إليه الأبواب الآتية، مع ذكر المراجع، وحذف الأبواب الآتية، وتعمل له فهارس، وتقول: ينقص حجمه أو يزيد حجمه إلى كذا... إلى آخر هذا التعديل.

وبهذه الطريقة يقل ما نشاهده للإنتاج الهذيل، ويبرز الإنتاج الجيد، وتنشأ رابطة قلمية على مستوى موثوق، وقد ينبثق عنها شيء أفضل ومن سار على الدرب وصل.

ولا شك أن الثغرات التي يجب ملؤها بمؤلفات جديدة ليست قليلة، والمجال واسع مفتوح، وإنما ينبغي الحذر والأناة، فعلينا أن نجتهد في التقصي والاطلاع؛ لنتأكد من أن الذي نحاوله لم يسبقنا إليه أحد بمثله أو بأفضل منه، وعلينا أن نستأنس بوجهات نظر إخواننا العلماء والباحثين قبل طرح الكتاب في السوق، حتى لا نتعرض نحن أو يتعرض كتابنا لهجوم مضاد من المتربصين بالعمل الإسلامي أو الذين يرون أنفسهم أولى بقيادته، وهم كثير.

وعلينا أن نلاحظ في مادة التأليف أن تكون ميسرة لخدمة الدعوة مع سهولة التناول، كسهولة الحمل والاطلاع والتدبير والتكلفة المادية أيضًا.

وإذا لم يجد الداعية الفرصة أو القدرة على التأليف بنفسه، فليقترح الموضوع على غيره، أو ليدل الناس على ما أعجبه من كتب والمقالات، أو يجتهد في تحذيرهم من شرورها.

ويزداد الاهتمام بالشئون الصحفية في العالم يومًا بعد يوم خصوصًا في البلاد، التي تملك التعبير عن الواقع بحرية أكبر، وبعض الأدباء يرفض أن يكون وزيرًا، ويتمسك بعمله كصحفي، ولا عجب، ولا عجب في ذلك فالوزير يوجه وزارته فقط إن استطاع توجيهها، لكن الصحافي الناجح يملك توجيه الأمة بأسرها، وربما غيرها من الأمم.

وليس الداعية الناجح هو الذي يلبس عمامة أو طربوشًا واقفًا في المسجد؛ ليقول للمصلين عليكم بإقامة الصلاة، ولا هو الذي يسعد بإلقاء الأوامر الشديدة على

مجموعة من البؤساء؛ ليزيدهم بها بؤسًا أو يستدر دموعهم، إنما الداعية الناجح هو الذي يقوم بالدور الممكن في نشر الوعي السليم والفقه بين الناس، أو الدور الممكن في تربيتهم على السلوك الحسن.

فلماذا تظل المنابر المهمة والمراكز الحساسة حكرًا على الذين لا يعلمون أو الذين لا يعملون؟ إن على الدعاة أن ينتشروا في كل مكان، وعليهم أن يشغلوا من الأعمال ما يرونه الأفضل لتثبيت مكانهم، وما يرونه الأرجى لنشر دعوتهم، ومن ذلك المقال، ومنه المقال الصحفي، فليس هذا مجال التفصيل الآن في فن كتابة المقال، فالوصول إلى المستوى الجيد يحتاج للدراسة النظرية الموضوعية، ثم التدريب المستمر بإشراف أهل هذه الصناعة، وإنما المقصود هو أن يأخذ الداعية سمتًا متميزًا في مقالاته، متميزًا عن تجار الأدب، الذين يبحثون عما يروج ويستغرب فيخوضون فيه بدافع الكسب الأدبي والمادي، دون نظر إلى أي اعتبار ديني أو إصلاحي أو أخلاقي، ومتميزًا عن محترفي الوعظ التقليدي، الوعظ المرتبط بوظيفة معينة، لها مفتش وتقرير وترقية، واعتبارات لإرضاء المسئولين، دون توفر الانفعال الداخلي، ومتميزًا في المنهج بحيث يكون جامعًا بين المعقول والمنقول، فلا يجحف بحق أحدهم على حساب الآخر.

فديننا يحترم العقل، ولكن لا يؤلهه ويؤمن بالمنقول الصحيح، وإنما يتناوله ببصيرة وتدبر، ومتميزًا في الموضوع فيختار الأديب الداعية من الأبواب ما يلامس حاجة القراء، ويمس قضايا الحياة، ويعدل المائل بانحرافات الجماهير، ويكون أسلوبه واقعيًّا لا خياليًّا، فلا يطالب الآخرين بما يتعذر تنفيذه أو ما يشق عليهم بالذات، وفي هذه الحدود يكون المقال مثمرًا.

إن اقتحام مجال الصحافة ليس شيئًا عسيرًا حتى تلك الصحف، التي يصفها البعض بأنها منحرفة الاتجاه يمكن التعامل معها، وقد لا يكون العيب فيها، ولكن فيمن يعملون فيها، والصحيفة كالآلة تحتاج للوقود الدائم، فإن كانت مقالتك حاضرة وموضوعها مناسبًا، ومادتها قوية، فإن فرص النشر تتوفر لك حتمًا، والنجاح يؤدي إلى مزيد من النجاح، وقل مثل ذلك عن مجالات الإذاعة والتلفزة، هذه الوسائل الجبارة أهل الحق أولى بها. ولا يمنع حصول الفشل مرة من المحاولة وإعادة الكرة، وإذا صدق العزم وضح السبيل.

ومما جاء بشأن القلم وفضله والكتابة ما قاله الله ﷻ حين أقسم بالقلم، ونوه بشأنه وبالكتابة التي هو آلتها، فقال ﷻ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] إن الله ﷻ نوه بالقلم، فأضاف التعليم به إلى نفسه، وجعله من كرمه، وسمى به سورة من سور القرآن سورة "القلم"، كما أن أول سورة نزلت فيها ذكر القلم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١- ٥]، فبه تدوين العلوم، وحفظ الحقوق، وهو سبب للمعرفة والوصول إلى لمراتب والمناصب.

وقد جاء في شأن القلم أن الله ﷻ امتن به على عباده، وأقسم به، فالقلم منار الإسلام ونظام الشرف عند الأئمة والملوك والأعلام، يتلفظ بكتاب الله وسنته، ويبرهن عن الحلال والحرام، وما في ضمير العالم ونيته، فهو سفير الممالك، والحاكم في الدول حكم الممالك، ومفتاح السعادة والأرزاق، وبه يحوز الكاتب قصب السبق، ويرتقي إلى السبع الطباق، والقلم مقدم على السيوف، وهكذا، فقد ورد في فضل الكتابة الكثير.

ومما يدل على فضل الكتابة أنه بعد صلح الحديبية، وانتشار الأمن في الجزيرة العربية، بدأ النبي ﷺ يدعو البعيدين عنه من سائر الأمم الذين لا يرونه، ولا

يسمعون قوله، وقد دعاهم النبي ﷺ، بل أرسل لهم كتب يحملها بعض أصحابه، فأرسل إلى هرقل ملك الروم كتابًا مع الصحابي دحية الكلبي، وأرسل للنجاشي ملك الحبشة عمرو بن أمية الضمري، وأرسل للمقوقس ملك مصر مع الصحابي حاطب بن أبي بلتعة، وأرسل إلى ملك الفرس وأمير البحرين واليمامة وعمان ودمشق.

وبقراءة هذه الكتب نلحظ ما يلي: وحدة موضوع سائر الكتب؛ لأنها تتضمن الدعوة إلى الإسلام ابتداء من الإيمان بالله إلى الإيمان باليوم الآخر، ومراعاة حال المرسل إليه، فإن كان أهل الكتاب بين له خطابه أن الإسلام يتضمن الإيمان بعيسى # وبرسالته، وأن محمدًا ﷺ بشر به موسى وعيسى - عليهم جميعًا الصلاة وأزكى التسليم- .

وتتضمن الكتب الترغيب والترهيب عن طريق إبراز الحساب الأخروي، وتحديد مسئولية من بلغته الدعوة، والتجديد على العرب؛ لأنهم علموا بالإسلام قبل مجيء الكتب إليهم، ولذلك تضمنت الكتب إليهم التهديد بالجزية وبالحرب، وبزوال الملك.

وإرسال الكتب بهذا الشمول أدى إلى تعميم التبليغ في عصر النبي ﷺ، وعرفنا أن السلام والأمن هما أعظم عاملين مساعدين في نشر الإسلام وتبليغه.

وحمل هذه الكتب صحابة أكفاء؛ لأنهم جميعًا دافعوا عن دينهم حين سئلوا عنه، ووضحوه حينما عورضوا، وقاموا بدورهم كدعاة إلى الله لا كرسل مجردين، ويجب أن نلاحظ أن وسيلة إرسال الكتب ﷺ أفادت كثيرًا في تبليغ الدعوة، وهي وسيلة صالحة للعصر الحديث، فلو استخلى الكتاب التعريف بالإسلام، وحملها قادرون على البلاغ لأفدنا الإسلام كما يجب أن يكون.

نماذج من الكتابات الدعوية

وفي النهاية فإن الكتابة في غاية الأهمية للدعوة الإسلامية، وأما النماذج من الكتابات الدعوية، فقد أفادنا الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله تعالى- في كتابه (مع الله، دراسات للدعوة والدعاة) نماذج من هذه الكتابة، نحو: الدين ضرورة اجتماعية، الإسلام والديانات السابقة، مصادر التشريع الإسلامي، المذاهب الفقهية الإسلامية، المجتهدون في الشريعة الإسلامية، الإسلام والمدنية الحديثة، الإسلام بين المادية والروحية، أسباب انتكاس المسلمين ووسائل نهوضهم، براءة الإسلام من البدع والخرافات، المسلمون بين التيارات السياسية الحديثة، التيارات الداخلية في الإسلام.

مجاراة العربية لعوامل التطور، مشكلات إسلامية معاصرة، حكمة التشريع الإسلامي، الأسرة الإسلامية، الإسلام دين السلام، مقاومة الهدامين، الهدم الروحي، الهدم التاريخي، الهدم العسكري، ونماذج حية: القرآن، السنن، زاد الدعاة، إلى غير ذلك من الموضوعات التي لا يمكن أن نفصل القول فيها، ولا أن نذكرها بتمامها، إنما يكفي الإشارة إليها، وبيان مصدرها.

وحتى لا يطول بنا المقام أو نكثر من الكلام عن الكتابة مما يؤثر على ما بعدها، فقد اكتفيت بهذه الإشارات، وتلك البصمات حول الكتابة: خصائص الأسلوب الكتابي، وأهميته في مجال الدعوة، ونماذج من الكتابات الدعوية.

القدوة الحسنة

عناصر الدرس

العنصر الأول : القدوة الحسنة ومفهومها وأهميتها ٣٩٥

العنصر الثاني : ضوابط المثل الأعلى في القرآن والسنة والتاريخ الإسلامي ٣٩٦

العنصر الثالث : القدوة في حياة الدعاة ٤١٢

القــدوة الحــسنة ومفهومهــا وأهميتهــا

إن القدوة الحسنة هي الجانب العملي في حياة الإنسان، القدوة الحسنة، من هو القدوة التي ينبغي أن نتأسى بها وأن يتأسى بها الدعاة والمسلمون، إن أصحاب القدوة في تاريخنا الإسلامي كثيرون، ينبغي أن نتأسى بفعالهم على مدى الزمان والأيام.

وصاحب القدوة الأول هو النبي محمد ﷺ الذي سمى على كل العبقريات البشرية، والنضج الإنساني الكامل من لدن آدم # إلى يوم البعث والنشور، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وينبغي أن نتأسى أيضًا ونقتدي بالصحابة الكرام - رضوان الله عليهم- ، الذين تشرفوا بصحبة النبي ﷺ وتخرجوا من مدرسته الإيمانية والتربوية والجهادية، واكتسبوا منه أفضل الأخلاق وأجمل الصفات والخصال، إنهم السلف الصالح الذين نهجوا نهج النبي ﷺ في جلاله وكماله، ونهج صحبه العظام في سيرتهم وجهادهم، فأعطوا للأجيال من بعدهم أسمى القدوة، وأفضل الأسوة، هؤلاء الذين هداهم الله، فبهداهم يقتدي المسلم، وبسيرتهم يتأسى الشباب، وعلى طريقتهم يسير الداعية.

ضوابط المثل الأعلى في القرآن والسنة والتاريخ الإسلامي

وإن الحديث عن أصحاب القدوة في تاريخنا الإسلامي أمر شرحه يطول، ولكن نرتشف من بحر عظمتهم رشفات من مواقفهم البطولية، وجرأتهم في الحق، وثباتهم على المبدأ لما لهذه المعاني من أثر كبير في دفع الشاب الداعية نحو الثبات والجرأة، ولما لها أيضًا من إيحاء نفسي عظيم في توجيه المؤمن نحو التضحية والفداء.

وإليكم أيها الدعاة نماذج خالدة من مواقف أصحاب القدوة في التاريخ؛ لتعرفوا جيدًا كيف تحمل أولئك في سبيل الدعوة الأذى الأكبر، وكيف ذاقوا في سبيل الإسلام ضروب الاضطهاد؟ فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا، بل ظلوا مجاهدين مثابرين إلى أن حقق الله على أيديهم الفتح المبين والنصر المؤزر.

هذا هو رسول الله ﷺ أعطى للدعاة في كل زمان ومكان المثل الأعلى في التضحية والصبر والثبات، فإن المشركين في مكة سلكوا مع النبي ﷺ مسالك شتى في الأذى، وأساليب متباينة في الاضطهاد؛ ليثنوه عن دعوته، ويصدوه عن أداء رسالته، فما ضعف وما استكان، سلكوا معه طريق الإغواء والإغراء ليصدوه عن تبليغ الدعوة، فما ضعف وما استكان، سلكوا معه طريق الضغط العائلي ليصدوه عن تبليغ الدعوة، فما ضعف وما استكان، سلكوا معه طريق الهزء والسخرية وإشاعة التهم؛ ليصدوه عن تبليغ الدعوة، فما ضعف وما استكان، وسلكوا معه طريق المقاطعة الاقتصادية الشاملة له، ولمن آزره ليصدوه عن تبليغ الدعوة، فما ضعف وما استكان، وقرروا أخيرًا اغتياله وملاحقته ليصدوه عن تبليغ الدعوة، فما ضعف وما استكان، وبعد الهجرة حاربه المشركون بحملات

متعددة وحروب طاحنة، ليستأصلوا دعوته وأتباعه، فما كان ذلك يرده عن تبليغ الدعوة ونشر الإسلام في الأرض.

وبقي ﷺ يكافح في سبيل الله، ويجاهد لإعلاء دينه، ويصبر على الأذى والمؤامرات والاعتداءات، حتى جاء نصر الله والفتح، وقامت دولة الإسلام عزيزة كريمة.

وأما الرعيل الأول من صحابه رسول الله ﷺ، فقد أعدوا للصبر والابتلاء والثبات على المبدأ نفوسًا مؤمنة صامدة، لا تجزع أمام أحداث الليالي، ولا تتزعزع أمام نوازل الأيام، وحسبنا الآن أن نذكر بعض الأمثلة التاريخية؛ ليتعرف الدعاة على ما كان يلقاه الصحابة الأمجاد من أذى واضطهاد في سبيل الدعوة الإسلامية، عسانا أن ننهج نهجهم، وأن نسلك في الثبات سبيلهم، وأن نقتدي بفعالهم.

فهذا بلال بن رباح > وأرضاه المؤمن الصابر، لقي في سبيل الدعوة ألوانًا من العذاب، وأصنافًا من البلاء، فكلما اشتدت عليه وطأة الألم، ونزلت به الإحن السود، ووضعت على بطنه الحجارة الثقيلة في وهج الظهيرة المحرق ازداد إيمانًا وتثبيتًا، وهتف من الأعماق: أحد أحد، أحد أحد، فرد صمد.

وهذا عمار وأمه سمية وأبوه ياسر } جميعًا قد تحملوا في سبيل إسلامهم ما لم يتحمله إنسان، وما إن علم بنو مخزوم بإسلامهم حتى انقضوا عليهم يذيقونهم أشد العذاب؛ ليفتنوهم عن دينهم ويرجعوهم كفارًا بعد أن هداهم الله إلى الإسلام.

وفي بطحاء مكة حيث ترسل الشمس شواظًا من لهب، قضى آل ياسر أيامًا في عذاب مقيم، ومر عليهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون، وسمع ياسرًا يئن في قيوده، وهو يقول: الدهر هكذا، فنظر الرسول ﷺ إلى السماء ونادى: ((أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة))، وسمع آل ياسر النداء، فهدأت نفوسهم، وسكنت قلوبهم، فلما أتاهم أبو جهل لعنه الله كان استهزاءهم بالموت، وعلوهم على الحياة أعظم ما رأى الناس.

لقد استشهدت سمية > وكانت أول شهيدة في الإسلام، ثم تبعها زوجها ياسر، وكان أول من استشهد من الرجال، وبقي عمار يغالب العذاب، ويصابر الألم حتى بلغ به الجهد مبلغه، لو لم يكن لآل ياسر إلا هذا الموقف لكفاهم على مدى الدهر فخرًا وخلودًا.

وهذا مصعب بن عمير > أسلم مع الأربعين الأوائل في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وكتم إسلامه خوفًا من أمه وقومه، ولما كشفوا أمره أخذوه فحبسوه وعذبوه، فلم يزل محبوسًا معذبًا حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى، ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا، وقتل - > وأرضاه- في غزوة أحد شهيدًا، فلم يجدوا شيئًا يكفنونه فيه سوى بردة، فكانوا إذا وضعوها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعوها على رجليه خرج رأسه، فقال لهم ﷺ: ((اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجليه من الإذخر)).

ولقد وقف رسول الله ﷺ على هذا الفتى، وهو مقتول مسجى في بردته، فقال النبي ﷺ والدموع تزدحم في عينيه: ((لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة، ولا أحسن سمة منك، ثم أنت شعث الرأس في بردة، ثم قرأ ﷺ هذه الآية:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣])).

وهذا غيظ من فيض مما ذكرته كتب السيرة عن كريم مآثرهم، وعن جميل محامدهم وعظيم تضحياتهم.

إليكم أيها الدعاة ما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود > في تعداد محامدهم وفضائلهم، ووجوب التأسي بأفعالهم الحميدة، وثباتهم النادر، قال - > وأرضاه- : "من كان متأسيًا فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالًا، اختارهم لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم".

أما عن مواقف سلفنا الصالح في جرأتهم وثباتهم وتضحياتهم، فهي أكثر من أن تحصى، بل سيرتهم } حافلة بالأمجاد والبطولات ذاكرة بالتضحيات الغاليات في سبيل الحق والدعوة، وتقويم المنكر والمعوج، إنها نماذج خالدة، وأمثلة حية، ومواقف بطولية، وجرأة في سبيل الحق، ينبغي أن يقتدي بها الدعاة في طريق دعوتهم إلى الله ﷻ.

ذكر لنا التاريخ لما أنشأ عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء في الأندلس أبدع في بنائها أيما إبداع، وأنفق عليها من الأموال ما لا يكاد لا يعد، ولا يحصى، وبلغ من إنفاقه وتفننه في تزيينها أن أقام الصرح الممرد، واتخذ لقبته قراميد من ذهب وفضة، فما إن سمع الفقيه القاضي منذر بن سعيد، حتى ارتاع لعمل الناصر، وغضب لتبديده أموال الشعب، فوقف في المسجد يخطب الناس بحضور الناصر، ويتوجه إليه باللوم والتأنيب، وهو يقول: "ما كنت أظن أن الشيطان - أخزاه

الله- يبلغ بك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله وفضلك به على العالمين، حتى أنزلك منازل الكافرين". فاقشعر عبد الرحمن الناصر من قوله، فقاطعه وقال له: انظر ما تقول: كيف أنزلني الله منازلهم؟ قال: نعم، أليس الله - تبارك وتعالى- يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣- ٣٥].

فوجم الخليفة، ونكس رأسه مليًّا، ودموعه تجري على لحيته خشوعًا لله - تبارك وتعالى- ، ثم أقبل على القاضي وقال له: جزاك الله تعالى يا قاضي خيرًا عنا وعن المسلمين والدين، وأكثر في الناس من أمثالك، فالذي قلته والله هو الحق، وقام من مجلسه، وهو يستغفر الله، وأمر بنقض القبة وأعاد قراميدها ترابًا.

وهذا الشيخ المجاهد العز بن عبد السلام، سلطان العلماء، قال هذا الشيخ المجاهد لسلطان مصر نجم الدين أيوب، وكان في مجلس حافل برجال الدولة: يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوء لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور؟ فقال: جرى هذا؟ فقال: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور، وتستباح فيها المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة. فقال: هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي. فقال له العز بن عبد السلام: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة وإغلاقها.

وهو الذي أفتى بتحريم بيع السلاح في دمشق إلى الصليبيين؛ لأنهم يقاتلون به المسلمين، وتحمل من سلطان دمشق إسماعيل الصالح ما تحمل من جراء هذه

الفتوى، وهو الذي أفتى أيضًا ببيع أمراء المماليك في مصر في المزاد العلني، ورد ثمنهم إلى بيت مال المسلمين، ولاقى في سبيل هذه الفتوى ما لاقى من الأمراء، والسلطان نجم الدين أيوب، إنه أفتى ببيعهم لكونهم أرقاء حين تسلموا زمام الإمارة، ولم يحرروا بعد.

هذا، وقد ذكر الغزالي في إحيائه عن الأصمعي أنه قال: دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان، وهو جالس على سريره، وحوله الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال له: يا أبا محمد، ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله ﷺ فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور، فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين، فإنك وحدك المسئول عنهم، واتق الله فيمن على بابك، فلا تغفل عنهم، ولا تغلق بابك دونهم، فقال: أجل أفعل، ثم نهض وقام، فقبض عليه عبد الملك، فقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حاجة لغيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك أنت؟ فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة. ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا - وأبيك- الشرف.

وهكذا أيها الدعاة حينما تتأسون بأصحاب القدوة في التاريخ، وتنهجون في الثبات نهجهم، وتسلكون في قولة الحق مسلكهم، وتنظرون إليهم على أنهم مثل أعلى، وأسوة صالحة في كل شيء، عندئذ تواصلون المسيرة، وتنطلقون في مضمار الدعوة غير هيابين، ولا وجلين، حتى يحقق الله على أيديكم هداية النفوس الشاردة، وإصلاح المجتمعات الضالة، وإقامة دولة الإسلام المرتقبة، وما ذلك على الله بعزيز.

أيها الدعاة إلى الله إن صلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس إلى الإيمان، وإن خلقه الفاضل هو السحر الذي يجذب إليه الأفئدة، ويجمع عليه القلوب، أتظن أن جمال الباطن أضعف أثرًا من وسامة الملامح؟ كلا إن طبيعة البشر محبة للحسن والالتفات إليه، وأصحاب القلوب الكبيرة لهم من شرف السيرة وجلال الشمائل ما يبعث الإعجاب بهم والركون إليهم، ومن ثم فإن الداعية الموفق الناجح هو الذي يهدي إلى الحق بعمله، وإن لم ينطق بكلمة إنها القدوة الحسنة حين يكون مثلًا حيًّا متحركًا للمبادئ التي يعتنقها.

وقد شكا الناس في القديم والحديث من دعاة يحسنون القول، ويسيئون الفعل، والواقع أن شكوى الناس من هؤلاء، يجب أن تسبقها شكوى الأديان والمذاهب منهم؛ لأن تناقض فعلهم وقولهم أخطر شغب يمس قضايا الإيمان، ويصيبها في الصميم، ولا يكفي لكي يكون المرء قدوة أن يتظاهر بالصالحات أو أن يتجمل للأعين الباحثة، فإن التزوير لا يصلح في ذلك الميدان، ولا بد أن ينكشف المخبوء على طول المعاملة وامتداد الزمن وتمحيص الأحداث، وسرعان ما يبدو معدن النفس على الحقيقة العارية، ذلك أن النفس المتحركة من هذه الروح، فهي كالآلة الدائرة بما يعمر خزانتها من وقود.

أما النفس المحرومة من هذه الروح، فهي كالآلة التي تدفع باليد حينما لا يلبث أن يغلبها العطل والعطب، فتتوقف وتسكن، والمصيبة الطامة أن بعض المنافقين يحسبون أن تمثيل دور الإيمان لا يحتاج إلا إلى شيء من التكلف والمصانعة، كما أن بعض المتهاونين يحسبون أن لباس التقوى يمكن نسجه بشيء من إدمان الرسوم وإتقان الهمهمة، وهذا ضلال بعيد فالأمر أخطر مما يظنون، إن التدين الحقيقي صورة لجوهر النفس بعدما استكانت لله، ونزلت على أمره، واصطبغت

بالفضائل التي شرعها، وترفعت عن الرذائل التي حرمها، واستقامت على ذلك استقامة تامة، هذا التدين وحده هو الذي تلتمس منه الأسوة، ويقتبس منه الهدى والقدوة.

ويؤسفني أن أقول: إن هذا الضرب من التدين العالي نادر الآن، وأن أشعة الكمال المنبعثة من وجهه لا تكاد ترى، بل إن نفرًا من الناس الذين لا دين لهم أقرب إلى المسلك الصحيح، وأجدر بالقوامة على شتى الوظائف من الذين انتسبوا إلى الدين، وحملوا عنوانه دون اصطباغ به وتشرب لروحه، عندما ينكب الدين بأقوام كثيرين على هذا الغرار، فالمجال واسع لشيوع الإلحاد، وانتشار المعصية والعدوان.

يقول الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله تعالى- : قال لي صديق: إن فلانًا الأوروبي إذا وكلت إليه مهمة خرجت من يديه متقنة الأداء ظاهرة الجودة، أما فلان الذي يكثر الصلاة فقلما يريحني في إحسان واجب، وقد جزعت لهذه المقابلة بين الشخصين، ولم يسؤني منها أنها باطل إذ هي حق، وإنما ساءني منها أن ذلك المتدين الكسول دعاية شنيعة ضد الصلاة.

إنها القدوة الرديئة تعمل عملها ضد المثل الرفيعة والمبادئ الفاضلة، ومن ثم ينبغي أن تكون القدوة الحسنة هي النبراس الذي نستضيء به مبتعدين عن القدوة الرديئة والسيئة، إن الدعوة إلى الإسلام تكون أولًا بعرض ثماره في الأخلاق والأحوال؛ أعني ثماره في أتباعه المؤمنين، ويومئذ ترجى الإجابة ويرتقب الاهتداء.

ولنعد إلى أسباب انتشار الإسلام أيام السلف الصالح } إن خلق الدولة، وصلاح أنظمتها، وكفالتها أكبر حظٍّ من العدالة والسعادة للأفراد، كان الباعث

الأعظم على دخول الناس في دين الله أفواجًا، وقبولهم عن طيب خاطر الانضواء تحت راية الإسلام، بل غبطتهم؛ لأن دائرة هذا الدين بلغت في الرحابة حدًّا جعلتهم يأوون إليها وهم وافرون أعزاء، حتى أيام اضطراب أجهزة الحكم في الدولة الإسلامية، وقصورها عن التحليق مع المثل الرفيعة التي نشدها الإسلام في اختيار الحكام.

إن هذا القصور لم يقدح في مدى الخير الذي يحرزه الناس على اختلاف اللون، والمذهب تحت علم الدولة الجديدة، ذلك أنه أعلى درجة ألف مرة من الخير الذي رأوه في ظل أكاسرة فارس وقياصرة الروم، وحين تتابع أوصاف المسلمين الفاتحين، كما شرحها بعض المنصفين من المستشرقين، تجد أن الجماهير رمقت حمَلة العقيدة الظافرة بشيء من الدهشة، ورأت فيهم نماذج خلابة للفضل والعدل، فلم يمكثوا غير قليل حتى زاحموهم عليها، أجل زاحموهم عليها، ونافسوهم فيها، واعتنقوها ليعملوا بها مثل أولئك من أصحابها، الذين نقلوها مصداق قول النبي ﷺ: ((رب مبلغ أوعى من سامع، رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)).

الإعجاب بالإسلام في أحوال الفرد، والإعجاب بالإسلام في أحوال الدولة هو وحده السبب الفعال في تزاحم الخاصة والعامة على هذا الإسلام وارتضائهم له، والإعجاب لا ينبت في النفس خبط عشواء، أتظن العقول النضرة تعجب بالعقول المخرفة؟ أتظن أن الأخلاق الرضية تعجب بالأخلاق الرديئة؟ أتظن أن المتقدم في أفكاره ومشاعره يعجب بالمتخلف في هذه وتلك؟! كلا كلا.

إن المسلمين استحقوا أن يتأسى الناس بهم، وأن ينسجوا على منوالهم، وأن يقلدوهم في أقوالهم وأعمالهم، وأن يهجروا لغاتهم الأصلية إلى اللغة العربية

الوافدة؛ لأن المسلمين كانوا يمثلون في العالم نهضة مجددة راشدة مسعدة والمعجب بك قد يذوب فيك، وذلكم هو ما حدث في المستعمرات التابعة من قرون للشرق والغرب؛ أعني لفارس والروم، يوم زحفت عليها جيوش الإسلام، وانساب في جنباتها.

إن من الغباء البالغ أن تنتظر أحدًا يؤمن بك عقب انتصار في معركة جدل أو انتصارًا في ميدان حرب، إن المقهور في أحد الميدانين قد يستسلم راضيًا أو ساخطًا، بيد أنه لن يتبعك عن إخلاص، ولن يشاركك الشعور والفكر أبدًا، ومن ثم ترى لزامًا علينا التوكيد بأن القدوة وحدها، وما يبعث على الاقتداء من إعزاز وإعجاب هما السبيل الممهد لنشر الدعوة الإسلامية على أوسع نطاق.

إن الدعاة إلى الله هم ممثلو الرسل وورثة الأنبياء، والمعلوم أن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر، والدعاة إلى الله هم سفراء الأمة المؤمنة إلى الناس، يحملون أمانتها، ويبلغون رسالتها، والناس لهم تبع؛ لهذا كان لا بد للداعية من الخلق الحسن الذي يجلب به الناس، ويجمعهم على الخير، ويكون لهم به قدوة حسنة، وكان لا بد للداعية من العلم ليفقه به الجاهل، ويرشد به الضال، فالخلق والعلم لازمان لكل داعية، يريد النجاح في مهمته؛ لأنه بهما يتمكن من ممارسة عمله مع الراغبين، ويتحمل أذى المعارضين؛ لهذا قال ﷺ: ((إن من أحبكم إلي، وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا))، كما قال ﷺ: ((طلب العلم فريضة على كل مسلم)).

وعلى هذا فإن للدعاة آدابًا يجب أن يتحلوا بها؛ ليكونوا قدوة ونماذج عملية لدعوتهم، قدوة حسنة لمن يدعونهم، ومن هذه الصفات الإيمان بالدعوة، إن

الإيمان هو الدافع المحرك للقوة الكامنة في نفس الإنسان، فالإيمان بالله يجعل المؤمن في شوق دائم للعمل بما يرضيه، ويحرك في قلبه عوامل الخير، ويحقق غاياته، ويحبب إليه العبادة بالشكل الذي يرضاه ويتقبله.

والإيمان باليوم الآخر يرفع الإنسان إلى تفضيل أعمال البر على غيرها؛ ليثقل ميزانه حتى لا يطيش في يوم الهول والفزع، ويجعله حريصًا على نفسه وعمله وتحسينه قبل أن يأتي يوم لا يمكنه فيه تبديله، أو تحسينه، وكذا يزهده في الدنيا حتى لا يستكثر منها، فيطول حسابه في هذا اليوم العسير.

هكذا يدفع الإيمان صاحبه إلى تحقيق غايته التي آمن بها، وإلى الإخلاص في العمل ليحصل غايته التي يعمل لها، والإيمان الحق الراسخ بأن الإسلام هو خاتم الرسالات، وأنه الدين الذي بعث به محمد ﷺ لإنقاذ العالم، وتخليصه من التخبط في الظلمات، وأنه دين شامل لجميع نواحي الحياة الدينية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، هذا الإيمان يدفع صاحبه بحماس منقطع النظير إلى أن يدعو الناس إلى الإسلام بثقة واطمئنان، وأن يحثهم على اتباعه والتمسك بهديه، والعمل الدائب الجاد لنصرته.

هذا الإيمان لا يترك صاحبه يهدأ حتى يرى الناس قد دخلوا في دين الله أفواجًا، هذا الإيمان لا يرتاح لصاحبه بال حتى يرى راية الإسلام عالية خفاقة في كل مكان.

أما الدعاة المحترفون والمتجردون من هذا الإيمان، الذين اتخذوا الدعوة للعيش الرغيد، وسببًا للرزق الوافر، وغاية ينتهون إليها للشهرة والزعامة، فهؤلاء كفئران السفينة، لا يهمهم إلا بطونهم، غرقت السفينة أم نجت، والفرق بين الصنفين واضح بين، فالصنف الأول يؤثر بأسلوبه المملوء بالإيمان، وبطريقته

المشحونة باليقين، فيسير الناس تبع إرشاده، ويسلكون السبيل الذي يسلكه، ويسخرون كل ما يملكون لنصرة الحق ونشره بين الناس.

وأما الآخرون فكلامهم كالطبل الأجوف، يرعب ولا يطرب، ويقلق ولا يرشد؛ لهذا فإنه يدخل من أحد الأذنين ليخرج من الأخرى، فلا ينفعل به الناس، ولا يكاد يصل إلى آذانهم حتى يتساقط تحت أقدامهم، وأنى له أن يصل إلى قلوبهم! لهذا لما سأل عبد الله بن المبارك - رحمه الله تعالى- لماذا يجلس الناس إلى بعض الوعاظ والمرشدين، فيتأثرون بهم، ويبكون بين أيديهم، تصل الكلمة بين آذانهم، فتسلك طريقهم إلى قلوبهم، فتستقر فيها، وتترجمها جوارحهم عملًا خيرًا رشيدًا، يصدق ما في قلوبهم، فإذا جلسوا إلى آخرين ذكروهم بمثل ما ذكره به الأولون، وقد يكون الأسلوب أجود، والألفاظ أحلى، والأداء مثيرًا، ومع كل هذا فإنهم لا يتأثرون، ويقومون من مجلسهم، وكأنهم لم يكونوا فيها؟.

فأجابهم عبد الله بن المبارك - رحمه الله- ، فقال: ثكلتك أمك، النائحة المستأجرة كمن تبكي ولدها؟ ولهذا قالوا: ليست النائحة كالثكلى، إن الإيمان هو الذي جعل بلالًا > يتحمل ما يتحمل، وصهيبًا يستعذب حرارة النار، وسمية تستخف بالقتل، وهو الذي دعا غلام أصحاب الأخدود أن يضحي بنفسه لتنتشر عقيدته، وجعل أتباعه يفضلون النار المستعرة، ولا يعودون إلى الكفر أبدًا، وصلى الله على سيدنا محمد القائل: ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف به في النار)).

إنها القدوة الحسنة، إن الداعية يكسب لدعوته بسلوكه أكثر مما يكسبه لها بخطبه ومواعظه؛ وذلك لأن الناس ينظرون دائمًا إلى الدعاة كنماذج حية لما يدعون إليه، ويتأثرون بسلوكهم العملي أعظم مما يتأثرون بكلمات حلوة وخطب مؤثرة وندوات مثيرة.

وإننا لو رأينا عالمًا نحريرًا وخطيبًا مفوهًا ومحدثًا لبقًا يحاضر الناس عن أضرار التدخين، وقد دعم محاضرته بكل الأساليب العلمية، التي تثبت ضرر التدخين، وتظهر آثاره السيئة، وأحضر النماذج الملموسة التي توضح ذلك، وتدل على صدق ما يقول، واجتمع الناس عليه يسمعون في دهشة لما دعم به محاضرته، وقد ملكت عليهم المحاضرة قلوبهم، واستولى بحديثه على نفوسهم، وبينما الناس مشددون إليه لقوة حديثة، وتأثير بيانه أخرج لفافة - أي: سيجارة- من جيبه وأشعلها على مرأى من الحاضرين، ماذا تكون النتيجة؟ أيصدق الناس ما يسمعون؟ ويكذبون ما يشاهدون! ألست معي ترى أن هذه السيجارة قد أفسدت كل ما دبجه، وأفقدت القيمة الحقيقية لكل ما حبره وزينه؟!.

لا شك أن حديثه مع حلاوته وطلاوته لا يمكن أن يتجاوز المقاعد التي كانوا يشغلونها، ولكن صورته، وهو ممسك بلفافته أو سيجارته لن تفارق أذهانهم، وستظل معهم يتفكهون بها، ويتندرون بالحديث عنها لكل من يلقون، إنه بذلك قد كذب نفسه، وكأني بالسيجارة التي في يده تصرخ في الناس: لا تصدقوه؛ إذ لو كان صادقًا في قوله ما كذب في فعله.

إن سلوك الداعية هو الصورة الحية العملية لدعوته، يراها الناس في سكونه وحركته ووقوفه ومشيته، وبكائه وضحكته، كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

إن القدوة العملية تصيب من قلوب الناس أكثر مما تصيب الكلمة مهما كانت طيبة وجيدة ومؤثرة، ولقد حدث ذلك مع رسول الله ﷺ حين أمر أصحابه بعد صلح الحديبية أن ينحروا هديهم، ويحلقوا رءوسهم.

يقول ابن القيم - رحمه الله- : فلما فرغ من قضية الكتاب، أي: الصلح بينه ﷺ وبين أهل مكة، قال رسول الله ﷺ: ((قوموا فانحروا ثم احلقوا، فوالله ما قام منهم رجل واحد حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة > فذكر لها ما لقي من الناس. فقالت أم سلمة: يا رسول الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا كلمة حتى تنحر بدنتك، وتدعو حالقك فيحلقك. فقام فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنته، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا)).

ونحن نلاحظ في هذه الحادثة أن رسول الله ﷺ وهو من هو! أمر أصحابه بالنحر ثم الحلق، فلم يستجب أحد، كررها ثلاثًا ولم يفعل أحد شيء مما دعاهم إليه، فلما أخبر السيدة أم سلمة > أشارت إليه بالعمل بدل القول، ولم يكد رسول الله ﷺ يخرج إلى القوم ويفعل ما يحب أن يفعل، وما يجب أن يفعل حتى بادر الصحابة - رضوان الله عليهم- بفعل ما امتنعوا عن فعله حين كلمهم.

وهكذا نرى أن القدوة العملية تؤثر في الناس مع الصمت أكثر مما تؤثر الخطب البليغة والعبارات المنمقة، فعلى الدعاة أن يكونوا عمليين أكثر منهم قوالين حتى تثمر دعوتهم، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وعليهم أن يجعلوا بيوتهم قبلة يؤمها القاصدون، فيجدون فيها الإسلام حيًّا يتحرك، ممثلًا في الزوجة والأولاد، والآباء والأحفاد، والخدم والأتباع، وعليهم أن يعلموا أن أي تقصير في تطبيق ما

يدعون إليه يجعلهم عرضة للقيل والقال، والسخرية والاحتقار، ثم لا يكون لدعوتهم أي أثر في القلوب.

إنها القدوة الحسنة والاستقامة على منهج الله تعالى، بمعنى موافقة العمل للأحكام الشرعية، وإخلاصه لله ﷻ وهي بهذا المعنى من ألزم الصفات للدعاة، الذين يدعون الناس للتمسك بالآداب الشرعية؛ لأن الداعية إذا لم يوافق عمله قوله كان دعاية سيئة لما يدعو إليه، فدعوة الناس إلى الخير تقتضي أن يكون الداعية سباقًا إلى لخير، ومطالبة الناس بتطبيق أحكام الشريعة تستوجب أن يكون الداعية آخذًا نفسه بذلك، ونهي الناس عن الشر والفساد، يحتم أن يكون الناهي ملتزمًا بذلك النهي، فلا يبيح لنفسه ما حرمه على غيره.

ولهذا كانت وصية رسول الله ﷺ للرجل الذي سأله أن يقول له في الإسلام قولًا فاصلًا قال: ((قل: آمنت بالله ثم استقم)) إنها وصية جامعة، وأي مسلم يعمل بها يكون - إن شاء الله- من أهل الجنة؛ لأنها جمعت كل ما يحتاج إليه المسلم الصادق، ليحقق سعادته التي يبغيها؛ وذلك لأن قوله: "آمنت بالله" إعلان للإيمان المطلوب من الإنسان ليثبت به ولاءه لله رب العالمين، والاستقامة هي دليل الصدق في هذا الإعلان بالتطبيق العملي المبرهن على صدق القائل؛ ولذا صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

والاستقامة بهذا المعنى هي تطبيق الشريعة الإسلامية والتزامها بحيث لا يعمل الإنسان عمل، ولا يقول قولًا إلا وهو مطابق للشرع الحنيف، ومعنى هذا أن يجتهد الإنسان في العبادة، كما أراد الله - سبحانه- من المسلمين، فيكثر من

صلاة النوافل، ويأخذ نفسه بصيام أيام من كل شهر، ويحافظ على قيام الليل، ويجتهد في مداومة الطاعات، والذكر لله ﷻ حتى يكون لسانه رطبًا بذكر الله، حتى يمسك لسانه بذلك عن الخوض فيما لا يعنيه؛ لئلا يكبه في النار، هذا فوق أداء الفرائض، كما أمر الله، فلا يفرط في جماعة، ولا يتهاون في جمعة، ولا يأخذ نفسه بأدنى الأمور وأسهلها، حتى لا يؤدي ذلك إلى إهمالها.

إن الاستقامة بهذا المعنى متممة لمعنى القدوة الحسنة، فلا غنى لأحدهما عن الأخرى، ولا غنى لمن يدعون إلى الله على بصيرة عنهما.

وعلى الداعية أن يصبر على الأذى، فعلى الدعاة إلى الله أن يوطنوا أنفسهم على الصبر على ما يلقونه من أعداء دعوتهم؛ ذلك لأن الناس أعداء لما جهلوا، وإن تحويل الناس عن عقيدة اعتنقوها وعاشوا بها فترة من الزمن، ولو كانت فاسدة إلى عقيدة أخرى لم يألفوها، وإن كانت هي عين الحق أمر عسير على النفوس، صعب على القلوب؛ لأن العقيدة مهما كانت فاسدة لا بد أن تترك أثرًا في قلب معتنقيها لا يزول بسهولة، ولا يتمكن صاحبه، ولو حاول أن ينساه بسرعة.

ولقد رأينا أصحاب موسى # كيف عاودهم الحنين إلى الشرك بعد إيمانهم بالله ورسوله، وبعد أن رأوا من آيات الله ما يثبت القلوب، ويركز الإيمان بها، رأينا هذا الحنين حينما مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨] رأيناهم ترجموا الحنين إلى عمل حين اتخذوا العجل في غيبة موسى ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]، ولعل هذا هو السبب في أن الرسول ﷺ لم يقم الكعبة على قواعد إبراهيم # كما أراد، وهو الذي أشار إليه بقوله لعائشة > : ((لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها بابين)).

فعلى الدعاة إلى الله أن يوطنوا أنفسهم على تحمل ما يلاقونه من العنت من أعدائهم حين يدعونهم إلى الحق الذي لم يعرفوه، ويريدون إخراجهم من الباطل الذي ألفوه، لا بد للداعية من أن يضع هذه الحقيقة نصب عينيه حتى يكون مستعدًّا لكل ما يطرأ عليه، وهو يقوم بتبليغ دعوته، لقد أدرك هذه الحقيقة لقمان الحكيم، وهو يوصي ولده وصيته المشهورة التي ذكرها القرآن، ومنها: ﴿يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

القدوة في حياة الدعاة

إليك أيها الأخ الداعية أهدي هذه الصفات المباركة، المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب > :

إن الله تبارك وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيًّا عن طاعتهم آمنًا من معصيتهم؛ لأنه لا تضر معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه، فقسم بينهم معيشتهم، ووضعهم من الدنيا مواضعهم، فالمتقون فيها هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم منهم في البلاء، كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقًا إلى الثواب وخوفًا من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة،

صبروا أيامًا قصيرة، أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مربحة، يسرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا، فلم يريدوها وآسرتهم، ففدوا أنفسهم منها.

أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلًا، يحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دوائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق، ركنوا إليها طمعًا، وتطلعت نفوسهم إليها شوقًا، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية تخويف أصغوا إليها بمسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون في أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم.

وأما النهار فحلماء وعلماء أبرار وأتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، ويقول قد خولطوا، من علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين وحزمًا في لين، وإيمانًا في يقين، وحرصًا في علم، وعلمًا في حلم، وقصدًا في غنى، وخشوعًا في عبادة، وتجملًا في فاقة، وصبرًا في شدة، وطلبًا في حلال ونشاطًا في هدى، وتحرجًا عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة، وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، يبيت حذرًا، ويصبح فرحًا، حذرًا لما حذر من الغفلة، وفرحًا بما أصاب من الفضل والرحمة، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريبًا أمله، قليلًا زلله خاشعًا قلبه، قانعة نفسه، مكظومًا غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيدًا فحشه، لينًا قوله، غائبًا منكره، حاضرًا معروفه، مقبلًا خيره، مدبرًا شره، في الزلازل وقور، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما

ذكر، ولا ينابز بالألقاب، ولا يضار بالجار، ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق.

إنهم الدعاة إلى الله، القدوة الحسنة، المتقون الذين ينبغي أن نقتدي بهم وبآثارهم.

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ❖ إن التشبه بالرجال فلاح

ما الذي يمكن أن يقال عن القدوة الحسنة؟ إنها قضية موسعة، لكنها الإشارات التي أغنت عن العبارات، والعبارات التي أغنت عن المطولات، في هذا الملخص الذي ينبغي أن يكون.

فهكذا نكون قد وقفنا على شيء من القدوة الحسنة، نود لو أتممنا القول، لكن لا يتسع لها المجال ولا المقام، مكتفين بهذا القدر.

مفهوم التعليم، وحكمه، وأهميته في الدعوة

عناصر الدرس

العنـــــــــــصر الأول : مفهوم التعليم وأهميته ٤١٧

العنــــصر الثـــــاني : مكانة العلم والتعليم في الإسلام ٤٢٢

مفهوم التعليم وأهميته

فنحن مع وسائل الدعوة، وحديثنا هذه المرة عن وسيلة التعليم، من حيث مفهومه وتاريخه الإسلامي، وحكمه، وأهميته في الدعوة.

كلمة التعليم مأخوذة من العلم والمعرفة، والعلم لغة نقيض الجهل، وهو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، وأما اصطلاحًا فقد قال بعض أهل العلم: هو المعرفة وهو ضد الجهل، وقال آخرون: إن العلم أوضح من أن يُعرف.

وقال ابن القيم - رحمه الله- : والفرق بين العلم والمعرفة لفظًا ومعنًى، أما اللفظ ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد، تقول: "عرفت الدار وعرفت زيدًا"، فقال - تعالى- : ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]، وفعل العلم يقتضي المفعولين كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وإن وقع على مفعول واحد، كان بمعنى المعرفة كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأما الفرق المعنوي فمن وجوه:

أحدها: أن المعرفة تتعلق بذات الشيء والعلم يتعلق بأحواله، فتقول: "عرفت أباك، وعلمته صالحًا عالمًا"؛ ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة، كقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقوله - جل وعلا- : ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤].

الثاني: أن المعرفة في الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أدركه قيل عرفه، أو تكون لما وصف له بصفات قامت في نفسه، فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها قيل عرفه، قال الله - تعالى- : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥]، فالمعرفة تشبه الذكرى للشيء، وهو حضور ما كان غائبًا عن الذكر، ولهذا كان ضد المعرفة الإنكار وضد العلم الجهل.

الثالث: أن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره، والعلم يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره.

الرابع: أنك إذا قلت: "علمت زيدًا"، لم يفد المخاطب شيئًا؛ لأنه ينتظر بعد أن تخبره على أي حال علمته، فإذا قلت: "كريمًا أو شجاعًا" حصلت له الفائدة، وإذا قلت: "عرفت زيدًا"، استفاد المخاطب أنك أثبته وميزته عن غيره، ولم يبق منتظرًا لشيء آخر.

ثم يقول ابن القيم - رحمه الله- أيضًا: والفرق بين العلم والمعرفة عند أهل هذا الشأن؛ أن المعرفة عندهم هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالمًا بالله وبالطريق الموصل إلى الله، وبآفاتها وقواطعها، وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة.

وأما التعليم اصطلاحًا: فهو التغير الذي يطرأ على العلاقة الثابتة بين منبه يدركه الفرد واستجابة يقوم بها، سواء كانت هذه الاستجابة علانية أم خفية.

ولا شك أن هناك صلة وثيقة بين التعليم وبين الدعوة من حيث الهدف؛ حيث يقوم الهدف فيهما، على محاولة تغير سلوك الأفراد والجماعات وإن اختلف

المستقبل في كل منهما، فالمستقبل في التعليم هم التلاميذ، والمستقبل في الإعلام والدعوة هم جمهور الناس بمختلف طوائفهم.

إلا أننا نلاحظ أن هناك فروقًا ظاهرة بين الإعلام والتعليم، ونستطيع إجمالها في الآتي:

يتميز جمهور التعليم عن الإعلام بالتجانس؛ فالتلاميذ في مختلف مراحل التعليم متجانسون من حيث التحصيل والخبرات السابقة والسن والزمن، أما جمهور الإعلام فهو الشعب كله أو قطاع منه.

كما يتميز جمهور عملية التعليم عن جمهور عملية الإعلام، في أن الأول مقيد في حين أن الثاني طليق، فليس التلاميذ أو الطلاب في أي مرحلة تعليمية أحرارًا في اختيار المادة التي يدرسونها، أما جمهور الإعلام فحر طليق، ليس هناك من يفرض عليه الاستماع إلى برنامج معين في الراديو، أو مشاهدة مادة إعلامية في التلفزيون.

ويتميز التعليم عن الإعلام بصفة المحاسبة على النتائج، فالطالب مسئول أمام نفسه، وأمام أستاذه وأسرته عن نجاحه في دراسته، أما في حالة الإعلام فليس منا إلا نادرًا من هو مسئول عن متابعة برنامج أو قراءة مجلة أو استيعابه لمحتوياتها.

ويتميز التعليم عن الإعلام أيضًا من حيث الدافع إليه، فالدافع إلى التعليم واضح للمتعلم وضوحًا منطقيًّا في كثير من الأحيان، فالمتعلم مدفوع بحب النجاح أو البحث أو الخوف من الإخفاق، ويوفر هذا الدافع على المعلم جهدًا كبيرًا في عملية التعليم، بينما نجد أن الدافع إلى الإعلام غير واضح الوضوح الفكري المنطقي الملازم للتعليم.

كذلك يتميز التعليم عن الإعلام في وجود صلة مباشرة متبادلة بين المتعلم والمعلم.

هذا، ولا يخفى على أحد ما يؤديه التعليم من دور فعال، في تشكيل عقلية الأمم وصناعتها أفرادًا وجماعات، فهو كما يقول المفكر الإسلامي محمد إقبال: الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي ثم يكونها كما يشاء، ويضيف قائلًا: إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيرًا من أي مادة كيميائية، هو الذي يستطيع أن يحول جبلًا شامخًا إلى كومة تراب، ويقول أرازموث - أحد خبراء التعليم في الغرب- : سلمني إدارة التعليم ردحًا من الدهر، أتعهد لك بأن أقلب وجه العالم بأسره.

والأقوال في هذا المعنى كثيرة، ولئن كان التعليم ذا أهمية في كل زمان ومكان، فإن أهميته وتأثيره في هذا العصر أكثر من ذي قبل، وذلك لعدة أسباب:

إن التعليم بات يشغل معظم أوقات الإنسان وزهرة عمره، فهو يتلقفه وليدًا في الحضانة ورياض الأطفال، ويستمر معه حتى نهاية الدراسة الجامعية في الغالب، كذلك أن المؤسسات التعليمية أصبحت في العصر الحاضر أكثر عمقًا من تأثير البيت والأبوين، وذلك بحكم الظروف الاقتصادية التي لا يخلو منها بيت، مما اضطر معه رب الأسرة إلى بذل المزيد من الجهد لتحصيل لقمة العيش، وكذلك عملت أجهزة الإعلام المختلفة على استراق أوقات الناس، مما شغل الآباء عن أبنائهم، وجعل المؤثر الأكبر في تشكيلهم وتربيتهم هو نوع التعليم الذي يتلقونه.

وانطلاقًا من هذا؛ فإن دور التعليم من الخطورة بمكان، فهو بالنسبة لأي أمة قضية وجود وعدم، وقضية حياة وموت، ولم يكن للإسلام وهو الذي استوعب كافة قطاعات الحياة، أن يهمل هذا الجانب المهم في حياة الإنسان، بل

نرى تعاليم الإسلام قد استوعبت هذا الجانب تمامًا، ووضعت الأطر السليمة التي استهدفت استثمار التعليم من أجل تحقيق الغاية التي لأجلها خلق الإنسان في هذه الحياة؛ وهي عبادة الله - تبارك وتعالى- .

أيضًا تبدو أهمية التعليم في أن التعليم في بلاد المسلمين قد ابتعد عن جوهر الإسلام وتبنى النظرية الغربية، مما نتج عنه زعزعة الصلة بين المسلم ودينه وغربة الإسلام فيما بين المسلمين، وهذا ما جعل الكثيرين يؤكدون على أن أزمة الأمة الإسلامية الكبرى في الوقت الحاضر، إنما هي أزمة فكرية وأن العلاج ينبغي أن يبدأ من هذا المنطلق.

ومن هذه الكلمات التي قالها المفكرون المسلمون إشارة إلى هذه الحقيقة، ما قاله الأستاذ أنور الجندي في رسالة له بعنوان (التربية الإسلامية هي الإطار الحقيقي للتعلم): إن الخطر الحقيقي الذي واجهته الأمة الإسلامية إنما بدأ من التعليم، وإن اليقظة الحقيقية إنما تبدأ منه، وفي رسالة للعلامة أبي الحسن الندوي بعنوان (الأمة الإسلامية وحدتها ووسطيتها وآفاق المستقبل) يرى أن إصلاح التعليم على أسس إسلامية هي قضية العالم الإسلامي الكبرى، وضرورته القصوى ونداء الوقت وفريضة الساعة.

ولم يكن هذا الاتجاه اتجاه أفراد فقط، بل اتجاه مؤتمرات وندوات أيضًا، ففي عام ألف وستمائة وستة وسبعين من الميلاد، عقدت ندوة موسعة في أوربا جمعت بين أهم قادة العمل الإسلامي في الشرق والغرب، مع كثير من العلماء في مختلف التخصصات، وطرحت في ساحة هذا اللقاء مختلف الآراء والتصورات، واستعرضت حصيلة مختلف التجارب والخبرات، وجرت مناقشات مطولة في جوانب الأمر استغرقت أسبوعًا كاملًا، أكد المؤتمرون في نهاية ندوتهم تلك بأن

أزمة الأمة الكبرى في الوقت الحاضر إنما هي أزمة فكرية، وأن العلاج ينبغي أن يبدأ من هذا المنطلق، وأنه لا بد وأن تعطى قضية الفكر ومنهجه، الأولوية اللازمة كأساس لإنجاح جهود الإنقاذ والإصلاح، ونفس النتيجة وصلت إليها كافة المؤتمرات الإسلامية التي عقدت لمناقشة قضايا التربية التعليم.

مكانة العلم والتعليم في الإسلام

ومكانة العلم والتعليم في الإسلام معروفة وواضحة، حيث لا يوجد دين أشاد بالعلم ورفع من قدره وأعلى من منزلته مثل الدين الإسلامي، ويتضح ذلك جليًّا من خلال النصوص الكثيرة التي وردت في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ وأقوال السلف الصالح، والتي يضيق المجال عن استيعابها والإحاطة الشاملة بجميعها، في الوقت الذي نرى فيه أسفار العهد القديم والعهد الجديد خالية عن الكلام عن والعلم والنظر والفكر والبرهان، أو ما اشتق منها أو تفرع عنها، وحتى يتضح المقال بالمثال نشير إلى بعض ما ورد في هذا الشأن:

وأبدأ بما ورد في كتاب الله، حيث كان النداء الأول الذي ربط الأرض بوحي السماء أمرًا من الله بالقراءة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وتلا هذا الأمر الإلهي آيات معدودات تسمو بالعلم وتشيد بالقلم ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ال ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٢- ٥]، وفي كون الوحي الأول يبدأ بكلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾، ولم يبدأ بقوله: اعبد أو صلِّ أو نحو هذا، وكون النبي ﷺ الذي نزل عليه القرآن أميًّا، والبيئة التي نشأ فيها بيئة أمية، لا يعرف القلم فيها إلا القليل، كل ذلك يؤكد على اهتمام هذا الدين بالعلم، ولفت الأنظار إلى مكانته ومنزلته فيه.

كما أقسم الله - تبارك وتعالى- في كتابه الكريم بالكثير من مخلوقاته، تنويهًا بشأنها وإعلاءً لقدرها، ولئن كانت أداة العلم قلم يكتب به ومداد ومادة يكتب عليها، فإن الله - تعالى- أقسم بهذه الأشياء كلها، وذلك في قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، كما أقسم بذلك أيضًا في قوله - جل وعلا- : ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ [الطور: ١- ٣]، وكان القسم بالقلم في صدر ما أقسم الله به من مخلوقاته، وذلك في صورة تسمى باسمه، وفي هذا دلالة ثانية على عناية الإسلام بالعلم السمو بمنزلته.

وفي صدر سورة "الرحمن"، والتي اشتملت على العديد من نعم الله ﷻ علينا، يقول الله - تعالى- : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١- ٤]، ويلاحظ أن كلمة ﴿عَلَّمَ﴾ وردت مرتين في آيتين في سطر واحد، وذكر بين الآيتين نعمة خلق الإنسان، وفي ذلك ما يفيد أن من أهم ما كلف به الإنسان وميزه به خالقه نعمة العلم.

ويؤيد ذلك ما جاء في قصة خلق آدم # في سورة "البقرة"، وذلك في قوله - تعالى- : ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣﴾ [البقرة: ٣١- ٣٣]، والقصة تدل على أن الله ﷻ ميز آدم على من سواه من المخلوقات بميزات ليست لغيره، ولما اقتضى الأمر إظهار هذه الميزات؛ لبيان فضل آدم وشرفه واستحقاقه للخلافة في الأرض، أظهر الله لهم أحسن ما فيه وهو العلم، فدل ذلك على أن أهم ما يميز الإنسان ويعلي قدره إنما هو العلم،

كما يدل أيضًا على أن تاريخ العلم والتعليم في الإسلام قديم بقدم الإنسان، وفي هذا دليل يضاف إلى ما سبق، على احتفاء الإسلام بالعلم وإعلاء شأنه ومنزلته.

ومن الإشارات القرآنية الدالة على احتفاء الإسلام بالعلم، ما نراه في كتاب الله - تعالى- من الحديث المستفيض عن العلم والفقه والنظر والبرهان والحكمة والعقل، حتى إن كلمة "علم" وحدها وردت بتصاريفاتها المختلفة، في عدد من آيات القرآن يقترب من التسعمائة آية، في الوقت الذي وردت فيه آيات عديدة تذم الجهل وتحذر منه، وذلك كقوله - تعالى- : ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، كقوله - سبحانه- : ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، كقوله - جل وعلا- : ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وغير ذلك كثير.

ولا تزال هناك جوانب أخرى كثيرة في كتاب الله - تعالى- يستنبط منها الإشادة بالعلم والتعليم وأهله.

وإلى جانب ما ورد في القرآن الكريم من آيات تعلي من قيمة العلم، حفلت السنة أيضًا بالأدلة الكثيرة التي تساق لنفس الغرض، وكما فعلنا مع آيات القرآن نفعل مع السنة فنورد بعض ما ورد فيها، وأول ما يطالعنا في هذا المجال، ما ورد في السنة من كون العلم فرضًا على المسلمين جميعًا، ففي الحديث ((طلب العلم فريضة على كل مسلم))، ولئن كانت كلمة مسلم تعني كل من آمن بالإسلام ذكرًا كان أو أنثى، فإن ثمة روايات تذكر الأنثى بالنص، ومن ذلك قوله ﷺ: ((ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران))، ففي هذا الحديث إشارة إلى استحباب تعليم الإماء، فالحرائر من باب أولى.

وفي بيان فضل العلم وردت أحاديث كثيرة تجل عن الحصر، وحتى لا أخرج عن الموضوع الذي أتحدث عنه أكتفي بذكر واحد منها، عن أنس بن مالك > عن رسول الله ﷺ قال: ((من خرج في طلب العلم، كان في سبيل الله حتى يرجع))، وفي التعليل لكون طلب العلم لونًا من ألوان الجهاد، بل هو في قمته، يقول الإمام ابن القيم: إنما جعل طلب العلم من سبيل الله؛ لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد؛ ولهذا كان الجهاد نوعين؛ جهاد باليد والسنان وهذا المشارك فيه كثير، والثاني الجهاد بالحجة والبيان وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين؛ لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه.

قال - تعالى- في سورة "الفرقان": ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢]، فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين، ولئن كانت للجهاد فضيلته التي لا تخفى على أحد، فإن الإنسان بواسطة العلم، يمكنه أن يستخدم هذا الجهاد استخدامًا صحيحًا، فلا يحمل سلاحه على مسلم، ولا يخلط بين ما هو مشروع وما هو ممنوع، وما هو واجب وما هو مسنون.

وعليه فالعلم سياج الجهاد، به يتحرى الإنسان الصواب، ويحصل عليه من الله الأجر والثواب، ولأجل هذا جاء القرآن الكريم آمرًا بطلب العلم، بوصف النفرة وذلك في قوله - تعالى- : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وذلك يجعل العلم والجهاد في موقع واحد، كما أن سياق الآية وقد سبقها ولحقها حديث عن الخروج لجهاد الأعداء، يضع

الاهتمام بالإعداد العلمي للمسلمين على قدم المساواة مع الإعداد العسكري؛ ولذا قال الصحابي الجليل أبو الدرداء > : "من رأى أن الغدو في طلب العلم ليس بجهاد، فقد نقص في رأيه وعقله".

ونكتفي بما ذكرنا من أحاديث، وإن كان في كلام النبي ﷺ الكثير والكثير، مما يدل على أهمية التعليم وفضيلته.

وأما سلف الأمة الصالح - رضوان الله عليهم - ، فقد أدركوا قيمة العلم والتعليم وأهميته، ولا أدل على ذلك مما فعلوه في مصنفاتهم، فقد اعتبروا الحديث عن العلم خير ما تشتمل عليه مقدمات الكتب أو فصولها الأولى، وعلى هذا الترتيب افتتح الإمام الدارمي سننه بمقدمة مطولة عن آداب التعلم والتعليم، كذلك فعل الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين)، والإمام النووي في كتابه (المجموع)، مع أن موضوعه في الأصل في الفقه المقارن.

ولا يخلو كتاب من كتب السنة، عن كتاب يحوي أقوال النبي ﷺ المشتملة على مسائل العلم وآدابه، وقد يعمد المحدث إلى جمع مصنف كامل عن العلم وما يتعلق به، مثلما فعل الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله)، وفعل ذلك أيضًا غيره.

ولو أريد جمع ما ألف من كتب ورسائل في العلم وآدابه ومسائله بأيدي علماء الإسلام، لتكونت لدينا مكتبة مستقلة، إلى جانب ذلك حفلت الكتب بالكثير مما أثر عنهم من أقوال في تمجيد العلم والإشادة بفضله.

وكما كانت لنا مختارات من القرآن والسنة، نختار بعضًا من أقوال السلف الصالح، فمن أقوالهم ما يشير إلى أن إنسانية الإنسان لا تتحقق بغير العلم،

وبدونه يصبح الإنسان أشبه ما يكون بالحيوان، يقول الصحابي الجليل أبو الدرداء > : "العالم والمتعلم شريكان في الخير وسائر الناس همج لا خير فيهم"، ويقول الإمام حسن البصري > : "لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم"، وفي هذا المعنى يقول الشاعر محمد إقبال:

إذا خلا المرء من فهم ومعرفة ❖ ظلمت نفسك لو تدعوه إنسانا

وهم يشيرون إلى حاجة الناس إلى العلم بصورة تفوق حاجتهم إلى سائر مقومات الحياة، فيقول الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله- : "الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس".

وهم يرون أن السعي في طلب العلم وتعليمه يفوق ما سواه من أعمال الخير، ومن ذلك نافلة الصلاة، يقول جعفر بن محمد - رحمه الله- : "رواية الحديث وبثه في الناس أفضل من عبادة ألف عابد"، ويقول الإمام الشافعي > : "ما تقرب إلى الله بشيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم"، قال أيضًا: "طلب العلم أفضل من صلاة النافلة".

والأقوال في هذا المعنى كثيرة، عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم، لا أريد الاسترسال في التدليل على مكانة التعليم والعلم في الإسلام، فهي أسطع من الشمس في ضحاها والقمر إذا تلاها.

هذا، ودعوة الإسلام لطلب العلم وتعليمه من الأشياء الواضحة جدًّا، حيث ينبثق عن تقدير الإسلام للعلم وإعلانه من مكانته، الحث على الاهتمام به تعلمًا وتعليمًا، وقد وردت نصوص كثيرة تحث المسلم على أن يستكثر من العلم ويستزيد منه، فإذا تحصل له شيء منه علمه لغيره وأفاد الآخرين، ومن ذلك ما

قاله الله - تعالى- : ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ففي هذا التوجيه القرآني إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه، الأمر من الله لجماعة المؤمنين، أن تتفرغ طائفة منهم لتلقي العلم والتخصص فيه، وأن تكون هذه الطائفة بمثابة سفراء عن بقية القوم، يؤدون مهمة تلقي العلم عنهم، ثم يعودون إليهم فيصبحون مرجعًا لهم، يعلمون جاهلهم ويجيبون سائلهم.

وعلى الناس جميعهم بأمر الله كذلك أن تسعى إليهم وتتلقى العلم عنهم، وذلك في قوله - تعالى- : ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وجاء عن معاذ بن جبل < : "تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربى، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين"، كما قال الصحابي الجليل أبو الدرداء < : "كن عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا، ولا تكن الرابعة فتهلك"، وقال حسن البصري < : "العامل على غير علم، كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا تضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا تضر بالعلم، فإن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم، حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوه".

ونكتفي بهذا القدر من النصوص حول طلب العلم وأهمية التعليم في الإسلام، لنقول: اعلم عبد الله أن العلم من المصالح الضرورية التي تقوم عليه حياة الأمة بمجموعها وآحادها، فلا يستقيم نظام الحياة مع الإخلال بها، بحيث لو فاتت تلك المصالح الضرورية، لآلت حال الأمة إلى الفساد ولحادت عن الطريق الذي

أراده لها الشارع، يقول الإمام الشاطبي - رحمه الله- : "والحفظ لها - أي: للمصالح الضرورية- يكون بأمرين:

أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك بمراعاتها من جانب الوجود.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم، والعلم بلا ريب يسلك في هذه المصالح الضرورية، التي تجب مراعاتها من الجانبين المذكورين، وذلك للأسباب التالية:

أسباب كون العلم ضرورة شرعية؛ لأن حاجتنا إليه لا تقل عن حاجتنا إلى المأكل والمشرب والملبس والدواء؛ إذ به قوام الدين والدنيا؛ ولأن المستعمرين بل المحتلين الحاقدين إنما احتلوا بلاد المسلمين لأسباب كثيرة، بيد أن أهمها جهل المسلمين، والعلم ضرورة شرعية؛ لأن انتشار المذاهب الهدامة والنحل الباطلة وما حدث ذلك إلا؛ لأنها وجدت قلوب خالية فتمكنت منها؛ فإن القلوب التي لا تتحصن بالعلم الشرعي تكون عرضة للانخداع بالضلالات والوقوع في الانحرافات.

ومن هنا ينبغي أن ننبه طلاب العلم على أهمية العلم؛ لأن العلم الشرعي ينقص كثيرًا منهم، والذي يعنينا هو العلم الشرعي، والمراد به علم ما أنزل الله على رسوله من البينات والهدى، فالعلم الذي فيه الثناء والمدح هو علم الوحي، علم ما أنزله الله فقط، قال النبي ﷺ: ((من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين))، وقال النبي ﷺ: ((إن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)).

ومن المعلوم أن الذي ورثه الأنبياء، إنما هو علم شريعة الله ﷻ وليس غيره، فالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- ما ورثوا للناس علم الصناعات وما

يتعلق بها، بل إن الرسول ﷺ حين قدم المدينة وجد الناس يُؤَبِّرون النخلة - أي: يلقحونها- فقال لهم لما رأى من تعبهم كلامًا يعني أنه لا حاجة إلى هذا ففعلوا، وتركوا التلقيح، ولكن النخل فسد، ثم قال لهم النبي ﷺ: ((أنتم أعلم بشئون دنياكم))، ولو كان هذا هو العلم الذي عليه الثناء، لكان الرسول ﷺ أعلم الناس به؛ لأن أكثر من يُثنى عليه بالعلم والعمل هو النبي ﷺ.

إذًا فالعلم الشرعي هو الذي يكون فيه الثناء، ويكون الحمد لفاعله، ولكني مع ذلك لا أنكر أن يكون للعلوم الأخرى فائدة، ولكنها فائدة ذات حدين، إن أعانت على طاعة الله وعلى نصر دين الله وانتفع بها عباد الله فيكون ذلك خيرًا ومصلحة، وقد يكون تعلمها واجبًا في بعض الأحيان، إذا كان ذلك داخلًا في قوله - تعالى- : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾[الأنفال: ٦٠]، وقد ذكر كثير من أهل العلم أن تعلم الصناعات فرض كفاية؛ وذلك لأن الناس لا بد لهم من أوانٍ يطبخون بها ويشربون بها، وغير ذلك من الأمور التي ينتفعون بها، فإذا لم يوجد من يقوم بهذه المصانع، صار تعلمها فرض كفاية، وهذا محل جدل بين أهل العلم.

وعلى كل حال أود أن أقول: إن العلم الذي هو محل الثناء هو العلم الشرعي، الذي هو فقه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما عدا ذلك، فإما أن يكون وسيلة إلى خير أو وسيلة إلى شر، فيكون حكمه بحسب ما يكون وسيلة إليه.

إذًا فالعلم الأصلي هو علم الكتاب والسنة، وما يتوقف على معرفة الكتاب والسنة، ثم تأتي علوم مساعدة كاللغة والنحو والصرف وغيرها من العلوم العربية، التي تساعد على فهم النصوص الشرعية، والعلوم المقصودة المتعلقة بالأعمال والعقائد والأخلاق والمعاملات، وهذه العلوم هي التي تنشئ في النفس

بفضل الله العلم بالله ﷻ وتدفعه إلى الورع وإلى توقي أماكن الهلاك، فعن عبد الله بن عمرو } قال رسول الله ﷺ: ((العلم ثلاثة: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة))، في حديث أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له))، فقيد العلم بالانتفاع به؛ ليعلم أن المراد به هو علم الكتاب والسنة، دون علم آراء الرجال ومقالات الأقوام.

وقال مالك بن دينار: "إنك إذا طلبت العلم لتعمل به، كسرك العلم، وإذا طلبته لغير العمل، لم يزدك إلا فخرًا"، وقال الحسن: "قد كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه، وفي لسانه وبصره ويده"، وقال عمرو بن بحر في العلم: "تعلم إذا ما كنت ليس بعالم، فما العلم إلا عند أهل التعلم، تعلم فإن العلم زين لأهله، ولن تستطيع العلم إن لم تعلم، تعلم فإن العلم أزين بالفتى، من الحلة الحسناء عند التكلم، ولا خير في من راح ليس بعالم، بصير بما يأتي ولا متعلم".

وإذا كان العلم هو علم الكتاب والسنة، فقد بين الإسلام فضل العلم والتعليم وتحمل المشاق والرحلة في طلب العلم، وفهمه ومعرفة آدابه وآداب حامله وباذله، ومغبة كتمانه وعدم نشره، وأن ذلك كله يحتاج إلى همم عالية وقلوب واعية مستبصرة؛ لتخطي العقبات في سبيل العلم والتعليم، والتي تهيئ القلوب لتخطي بقية العقبات، وذلك أمر شرحه يطول.

وكما يقول الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله- تحت عنوان التعليم والتذكير، في كتابه (الله دراسات في الدعوة والدعاة): الاهتداء إلى الحق نعمة جزيلة، وانشراح الصدر به خير غزير، وأول ما يجب على أصحاب الحق وقد عرفوه، أن

يفتحوا عيون الآخرين على ضوئه، وأن يعرفوا الجاهلين به وأن يجعلوه في الحياة واضحًا كشعاع الشمس، شائعًا كأمواج الهواء، ذاك ما يفرضه الحق على أصحابه، أن لا يجعلوه عليهم حكرًا، وأن لا يحرموا من نفعه أحدًا، وأن لا يدعو نفسًا تعيش بعيدة عن هداه، وليس ذلك بداهة عن طريق القصر، بل عن طريق لفت الأنظار وإيضاح الخفي وشرح المبهم، فإن فتك الجهل بالناس ذريع، وغلبة الأوهام على أفكارهم تذهب بهم بددًا في كل فج، تخيل إليهم أنهم على صواب، والواقع أنهم موغلون في الضلال، والسر هو الجهل، الجهل بأقسامه كلها من بسيط إلى مركب إلى جهالة الطيش والهوى، والعالم بحاجة ملحة إلى أن ينشط أهل الإيمان الصحيح، لشرح أصوله وإبداء صفحته ودحض الشبه المثارة حوله، واستخراج الجهال من الكهوف المطروحين بها، لتمتلئ صدورهم بأنفاس الحقيقة الرحبة، لقد تدبرت أفكارًا وسيرًا شتى لجمهور من العصاة والأراذل، فوجدت أن الجهل الفاضح ينسج حولهم غلالة قاتمة، ويذرهم أشبه بقطعان الدواب في قصور الإدراك وعوج العمل وشدة الغفلة.

وانظر ما يفعل الله لنبيه، إذ بعثه في العرب الأولين ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣]، وكذا قال - تعالى- : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٦- ٩]، هذه صورة مجتمع محبوس وراء جدران معتمة، لا يتسرب منها بصيص نور، ومن ثم نرى أصحابه صرعى الذهول والجمود، وعلاجهم ولو ينقطع العذر أن تزاح تلك السدود وتذوب هاتيك القيود، ويسلط على عقول هؤلاء وقلوبهم فيض من الوحي ينقلهم من حال إلى حال.

إن حاجة البشر إلى العلم الكثير، كحاجة الأرض المجدبة إلى الغيث الهاطل، ولا بد أن يسخر الدعاة جميع وسائل التعليم والإيقاظ كي ينصفوا الحق ويوصلوه إلى الخلق.

وأمر آخر إن العالم نفسه قد ينسى، وتشغله فتن العيش وصوارف اللغو عن القيام بما ينبغي منه، وهنا يجيء دور التذكير في إبعاد سنة الغفلة عنه، وكم من مبتعد عن الجادة تكفيه في العودة إليها همسة ناصح أو صيحة زاجر، فإذا هو راجع إلى رشاده مستقيم على الصراط ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وعمل الواعظين في أغلب الأحيان هو ذلك التذكير النافع، وهو تذكير لا يستغني عنه الناس يومًا؛ إذ طالما يعصف النسيان بأفكارهم، ويبعثهم على السير في الحياة دون وعي أو هدف، أليست تلك طبيعة البشر ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١- ٣]، وإسناد الهوى إلى القلوب، يومئ إلى تغلغل الصوارف عن الجد واستحواذها على صميم الإنسان.

والنسيان بهذه الصفة مساوٍ للجهل، فإن نتائج فقدان الذاكرة هي نفسها نتائج عدم العلم؛ ولذلك يقول الله - جل شأنه- : ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، وقد تتساءل كيف ينسى المرء نفسه؛ لأنه نسي ربه، أو تقول إنما نسي ربه؛ لأنه نسي نفسه، والجواب أن المنافقين المندفعين وراء شهواتهم، المستغرقين في إشباع مطامعهم ورغائبهم لا يذكرون شيئًا من مصالحهم الحقيقية، ولا يستفتحون طريقًا يصون لهم معاشًا أو معادًا، إنهم يرتعون في الدنايا رتع الدواب في الربيع حتى تهلك بشمًا واعتلالًا،

والشخص الذي تصرعه أهواؤه لا يدري شيئًا عن حاضره ولا مستقبله ؛ ولذلك يعتبر ناسيًا نفسه ، إنما جاء نسيانه لنفسه من نسيانه لربه ، ولو ذكر حقوق الله وانتصب لأدائها لأتاه الله رشده وبصره بما ينفعه ويرفعه ، ومسكه بما يضمن العافية له في دينه ودنياه.

فالتذكير المستمر ضرورة إذًا للناس جميعًا ، ما بقوا بشرًا مطبوعين على النسيان ، وما اختلف عليهم الليل والنهار ، ذلك أن اختلاف النهار الليل ينسي كما قال الشاعر :

وتزداد الحاجة إلى التذكير ❖ في بيئة عن بيئة ....

والدعوة إلى الحق واجبة في كل حين ، وهي في هذه الأيام أوجب ، والدفاع عن الحياة مطلوب ، وهو عند تحرش الذئاب وإحاطة الأخطار أحفز للحس وأدعى للاستعداد والانقضاض ، والسبيل إلى الله مهددة الآن بجحافل من الملحدين والفساق ، تجر العامة جرًّا إلى الجريمة وتصرفهم صرفًا عن العبادة ، وتزين لهم بألف وسيلة أن يهجروا الإيمان والعمل الصالح والعلم والعمل ، وتلك حال تنفي النوم وتقد المضجع ، وهي حال تذكرنا بالخصائص الأصيلة في هذا الدين العظيم دين الإسلام ، إنه دين حريص على تجلية الحق ومقاومة الباطل.

وقد حرص الإسلام على تعاليم الناس ؛ إذ تحرص تعاليم الإسلام على أن توجد فردًا متكاملًا ، في مظهره ومخبره وسره وعلانيته ، ويستأنس لهذا المعنى بقول رسول الله ﷺ : ((ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ؛ ألا وهي القلب)) ، والحديث عند التدقيق في معناه ، يشير إلى أن غاية الدعوة الإسلامية إصلاح الكيان الإنساني كله قلبًا

وقالبًا، وذلك ببيان الترابط بينهما، فصلاح القلب قنطرة لصلاح الجسد كله، وصلاح الجسد مرشح لصلاح القلب.

ومن ثم يحرص الإسلام على طلب العلم وتعليمه، فينظر الناس إلى الداعية على أنه طبيب قلوبهم ودواء عللهم، ومن ثم يفسحون له بما يستحيون من ذكره أمام خاصتهم وذويهم، ولا يلجأ الناس لمثل هذا المسلك إلا إذا علموا بأن لدى الداعية من القدرة العلمية والبصيرة النافذة ما يسد خللهم ويقيل عثراتهم، فإذا نظر الناس إلى الداعية هذه النظرة ثم وجدوه خاويًا، سقط على الفور من أعينهم، فشلت محاولاته في جذب الناس إلى الدعوة طالما كان على جهل بمبادئها وأصولها، ومن ثم كان على الداعية إذا أراد الفلاح والنجاح لدعوته، أن يكون على فقه في دين الله، وأن يستكثر في فترات عمره كلها من العلم النافع، عملًا بقوله - تعالى- : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤].

وإذا كان الحكم على الشيء فرعًا عن تصوره، فإني أستأذنك - طالب العلم- في أن أضع بين يديك هذه النقاط، التي بمقتضاها تدرك أهمية التعليم وضرورة تحصيله.

فتتضح أهمية طلب العلم للناس جميعًا، فضلًا عن الدعاة بصفة خاصة، في أن العلم هو العاصم من الزلل للفرد والمجموع على السواء، فقد جاء في الأثر: "من سلك طريقًا من غير دليل ضل، ومن تمسك بغير أصل زل".

وفي شأن الجماعة وصيانة العلم لها من التفكك، يقول الرسول ﷺ: ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا، اتخذ الناس رءوسًا جهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا))، وموطن الشاهد في الحديث أن غياب العلم عن ساحة الناس بغياب

حملته، إيذان بحلول الفوضى والاضطراب، حيث يكون البديل وقتئذٍ جهالًا يفتون بغير علم، فيضلون بأنفسهم ويضلون غيرهم.

هذا، وإن دعوة الإسلام إلى العلم لم تأتِ من فراغ، إنما لكون العبادة على غير علم يمكن أن ترتد سهامًا في صدر صاحبها، حين لا يكون له من العلم ما يصونه عن الانحراف، ولعل ألسق مثل بهذا ما قاله النبي ﷺ في شأن الخوارج: ((يخرج قوم من أمتي يقرأون القران، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية))، في رواية أخرى: ((يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان)).

من أجل هذا وغيره كانت توجيهات الإسلام إلى ضرورة طلب العلم، والحرص على الاستكثار منه، حتى إن الله ﷻ أمر نبيه ﷺ بالاستزادة من العلم لا من شيء آخر، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقال الرسول ﷺ: ((من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين))، وعن سفيان بن عيينة قال يومًا لأصحابه: "من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قالوا: قل يا أبا محمد، قال: ليس أحد أحوج إلى طلب العلم من العالم؛ لأنه ليس الجهل بأحد أقبح به من العالم".

ولسنا بصدد التعرض لما ورد من آيات وأحاديث بهذا الخصوص، فهي أكثر من أن تحصى، ويكفي للتدليل على كثرتها أن نشير إلى أن الإمام الجليل شمس الدين بن القيم قد أفرد في مقدمة كتابه (مفتاح دار السعادة)، العديد من الصفحات للحديث عن فضل العلم وأهله وعموم الحاجة إليه، وذلك من وجوه وصلت عنده إلى أكثر من مائة وخمسين وجهًا.

وتقديرًا من الدعاة لهذا الجانب في حياتهم، حفلت كتب العلم بالكثير من الأمثلة على عنايتهم بالعلم وحبهم له وتفانيهم في تحصيله، وإليك أخي الداعية هذه الأمثلة لعلها تكون حافزًا لنا على اقتفاء أثر أئمتنا وسلوك منهجهم، فيتحقق للإسلام من خلال دعاته الفاقهين ما تصبو إليه الآمال.

عن عكرمة عن ابن عباس { قال: لما قبض رسول الله ﷺ وأنا شاب، قلت لشاب من الأنصار: يا فلان هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ ولنتعلم منهم فإنهم كثير، قال: العجب لك يا ابن عباس أترى الناس يحتاجون إليك، وفي الأرض من ترى من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: فتركت ذلك وأقبلت على المسألة، وتتبع أصحاب رسول الله ﷺ، فإن كنت لآتي الرجل في الحديث يبلغني أنه سمعه من رسول الله ﷺ فأجده قائلًا - أي: وقت القيلولة- فأتوسد ردائي على بابه تسفي الريح على وجهي حتى يخرج، فإذا خرج قال: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما لك؟، فأقول بلغني حديث عنك أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ فأحببت أن أسمعه منك، قال: فيقول: فهلا بعثت إلي حتى آتيك، فأقول: أنا أحق أن آتيك، فكان الرجل بعد ذلك يراني وقد ذهب أصحاب رسول الله ﷺ واحتاج الناس إلي، فيقول: كنتَ أعقل مني.

وجاء في كتاب (ذيل طبقات الحنابلة) عن ابن عقيل النحوي الفقيه الحنبلي أنه قال: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك أيضًا: رحلاتهم المتكررة بين البلاد طلبًا للعلم وبحثًا عن الفائدة، وفي تقديرهم لهذه الوسيلة يقول أحدهم وهو الإمام الشعبي: لو

سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى، ما كان سفره ضائعًا.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: رحلت في طلب العلم والسنة إلى الثغور، والشامات والسواحل والمغرب والجزائر ومكة والمدينة والحجاز واليمن والعراقين جميعًا وفارس وخرسان والجبال والأطراف، ثم عدت إلى بغداد.

هذا، والكلام في شأن حرص السلف على طلب العلم وتفانيه في سبيله أمر شرحه يطول.

هذا، وينبغي أن يعلم أن العلم الذي ينبغي أن يكون، هو العلم الذي يجعل المناهج التربوية والثقافية للفرد المسلم تستقر على الوضع الأفضل، والعلم هو الذي يجعلنا ننجح في اختيار التطبيق الإسلامي المعاصر سياسيًّا وعسكريًّا، والعلم هو الذي سيقيم الحجة على غير المسلمين، العلم الذي تعرف به الكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله، التخلية قبل التحلية، العلم الذي يشمل الاعتقاد بوجود الله والإيمان بتوحيد الله واليقين بكمال الله، العلم الذي يشتمل على توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات والأفعال والذات، العلم الذي يفرغ القلب لله ويخليه من شواغله، العلم الذي يخلي النفوس من أغراضها والقلوب من أمراضها؛ لتتلقى عن الله - تعالى- فيوضه وتعيش تحت كنف التوحيد الخالص، العلم الذي يعلمك البعد عن الشرك والشك، والعلم الذي به تعرف المعبود وتدرك عظمته وواجبك نحو خالقك، والعلم الذي به تعرف سنة الرسول ﷺ المطهرة وسيرته العطرة، تعرف هدي أصحابه وتتأدب بآدابهم وفهم

ما نقل عنهم، وبه تعرف فهم السلف الصالح، وفهم الأصول ثم الفروع، وما نقل عن الرسول ﷺ.

فالعلم مقصود لذاته ولغيره؛ لذاته لشرفه والاتصاف به، ولغيره للتوصل به إلى المزايا والرتب داخلة وخارجة، والتعدي عن صفة الجهل والبعد عنها.

وأختم بقول الله - تعالى- : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩]، ونحن نشهد بما شهد الله به،ل ونستودع الله هذه الشهادة، وهي لنا عند الله وديعة.

مفهوم الخطابة، وقواعدها، وخصائصها، وأهميتها في الدعوة

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	مدخل حول الخطابة	٤٤٣
العنصر الثاني	:	مفهوم الخطابة	٤٤٨
العنصر الثالث	:	أهمية الخطابة	٤٥٠
العنصر الرابع	:	خصائص الخطابة	٤٥٣
العنصر الخامس	:	قواعد الخطابة وأساسياتها	٤٥٧

مدخل حول الخطابة

نحن في هذه المرة مع الخطابة، مفهومها وقواعدها وخصائصها وأهميتها في مجال الدعوة.

وأبدأ بهذا المدخل فأقول:

الخطبة فن قولي يحمل الدعوة إلى الناس، وألوانها عديدة وصورها متنوعة، ووسائل التبليغ كثيرة، وقد أضفى عليها العصر الحديث وسائل أكثر، ووسط هذه الكثرة حافظت الخطابة على أهميتها القصوى في البلاغ، ولسوف يستمر لها هذا الدور، إلى يوم أن يلقى الله جميع الناس.

إن الإنسان يسيره وجدانه أكثر مما يسيره فكره، والفرد مع الآخرين ينسى خواصه الفكرية ومواهبه الأصيلة، ويندرج في وجدان الجماعة، يقول لوبون: وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة في الأمور التي مرجعها إلى الوجدان؛ كالدين والأدب والميل والنفور وهكذا إلا نادرًا، وليس هناك ما هو أجدر من الخطبة في استمالة الوجدان وتهييج الشعور، وتحقيق الانفعال المؤدي إلى الاندفاع والعمل، والفرد الذي يسيره العقل وحده لا تغفله الخطابة الدينية؛ لأنها قائمة على الحق بعيدة عن التغرير، تستعمل الأدلة البرهانية والأدلة الظنية وغير ذلك من الأدلة، حتى تصل إلى أعلى درجات اليقين.

إن ارتباط الخطابة بالعاطفة الدينية دافع إلى الاهتمام بها، وأيضًا فإن وجود الأمية وكثرة الأعمال وضيق الوقت، دوافع رئيسية إلى ضرورة الخطابة؛ لأنها تخاطب الأمي على قدر طاقته؛ تقرب له البعيد وتذلل أمامه الصعاب، وتوجز الزمن لمن

لا يجده من أصحاب الأعمال، وتركز المعاني الكثيرة في كلمات قليلة، وتقدمها لمن تزحمه مشاغل الحياة.

ولأهمية الخطابة للدعوة، كان لها الدور الرئيس في صدر الإسلام، حيث خطب النبي ﷺ في يوم الجهر بالدعوة، وكان يخطب في الوفود القادمة وفي الجيوش الذاهبة، وكان ﷺ يكلف القادر على الخطابة أن يقوم بواجبه تجاه إخوانه وتجاه غيرهم، يدعوهم إلى الخير ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

وقد اصطلح العلماء على تسمية الخطابة الدينية بالوعظ، وتسمية القائمين بها بالوعاظ، وهذا تضييق لواسع؛ لأن الدين يشمل سائر جوانب الحياة وكافة أمور الآخرة، وكل ما تتخيل الخطب فيه من تجارة وصناعة وزراعة وسياسة وتعليم وحرب، هو من أساسيات الدين ولوازمه، وبذلك يقصد بالخطابة الدينية الخطابة في الأمور كلها.

صحيح أن الدعاة إلى الله اليوم هم الأئمة والوعاظ، الذين يباشرون بخطبهم جانبًا من الدين يكاد ينحصر في باب الأخلاقيات، أو في تعليم بعض أصول العبادات والتشريعات، وابتعدوا عن أنواع كثيرة من الخطب؛ كالخطب القضائية والسياسية والعسكرية، وتركوها للمحامين والزعماء والعسكريين، وقد يكون هذا سر قصر الخطابة الدينية على الوعظ.

ووسيلة الخطابة في العالم الإسلامي وبخاصة الوعظية منها، من أهم وسائل الدعوة في العصر الحديث لارتباطها بصلاة الجمعة، حيث يحرص المسلمون على سماعها، ولو أتقن الدعاة رسائلهم الدعوية التي تحتويها الخطبة لأمكنهم عرض الإسلام وتعليمه للناس؛ لأن العام الواحد يتكون من اثنتين وخمسين جمعة، فلو قدم الخطيب لمرتادي المسجد عددًا من الموضوعات المتقنة، لقدم الكثير من

المعارف، ولو تصورنا الخطبة محاضرة علمية والمصلين يحيطون بها، فإننا نتصور جامعة راقية لتعليم المسلمين دينهم بوسيلة الخطابة.

إن الخطابة تحتاج إلى إعداد جيد، يتم من خلاله تقسيم الخطبة إلى عناصر مترابطة في إطار موضوع متكامل، وأهم مزايا الخطبة كوسيلة للدعوة أنها تأخذ صورة دينية واجبة، الأمر الذي يشير إلى أهمية إعدادها وتنسيقها، ويحتم على الداعي أن يستعد لإلقائها بعناية واهتمام، وتلزم الجمهور بالحضور للاستماع لها في يقظة وانتباه، وتتميز الخطبة بأنها وسيلة مباشرة، تجعل الداعي والمدعوين خلالها في اتصال مباشر، وهذا يؤدي إلى اكتشاف أثر الدعوة على المدعوين.

ودعمًا للحق في أنحاء الجماعة جعل الله الخطابة من شعائر الإسلام، ففي كل أسبوع يحتشد المسلمون في المسجد الجامع؛ ليسمعوا داعية إلى الله يذكر به ويعلم دينه، وفي كل عيد يجتمع الرجال والنساء في الميادين الرحبة أو في المصليات المحيطة بالقرية؛ ليسمعوا التوجيه المناسب بعد صلاة العيد، وفي كل موسم جامع للحجيج، تلتقي وفود الأمة الإسلامية المترامية الأطراف حول عرفة؛ لتستمع إلى خطاب خطير، يتناول شئونها ويشرح قضاياها ومبادئها.

وبديهي أن الخطابة في الإسلام غير الخطابة التي يرى شبحها الآن حائلًا مائلًا، إن الصلة بين خطب اليوم وحقيقة الدين كالصلة بين سيف المنبر، وأسلحة القتال في البر والبحر والجو.

الخطابة في الإسلام مظهر الحياة المتحركة فيه، الحياة التي تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب، ويثب من فكر إلى فكر، وينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل، ومع المكان من قطر إلى قطر، وذاك هو السر في أن نبي الإسلام ﷺ كان يخطب كل أسبوع وكل عيد، ويخطب أو ينيب عنه أميرًا يخطب في وفود الحجيج

عند جبل الرحمة، وتنفجر ينابيع الخطابة الصحيحة من معاني القرآن وأغراضه، فإن القرآن هو الكتاب الهادي للأحياء ذو القدرة الفذة على استثارة أفكارهم واستجاشة مشاعرهم والسمو بهم إلى ما يشاء، فلا جرم كانت الخطابة مستمدة منه وقود نهضة وضياء أمة، في كل بضعة أيام يقف رجل واع حصيف؛ ليعرض قبسًا من آياته أو يسير في هدي هذه الآيات، إلى إحدى الغايات التي جلاها القرآن الكريم.

إن الإسلام دين حي، ومن دلائل حياته وامتداده أن رسوله ﷺ، وخلفاء رسوله } كانوا باستمرار يصلون أمداد الوحي بين الناس، فما يضعف صوت السماء وما ينقطع مع هدير الخطيب الذي يتحدث باسم الله بين عباد الله، وصوت السماء هنا ليس نداء إلى عزلة أو أمرًا بانسحاب، كلا كلا إنه صوغ الحياة نفسها وفق إرادة الله، وقيادة الأحياء إلى الحق الذي تحاول الشياطين اختطافهم دونه.

ولذلك لا تسمى خطابة إسلامية هذه الكلمات الميتة التي يسمعها الناس في بعض المساجد، ثم يخرجون وهم لا يدرون ماذا خطيبهم؛ لأنه لم يصل أحد منهم بروح القرآن ولا أنعش قلبًا بمعانيه، ولا علق بصرًا بأغراضه، القرآن كتاب طواف في الكون وصاف لآفاقه، متغلغل في شئون الحياة يتناولها بالسرد والحكم، ويشرح وصاياه للفرد والمجتمع والدولة في شمول وهيمنة، ويستشف خبايا الأنفس والعقول، فلا يدع ريبة أو شبهة إلا أزاحها، يستحيل أن يفرط في قضية تعني الناس من معاشهم أو معادهم، إن لم يتناول الجزئيات كلها بالفتوى الحاسمة، فإن أسلوبه في خلق الضمير الذاكي والفكر الراقي يغني ويكفي ويهدي للتي هي أقوم.

والخطابة الإسلامية حقًّا، هي التي تأخذ من القرآن وتسير معه، كان رسول الله ﷺ أحيانًا يخطب بسورة ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وكان عمر > أحيانًا يخطب بسورة "النحل": ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١].

وإذا كانت لغة التخاطب قديمًا قلما تتفاوت مع لغة الأداء، فإن فهم العامة للقران لا يبعد ولا يخفى، أما الآن فربما لا تخطب بالقران نفسه، بيد أن المعاني الواسعة المحيطة المتحدثة عن السلم والحرب والغنى والفقر والإنسان والجماعة والدنيا والآخرة والجسم والروح، المعاني المتحدثة إلى الإنسان وحده أو هو مع عمله أو مع أهله، المفصلة لضروب الأحكام في شتى الشئون، هذه المعاني هي الينبوع الذي تستمد منه الخطابة الإسلامية حديثها.

والمعنى الرائع لا يكفي فلا بد من كساء حسن له، والقرآن معجزة أدبية أخرست المتحدين على مر العصور، فكيف بالله يتعرض لخطابة الناس باسم الإسلام رجل ضعيف البصر بمعاني الكتاب الكريم، أو بصير ببعضها ولكنه محروم من نعمة الأدب وحلاوة الأداء، الخطيب الذي يصلح للتحدث عن الإسلام، رجل خبير بالحياة وعللها مكين في الوحي الأعلى، يأخذ منه بلباقة ما يشفي علل الناس ويصلح بالهم، وما يتألف به نافرهم ويسكن ثائرهم وما يدحض به نزعات الإلحاد ويحبط كيد الشيطان، وما ترق به القلوب القاسية وتنفرج به الأسارير المنقبضة، وما يشعر الناس بعد الانصراف عنه أنهم فقراء إلى الله، محتاجون إلى هداياته، لا بصيرة لهم إلا منه ولا ملجأ إلا إليه.

وموضع الخطبة الإسلامية هو الحياة الأولى والآخرة جميعًا؛ لأن ذلك هو المجال الذي يعمل فيه الإسلام وتتطرق إليه الآيات.

مفهـــــــوم الخطابـــــــة

الخطابة لغة: مصدر فعله خَطَبَ يَخْطُب خُطْبَة، مشتقة من المخاطبة، وقيل: من "الخَطْب" وهو الأمر العظيم؛ لأنهم كانوا لا يجعلونها إلا عنده، والجمع خُطَب، وخطيب القوم هو المتكلم عنهم والجمع خطباء.

وأما الخِطْبَة بكسر "الخاء" فهي طلب المرأة للزواج، قال - تعالى- : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] الآية، والرجل في هذه الحالة يسمى خاطِب وخَطَّاب مبالغة فيه.

وعلى هذا فإن خَطَبَ يشتق منه خُطْبَة وخِطْبَة، والفرق بينهما أن الخُطبة بالضم تفيد البيان الشافي والموعظة المؤثرة والجدل المؤدي إلى الإقناع والاستمالة، أما الخِطبة بالكسر فهي طلب المرأة للزواج كما تقدم.

الخطابة اصطلاحًا:

فتعرف الخطابة اصطلاحًا؛ بأنها فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته.

وبتأمل هذا التعريف تبرز أمامنا طبيعة الخطابة، ومسئولية الخطيب على أوفى ما تكون، فقوله: "فن" أي: أن الخطابة وإن كانت استعدادًا فطريًّا فهي مع ذلك فن من الفنون، يمكن تعلمه بالممارسة والتدريب والمران، يقول أرسطو: بعض الناس يمارس الخطابة فطرة وسليقة، وبعضهم يمارسها بالمرانة التي اكتسبها من مقتضيات الحياة، والوسيلتان ممكنتان، فواضح أن تكون هناك طريقة وأن يكون هناك مجال لتطبيقها.

وقوله: "مشافهة" أي: مواجهة، فإذا كان كاتب المقال يسطر أفكاره على الورق فيغير منها ما شاء ويبقي ما شاء، فإن الخطيب مسئول أن يبلغ رسالته مباشرة وأمام جمهوره مواجهة، بكل ما تحمله المواجهة من صعوبة وأخطار.

وقوله: "الجمهور" يستلزم مستمعًا، وإلا كان القول حديثًا أو وصية.

وقوله: "وإقناعه" معناه أن يوضح الخطيب رأيه للمستمعين، ويؤيده بالأدلة والبراهين ليعتقدوه كما اعتقده، ويؤمنوا به كما آمن به.

وقوله: "واستمالته" معناه أن يقبض الخطيب على زمام عواطف المستمعين، فيتصرف بها كيف شاء ويوجهها الوجهة التي يريد، وهذا معناه أن الخطيب في مجال الدعوة إلى الله لا تنتهي مهمته عند تصوير الواقع كما رآه، وإنما لا بد له من خطوة أخرى على الطريق لا تتم مهمته في غيابها؛ وهي أن يستميل الناس إلى ما يدعو إليه استمالة تتوج بالطاعة والامتثال، وهذا هو الفارق بين الإقناع والاستمالة.

ومما نوجه الأنظار إليه في هذا المقام، الحذر من الاكتفاء بالخطاب العاطفي، فمهمة الخطيب لا تقتصر على استمالة الناس فحسب، بل من واجبه التأثير الفكري عليهم ورفع مستواهم الثقافي وإحياء الوعي في صفوفهم.

والاستمالة تكون بصادق القول، وهذا معناه أن يتحرى الخطيب الصدق في كل ما يقوله للناس، فإن الكلمة أمانة وهو مسئول عنها يوم القيامة، كما قال -تعالى-: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

أهميــــــة الخطابــــــة

وعلى الرغم من كثرة وسائل البلاغ في عالمنا المعاصر، إلا أن الخطابة قد حافظت على أهميتها في البلاغ وسط هذا الركام، فالخطيب الحكيم يستطيع بما وهبه الله - تعالى- من نور الحكمة وقاطع الحجة وساطع البرهان، أن يصح القلوب وينبه العقول ويطهر النفوس حتى ترجع عن غيها وتعود إلى الاعتدال، وتتحلى بفضائل الأعمال وتحيا بنور العلم والإيمان؛ ولهذا فليس بدعًا أن كانت الخطابة بلاغ النبيين إلى أممهم، والراح الذي يسكبه القواد في نفوس جنودهم قبيل المعركة، فيسرعون باسمين إلى قتال أعدائهم، والقوة الساحرة التي يقود بها الزعماء السياسيون، والمصلحون الاجتماعيون أممهم إلى حياة أرقى وأعز وأبقى، ولسان الأحزاب السياسية تنتشر به دعوتها وتظفر بها على خصومها، ونورًا يهدي القضاة إلى العدالة وتبرئة المظلوم والاقتصاص من الباغي.

وتنبثق أهمية الخطابة من أمور ثلاثة:

الأول: كونها حاجة نفسية.

فميلاد الإنسان بداية لمرحلة من مراحل الصراع مع نفسه، ثم مع بيئته في محاولة إثبات ذاته، وفي دوامة هذه المعاناة يحاول التعبير عن دوافعه وآلامه وآماله بمختلف الصور، والخطابة من أبرز أدوات التعبير جميعًا.

الثاني: كونها ظاهرة اجتماعية.

فالإنسان مدني بطبعه لا يعيش وحده، ولا بد له من جماعة ينتسب إليها ويتفيء ظلالها، ويستثمر طاقاته بالتفاعل معها، ومن سنن الاجتماع البشري الاختلاف

على غنيمة أو متاع أو سلطة، قال - تعالى- : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وفي خضم هذا الاختلاف والتنافس يحاول المتغلب أن يستميل من يخالفونه وأن يقنعهم، فإذا ما أقنعهم واستمالهم فهو خطيب وقوله خطبة.

الثالث: كونها سلاح من أسلحة الدعوة.

والخطابة فوق ذلك كله سلاح من أسلحة الدعوة، يحق الله به الحق ويبطل به الباطل، فعندما يكثر المبطلون في الأرض، ويظهر شرهم في البر والبحر، فإن الخطيب واحد من الذين يتصدون لهذا الشر، كسرًا لشوكته مع غيره من رفاق السلاح على طريق الحق.

ولأهمية الخطابة في البلاغ كانت مهنة النبي ﷺ ومنبره، ومبتدأ دعوته ورسالته، فقد خطب ﷺ يوم الجهر بالدعوة، وكانت خطبته تلك من أهم الحوادث وأعظم البواعث للدعوة الجهرية، التي أطلقت الألسن من عقالها وأثارت الخطابة في الإسلام من مكمنها، وأغرت العقول بأحكامها واجتلاب الألباب بسحر بيانها.

كما كان النبي ﷺ يخطب في أصحابه كل جمعة، يأمرهم بالمعروف ينهاهم عن المنكر ويدعوهم إلى الخير، وبذلك صار المجتمع الإسلامي كله مدرسة خطابية قويت فيه الخطابة، وارتفع شأن الخطيب ارتفاعًا كبيرًا.

وبالجملة فإن الخطابة ضرورية للدعوة الإسلامية، وما أجدرنا أن نقوم بها وأن نعد لها رجالًا قادرين على حملها والقيام بتبعاتها، فمن المعلوم أن الدعوة الإسلامية وجبت التبليغ، وأنها ليست كائنًا متحركًا بذاته حتى تصل وحدها إلى الناس، وإنما هي مفهوم معنوي يحتاج إلى من يحسن فهمه يدرك مقاصده ويطبقه، ثم يعرضه على الناس في أوضح صورة وأبلغ بيان.

ومن هنا كانت الضرورة ملحة والحاجة ماسة إلى دعاة مخلصين، يبلغون رسالة الله ﷻ، ويبينون للناس أصولها وحقائقها، ويشرحون لهم قيمها وفضائلها؛ ليؤمنوا بها عن رغبة واقتناع، وهذا ما فعله النبي ﷺ، فحينما أمره الله ﷻ بالجهر بالدعوة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، وكلفه بالبلاغ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، خطب ﷺ في قومه وأنذرهم، ثم أخذ في إعلام الناس بما أُرسل به، فكان يذهب إلى أحياء العرب وأماكن إقامتهم، أو يلقاهم في الأسواق وفي مواسم الحج وغير ذلك من المناسبات، يعرض عليهم دعوته ويشرح في كل موقف عقيدته ويبين أهدافه ومقاصده، كل ذلك في أسلوب خطابي يفيض عليهم من عذوبة اللفظ وجمال البيان وقوة الحجة، وسمو المقصد ما يغري المخاطب بالدخول في دين الله حبًّا وطواعية.

ولم يقف الأمر بالنبي ﷺ عند هذا الحد، وإنما كان - صلوات الله وسلامه عليه- يختار من أصحابه من يصلح للتبليغ، ويرسله مبعوثًا من قبله إلى الناس، يعلم القرآن ويقضي بحكم الله، ويهدي الحائرين في منهج الوحي في مختلف شئون الحياة.

وبذلك يكون النبي ﷺ قد ترك لأمته سنة من بعده واجبة الاتباع، وهي أن تخصص من أبنائها النابهين طائفة تتفقه في الدين، وتحمل على عاتقها مسئولية التبليغ، وأمانة الدعوة إلى الله ﷻ مستغلة في ذلك كافة وسائل البلاغ المتاحة، قال - تعالى- : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال - تعالى- : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

والخلاصة: أن الخطابة في الإسلام كانت وستظل بمشيئة الله - تعالى - هي اللسان الناطق بالرسالة، والأداة المعبرة التي تشرح للناس حقيقة الدعوة، وتبين لهم المثل والقيم التي أتت بها وتوضح مهمتها، وتجادل وتنافح الخصوم بالتي هي أحسن، وتفند آراء المخالفين بالحجة والبرهان، وهي أيضًا مظهر الحياة المتحركة فيه، الحياة التي تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب، ويثب من فكر إلى فكر، وينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل، ومع المكان من قطر إلى قطر؛ ولهذا جعلها الله - تعالى - من شعائر الإسلام.

خصائص الخطابة

هناك ضروب من الخطب قضى عليها الإسلام في صدره؛ مثل سجع الكهان؛ لاتصاله بالوثنية، ونهى النبي ﷺ عنه، كذلك أصبحت خطب المفاخرات قليلة بعض الشيء، والذي ظهر منها لم يكن على غرار المفاخرات الجاهلية، ولكنها كانت مفاخرات موزونة بميزان الإسلام؛ مثل المفاخرة التي جرت في سقيفة بني ساعدة عقب وفاة الرسول ﷺ، وبقي من أنواع الخطب في هذا العصر ما يلي:

خطب النكاح، وخطب المناظرات، والخطب السياسية والوصايا، وخطب الجهاد، وخطب الوفد، والخطبة الدينية.

وأهم خصائص الخطب في هذا العصر:

الأول: الطول؛ وهذا من أهم ما تمتاز به الخطبة العربية عمومًا بعد الإسلام، حيث مست الحاجة إلى الإطناب عرضًا وبيانًا لجوانب الدعوة التي يقوم بها الخطيب، وقد تحتاج إلى ترديد الحجج والإكثار من البراهين والإسهاب في شرح الأفكار.

الثاني: الحرص على تقسيم الخطبة ؛ حيث يبدأ بالمقدمة التي تشمل الحمد والثناء على الله ، ثم الدخول إلى الموضوع وعرضه عرضًا واضحًا ، ثم الخاتمة.

الثالث: الحرص على اتباع الترتيب المنطقي السليم في عرض الموضوع.

الرابع: الاقتباس من القرآن والسنة وأحاديث الحكماء والأمثال السائرة ؛ والخطبة التي لا يكون فيها قرآن شوهاء ، وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجُمَع أثرًا من القرآن ؛ فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار.

الخامس: اختفاء السجع ، إلا إذا جاء عفوًا وبغير قصد ، لنهي النبي ﷺ عنه.

السادس: قوة الأفكار ؛ حيث صارت الخطبة أداة التعبير في المجتمع الإسلامي الجديد.

ومن خصائص الخطابة تتعدد ألوان الكلام المكتوب والمسموع ، فهناك النثر الفني والشعر والكتابة والخطابة ، ولكلٍّ خصائص تميزها ، فما هي خصائص الخطابة التي تميزها ، نقول إن الخطابة لون من ألوان الكلام المنثور ، فهي نثر ولكنها تختلف عن النثر الفني ، حيث لا يستحب فيها السجع المتكلف ، بل لها العبارة الرائقة الخالية من التكلف ، وهي كذلك تختلف عن الشعر ، حيث إنها لا تلتزم الوزن ولا القافية ، ويلتزمها الشعر مع الخيال الواسع الذي يجوب الدنيا بجميع مظاهرها ، لكن الخطابة تلتزم عرض المواضيع الجادة ، التي تشغل بال الجماهير في موضوعية لا تعرف الخيال ، وإن كانت تحدث على السيطرة على العاطفة.

والخطابة عملية مشافهة وإلقاء ، تميزت عن الكتابة المدونة التي يقرؤها الجمهور دون مشافهة ، والمتتبع لكتابة العلماء يجدهم خصصوا الخطابة بما يلي :

أ- خصائصها في ألفاظها :

ألفاظ الخطابة سهلة جزلة بعيدة عن التعقيد اللفظي والمعنوي ؛ إذ إن العبارة الرائقة تساهم في تحصيل ثمرة الخطابة حيث يصل الخطيب بها إلى إقناع الناس من أقرب طريق، اقرأ كلام النبي ﷺ في خطبة الوداع، تجد السلاسة والعذوبة، ومنها : ((أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها)).

ب- خصائصها في موضوعاتها :

تمتاز الخطابة في موضوعاتها بمناسبتها لحال الجماهير، حيث تخاطب عواطفهم وتناقش ما يشغل بالهم، وتقدم الحلول لمشكلاتهم ليجد فيها الناس متنفسهم، ويحصلوا منها على ما يقنعهم ويشفيهم، أما حين يجنح الخيال بالخطيب، فيخاطب الناس في موضوع لا يشغلهم ولا يحتاجونه، أو هو واقع خارج دائرة عقولهم، فذلك يخرج بالخطابة عن ميزتها ويجردها من فائدتها، ويجعلها شبيه الشعر في خيالاته وتصوراته، أو يقيم حاجزًا نفسيًّا بين المستمعين والخطبة، كمن يتحدث وسط العوام عن خطر الابتعاث إلى الخارج، أو من يدعو الفقراء العاطلين عن العمل والكسالى عن السعي إلى الزهد في الدنيا.

ومن خصائصها في موضوعاتها أنها لا تعرف موضوعًا واحدًا، بل موضوعها الحياة كلها، بما فيها من علوم وفنون ومهن وحوادث، يقول الشيخ أبو زهرة - رحمه الله- : ولا شيء حقيرًا كان أو جليلًا معقولًا أو محسوسًا إلا ويدخل تحت حكمها، ويخضع لسلطان لسانها، ومن ثم فعلى الخطيب أن يكون له إلمام بكل صنف من المعارف، بل ينبغي له أن يوسع كل يوم مداركه، فإن كل مسألة عامة

أو لها صلة بشأن عام يصح أن تكون موضوع الخطابة كحب الوطن، وإقامة العدل والنظام وتسكين الفتن والتمسك بالفضيلة وغير ذلك، بل من المسائل الخاصة ما هو موضوع للخطابة كالخصومات، فإن المحاكم ميدان للخطابة، وإن كان الناس قد اصطلحوا على الخطابة في موضوعات وجعلوها أقسامًا وأنواعًا:

ت- خصائصها في أسلوبها:

الخطابة لا تعرف شكلًا واحدًا من الأساليب، وإنما يختلف أسلوبها تبعًا لنوعية الجمهور المتلقي؛ لذلك كانت الخطابة في الصفوة من المثقفين ذات أسلوب رفيع وبلاغة عالية وطريق في العرض خاصة، ولا مانع من التقسيمات العلمية والتعليق عليها، وخطاب العوام له أسلوب سهل قريب التناول، ليست فيه التقسيمات العلمية والمصطلحات الفنية، وخطاب الجمهور الخليط من المتعلمين والعوام وأنصاف المتعلمين، يحرص فيه الخطيب على الممازجة بين الأمرين؛ ليرضي أذواقهم ويسيطر على عاطفتهم.

ث- خصائصها في معانيها:

معاني الخطابة ينبغي أن تكون مفهومة للجمهور واضحة جلية، يبينها الخطيب بحيث تدركها الأفهام بلا عناء؛ ولهذا تبتعد الخطابة عن الإغراق في المعاني، أو التقعر فيها أو الجنوح فيها إلى الخيال.

ج- خصائصها في الإقناع:

الإقناع في الخطابة لازم من لوازمها، بل غرضها الأساسي الذي تدور حوله وتسعى له، وهو في الخطابة أيسر وأقرب من الإقناع في غيرها من فنون القول المختلفة؛ لأن الخطابة حرة لا تلتزم وزنًا ولا قافية كالشعر، ولا تلزم

المصطلحات الجافة كالعلوم المختلفة، ولا تغرق في التقسيمات الفلسفية، بل هي تعتمد على وسائل عديدة في الإقناع، كالاستفهام والإنكار والتقرير والمشاهدات البديهية لدى المستمع، والقسم والنداء والتمني والقصة والمثل وغير ذلك؛ لذا كان جمهورها أكبر وميدانها أرحب وأوسع.

قواعد الخطابة وأساسياتها

لا يختلف علم الخطابة عن سائر العلوم، في أن له موضوعًا يتخذه مجالًا لدراسته ومباحثه، وفي أن له هدفًا يسعى لتحقيقه والوصول إليه، وليس مسلمًا ما يدعيه البعض من أن الخطابة موهبة، ولا مدخل للاكتساب إليها؛ لأن الموهبة في حقيقتها لو وجدت تحتاج إلى التنسيق بالدراسة، ولا بد لها من معرفة القواعد العلمية لتفيد وتؤثر، وكم من خطباء بدأوا عملهم قبل اكتشاف استعدادهم الفطري، وإذا بهم يتبعون قواعد العلم، فيبرزون بالعلم والموهبة معًا.

صحيح أن الموهبة لها دورها في النجاح، لكنها لا تغني عن الدراسة والعلم، والإحاطة بأركان علم الخطابة، لقد كتب العلماء الأوائل في الخطابة وتبعهم المتأخرون، فقدموا بذلك زادًا للعلماء والدارسين، يضيء الطريق ويشجع على مداومة المسير، وأركان علم الخطابة التي هي موضوعه تنحصر في ثلاثة هي: الخطبة، الخطيب، المستمع.

وذلك؛ لأن الخطابة في جملتها أقوال هادفة، رتبت وفق منهج علمي معين، يتحدث بها شخص عالم بما يقول، ويوجهها لجمهور من الناس يهدف التأثير فيهم وإقناعهم بما يراد منهم، وعلى هذا فالأقوال هي الخطبة، والقائل هو

الخطيب، والجمهور هم المستمعون، يقول ابن رشد: إن الكلام مركب من ثلاثة؛ من قائل وهو الخطيب، ومن مقول فيه وهو الذي يعمل القول فيه، ومن الذين يوجه القول إليهم وهم المستمعون.

إن علم الخطابة يتناول كل ركن من هذه الأركان الثلاثة، فيعرف به ويقسمه أقسامًا معينة من أجل تفهمه ودراسة أبعاده المتعددة، وفق المنهج العلمي لدراسة علم الخطابة، وبعد ذلك تكون قواعد العلم وقوانينه بينة واضحة أمام الخطباء، وكل من يتصدى لهذه العملية التوجيهية الهامة.

إن علم الخطابة يتصل بسائر العلوم، ويستفيد منها في إطاره الموضوعي، وواجب على المشتغلين به أن يوجهوه إلى النافع المفيد، ويبتعدوا به عن الأغراض السيئة المرذولة، حتى يتضح للعلماء ولغيرهم الوجه الحقيقي لهذا العلم، فما وضعه واضعوه إلا لخدمة الإنسان، والترقي به في حياته الخاصة والعامة.

ومن ثم فقواعد هذا العلم وأركانه، الخطبة والخطيب والمستمع.

فماذا عن الخطبة، عندما يقصد شخص ما مخاطبة مستمعيه بمقولة خاصة وعلى هيئة الخطبة لزمه أن يستعد لها، فيتصورها بوجدانه، ويفكر في عناصرها، ويركزها بعقله، ويقف على الأدلة والبراهين التي سيوردها خلالها، ويهيئ أسلوبه وبيانه الذي سيتحدث به.

والخطبة ليست عملية سهلة ولكنها أمر شاق، يحتاج إلى وقت وجهد؛ لأن أصولها تعلم أن من يستمعون للخطبة لهم عقول تحكم ولهم أرواح تَحُس ولهم نفوس تتذوق؛ ولذلك كانت ضرورة التسلسل المنظم للخطبة، والبيان الواضح في أسلوبها والإقناع والاستمالة بأدلتها.

ومن ثم فالخطبة في قواعدها تحتاج إلى إعداد ومعرفة المحتويات وتقسيم الخطبة وخصائص الخطبة، وأذكر على سبيل الإيجاز وعلى جناح السرعة الإشارة إلى هذه الأمور؛ ففي إعداد الخطبة ينبغي أن يكون الإعداد الذي هو بمعنى التهيئة والتحضير للخطبة فيما يرتبط باللفظ والمعنى والموضوع؛ ليبرز المعنى في ثوب قشيب مؤثر، كما قال الجاحظ: إن المعنى إذا اكتسى لفظًا حسنًا، وأعاره البليغ مخرجًا سهلًا، ومنحه المتكلم قولًا متعشقًا، صار في قلبك أحلى ولصدرك أملى، والمعاني إذا كسيت حسن الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة تحولت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زينت وعلى حسب ما زخرفت، فاذكر هذا الباب ولا تفرط فيه.

وإعداد الفكرة والمعنى وإظهارها بصورتها اللائقة يمر بمراحل متعددة؛ لأن تخير الموضوع وتحديده في العقل والرضا به يمثل مرحلة، كما أن تحليل الموضوع لعناصره الأساسية واختيار أدلته وتنسيقها يمثل مرحلة ثانية، وأيضًا فإن صياغة المعاني والأدلة في قالب بياني فصيح وأسلوب بليغ يتناسب مع المستمعين يمثل مرحلة ثالثة، ولا تفضل مرحلة غيرها في الأهمية؛ فجميعها يتضافر في تقديم خطبة جميلة متماسكة، تصل لهدفها وتأثيرها، كما يقول ابن المعتز: إن البلاغة بثلاثة أمور؛ أن تغص لحظة القلب في أعماق الفكر، وتتأمل لوجوه العواقب وتجمع بين ما غاب وما حضر، ثم يعود القلب على ما أعمل الفكر، فيحكم سياق المعاني والأدلة ويحسن تنفيذها، ثم تبديه بألفاظ رشيقة مع تزيين معارضها واستعمال محاسنها.

ويقول الشيخ علي محفوظ: من أراد العظة البليغة والقولة المؤثرة فليعمد إلى المنكرات الفاشية، ولا سيما ما كان منها قريب العهد وحديثه على ألسنة الناس،

ثم يقدم أكبرها وأخطرها فيجعلها محور خطابته وموضع عظيه، ثم يفكر فيما ينشأ عن هذا الحادث من أثار يحصيها، ثم يستحضر الأدلة من الآيات والأحاديث والآثار، ثم يأخذ في كتابة الموضوع بعد ذلك إن شاء.

فنجد من قال في البلاغة ومن قال في الخطابة، يقسمون الإعداد للخطبة إلى مراحل أربع:

المرحلة الأولى: تعرف بمرحلة خلق موضوع الخطبة.

والمرحلة الثانية: تعرف بمرحلة تركيب عناصر الخطبة.

والمرحلة الثالثة: تعرف بمرحلة اختيار الأدلة.

والمرحلة الرابعة: تعرف بمرحلة التعبير البياني.

هذا، وخلق موضوع الخطبة: لا بد أن يراعى فيه الاعتبارات الآتية:

نفسية المخاطبين، وعقلية المخاطبين، وملاحظة المناسبة.

وأما عن تركيب العناصر: فبعد تحديد الموضوع واختيار نوعية الدليل، لا بد وأن يحدد العناصر، وأن يميز كل عنصر على حدة، وأن يجعل كل العناصر تدور حول موضوع واحد، ويستحسن للخطيب أن يوجز هذه العناصر في كلمات قصار لكي تدوم معه، ويتمكن بعد دوامها من جمع الأدلة المناسبة لكل عنصر، ومما يعين في تعيين العناصر، القراءة في المراجع العلمية والفحص العقلي للموضوع، ووضوح الهدف من الموضوع كله، ويجمع العناصر، وبجمع العناصر تبدأ الخطوة العملية في تركيب الخطبة.

وأما اختيار الأدلة: فلا بد أن يراعي فيه آراء أهل التخصص ومواطن العقيدة، مع عادات الناس وأثار السلف، وجعل ذلك منضبطًا بضوابط الشرع.

وأما التعبير: فهي المرحلة المهمة التي تحسن بها الخطبة، والتي تظهر الخطبة في أسلوبها الواضح وفي ثوبها الجميل، والتعبير الخطابي يحتاج إلى جمال الأسلوب، وموسيقى اللفظ، وينبني على الفصاحة والبلاغة، ويؤمن بالتكرار والتأكيد، ويعرف الاستشهاد المؤثر، ويصاحب التمثيل الصوتي والتعبير الحركي، وينادي بمراعاة أحوال المستمعين وإفهامهم، ومن هنا جاز للتعبير الخطابي أن يغاير سواه.

وعلى الخطيب أن يتأدب بلسان القوم، وأن يكون كلامه سهلًا، وأن يعتمد على الأسلوب والمعاني، ولا بد له من بلاغة اللفظة والجملة معًا.

ومن هنا تتأتى أهمية إعداد الخطبة، فشأن كل أمر عظيم أنه يحتاج إلى تخطيط وإعداد حتى يكون على قدر المقام الذي وضع له، وها هم رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- بالرغم من إعداد الله لهم إعدادًا يؤهلهم للقيام بمهمتهم خير قيام، إلا أنهم كانوا يستعدون لدورهم بكل ما أوتوا من قوة، ولا يدخرون جهدًا في اتخاذ الأسباب المحققة لذلك.

فهذا نبي الله موسى # اصطفاه الله - تعالى- ورعاه، وصنعه على عينه ورباه، وأراه من آياته الكبرى ما ثبت به فؤاده، إلا أنه # حينما أمره الله بالتوجه إلى فرعون لدعوته، قائلًا له: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] طلب من الله أن يعده إعدادًا خاصًّا لهذا اللقاء ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٥- ٣٦].

وهذا رسولنا محمد ﷺ يدرك خطورة دوره، فيبذل الجهد في حفظ ما أنزل إليه من ربه، فكان يحرك بالقرآن لسانه حتى يشتد ذلك عليه ويُعرف منه، فأنزل الله

- تعالى- قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦- ١٩].

ولا ريب أن الخطبة في مقام الدعوة إلى الله - تعالى- من الوسائل الصعبة، يستشعر ذلك كل من مارسها عمليًّا وواجه جمهورًا من الناس في يوم ما، يقول عمر بن الخطاب > : "ما يتصعدني كلام كما تصعدني خطبة النكاح"، "ما يتصعدني" أي ما يشق علي ويجهدني كلام كما تصعدني خطبة النكاح، يريد بها خطبة الجمعة.

وصعد عثمان بن عفان > المنبر أول عهده بالخلافة، فارتج عليه، فقال: "أيها الناس إن اللذين كانا من قبلي - يعني أبا بكر وعمر- كانا يعدان لهذا المقام مقالة، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام قائل، وستأتيكم الخطبة على وجهها في الجمعة الأخرى، ثم نزل".

وقيل لعبد الملك بن مروان: "يا أمير المؤمنين عجل عليك الشيب، فقال: وكيف لا يعجل علي، وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين؟" يريد خطبة الجمعة وغيرها من المواقف التي تستدعي الحديث.

لهذا كله وغيره، نقول على الخطيب أن يعلم أنه كالخائض غمار معركة، فليتدرع بدروعها ويتترس بتروسها ويلبس لها لأمتها، ولا يكون ذلك إلا بالاستعداد والتهيؤ وأخذ العدة لكل موقف، وتبدو أهمية إعداد الخطبة من الآتي:

كونه يتعلق بأمر شرعي، وكونه يتعلق بعملية لها تأثير كبير في صياغة التوجهات والعقول، وكونها مباشرة ووجهًا لوجه.

واستشعارًا لأهمية الخطبة ومكانتها، تم الدعاة النابغين بها وأعدوا لها عدتها، يقول عمر > في حادث السقيفة المشهور: "وكنت قد زورت كلامًا - يعني: هيأته وأصلحته وأعددته- ، وكنت قد زورت مقالة أعجبتني، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر"، وكان ابن النوام الركاشي إذا دعي للكلام ولم يكن مهيئًا نفسه، يقول: "ما أشتهي الخبز إلا بائتًا"، وقيل عن زهير بن أبي سلمة وكان معروفًا بالتنقيح والتهذيب وله قصائد تعرف بالحوليات: إنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر، ويهذبها في أربعة أشهر، ويعرضها على علماء قبيلته في أربعة أشهر، ولهذا كان عمر > مع جلالته في العلم وتقدمه في النقد، يقدمه على سائر الفحول من طبقته.

وأما فائدة إعداد الخطبة، فقد سبق أن بينا أن مقام الخطبة، ليس مركبًا سهلًا ولا ذلولة، وإنما هو مقام له هيبته ورهبته وجلاله، ومن ثم ينبغي التهيؤ له بحسن الإعداد والاستعداد، وتبدو فائدة الإعداد في أمور كثيرة، منها:

الأول: يكسب الخطيب الثقة والقدرة على الأداء الجيد.

الثاني: يجعل من الخطبة مادة ثرية بالمعلومات المعاني.

الثالث: يبرز المعنى في ثوب قشيب مؤثر.

الرابع: يشعر المستمع بأنه محل الاحترام والتقدير.

وكلمة أخيرة قبل الإعداد للخطبة، ينبغي أن أتوقف للحديث حول أمور ثلاثة، لها أثر كبير في نجاح مهمتك وأداء رسالتك، ودونك هذه الأمور:

الأول: تحديد الهدف أولًا.

إن وضوح الأهداف من شأنه أن يدفع الخطيب إلى رسم أطر واضحة، يعرف فيها بدقة ما هي الموضوعات التي سوف يتحدث عنها، وما هي الأولويات التي ينبغي البدء بها دون غيرها، وما هي الأمراض التي يقصد معالجتها، وما هو السبيل الأمثل لتحقيق ذلك كله، وقد يكن للخطيب هدف قريب وآخر بعيد، أما الهدف القريب فقد يكون إيصال فكرة محددة، كفكرة أن العبادة والتشريع تحليلًا وتحريمًا حق الله تعالى وحده، وقد تكون الفكرة في تجلية مفهوم إسلامي اختلط عند كثير من الناس، أو في توضيح حكم شرعي تهان فيه كثير من الناس، إلى غير ذلك، وأما الهدف البعيد لخطبة الجمعة فهو الموعظة وتربية الأمة، ولا يجوز أن يغيب هذا عن بال الخطيب ولا يصح الإخلال به، وليكن الخطيب حكيمًا في ترتيب موضوعاته، إما بحسب أهميتها وإما بحسب الظرف المناسب لها، ولا ضير عليه في التقديم والتأخير إذا كان ذلك ضمن خطة شاملة.

الثاني: المعاناة والتفاعل.

ولا يمكن للخطيب أن ينجح في رسالته، ما لم ينفعل قبل بالأمر الذي يريد الحديث عنه، وينشغل به حتى إنه ليتمثله في كل شيء أمامه، فيكون حديث نفسه ونطق لسانه، وقديمًا قيل: لا يؤثر إلا المتأثر، وقيل: ليست النائحة كالثكلى أو ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة، ولقد كان إمام الدعاة ﷺ يحمل هذا النوع من المعاناة، التي تركت أثرها في حياته فبدت في كلماته وحركاته، ويبين ذلك قوله - تعالى - : ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وخلاصة القول أن من أراد أن لموعظته الأثر، فليكن في كل ما يتكلم به كالنائحة الثكلى واليتيم، الذي فقد أبويه المظلوم المهضوم والمريض المتألم، فكل هؤلاء يشكون بمرارة ويصفون حالهم بحرارة.

الثالث: التهيئة النفسية.

وثَمَّ أمر ينبغي العناية به وملاحظته قبل الحديث عن إعداد الخطبة، ألا وهو التهيئة النفسية لها، ونعني به أن تكون لدى الخطيب رغبة قوية في مواجهة الناس والتحدث إليهم، ولا يتم ذلك إلا بإفراغ البال من كل ما يشغله من هموم الحياة ومشاكلها، فإن صفاء الذهن له أثره في إحكام الرأي وإجادة اللفظ، وأن الهم القاطع والأمر الشاغل مانع من سداد الرأي ودقة التوجيه، وقاطع لما بين الخطيب ومستمعيه من جسور التجاوب، فلا يصيب الخطيب الهدف، وإنما تتعثر الكلمات في فمه حتى ينكره الذين يعرفونه خطيبًا مجيدًا مؤثرًا، ورحم الله الغزالي حيث قال: "إن من عارضت فكره شوائب الهموم، لا يسلم له رأي ولا يستقيم له خاطر".

هذا، مع مراعاة مراحل إعداد الموضوع التي أشرنا إليها، أولًا: تحديد الموضوع مراعيًا فيه الجمهور، من حيث العقلية والنفسية والمناسبة، وأمور أخرى ينبغي مراعاتها؛ الاختيار المبكر لموضوع الخطبة، وارتباط الموضوع بواقع الناس، والتنوع في الموضوعات، ومراعاة الأهم فالمهم، وبعد الموضوع عن مواطن الخلاف، مع تركيب العناصر التي أشرنا إليها، ثم اختيار الأدلة، ومن أنواع الأدلة؛ القرآن الكريم، السنة النبوية المطهرة، أقوال السلف الصالح، القصص الحق، وعليه أن يحسن التعامل مع الأدلة بجمع الأدلة وتصنيفها وترتيبها.

وأما فيما يرتبط بالتعبير مراعيًا خصائص اللفظ والأسلوب والمقاطع الخطابية، مع جودة الإلقاء واعتدال الوقفة وجهارة الصوت والتمهل في الإلقاء وحسن الإشارة وجمال الهندام، ويتجنب عيوب البيان قدر الإمكان مع إمكانية معالجتها، مثل: اللثغة والتمتمة والفأفة واللفف والحبسة والحصر وهكذا، ومن القواعد العامة لإثارة الأهواء والميول؛ الاعتقاد بصحة ما يدعو إليه، والمشاركة الوجدانية والنفوذ.

وأما خصائص الخطابة:

أولًا: الافتتاح، حيث تفتتح الخطبة الدينية بنوع من الافتتاح، جاء في سنة النبي ﷺ وجاء على ألسنة الصحابة الخلفاء الراشدين وغيرهم، وتتميز الخطبة بالاهتمام بالقران الكريم، ولا بد لها من الخاتمة كنماذج من خواتيم القرآن الكريم.

هذا، والخطابة الوعظية لها أهميتها، من بين أنواع الخطب المحفلية والسياسية والقضائية والعسكرية، وللنبي ﷺ هدي في تلك الخطبة، من ذلك اتخاذ المنبر للجمعة، والخطبة قائمة، والسلام على الناس إذا صعد المنبر، والتوكؤ على عصا أو قوس، والجلوس بين الخطبتين، والترديد خلف الأذان وهو جالس على المنبر، والإشارة بالسبابة عند الدعاء، ومن هديه ﷺ البدء بحمد الله - تعالى- والتشهد، وقول: "أما بعد" بعد التشهد أو المقدمة، والاستشهاد بالقران الكريم، وتفخيم شأن الخطبة، والتنوع في الموضوع، ومراعاة مقتضى الحال، ومراعاة نفسية المخاطبين، والاهتمام بالكيف لا بالكم، وإثارة الانتباه، وقطع الخطبة للحاجة.

وينبغي أن تكون الخطبة بين الطول والقصر، وأن يتجنب الخطيب الخطبة من الورقة، وأن يضع في ذهنه النقض الشخصي، وأن يكون بين الإعداد والارتجال، مراعيًا قواعد فن معالجة الأخطاء، مع مراعاة الخطبة الثانية وما ينبغي فيها، ومميزات الخطبة الثانية، والبعد عن الأخطاء المنهجية في الخطبة، والخطبة الوعظية أهمها خطبة الجمعة وخطبة العيد، بما لهما من أحكام في كتب الفقه وفي كتب الخطب أيضًا.

المسجد

عناصر الدرس

العنصر الأول :	المسجد وآدابه	٤٦٩
العنصر الثاني :	رسالة المسجد ودوره في الإسلام	٤٧٣
العنصر الثالث :	مكانة المسجد في الإسلام	٤٧٦
العنصر الرابع :	صفحات من دور المسجد في التاريخ الإسلامي	٤٨٦

المســــــجد وآدابــــــه

فموعدنا هذه المرة - إن شاء الله تعالى - مع المسجد.

المسجد: آدابه، رسالته، صفحات من دور المسجد في التاريخ الإسلام. فنقول - وبالله التوفيق - :

إن المساجد هي المنطلق الأكبر للدعوة إلى الله تعالى، وهي أحب البقاع إلى الله، وهي بيوت الله التي أذن أن ترفع، ويذكر فيها اسمه ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]

والمساجد هي المدرسة التي يتربى فيها أفراد المجتمع وهي مصدر النور والعلم والبصيرة، والعزة للإسلام والمسلمين؛ لذا أضافها الله ﷻ إليه، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، كما قال - عز من قائل - : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

"مساجد الله" إنها إضافة تشريف وتكريم، وفي ذلك إشارة إلى أهميتها وعظمتها، وأهمية دورها في الصلة بمنهج الله، وفي التعرف على الله ﷻ، وفي الحثّ على السير إلى رضوان الله ﷻ وسلوك طريقه ﷻ، وجعل المساجد له وحده -سبحانه- وقال: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]،

فأعلى بذلك شأن المساجد ورفع قدرها؛ لأنها تقام فيها العبادات التي يخضع بها العباد له ﷻ، وفيها تتلى آياته وفيها يُذكّر الناسُ بمنهج الله والطريق الموصلة إليه.

وها هو رسول الله ﷺ يقدم مهاجرًا من مكة إلى المدينة؛ ليصل إلى قباء خارج المدينة؛ فيجعل أول عمل يقوم به تأسيس مسجد قباء، وبعدها بأيام يتجه إلى المدينة؛ ليكون أول مشروعٍ يقوم به في دولته الجديدة بناء المسجد، ويؤكد سنته الفعلية بسنته القولية حين يقول في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة > : ((أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض إلى البلاد إلى الله أسواقها)). ليعلن للأمة كلها أن مرتكزنا القوي هو المسجد؛ منه تنطلق الدعوة الإسلامية، وفي رحابه تربى الأرواح الزكية، وبالنداءات التي تصدح بين جنباته تهتدي القلوب التقية؛ لذلك أقبل المسلمون على المساجد، وجعلوها رياضًا رحبة لنشر العلم وتعلم الوحي ومكانًا فسيحًا لأبنائهم، يتعلمون فيها أمور دينهم، ويحفظون كتاب ربهم ومنطلقًا لجيل قوي بعزيمته، راسخًا بإيمانه، وللجيوش الفاتحة والسراي المفتوحة.

ومن الأعمال المسجدية التي تُشكّل مَعَالِمَ أساسية في رسالة المسجد: الإمامة، وإقامة الصلوات، والدعوة، والبيان والتعليم. وكذلك الدور الاجتماعي للمسجد من تزاور وتشاور، وتكافل وتفقد لأحوال المسلمين، والوعظ والتذكير، والإصلاح والفلاح. ولكي يقوم المسجد برسالته على أكمل وجه لا بد أن يتوفر له الإمام الناجح، الذي يتصف بمجموعة من الصفات مثل: الإخلاص لله، والرفق في المعاملة؛ فلا يشق على الناس بالإطالة عليهم في صلاته أو خطوته، ولا يشق عليهم بكثرة الدروس وطولها وعدم ملاءمتها لاحتياجاتهم، وأن يكون قدوة وعالمًا بأحوال الأمة الإسلامية، وأن يبتعد عن اللحن اللغوي،

وغير ذلك من الصفات تضمن نجاح الأئمة والدعاة والخطباء في عملهم، والتي نجدها في هذه الرسالة التي تبين أهمية المسجد وآدابه ورسالته.

نعم؛ إن المسجد له منزلته العظيمة في الإسلام؛ فإن المسجد إذا اطلع بدوره الدعوي والتوجيهي بحيث صار منبرًا للوعظ والإرشاد؛ ومجالًا للتدريس والتعليم، وميدانًا للتربية والتزكية ومحضنًا للناشئة من أبناء المسلمين، أمكن أن يترك الأثر الطيب في نفوس أبنائنا؛ بحيث يشدهم إلى ندواته العلمية، وحلقاته القرآنية؛ فيعكفون على تلاوة القرآن الكريم، وحفظه وتدبر معانيه، وينهلون من العلوم الإسلامية، ويغترفون من كنوز السنة النبوية الشريفة، وبخاصة إذا توفر في المسجد الإمام الجيد، والخطيب المتمكن، والداعية الحكيم، والمدرس المتمرس.

وكان كل هؤلاء يحببون الشباب في العلم، ويشوقونهم إلى المعرفة، وكانوا قدوة عملية لهم في الخلق والسلوك، ونحن بفضل الله تعالى نرى هذا في مساجدنا التي أصبح الاهتمام فيها بالناشئة واضحًا من حيث التوجيه والإرشاد والتربية والإعداد. بل إننا نشاهد جمهور المصلين في المساجد أكثرهم من الشباب، والحمد لله، وهي ظاهرة صحية تستحق التقدير وبذل المزيد من الجهد نحوها؛ لأنه إذا صلح الشباب صلحت الأمة؛ فهم رجال المستقبل، وقادة الغد المشرق بإذن الله تعالى.

إن عودة دور المسجد كما كان في العصر النبوي، والراشدي وعهود التابعين والعصور الزاهرة، هي الوضع الصحيح والصورة المُثلى لما يجب أن تكون عليه المساجد، بحيث تكون مكانًا للعبادة، ومعهدًا للعلم، وميدانًا للتربية، ومحلًا للتعارف والأخوة، ومجلسًا للشورى والتناصح، وهذا هو ما كانت تضطلع به

أبرز المساجد في عصور الإسلام، كالمسجد الحرام بمكة المكرمة، والمسجد النبوي بالمدينة المنورة، والمسجد الأقصى بالقدس حررها الله وطهرها، والجامع الأزهر، ومسجد عمرو بن العاص بمصر، والجامع الأموي بدمشق، ومسجد الكوفة ومسجد البصرة، ومسجد قرطبة في الأندلس، وجامع القرويين في المغرب، وجامع الزيتونة في تونس، وجامع الفاتح في إسطنبول، وغيرها من المساجد والجوامع التي كانت منارات للعلم والهداية، وخرجت الآلاف من العلماء والدعاة والفقهاء والمجاهدين، الذين أعلوا راية الإسلام، ونشروا علومه في كل مكان؛ فدانت الدنيا كلها لحضارة الإسلام، ونهلت من علوم القرآن وكنوز السنة.

غير أنه في عصرنا الحاضر قصرت بعض الأقطار عن إعطاء المسجد دوره، وأصبح لا يفتح إلا في وقت الصلاة، ثم يُغلق عقبها مباشرة، واختفت حلقات العلوم ومنابر الوعظ، وصار الاهتمام بما سواه من دور اللهو والترفيه، ومعارض الفن والتمثيل؛ حتى فسد معظم الشباب، وانتشرت فيهم الموبقات والمهلكات من الخمر والميسر، وعَمّت الأمراضُ الخبيثة نتيجة الضياع والفوضى والإباحية؛ وأصبح العالم كله يشكو مُرّ الشكوى من انتشار الجرائم والمخدرات، ولم تنفع في علاجها كل الوسائل الحديثة، والقوانين الوضعية. بل إنها تزداد انتشارًا في البلدان التي توصف بأنها متحضرة.

وهذا يؤكد أن العلاج الناجع في الإسلام، وأن المحضن الأمين هو المسجد الذي تتم فيه تربية الشباب، على الخلق القويم، والسلوك المستقيم، والدين المتين؛ فلا عجب أن يكون المسجد هو أول شيء اهتم به الرسول ﷺ حين هاجر إلى المدينة؛ فكان بناؤه علامة على أهمية دوره في بناء الأمة، وتربيتها على منهج الله.

وفي كل عصر وفي شتى البقاع كان ولا يزال المسجد نبراسًا للأمة، وعنوانًا لهويتها وحضارتها، ومنطلقًا للإصلاح والتقويم؛ حتى يطّلع المسلمون بمهمتهم، ويحتلوا مكان الصدارة بين الأمم، ويرفعوا راية الحق وعلم الهداية، ومشعل النور للعالم كله.

رسالة المسجد ودوره في الإسلام

رسالة المسجد في الإسلام رسالة عظيمة؛ تتمثل رسالة المسجد في ترسيخ المبادئ التي جاء بها الإسلام الحنيف في كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، ومن تلك المبادئ المساواة، وتأكيد الوحدة بين المسلمين، وإشاعة روح الأخوة بينهم، وهذا واضح ملموس؛ فالمصلون في المساجد يأخذون أماكنهم في الصفوف، حسب تبكيرهم بالحضور؛ لأن التبكير أعظم للأجر؛ فالمسلم يقف بجانب أخيه المسلم، دون نظر إلى مكانته أو منزلته أو غناه، أو جاهه؛ فأكرم الله عند الناس اتقاهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وهم جميعًا سواسية كأسنان المشط يقف الأمير بجانب الفقير، والكبير بجانب الصغير؛ متوجهين إلى قبلة واحدة ويعبدون ربًا واحدًا، يركعون له ويسجدون، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، ويسألونه من فضله.

وهذا المظهر الإسلامي في الصلاة الذي يسوي بين المسلمين جميعًا، هو الصورة التي يجب أن يكون عليها واقع المسلمين في مجتمعاتهم؛ فلا تمايز بين الألقاب والأنساب والثروات والمناصب، أو المواقع والدرجات، بل الجميعُ إخوة ينهض كل منهم بدوره في الحياة، ويؤدي واجباته، ويأخذ حقوقه دون تفرقة أو مشاحنة

أو غطرسة وكبرياء؛ فالجميع متساوون لهم من الحقوق مثل ما عليهم من الواجبات.

ولقد قام المسجد بدور عظيم في التاريخ الإسلامي، وفيه جسدت روح الأخوة الإسلامية، وكان مركز الأمة الإسلامية الاجتماعي والسياسي والثقافي والتربوي، كما هو مركزها الإيماني والتعبدي؛ فالمسجد في العهد النبوي والراشدي والعصور الإسلامية الزاهرة كان مركزًا للإشعاع والدعوة الإسلامية والتربية والتوجيه، وتعليم الأمة أمورَ دينها، كما كان مكان العبادة والدراسة والفتيا والإدارة والشورى والعلم والعمل، والتربية والإعداد والدعوة والإرشاد، والإصلاح والتقويم. ومن هنا نشأت الأجيال المسلمة الأولى على هذا المنهج النبوي، وتخرجوا في المساجد؛ ليفتحوا الدنيا كلها، ويضيئوا دياجيرها بنور الإسلام؛ فكانوا نماذج صادقة عن الإسلام يتخلقون بأخلاق القرآن العظيم، ويقتدون بالمصطفى ﷺ في كل ما يأخذون ويدعون من أمور. وبهذا تميز جيل الصحابة والتابعين من بعدهم بميزة الجيل المثالي، الذي استقى من معين القرآن الكريم، ونهل من منهل السنة النبوية الشريفة، وتربى في مدرسة النبوة المحمدية، وقدم للإنسانية أعظم النماذج، وأصدق الأمثلة.

والذي استن رسالة المسجد ووضح معالمها هو رسول الله ﷺ، وسار على نهجها الصحابة والتابعون، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ حيث كان بناء المسجد أول عمل قام به الرسول ﷺ، حينما هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وشارك الصحابة في بنائه؛ ذلك لأن المسجد له الأهمية الأولى، والمكانة الكبرى؛ فكان دارًا للقضاء، ومكانًا للإفتاء، ومكانًا لتجهيز جيوش المسلمين، ومكانًا أيضًا لحل المشكلات، والإصلاح بين المتخاصمين، وتدارس مشكلات

المسلمين وقضاياهم، واستقبال الوفود وتبصير الناس وتعليمهم وهدايتهم وإرشادهم.

فالنبي ﷺ حينما هاجر من مكة إلى المدينة، وأسس دولة الإسلام الفتية أسسها على ركائز قوية، جعل الركيزة الأولى منها صلة الأمة بربّها؛ فبادر الرسول ﷺ إلى بناء المسجد؛ لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حُوربت، ولتقام فيها الصلوات التي تربط المرء برب العالمين، وتنقي القلب من أدران الأرض، ودسائس الحياة الدنيا.

والمروي أن الرسول ﷺ بنى مسجده الجامع، حيث بركت ناقته في مربد لغلامين يكلفهما أسعد بن زرارة >، وكان الغلامان يريدان النزول عنه لله؛ فأبى الرسول ﷺ إلا ابتياعه بثمنه؛ وكان المربد قبل أن يُتخذ مصلى كهذه المصليات التي تنتشر في ريفنا، كانت تنبت فيه نخيل، وشجر غرقد، وتختفي في ترابه بعض قبور للمشركين؛ فأمر الرسول ﷺ بالنخل فقطع وبالقبور فنبشت؛ وبالخرائب فسويت، وصفوا النخيل قبلة للمسجد، والقبلة يومئذٍ بيت المقدس، وجَعَل طُوله مما يلي القبلة إلى المؤخرة مائة ذراع، والجانبان مثل ذلك تقريبًا، وجعل عضادته من الحجارة، وحفر الأساس ثلاثة أذرع، ثم بُني باللبن أي: الطوب النيئ؛ واشترك الرسول ﷺ وأصحابه في حمل اللبنات والأحجار على كواهلهم، وكانوا يروحون عن أنفسهم عناء الحمل والنقل والبناء، بهذا الغناء:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ❖ فاغفر للأنصار والمهاجرة

وقد ضاعف حماس الصحابة في العمل رؤيتهم النبي ﷺ، يجهد كأحدهم، ويكره أن يتميز عليهم فارتجز بعضهم هذا البيت:

لئن قعدنا والرسول يعمل ❖ لذاك منا العمل المضلل

المسلمين وقضاياهم، واستقبال الوفود وتبصير الناس وتعليمهم وهدايتهم وإرشادهم.

فالنبي ﷺ حينما هاجر من مكة إلى المدينة، وأسس دولة الإسلام الفتية أسسها على ركائز قوية، جعل الركيزة الأولى منها صلة الأمة بربّها؛ فبادر الرسول ﷺ إلى بناء المسجد؛ لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حُوربت، ولتقام فيها الصلوات التي تربط المرء برب العالمين، وتنقي القلب من أدران الأرض، ودسائس الحياة الدنيا.

والمروي أن الرسول ﷺ بنى مسجده الجامع، حيث بركت ناقته في مربد لغلامين يكلفهما أسعد بن زرارة >، وكان الغلامان يريدان النزول عنه لله؛ فأبى الرسول ﷺ إلا ابتياعه بثمنه؛ وكان المربد قبل أن يُتخذ مصلى كهذه المصليات التي تنتشر في ريفنا، كانت تنبت فيه نخيل، وشجر غرقد، وتختفي في ترابه بعض قبور للمشركين؛ فأمر الرسول ﷺ بالنخل فقطع وبالقبور فنبشت؛ وبالخرائب فسويت، وصفوا النخيل قبلة للمسجد، والقبلة يومئذٍ بيت المقدس، وجَعَل طُوله مما يلي القبلة إلى المؤخرة مائة ذراع، والجانبان مثل ذلك تقريبًا، وجعل عضادته من الحجارة، وحفر الأساس ثلاثة أذرع، ثم بُني باللبن أي: الطوب النيئ؛ واشترك الرسول ﷺ وأصحابه في حمل اللبنات والأحجار على كواهلهم، وكانوا يروحون عن أنفسهم عناء الحمل والنقل والبناء، بهذا الغناء:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ❖ فاغفر للأنصار والمهاجرة

وقد ضاعف حماس الصحابة في العمل رؤيتهم النبي ﷺ، يجهد كأحدهم، ويكره أن يتميز عليهم فارتجز بعضهم هذا البيت:

لئن قعدنا والرسول يعمل ❖ لذاك منا العمل المضلل

ولقد شاهد يهود المدينة ومشركوها هذا الرسول الجديد يحتشد مع صحبه } في إقامة المسجد يمهده للصلاة ؛ فهل رأوا سيرة تريب أو مسلكًا يغمز ، روى البيهقي عن عبد الرحمن بن عوف قال : ((كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد ؛ أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راعٍ ، ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ، ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالًا وأفضلت عليك ؛ فما قدمت لنفسك؟ فينظر يمينًا وشمالًا فلا يرى شيئًا ، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم ؛ فمن استطاع أن يقي نفسه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ؛ فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم وعلى رسول الله ﷺ)).

إن المساجد تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض ، وهي أفنية الله بارك فيها ، ميمونةٌ ميمونُ أهلُها ، محفوظة محفوظ أهلها ، هم في صلاتهم والله ﷻ في حوائجهم ، هم في مساجدهم ، والله من ورائهم. والمساجد ليست ساحة للعبادة فحسب ، بل هي ركيزة الإصلاح ، وقطب الرحى في عملية التوجيه ، وندوة للأدب ومدرسة للعلم ، يتعلم فيها الكبير والصغير ، ويتساوى الغني والفقير ؛ مدرسة إسلامية عامة ، منهجها القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم- .

والمدارس الإسلامية الأولى نمت وترعرعت في أحضان المساجد ، وكانت علومها تدور حول تلاوة كتاب الله وتفسير أحكامه ؛ فقد كان المعلم يجلس ومن حوله تلاميذه يلقي عليهم الدروس في تفسير القرآن والحديث وعلوم الدين ، وأضيف

إلى ذلك النحو والصرف وفقه اللغة، والخطابة والمنطق والرياضيات والفلك، وقد رَغّب رسولُ الله ﷺ في العلم وحَضّ عليه، كما روى مسلم عن أبي هريرة > قال: ((قال رسول الله ﷺ: ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وحفتهم الملائكة وغشيتم الرحمة)). وهكذا خَرّج المسجد أجيالًا تسير على نهج الإسلام؛ فكانوا رهبانًا بالليل وفرسانًا بالنهار، وصفهم القرآن الكريم بأنهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧﴾ [النور: ٣٧].

ولهذا يجب أن تصان المساجد عن الأقوال السيئة، وأن تنزه عن الروائح الكريهة وغير ذلك، وقد صح في الحديث عن ابن عمر } أن رسول الله ﷺ قال: ((من أكل من هذه الشجرة يعني الثوم فلا يأتينّ المَسَاجد))، وإذا كانت العلّة في إخراجه من المسجد أنه يتأذى به الناس؛ ففي القياس أن كل من تأذى به جيرانه في المسجد، بأن كان ذرب اللسان، أو كان ذا رائحة قبيحة؛ لا تفارقه لسوء صناعته أو عاهة مؤذية كالجذام وما شابهه، وكل ما يتأذى به الناس كان لهم إخراجه ما كانت العلة موجودة فيه حتى تزول.

إنه مجتمع طاهر يجمع الصبيان والشباب والكهول؛ فهو خليق بأن يؤدي إلى الثمرة الطيبة، وألا يدخله من كانت به رائحة كريهة، ولا من كان به سفاهة لسان، وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها؛ أخلاقٌ وفضائل هي لباب الإسلام كما أشرنا، والطفلُ عندما يعتاد الأماكن الطيبة، يعتاد الخير ويعتاد الزهد؛ فيواجه مصاعب الحياة، ويعايش آباء كبارًا في السن بما لهم من خبرة في الحياة جمعتهم المساجد، ووحدت صفوفهم الصلاة؛ فمن نور هؤلاء الآباء

الصالحين يقتبس، ومن صلاتهم يتعلم الأحكام العملية في الصلاة؛ فتزداد صلته بالله، وعلى ذلك يُصبح رجلًا يعتمد عليه في الحياة بعيدًا عن مصاحبة الأشرار.

إن رسالة المسجد رسالة سامية؛ فلقد كان المسجد في عهد النبي ﷺ والعهود التي تلته، موئلًا لجميع المسلمين والمسلمات؛ فيه يتفقهون في دين الله، وفي مسجد النبي ﷺ تخرج كبار الصحابة في القيادات العلمية والحربية، في كل علم وميدان، وقادة الفكر في التخصصات في أبواب القضاء والبيان؛ فمن المسجد تخرج أبو بكر وعمر وعثمان وعلي حاملين درجة الخلافة عن رسول الله ﷺ، ومن المسجد تخرج عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، ومن المسجد تخرج أبو هريرة > حاملًا لواء الحديث عن رسول الله ﷺ، ومن المسجد تخرج خالد بن الوليد الذي أتى من مكة مهاجرًا إلى الله ورسوله؛ فلقيه الرسول ﷺ في المسجد، ومسح بيده الشريفة على صدره وسماه سيف الله المسلول؛ فغزا أكثر من مائة غزوة لم تنكس له راية ولم ينهزم له جيش؛ بل كان النصر حليفه والهزيمة لأعداء الإسلام.

ولم يقتصر تخريج المسجد على هؤلاء وأمثالهم من الأصحاب، ولكن تخرج فيه من النساء من صرن في المجتمع الإسلامي ثريات تضيء دياجير الظلام بالعلم والتوجيه؛ فهذه عائشة وحفصة، وهذه أم سلمة وأم هانئ، وأترابهن من الصحابيات الكريمات، كن يتزودن بالعلم والمعرفة كما تزود الرِّجال على سواء؛ فقد قالت إحداهن للنبي ﷺ: ((يا رسول الله، غلبنا عليك الرجال؛ فاجعل لنا يومًا من نفسك، فجعل النبي ﷺ لهن يومًا يعظهن ويعلمهن، كما يعلم الرجال)).

تلك أيها المؤمن هي رسالة المسجد التي من أجلها أنشئت المساجد؛ وعظ وتوجيه وصلاة بخشوع، وتدارس فيما ينفع المسلمين، ويرد كيد الطامعين، إنها مصحة لقلوبهم وأجسامهم، بما يسمعون ويعلمون ويعلِّمون، وفيها الوقاية الصحية من عدوى الجهل والإلحاد؛ فعلينا أن نجعل المساجد أمنًا لنا عند الفزع؛ وهُدى لنا عند الحيرة فوق ما نؤدي فيها لله من صلاة.

إنّ الله ﷻ كما فَضّل بعض الرسل على بعض، وفضل بعض الأماكن على بعض، ولم يفضل الله ﷻ الرسل بعضهم على بعض؛ لزيادة في أجسامهم، أو لكثرة في أموالهم أو أولادهم، ولكن فضل الله بعضهم على بعض بما امتاز به من قوة في اليقين، وصبر على الجهاد في سبيل الله، وكذلك الأماكن في الأرض أفضلها بيوت الله المساجد، لا بمقدار ارتفاع بنيانها، ولا بقدر ما بذل في داخلها من زخرف منقوش، أو بساط مفروش، ولكن كانت للمساجد تلك المكانة حيث أضافها الله ﷻ إليه، فقال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، وقال - عز شأنه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

فكما رفعها الله ﷻ فعلى المؤمن أن يكون على نفس النهج أن يرفع قدرها، وأن يعظم شأنها، وأن يبتعد عن كل كلام دنيوي في المساجد، أو أن يجلس فيها على جنابة، أو يبصق على جدرانها، أو أرضها ومن فعل فقد آذى الله ورسوله.

وفي نسبة المساجد لله ﷻ من التشريف والتعظيم ما فيها، وكما جاء في الحديث القدسي: ((بيوتي في الأرض المساجد، وزواري فيها عمارها فطوبى لمن توضأ في بيته وزارني في بيتي؛ فكان حقًّا على المزور أن يُكرم زائره)) من أجل ذلك

كانت المساجد عنوانًا على أفضل أركان الإسلام؛ بعد توحيد الله ﷻ بل عنوانًا على الركن الجامع لجميع أركان الإسلام وهو الصلاة؛ ففي توجهك فيها بقلبك ووجهك إلى المسجد الحرام حَجٌّ بالروح والفكر إلى عَلّام الغيوب، وما أعظم أن يتعلق قلب الإنسان بالمسجد؛ ليظله الله ﷻ بظله يوم لا ظل إلا ظله، كما ذكر ﷺ: ((سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه))، أو كما قال ﷺ.

كما بين ﷺ فضل بناء المساجد بمثل قوله ﷺ: ((من بنى لله مسجدًا بنى الله له بيتًا في الجنة))، وفي رواية: ((من بنى لله مسجدًا ولو كمفحص قطاة؛ بنى الله له بيتًا في الجنة))، ومفحص القطاه: عش الطائر، ومعناه: أن يتبرع في بناء المسجد، أو أن يشارك فيه بما يستطيع أن يقدمه مخلصًا النية لله - جل في علاه- ؛ لذلك قال ﷺ: ((من بنى لله مسجدًا يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتًا في الجنة)).

هذا؛ وقد عرفنا من دراستنا هذه أنّ رسولَ الله ﷺ أقام المسجد، ولم يقصره على العبادة؛ وإنما كما كان المسجد مكانًا للعبادة كان مقرًّا للحُكم، ومكانًا للتعليم، واستقبال الوفود وعقد المعاهدات، وغير ذلك مما يوضح الصلة الوثيقة بين الدين والمجتمع، وشمول الإسلام لكل أنواع النشاط البشري، وتنظيمه لجميع العلاقات التي تربط الإنسان بربه، وبالمجتمع الذي يعيش فيه؛ سواء في ذلك المجتمع الخاص كالأسرة، أو المجتمع العام كالوطن والأمة. والمجتمع الأعم، كالإنسانية كلها.

ولذلك كان المسجد من قديم هو القائم على خدمة المجتمع كله، بأداء الواجب له، والحفاظ على حقوقه؛ ولم يكن أبدًا حتى في أقوى العصور والبيئات حضارة وأعظمها رقيًّا مجرد مكانًا للعبادة؛ لأن الإسلام لم يكن مجردَ علاقة رُوحية خاصة، يُرمز إليها بالصلاة أو المسجد، وإنما هو دين شامل نظم العلاقات الاجتماعية، كما نظم العلاقات الروحية؛ وإذا كان المسجد عندما يُذكر تذكر معه الصلاة التي تقام فيه؛ فإن ذلك لأنها أظهر شعائره، وأقوى الدلائل على الخشوع والاستسلام لله، لكن الصلاة كعبادة لم تكن - كما قلنا- غاية في حد ذاتها، وإنما هي مجرد وسيلة للوصول إلى الغاية التي من أجلها جاءت الأديان، وهي إقامة الحق والعدل والخير في الأرض، ومنع عدوان الناس بعضهم على بعض. أي: أنها من أجل مصلحة الإنسان لنفسه وللمجتمع الذي يعيش فيه، لخص القرآن هذه الحقيقة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ومن هنا لم تكن علاقة الإنسان الروحية بربه قاطعة عن علائق الدنيا؛ ولذلك رأينا الرسول ﷺ يقول للرهط الذين سألوا عن عبادته؛ فلما أخبروا عنها كأنهم تقالّوها؛ فعزم أحدُهم على قيام الليل كله، والآخر على صيام الدهر كله، والثالث على أن يعتزل النساء؛ فإذا بالرسول ﷺ ينهاهم، ويقول: ((أما إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أقوم وأرقد وأصوم وأفطر وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني)).

ولذلك اعتنى الإسلام بالعلاقات الاجتماعية، وجعلها ركن من أهم الأركان التي لا يتم الإيمان إلا بها، والمسجد في المجتمع المعاصر يمكن أن يؤدي خدمات جليلة، وخطيرة للمجتمع كما كان يؤديها في عصر الرسول ﷺ والخلفاء من

بعده، وفي عصور أخرى بعدهم، والمجتمع المعاصر فيه من المشاكل وله من المتطلبات ما كان لكل مجتمع سبق، وتزيد عليها الآن أمور جدت بحكم التطور الحضاري، والتقدم العلمي، وسهولة الاتصال بين الأقطار والشعوب وانتقال النظم والعادات والمشاكل من مجتمع إلى آخر.

ومشاكل المجتمع الإسلامي على الخصوص كثيرة، وما يوجد الآن من انحرافات نتيجة ظهور آراء وأفكار ومذاهب وفلسفات دخيلة، وردت إلينا من المجتمعات الأجنبية بصبغتها الخاصة، وطابعها المعين، ونشأ عن كثرة هذه الآراء، وتنوع المذاهب فرق وأحزاب وجمعيات وتنظيمات، وصُحف ورسائل، ووسائل دِعائية؛ لكل منها أتباعها المتعصبون لها، وأصبح في ذلك كله الخطر كل الخطر على وحدة الجماعة وتماسكها، في مجتمعنا الإسلامي الآن تيارات الوجودية والشيوعية والصهيونية والقديانية، والبهائية، والانحلال الذي تُرَوّج له الصهيونية العالمية، والصليبية العالمية كلهم يقصدون بذلك مُحاربة الدين الإسلامي، ويريدون تحطيمه والقضاء عليه.

في مجتمعنا الإسلامي مشاكل للعمال والفلاحين، والتجار والموظفين والجماهير عمومًا، وهم جميعًا ينتظرون رأي عالم الدين؛ لأن كثيرًا من هذه المشاكل تتعلق جذورها بالإيمان الكامن في قلوبهم، في بعض المجتمعات الإسلامية زيادة عددية في الأفراد، مع قلة في التكيف الاجتماعي الحديث، القائم على رعاية النوع قبل رعاية العدد، وهو في حاجة إلى توعية قوية للعناية بالتربية والتهذيب، والحثِّ على العمل المُنتج الدائب؛ لتغطية مطالب الحياة، والأخذ بسبيل النهوض العلمي، والوسائل الحديثة لترقية هذا المجتمع من جميع نواحيه. في المجتمع الحديث تنتشر المخدرات والسموم القاتلة، وراجت أفكار ومفاهيم تريد

أن تبرر هذه المحرمات بنوع من التأويل من القرآن والسنة، وما أكثر مشاكل المجتمع وتعددها وتنوعها.

والمسجد في المجتمع المعاصر يستطيع أن يقدم خدمات جليلة، عن طريق الدين الذي كان من المرونة والصلاحية، بحيث يمكن أن يوجد حلًّا لكل مُشكلة، وحُكمًا لكل حادثة، وجوابًا لكل سؤال، والداعية الديني المؤمن لرسالته يمكنه تناول كل ما يحدث في المجتمع تناولًا يوضح المهم، ويُصَحّح الخطأ، ويُقَوّم المعوج، ويعالجه معالجة تساعد الخير على أن يبقى ويثبت ضد الشر ليزول ويختفي.

ولا شك في أننا جميعًا نُقدر الجهد الكبير الذي ينبغي على الإمام القيام به في مسجده؛ إنه أولًا مطالبٌ بأن يعرض على الناس عقله كل أسبوع مرة في خطبة الجمعة أمام جمهور أغلبه ثابت، يسمعه بانتظام ويعي ما يقول كل مرة، وهو مطالبٌ باستمرار بالتجديد، وإذا ما كانت الأنهار بعد أن تلقي بمائها في البحار، يتحول الماء الملح الأجاج إلى سحب تعود فتسقط أمطارًا ماؤها عذب فرات؛ فإن موقف الخطيب أعسر وأصعب، وهو مطالب بفيض جديد، ولا يستطيع عمليًّا تقطير خطبة قديمة؛ لتصبح جديدة وإلا حكم على نفسه بالذبول والعقم، وهو في تجدده أحد رجلين؛ إما أن يركز خطابته على سلبيات مجتمعه، أو سلبيات الحياة؛ فيقف على المنبر ناقدًا، لا ترى عينه إلى الخطأ، ولا تقف إلا على نقاط الضعف، فيصبغ خطابته بصبغة قاتمة من اليأس، ويلجأ إلى أسلوب من النقد العنيف ينعكس عليه عصبية وهديرًا معاديًا لما حوله، ويقوده هذا إلى نوع من الانعزال الفكري غير المتوازن، وقد يستطيع الإمام أن يجتذب أنظار بعض الناس بعض الوقت، ولكن هذا سيجعله أسير هذا الأسلوب.

وإما أن يهتم ببناء النفوس وتأكيد الإيجابيات في تكوين الفرد والأسرة والمجتمع والكيان الإسلامي، وحديث الإيجابيات بطبيعته يحتاج منه إلى عناء أكثر دراسته للمجتمع الإسلامي الأول على عهد النبي ﷺ والذين جاءوا من بعده، وساروا على هديه بإحسان، ويحتاجوا منه إلى فتح آفاق العمل، وتوجيه أذهان المُسلمين إليها بحيث يحسون معه أنهم يسيرون على الطريق الصاعد إلى آمالهم، وهو في تحذيره من الأخطار والانحرافات يمسها، كما يمسُّ الطبيب داء المريض، مع التشخيص علاج وأمل في الشفاء، وبين عينيه قوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

الإمام قادر بإذن الله على إيجاد هذه الصلة بينه وبين المصلين؛ ليجعل المسجد حبيبًا إلى قلوبهم، ويشجعهم على إحضار أبنائهم معهم، وتصبح صلاة الجمعة لقاءً علميًّا يتحقق به قول الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١]. وما ينطبق على خطبة الجمعة ينبغي أن ينطبق على الدروس، وإن أمسى روادها محددوين بحكم ضغط ظروف الحياة، وأصبحت بذلك خطبة الجمعة أبرز معالم الحياة في المسجد، هذا إلى جانب الاجتماعات الكبيرة في الأعياد والمناسبات الإسلامية الكبرى؛ فمن ثم ينبغي أن يكون للمسجد دوره، وأن يكون للإمام دوره في نجاح تلك المهمة بفضل الله تعالى.

لقد جعل الله المساجد بيوته في الأرض، ووعد كل من عَمّر مسجدًا بالمغفرة والنصر، وإصلاح الأحوال، سواء كان تعميرها بذكر الله، أو بقيادة أو بإصلاح بيان أو تجديد أو بصلاة، كل ذلك في سبيل الله، والله وعد بقبول كل عمل يكون خالصًا لوجه، وإن أفضل العبادة ما كان في المساجد؛ ففي المسجد تظهر

هيبة المسلمين وقوة اتحادهم، وروعة عبادتهم، والمساجد لا تخلو من الملائكة؛ حيث يستغفرون الله للمؤمنين الذين تركوا بيوتهم، وتجارتهم وأموالهم، وهاجروا لربهم يبتغون رحمته ومغفرته؛ فلا عجب أن يتفضل الله عليهم بمزيد كرمه وجزيل نعمه، فهو الغفور للعباد الرحيم بهم. وقد قال الرسول ﷺ: ((من بنى لله مسجدًا بنى الله له قصرًا في الجنة)).

أما العبادة؛ فقد تكون مضاعفة إذا كانت في المسجد مع عدم شواغل الدنيا، وبعد الشياطين عنها، وتكون الصلاة فيها مقبولة عن غيرها بإذن الله، والذكر فيها يكون أعظم ثوابًا، وتلاوة القرآن فيها أعظم جزاءً.

صفحات من دور المسجد في التاريخ الإسلامي

وأما عن صفحات من دور المسجد في التاريخ الإسلامي: فلقد كان رسول الله ﷺ يُعَلِّم أصحابه، وكان أصحابه } يعلمون الناس في حياة الرسول ﷺ وبعد وفاته، وكان رسول الله ﷺ رسولًا ونبيًّا وقائدًا ومعلمًا؛ فكانت حياته ﷺ مدرسة في كل نبضة من نبضاتها، وكانت فيضًا من القرآن والسنة فيضًا من البركة والخير، ينهل الناس منه ما شاءوا وينهل الناس جميعهم، وظلت هذه المدرسة النبوية تعمل منذ أن بعث النبي محمد ﷺ ومدة حياته، وظلت بعد ذلك تمتد في عطائها يقوم عليها صحابته - رضوان الله عليهم- وتلامذته الإبرار.

أخرج ابن عبد البر في (جامع العلم) عن عبد الله بن عمرو } : "أنّ رسولَ الله ﷺ مَرّ بمجلسين في مسجده أحد المجلسين يدعون الله، ويرغبون إليه والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، فقال رسول الله ﷺ: ((كلا المجلسين على خير

وأحدهما أفضل من الآخر، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه؛ فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلمًا)). كان لهذه المدرسة أستاذها وتلامذتها، وكان لها منهاجها وبرنامجها، وكان لها أسلوبها وطريقتها أما تلامذتها؛ فكانوا المسلمين يأتونها في أوقات مختلفة، ومنهم من هو أكثر ملازمة وصحبة وأخذًا فهي مدرسة مفتوحة الأبواب في معظم الأوقات؛ لا تكاد تُغلق أبوابها إلا حين يأوي الناس إلى قيلولة؛ أو إلى ليل. وبعض هؤلاء التلاميذ الأفذاذ كان حين يأوي لا يغفو ولا يغفل إلا قليلًا، كان يظل مع منهاج المدرسة يتعبد ويتدبر.

أما منهاج هذه المدرسة؛ فقد كان محددًا واضحًا، كان منهاج الله قرآنًا وسنة، لا يخرج أحد عنه إلى غيره، إلا أن يكون علمًا للمسلمين حاجة فيه ومصلحة، كدراسة بعض لغات الأعداء، أو علم الفلك أو فنون القتال، وغير ذلك؛ ولكن هذا كله كان يجب أن يقوم على منهاج الله أولًا، ولذلك نستطيع أن نقول: إنّ منهاج مدرسة النبوة كان محددًا بمنهاج الله، لا يخرج عنه أحد؛ فهو المنهاج الذي قامت المدرسة أصلًا له وبسببه.

وكان مكان المدرسة هذه المجتمع الإسلامي، كان مسجد الرسول ﷺ هو المركزُ الرئيس للعلم، وهو جامعة المسلمين يفد إليها الجميع، ولكن المدرسة كانت تمتد بامتداد المجتمع؛ فكانت كل مكان يلقى الرسول ﷺ أصحابه مكان علم ودار دراسة، وكانت بيوت الصحابة أنفسهم وهم يقومون على التلاوة والتدبر والمذاكرة والتذكير، والعبادة والقيام، وتعليم الأهل، وتعليم غيره من المسلمين كما كانت ميادين القتال، وساحات العبادة في عرفة ومنى وطريق السفر، وأماكن النزول ومواقع المسلمين في اليمن؛ وفي مختلف أنحاء الجزيرة، لقد كانت امتدادًا لمدرسة النبوة تمتد وتتسع كل ما اتسع ميدان الإسلام.

هذه المدرسة لها آدابها وأسلوبها، تختلف به عن كل ما وضعه الناس من عند أنفسهم من أساليب وآداب؛ إنها كانت آداب النبوة وأساليبها، ومدرسة النبوة هذه كانت امتدادًا لمدارس النبوة السابقة منذ أن بعث الله الأنبياء؛ فالمهمة واحدة، والمنهاج واحد، والآداب والأساليب واحدة، ذلك كله يخرج من منهاج الله ﷻ ربّ العباد، وامتدت رسالة المسجد عبر التاريخ؛ حتى كان الأزهر الشريف الذي أُريد له أن ينشر المذهب الشيعي ولكن الله ﷻ أراد أمرًا آخر؛ ليقوم الأزهر على نشر الإسلام ومذهب أهل السنة والجماعة، فأدى المسجد دوره في الماضي وفي الحاضر الأزهر الذي أدى دوره في الماضي دوره الروحي والعلمي والأدبي والاجتماعي والقومي؛ حتى احتلت مصر في الشرق الإسلامي المكان المرموق، هذا الأزهر عليه أن يقوم بدوره الجديد في الحاضر؛ ليأخذ مقعده في الصفوف الأولى كما كان قبل ذلك؛ موقظًا للمسلمين، وموجهًا لشعوب العالم الإسلامي ومربيًا للدعاة والمصلحين، الذين ينبثون في أرجاء العالم كالأشعة التي تحمل النور والحرارة والحياة.

إن الأزهر على مدى ألف عام أو يزيد قَدّم الكثير لهذا الدين، ولعالمنا الإسلامي؛ فكان له دوره في الحفاظ على العلم واللغة والدين، وحين تعرضت الأمة الإسلامية لنكبتين ماحقتين: نكبة بغداد في الشرق على يد التتار الذين لم يكتفوا بقتل الآدميين وتذبيحهم، حتى سالت الميازيب دمًا في الشوارع، ولكنهم أرادوا تخريب العمران، وطمس معالم الحضارة والعلم الإسلامي؛ فرموا بالمكتبة الإسلامية الزاخرة إلى نهر دجلة، فجرى ماء دجلة أسود اللون لكثرة ما خالطه من مداد الكتب.

والنكبة الثانية: نكبة الأندلس بالغرب على يد الأسبان المتعصبين الذين قضوا على تلك الحضارة الإسلامية الزاهرة، التي ظلت منارة هادية في أوربا ثمانية قرون، وتمزقت أشلاء المكتبة الإسلامية ما بين أسبانيّ ثملٍ بخمرة النصر ومسلم يلوذ بالفرار هربًا بنفسه ودينه من براثن المتعصبين الصليبيين، في هذه العصور التي أصيب فيها المسلمون بما أصيبوا ظل الأزهر سماء لا تطاولها سماء، تلمع فيها كواكب الهداية والنور، وظل المهجر والمأوى لطلاب العلم، وللعلماء المشردين والمضطهدين في كل مكان، وهكذا كان للأزهر دوره.

وبالجملة فتاريخ الأزهر العلمي والأدبي في تلك القرون هو من تاريخ مصر، وهذه المنطقة كلها بمنزلة الرأس من الجسد، أو القلب الخافق بالمشاعر والوجدان، على أن الأزهر كان له بجوار دوره العلمي دور توجيهي واجتماعي وسياسي، شهدت له به صحائف التاريخ فيا ليت الأزهر يعود إلى ما كان:

إن الأكابر يحكمون على الورى ❖ وعلى الأكابر يحكم العلماء

لقد كان الأزهر مسجدًا له دوره في التاريخ الإسلامي، كما كان مسجد القرويين أيضًا؛ ومساجد أخرى سبقت الإشارة إليها، فليت المسجد يعود إلى دوره؛ ليكون عملاقًا لا أن يكون قزمًا في هذا المجتمع الذي كثرت فيه الوسائل المغرية، والشهوات والشبهات فليعد للمسجد دوره؛ كي ترى الدنيا الهناء، ولا يكون الأمر كما قال القائل:

آلمني وآلم كل حر ❖ سؤال الدهر أين المسلمونا

وسائل الاتصال الحديثة وكيفية الاستفادة منها في مجال الدعوة

عناصر الدرس

العنصر الأول :	صور وسائل الاتصال الحديثة	٤٩٣
العنصر الثاني :	ضوابط استخدام وسائل الاتصال الحديثة	٥٠٤

صور وسائل الاتصال الحديثة

فمن وسائل الدعوة: وسائل الاتصال الحديثة؛ من حيث: مفهومها، وصورها، كالشبكة العنكبوتية، والهاتف، والفضائيات، وكيفية الاستفادة منها في مجال الدعوة الإسلامية، فنقول - وبالله التوفيق- :

إن الإسلام العظيم لا يقف حجر عثرة أمام الوسائل ما دام الهدف صحيحًا والغاية نبيلة، وما دمنا ندعو إلى الله ﷻ وهناك تطور في الزمان وتطور في الآلات وفي الوسائل، فإنه يجوز لنا أن نستخدم هذه الوسائل في تحقيق نشر الدعوة ووصولها إلى أكبر قدر من الخلق؛ سواء كانت هذه الوسائل مسموعة كالإذاعة والهاتف، أو مقروءة كالشبكة العنكبوتية، أو مرئية كالتلفزة والفضائيات، أو ممثلة كالقصة والمسرحية والسينما.

هذا، ويراد بهذه الوسائل الحديثة تلك الوسائل المسموعة أو المرئية التي تنقل رسائلها إلى المستقبل بواسطة الصوت والصورة، الصوت فقط كالإذاعة، أو الصوت والصورة عن طريق الجهاز الذي يعرف بالتلفاز، قال: التلفزيون هو جهاز حديث الظهور سريع التطور يتميز بأنه يخاطب الإنسان بأكثر من جانب في وقت واحد، فهو يخاطب العيون بصوره ومشاهده، ويخاطب الآذان بكلماته وبيانه، ويخاطب العقول بقناعاته ونقله الأحداث من مواقعها، ويخاطب العواطف بإبراز المؤثرات الوجدانية أمام رؤى الإنسان وتصوراته.

فقد يسمع الإنسان حديثًا عن زلزال مدمر أو صاعقة مهلكة فيتأثر بما يسمع تأثرًا ما، أما لو قدم التلفاز صورة الدمار ومناظر الفزع وأشكال التدمير والهلع، فإن التأثير يزداد حدة؛ وذلك بسبب أن التلفاز أتى للإنسان من كافة جوانبه العقلية

والعاطفية والنفسية، ولم يترك أمام المشاهد إلا خيار التأثير والانفعال، فقد تتأثر بسماع التلبية والتكبير يوم عرفة، ولكن هذا التأثير يزداد ويتضاعف إذا نقله التلفاز إلينا.

وقد تمكن العلماء من ربط التلفاز بالفضاء الخارجي بواسطة الأقمار الصناعية، وبذلك تمكنوا من نقل أحداث أي منطقة في العالم في لحظة وقوعها بلا حد للمسافات أو الأماكن، إن المشاهد بواسطة التلفاز يرى انفعال المتحدث وقوة المناقشة، ويتأثر بذلك كما يتأثر بالصور تتحرك هنا وهناك تظهر القدرة في خلق الله - تعالى- ، وتقدم العبر والعظات في صورة وحركة.

ومن ثم فعلى الدعاة أن يهتموا بهذه الوسيلة، وعلى الدولة أن تمكن لهم منها.

إن التلفاز من أكثر وسائل الاتصال السمعية والبصرية انتشارًا، والدعوة الإسلامية في حاجة ماسة إلى التلفزيون كوسيلة مؤثرة وفعالة في المجتمع، ولا يمكن أن تحقق هذه الوسيلة المرجو منها إلا بكوادر مدربة، وإمكانات بشرية ومادية مناسبة، واختيار الأوقات والأشخاص المؤهلين في الدعوة.

ولم يقف الأمر عند حد التلفزة، بل هناك الوسائل الفضائية الحديثة حيث لم يقف العقل البشري عند اختراع الوسائل السابقة؛ فواصل بحثه حتى تمكن من الوصول للفضاء، ووضع فيها أقمارًا من صنع الناس ترتبط بالأرض لتقديم خدمات عديدة، فهي محكومة بصاحبها الذي صنعها وأطلقها في الفضاء، تنفذ أوامره وتخضع لما يطلبه منها، فهي تكشف ما في الأرض وتصوره تسجل صوته، وقد تحتفظ به لصاحبها وحده إن أراد ذلك، وهي توضع لربط العالم كله؛ فتنقل الصوت والصورة من مكان الحدث إلى من يلتقطه في أي جزء من أجزاء العالم، وهكذا تحول العالم بواسطة الأقمار الصناعية إلى قرية صغيرة.

ومن هذه الوسائل الحديثة: التليفون المحمول ؛ الهاتف، وهو جهاز صغير الحجم ذو إمكانيات عديدة، فهو مع قيامه بعمليات الاتصال السلكي بالآخرين، يعرف بأوقات الصلاة، وينقل القرآن الكريم مكتوبًا ومقروءًا بأصوات عديد من القراء، كما يحمل تفسير آيات القرآن الكريم، وأحاديث رسول الله ﷺ بعد أن يلتقط هذا وغيره من الأقمار الصناعية، ويمكن بواسطة التليفون المحمول نقل رسائل مكتوبة في أي موضوع يريده المرسل، وهذا يسهل للدعاة عملية إيصال الخير للناس، وتحقيق تواصل مكين معهم، وبواسطة هذا الجهاز يستقبل الدعاة أسئلة المدعوين ويردون عليها بأحكام الشرع الحنيف.

ولتحقيق الفائدة الحسنة بهذا الجهاز ينبغي وضع خطة دقيقة للاستفادة به ؛ حتى لا يتحول لجهاز للكسب والربح واللعب والهوى.

إن الهاتف من وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية، حيث ينقل الصوت على شكل ذبذبات كهرومغناطيسية بين جهازين تفصل بينهم مسافات متباينة، قد تصل آلاف الكيلو مترات، ويعد الهاتف تجربة ناجحة في الدعوة الإسلامية على المستوى الفردي والجماعي على السواء، وهناك محاولات جادة في إشاعة هذه الوسيلة الدعوية، فالهاتف الإسلامي مثلًا يقدم خدمته في مجال الإفتاء والرد على التساؤلات التي قد تسبب حرجًا لأصحابها وخصوصية لهم، كما توسع الهاتف الإسلامي في تقديم ما يعرف بكبسولات دعوية مركزة في دقائق محدودة تقدم تعريفًا للقرآن وتفسيرًا لآياته، وبيانًا لأحكامه إلى آخر ما يقدمه الهاتف الإسلامي من خدمات، بل ويمكن استغلال هذا الهاتف بالوصول إلى أماكن يعجز الداعية من الوصول إليها ؛ لبعدها أو لعدم حصوله على تأشيرة للسفر أو لمرضه أو نحو ذلك، فإنه يستطيع من بيته ومن على فراشه أن ينقل محاضرة عن طريق الهاتف

تسمع، ويمكن أن تسمع وترى أيضًا وهو في مكانه الذي هو فيه، ويمكن أن تنقل إلى أماكن عديدة، وذلك عن طريق الهاتف.

ومن الوسائل الفضائية الحديثة: البريد الإلكتروني؛ ويراد به ما يمكن أن يفعله أي فرد أو هيئة؛ إذ تصنع لنفسها رمزًا معينًا وتفتح به موقعًا على هذا البريد الفضائي، وبواسطة هذا الموقع يمكن إرسال أي رسالة لأي موقع، واستقبال أي رسالة يوجهها الآخر من أي موقع، والدعوة بواسطة البريد الإلكتروني سهلة تحتاج من الدعاة بث رسائل إلى مختلف المواقع؛ تعرف بالإسلام وترد الهجمات التي يتعرض لها الإسلام.

ومن هذه الوسائل أيضًا الحديثة: شريط الفيديو، فهو وسيلة هامة في نقل الأحداث، والأفلام الوثائقية، وصور الجهاد والندوات، والبرامج والمحاضرات، والدروس والخطب، والمناظرات والأحكام، والتربية بمجالاتها المتعددة، وهو وسيلة سمعية بصرية تعين على تبليغ الدعوة الإسلامية كشريط التسجيل السمعي، ويزيد شريط الفيديو بنقل الصورة بجانب الصوت.

ومن الوسائل الحديثة: والتي يمكن استغلالها في الدعوة: دور السينما؛ فالسينما أو دار العرض السينمائي وسيلة مهجورة في العمل الدعوي، وعلى الدعاة بحث هذه الوسيلة من خلال محورين؛ السينما الإسلامية والفيلم الإسلامي، وإذا كان هذا يحتاج إلى موارد مالية وتقنية وخلافه، فلا بأس بالبدء بالأسهل وهو العناية بوجود الفيلم الإسلامي، الذي يعظم الفضيلة ويحقر الرذيلة، ويبعث في الأمة تاريخ مجدها وصفحات عزها ملتزمًا بالقواعد الشرعية والآداب المرعية، والمسرح كذلك، ولا يختلف الحديث عن المسرح عن الحديث عن السينما عن التلفاز، وعن وسائل الإعلام والثقافة.

ولقد خطا غير المسلمين خطوات كبيرة في استغلال هذه الوسائل، ووظفوها لنشر مبادئهم، ولا زال المسلمون مختلفين حول مشروعية هذه الوسائل، ومن المعلوم يقينًا أن تلك الوسائل لا توصف بحل أو بحرمة، بل هي وسائل حيادية، وإنما الحكم مرتبط بالمادة الإعلامية، فوسائل الإعلام كالإناء يمكن أن يوضع فيه شراب فيه شفاء للناس وماء طهور، ويمكن أن يوضع فيه خمر ورجس من عمل الشيطان.

ومن الوسائل الحديثة: الدعوة عن بعد، حيث الاستخدام المنظم للوسائط التقنية المطبوعة والبصرية والحاسوبية بين الداعي والمدعوين في مكانين متباعدين، فالدعوة عن بعد عن طريق تكنولوجيا المعلومات والاتصالات تجعل المسافة بين الداعي والمدعو مسافة قصيرة جدًا، فيستطيع الداعي أن يقدم دعوته من خلال تلك الوسائط التقنية بسهولة ويسر، ولعل كليات الدعوة ومعاهدها تستفيد بتلك الوسيلة التي تحقق تبليغ الدعوة، وتساعد على تعويض المحرومين من معرفتهم بدينهم أو معرفة الإسلام بشكل صحيح، وترد الشبهات على هذا الدين الحنيف، وتزود المدعوين بمصادر أو خبرات لا يمكن الحصول عليها بوسائل أخرى.

ومن الواضح أن الدعوة عن بعد كالتعليم عن بعد يجعل المرء بصفة عامة أكثر سهولة وفاعلية ومتعة.

ومن الوسائل الحديثة التي ينبغي استغلالها: الملصقات، التي هي عبارة عن لوحة إعلانات أو معلومات، ولكن بحجم صغير، وإن كنا نريد أن نتوسع في هذه الوسيلة لتشمل مجلات الحائط والرسوم التوضيحية ونحوها، وكم هو جميل أن نراعي في الملصقات دقة اللفظ ووضوح المعنى وقوة التأثير وجمال الإخراج،

وتعد الملصقات من الوسائل المهمة في تغيير السلوك كالترغيب في النظافة، والإقلاع عن التدخين، والعمل على مقاومة التبرج، والدعوة إلى الحشمة والعفة، والحجاب وإذاعة الأذكار.

ومن الوسائل أيضًا: المجسمات والنماذج، فهي إحدى الوسائل الحسية التي يتيح استعمالها توافر خبرات حسية للمدعوين، وما أحوج الدعوة الحسية إلى تبني تلك الوسائل الحسية لتعريف المدعوين؛ إن فريضة إسلامية كالحج بحاجة إلى مثل هذه الوسيلة؛ لتعريف الناس بالكعبة وشعيرة الطواف والأحكام المتعلقة بالحج.

ومن الوسائل الحديثة أيضًا: الرسوم المتحركة والدمى، حيث يغزو العالم اليوم الرسوم المتحركة، ويجذب الصغار والكبار على السواء، وخطورة الرسوم المتحركة في تشكيل عقلية الصغار يدفعنا إلى أن نقتحم هذا الميدان، حتى نقدم لأطفالنا ما يتفق مع دعوتنا، وهناك جهود مشكورة في هذا المجال، لكنها بحاجة إلى دعم متواصل حتى تؤدي رسالتها.

والعجب أن استعمال الدمى شائع في صدر الإسلام، ولا أدل على ذلك من أن عائشة > كانت لها بنات تلعب بهن، وكانت مع رفيقاتها، وكان النبي ﷺ يسرب لها تلك الدمى –أي: البنات؛ العرائس الصغيرة- ولا بد للكبار من اختيار الألعاب التي تعين على تحقيق المعاني الراقية.

ولا شك أن وجود عرائس مع البنات له أثره التربوي الفعال في إعداد الصغيرة للقيام بواجبها كأم، وما يتبع ذلك من عواطف ومشاعر راقية.

ومن الوسائل الحديثة أيضًا: الحاسوب، يعد الحاسوب أو الكمبيوتر إحدى الوسائل العلمية الفاصلة في حياة البشرية، وتتعدد مجالات استخدام الحاسوب؛ ومنها:

أ- إعداد البرامج الدعوية؛ ولا شك أن إعداد المادة الدعوية يحتاج إلى خبرة فنية وعلمية كبيرة.

ب- تخزين واسترجاع المعلومات.

ج- وسيلة سمعية وبصرية.

د- إحدى وسائل الاتصالات.

و- الأسطوانات أو cd التي تعمل عمل شريط التسجيل وشريط الفيديو معًا.

فلا شك أن هذا الحاسوب أو الكمبيوتر له استخدامات كثيرة، ومنها الإنترنت يمكن استغلال ذلك للدعوة جيدًا، كما استغله الآخرون في غير هذا المجال، بل استخدم في الشر، فالإنترنت شبكة من النظم، لتبادل الاتصالات والمعلومات اعتمادًا على الحاسوب، وذلك بالربط المادي الفيزيائي لجهازين أو أكثر معًا، وتشتمل على صور ومعلومات وجميع أوامر الوسائط المتعددة، ويعد نظام الشبكة العالمية المسماة بالعنكبوتية أيضًا، والتي يرمز لها "wide world www wibe" أحد التطبيقات على الإنترنت، وتحتوي على ملايين الصفحات المترابطة عالميًّا بحيث يمكن الحصول على الكلمات والصور، وأفلام الفيديو والأفلام التعليمية، والبحوث من خلال هذه الشبكة.

لقد استطاعت الدعوة الإسلامية على استحياء أن تقتحم وتشترك في هذه الشبكة العنكبوتية العالمية، واحتلت مواقع الدعوة الإسلامية مكانة لا بأس بها في تقديم

خدماتها الدعوية على مستوى المؤسسات الدينية الرسمية، والجامعات والجمعيات، وجهات غير رسمية أنشئت لها مواقع متميزة.

ومن الخدمات التي تقدمها شبكة الإنترنت البريد الإلكتروني، وقد يسر هذا الاتصال بالعلماء والمشايخ، وتبادل المعلومات، وعرض القضايا السائدة، والمشكلات الملحة، ووفر الإنترنت للدعوة الإسلامية اتصالًا عظيمًا، وهناك خدمات متجددة، وعلى القائمين بالدعوة الاستفادة من تلك الخدمات، وملاحقة هذا التطور الهائل بإعداد الكوادر اللازمة فنيًّا ودعويًّا، واستغلال الأقمار الصناعية المسماة الستالايت؛ مركبات فضائية تدور حول الكرة الأرضية، ولها أجهزة نقل إشارات الراديو والبرق والهاتف والتلفاز، وتقوم المحطات الأرضية بإرسال إشارات إلى القمر الصناعي الذي يبث الإشارات بعد ذلك إلى محطات أرضية أخرى، ويتم الإرسال والاستقبال عن طريق أطباق وهوائيات مثبتة على سطح القمر الصناعي العلوي والمواجهة لسطح الأرض.

وتمثل الأقمار الصناعية قفزة نوعية في وسائل الإعلام والاتصالات، وسائر مجالات الحياة الإنسانية سلميًّا وعسكريًّا، والدعوة الإسلامية استفادت جزئيًّا من تلك الوسيلة العالمية، فأخرجت لنا عدة قنوات فضائية تبث إرسالها إلى مناطق عديدة في العالم، والرجاء كبير في أن تنهض القنوات الفضائية برسالتها عربيًّا وعالميًّا بجميع لغات العالم، كما تصنع النصرانية على سبيل المثال.

ومن الوسائل الحديثة التي ينبغي استغلالها أيضًا: جهاز العرض، فهو من أبسط وسائل الاتصال البصرية، وتستعمل في المؤسسات التعليمية والتدريبية، والدعوة الإسلامية بحاجة إلى هذه الوسيلة؛ لتعريف المدعوين بكثير من الأحكام الإسلامية لا سيما فيما يتعلق بالعبادات؛ كمعرفة الوضوء والصلاة، والزكاة

والصيام والحج، وبرامج الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ومعرفة وقائع وأحداث التاريخ الإسلامي.

ومن هذه الوسائل أيضًا: شريط التسجيل، ويشمل أشرطة البكرات المفتوحة المستخدمة في محطات الإذاعة ولدى المحترفين، أو أشرطة الكاسيت وهو الأكثر استخدامًا وشيوعًا، وشريط التسجيل يحمل المادة الدعوية السمعية، وخطورة هذه الوسيلة تدرك حين نعلم أن الثورة الإيرانية اشتعلت عن طريقه، وهذا يؤكد أهمية تلك الوسيلة، ويدفعنا إلى ضرورة الاهتمام بتلك الوسيلة عن طريق البرامج الدعوية النافعة التي يتولاها متخصصون وفق ضوابط وقواعد محترمة.

ولا شك أن من الوسائل الحديثة، التي استخدمت في الدعوة استخدامًا لا بأس به: الإذاعة، المعروفة بالراديو كوسيلة سمعية، تعد من أهم وسائل الاتصال الجماهيري وأكثرها انتشارًا في العالم وأرخصها ثمنًا، وأعظمها خطرًا، وحتى تحقق الدعوة رسالتها فلا بد من استغلال هذه الوسيلة استغلالًا حسنًا، وتمثل إذاعة القرآن الكريم قيمة عظيمة في المجتمعات الإسلامية، وهي تجربة موجودة في أكثر من دولة، ومع ضعف الإمكانات إلا أنها تؤدي دورًا لا ينكر، لكنها بحاجة إلى كثير من التطوير، والذي يتلاءم مع مستجدات العصر ومستجدات الدهر.

ومن الوسائل الحديثة أيضًا: ما يعرف بمختبرات اللغة، وهي عبارة عن إحدى الوسائل السمعية التي تعمل على تعليم اللغات الأجنبية بجانب القراءة الصحيحة للقرآن واللغة العربية، ولا شك أن اللغة إحدى الوسائل الضرورية لتبليغ الدعوة الإسلامية، وداعية دون لغة صوت دون آذان.

وقد اهتم الإسلام بذلك، فلقد طلب رسول الله ﷺ من زيد بن ثابت > أن يتعلم السريانية، فتعلمها في بضعة عشر يومًا، وكان زيد أشبه بالسكرتير الخاص

بسيدنا رسول الله ﷺ، وكان زيد يجيد أكثر من خمسة لغات، منها: السريانية والعبرية، وإحدى مشكلات الدعوة اليوم تتحدد في إجادة اللغة دون إحاطة بالدعوة، أو معرفة بالدعوة دون إيجاد للغة.

ومن الوسائل الحديثة أيضًا: استخدام الرواية في الدعوة إلى الله ﷻ، كما تستخدم القصة أو المسرحية؛ لتكون وسيلة من وسائل الدعوة، القصة مثلًا ما بين أقصوصة، أو قصة صغيرة قصيرة، أو قصة طويلة وتسمى الرواية، وهي قصة ذات أبواب وفصول، وتطول على حسب مجموعة الأحداث التي تشملها، ومجموعة الشخصيات التي تتعلق بها.

والقصة من الناحية الفنية يجب أن يتوفر فيها أمران:

الأول: العنصر السائد في القصة.

والثاني: التنسيق والترتيب بين الحوادث والأفكار في القصة.

ولا تصبح القصة عملًا فنيًّا مقبولًا إلا إذا تضمنت الأمرين السابقين، مع متطلبات الفن القصصي من الإثارة والتشويق، والعقدة وحلها وعنصر المفاجأة وغير ذلك.

والعنصر السائد في القصة هو عبارة عن الأثر الذي تتركه القصة في النفس، وقد يكون هذا الأثر ناتجًا من الحدث في القصة؛ قد يكون ناتجًا عن تأثير شخصية أو مجموعة شخوص في القصة كانت لها الهيمنة على الحوادث فتحركها تبعًا لرغباتها وميولها، وقد يكون ناتجًا عن فكرة تركز عليها القصة؛ كفكرة الإصلاح للمجتمع أو استهجان بعض النقائص الاجتماعية، وقد يكون ناتجًا عن مؤثرات البيت والبيئة والظروف المحيطة بالظاهرة المراد إبرازها، وهو ما يعرف

بعنصر سيادة البيئة والجو، بحيث تكون هذه العوامل البيئية سواء الثابتة أم الطارئة محيطة بالفرد، تؤثر في تصرفاته في الحياة وتوجيهها وجهة معينة، ويبرز عنصر تأثير البيئة جيدًا في الأشخاص مع تطورات الحياة، والتغيرات التي تطرأ على أنماط السلوك الاجتماعي.

ومن هنا فإذا ما برز في القصة واحد من هذه العناصر، وكان لها التأثير القوي في النفس، يعد من العناصر السائدة في القصة، سواء أكان موقعًا، أو موقفًا من المواقف، أو حدثًا من الأحداث؛ وهو ما يعرف بعنصر الحدث، أم كان شخصية من الشخصيات تميزت بملامح معينة تركز على إبرازها طول القصة؛ وهو ما يعرف بعنصر الشخصية، أم كان فكرة من الأفكار المراد تنميتها أو محاربتها؛ وهو ما يعرف بعنصر الفكرة، أم كانت مؤثرات البيئة والعوامل المحيطة بالإنسان؛ وهو ما يعرف بعنصر سيادة البيئة والجو.

فهذه القصة وتلك الرواية أو ما يمكن أن يكون درامًا يمكن استخدامه لصالح الدعوة كذلك، فلهذه الوسائل أهميتها في مجال الدعوة إلى الله ﷻ سيما مع فئات كثيرة من الناس كالأطفال، والعامة، والنساء وغير ذلك.

والمسرحية هي رواية تسمى الرواية المسرحية لون من ألوان الفن الأدبي، وهي وسيلة جيدة في عرض بعض المواقف التاريخية، وتصحيح ما علق بها من أخطاء، وهي أيضًا وسيلة جيدة في الدفاع عن الدعوة ضد خصوم الحق، والمسرحية التي نتحدث عنها هي تلك المسرحية التي تنطلق من وحي الإسلام، وتتمسك بتعاليمه، وتحافظ على تقاليد الدين الحنيف، وتعمق الإحساس لدى الإنسان المسلم بقيم الإسلام العظيمة، ولسنا نقصد بالمسرحية تلك المسرحيات التي تقوم على تقليد المسرح اليوناني قديمًا، أو المسرح الحديث، أو غيرهما من الأنماط المسرحية التي تقوم وتنبع على غير هدي الإسلام.

ضوابط استخدام وسائل الاتصال الحديثة

أذكر - في ضوابط تلك الوسائل الحديثة- بعض الضوابط التي ينبغي أن توضع في الحسبان ؛ حيث تتحقق الاستفادة بهذه الوسائل جميعًا وبأي جديد يحدث ، لا بد للدعاة من مراعاة الأسس التالية :

أ- مشروعية الوسائل : الدعاة يعملون على تبليغ الإسلام الذي شرعه الله للناس بوسائل متعددة ، ولذلك وجب استعمال الوسائل المباحة ، فلا يصح أن تكون الوسيلة صورة عارية أو آلة مغصوبة ، أو لونًا فنيًّا يتضمن المحرمات التي لا يبيحها الشرع الحنيف ؛ ولذلك وجب أن تتسامى الوسائل الدعوية لترتقي مع سمو الغاية والهدف ، ومن هنا كان إقامة سرادق للدعوة مثلًا في أرض مملوكة للغير بغير إذنه أمر غير جائز ؛ لاشتماله على اعتداء على مال الغير ، وهذا غير مباح في شرع الله تعالى.

ب- خلو الوسائل من الضرر : قد تكون الوسيلة في ذاتها مباحة ، لكن كيفية استعمالها يضر بالغير ؛ كاتخاذ مكبرات الصوت بجوار مريض يؤذيه الصوت المرتفع ، وفي هذه الحالة يلغى مكبر الصوت أو يخفض صوته ؛ حتى لا يكون سببًا في الأذى والضرر ، وحتى لا تكون وسيلة الدعوة ضارة بالغير.

جـ- ملاءمة الوسيلة للتقدم الحضاري : الحضارات تتقدم والمدنيات تتطور باستمرار ، والواجب أن تتلاءم وسائل الدعوة مع مستجدات العصر ومنتجاته ؛ لأن استعمال الوسائل القديمة قد لا يفيد في بعض الأحيان ، وقد يكون ضررها أكثر من نفعها ؛ فمثلًا كان المتحدث في القديم يصعد على جبل عالٍ ليخاطب الناس ، وكان يدور على القبائل راكبًا دابة ، ومثل هذه الوسائل لا يمكن

استعمالها اليوم، ولا تفيد من يستخدمها؛ لأن العالم اليوم يركب الصاروخ ويتحرك في الفضاء.

ويجب أن يرتقي الدعاة بوسائلهم؛ ليحققوا للدعوة قولًا بين الناس، لقد قرأنا أن دعاه للمذاهب الباطلة في إفريقيا يركبون الطائرات الخاصة، ويحيطون فكرهم بهالة من الغنى والتقدم للتأثير في مدعويهم، وهم بذلك يحققون نجاحًا لما يدعون إليه مع أنه باطل، الأمر الذي يدل على ما للوسيلة المطورة من تأثير في المشاهدين، إن كثيرًا من القراء يحكمون على مضمون الكتاب بجودة غلافه، ويقبلون عليه لرضاهم عن الشكل البراق والصورة الجذابة.

والإسلام دين عظيم في مظهره ومخبره، ويجب أن تتساوى وسائله مع هذه العظمة؛ لتلتقي مع عقول الناس وعواطفهم أينما كانوا وكيفما كانوا، ولا يصح أن يتجاوز هذا التلاؤم المطلوب للوسيلة الدعوية حدوده المشروعة؛ حتى لا يدخل في حد السرف والتبذير، أو يخرج عن حد الطاقة والتكليف.

د- **تضمن الرسالة لعوامل الجذب والتأثير؛** وسائل الاتصال المعاصرة تهتم بمخاطبة الإنسان بأكثر من ناحية في وقت واحد؛ حيث نراها تجذب البصر وتشد السمع، وتحرك الجوارح بمثيرات ومؤثرات عديدة، وهي بذلك تأخذ المستقبل إليها بصورة كلية، وتحول انتباهه إليها، وذلك أمر له أهميته، ويجب أن تستفيد الوسائل الدعوية به؛ لتكون أكثر تأثيرًا في المدعوين، ونظريات الاتصال تضع فلسفتها في قوالب عملية، الأمر الذي يمكن لرجال الدعوة من الاستفادة من الخطط التي وضعها رجال الاتصال المعاصر لما في ذلك من خير ونفع للدعوة.

هـ- **ملاءمة الوسيلة للمدعوين:** يختلف المدعون اختلافًا بينًا، متأثرين في ذلك بالبيئة والثقافة والتقاليد والعادات؛ ولذلك كان المقبول في جماعة مرفوضًا عند

أخرى، والواجب أن تكون الوسيلة ملائمة للمدعوين؛ لتقوم بدورها على الوجه المطلوب، فالكتاب مثلًا لا يفيد في بيئة أمية، والوسائل الإلكترونية لا جدوى منها بين الفقراء الذي يبحثون عن قوت يومهم، ومن هنا كان التلائم بين الوسيلة والمدعوين ضرورة لازمة.

إن الوسائل الحديثة - مع تعددها وتنوعها- هي إعلام ينبغي أن يكون إعلامًا إسلاميًّا، وأن يكون له دوره في تبليغ رسالة الإسلام، ذلك أن الحفاظ على الهوية الإسلامية لأمتنا عقديًّا وفكريًّا وسلوكيًّا أمر مفروض على أفراد هذه الأمة، ودور منوط بالإعلام الإسلامي في العصر الحاضر، وهذا يتطلب من أجهزة الإعلام بمختلف أنواعها؛ مسموعة أو مرئية أو مقروءة القيام بعبء مضاعف، وتغيير الأساليب والمناهج التي تسير عليها الآن، والقدر الذي يحقق الأهداف المرجوة.

وعلينا نحن المسلمين أن نطرح الإسلام من خلال أجهزة الإعلام المختلفة كمنهج للبشرية، ونؤكد تطبيقه لخدمة الإنسانية علينا أن نبين للناس جميعًا موقف الإسلام باعتباره المحور الأساسي في الحياة ومتغيراتها، علينا أن نوضح موقف الأديان للحياة الحاضرة بتعقيداتها وحروبها وويلاتها.

وإذا كان موقف الديانتين الكبريين - اليهودية والنصرانية- قد وضح من خلال تعاليم كتبهم المقدسة لدى أهل الكتاب، ومن خلال التطبيق العملي الذي يمارسه اليهود والنصارى على حد سواء حيال الشعوب الأخرى؛ من السلب والنهب واغتصاب الحقوق وسلب العقول، وتجريد الناس من آدميتهم، فإنه لم يبق أمامنا إلا أن نوضح الصورة العادلة الرحيمة التي جاء بها الإسلام، فالإسلام هو الدين الذي جاء للبشرية جمعاء، بل هو النظام الذي يمكن أن تعيش فيه

البشرية كلها مستظلة برحمة الإسلام، كما قال - تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، كما قال النبي ﷺ: ((إنما أنا رحمة مهداة))، وهو النظام الوحيد استنادًا إلى العلم والتاريخ، الذي يمكن أن تتعايش فيه الشعوب والأمم على أسس من حفظ الحقوق، وتوفير الكرامة الإنسانية لكل آدمي؛ قال - تعالى- : ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ومن خلال الإسلام أيضًا يمكن أن تنتظم العلاقات الإنسانية وإن اختلفت بينهم العقائد، وتتميز عقيدة المسلمين السمحة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، وهذا التوضيح وذلك البيان يكون من خلال وسائل الإعلام الحديثة، بل والتقليدية أيضًا؛ كالخطبة والدرس والندوة والاتصال الشخصي والجماعي، والأساليب المتنوعة المناسبة لكل مخاطب بالحكمة أو بالموعظة الحسنة، أو المجادلة بالتي هي أحسن على النحو الذي فصلناه من قبل.

فلا بد للإعلام الإسلامي أن يسير في خطين متوازيين في الداخل والخارج، فلا بد أولًا من ترسيخ دعوة الإسلام في أذهان المسلمين، وتبسيط قواعده، وشرح نصوصه، وتفقيه المسلمين وتثقيفهم بالقدر الذي يجعله مسلمين حقيقيين، ويحصنهم في الوقت نفسه من حملات التشويه والتشويش المستمرة، من قبل أعداء الإسلام هذه على المستوى الداخلي.

ثم على الإعلام الإسلامي أن يحمل الدعوة خارج حدوده الجغرافية، وإن كان الإسلام لا يعرف هذه الحدود، ولا يعترف بها؛ لأنه دين عالمي، أقول: عليه أن يطرح الإسلام ليكون مقبول مع الآخرين بالقدر الذي يبلور فكرة التحاور

نفسها، وذلك بتوضيح أن الإسلام ليس مشروعًا خاصًّا يهم المدافعين عنه، بل هو مشروع إنساني عام يحوي من القيم الإنسانية وما يكفل الحريات، فالغرب لا يعرف عنا إلا صورة مشوهة، لا سيما طوائف الشعوب وعوام الناس، ولا يرى فينا إلا الإرهاب، فهل نستطيع أن نريهم طبيعتنا الإنسانية مستغلين أجهزة الإعلام في ذلك؟ أم أننا مقصرون، والعمل الإسلامي أيضًا، بل يعتريه الخلل الواضح وعدم المنهجية في الآراء.

وإذا طرحنا الإسلام بهذه الرؤية، وظهر لأطراف الحوار الأخرى أننا لسنا حريصين على إسلام غير المسلمين، بقدر حرصنا على إظهار صورة الإسلام الحقيقية الناصعة بما تحتويه من عدالة ورحمة ومساواة وإنسانية، وأن الهدف إنما هو أن تسعد البشرية كلها على اختلاف عقائدها بهدي الإسلام، وأن الهدف من الحوار إنما هو خدمة غير المسلمين، خدمتكم أنتم أيها المخاطبون؛ كي تنالوا حظًّا من الهدوء والاستقرار والسعادة الدنيوية، وإن أردتم الإيمان فبها ونعمت وإن أبيتم فلكم ما تشاءون، إنما يجب عليكم أن تفسحوا المجال أمام الفكر الإسلامي الصحيح أن يتوغل ويخاطب العقول والفطر، أفسح المجال أيضًا للإسلام للاعتراف به كقوة لها وزنها وتقديرها.

فالدخول في الإسلام إذًا إنما هو ثمرة من ثمار عرض الإسلام، والتقائه بالفطرة بلا حواجز أو سدود، وليس الدخول في الإسلام غاية من غايات ذلك الحوار؛ فقد حدد الله ﷻ المهمة للنبي ﷺ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾، [المائدة: ٦٧]، فما عليه إلا البلاغ فقط، وهم أحرار في الاتباع أو عدمه، كما قال - تعالى- : ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

المهم إذًا تبليغ دعوة الحق إلى كل الخلق، أما مسألة الإيمان والكفر فلا شأن للداعية بها، قال - تعالى- : ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

أما كيف يتم ذلك التبليغ، فعلى المسلمين أن يركبوا الصعب والذلول، وأن يكونوا أهل لهذا التكليف والتشريف، وأن يستغلوا أحدث ما وصل إليه العصر في التكنولوجيا الاتصال في إبلاغ رسالة الإسلام؛ عبر الإذاعة ومحطات البث التلفزيوني والأقمار الصناعية، وشبكة الإنترنت بالإضافة إلى الوسائل التقليدية الأخرى.

فلتكن أجهزة الإعلام تحت أيدي العلماء العاملين قولًا وعملًا ورقابة؛ حتى تضمن أن الأمة قد قامت بواجبها وأدت ما عليها، ولتعلم الأمة أن الإعلام والدعاية لصالح الإسلام إنما هي رسالة واصطفاء من الله، وليست مجرد وظيفة لكسب لقمة العيش أو خدمة أهداف فرعية أو تافهة، فدور علماء الأمة هو دور الأنبياء والمرسلين بعد ختم النبوة، وعملهم إنما هو امتداد لعمل الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

ولتعلم الأمة أيضًا أنها على يقين من أن دينها هو الحق، وأن المنقذ للبشرية من الضياع إنما هو الإسلام لا غيره، كما قال الأستاذ سيد قطب: وحين يتقرر أن الإسلام هو وحده القادر على إنقاذ البشرية، مما يحدق بها من أخطار ماحقة تذلف إليه مقودة بسلاسل الحضارة المادية البراقة، وهو وحده القادر على منحها المنهج الملائم لفطرتها ولاحتياجاتها الحقيقة، وهو وحده الذي ينسق بين خطاها في الإبداع المادي، وخطاها في الاستشراف الروحي، وهو وحده الذي يملك أن

يقيم لها نظامًا واقعيًّا للحياة يتم فيه هذا التناسق، الذي لم تعرفه البشرية قط إلا في النظام الإسلام وحده على مدى التاريخ.

هذا، ووسائل الاتصال الحديثة من الأهمية بمكان، ولكن كيف هذه الوسائل في عصرنا الحديث، وكيف استغلتها النظم والفرق والدول والأحزاب وجعلت منها أبواقًا لضلالتها لكفرياتها لإباحيتها، إن الوسائل الحديثة من إذاعة وتلفزة وسينما ومسرح إنما هي سلاح قوي لمن يجيد استخدامه؛ لتكوين الرأي العام والتأثير عليه بصرف النظر عن الحواجز الجغرافية والزمنية؛ فالإذاعة تصل لكافة طبقات الشعوب؛ من مثقفين وعمال، وفلاحين وبسطاء، وأيضًا للكبار والصغار على السواء، والشعوب قليلة الثقافة التي تنتشر فيها الأمية يسهل قيادها وإغراؤها بسهولة، وتبدو أهمية الإذاعة في أوقات الحرب؛ لتقوية الجبهة الداخلية خلف القوات المسلحة، وذلك عن طريق الأناشيد الحماسية الوطنية والبيانات العسكرية، وأحاديث وخطب القادة والزعماء وقادة الرأي، مما يؤدي لترابط صفوف الشعب في كتلة واحدة.

أما التلفزيون فهو لا يقل أهمية عن الإذاعة في تكوين الرأي العام، وإذا كانت معظم الدول قد سيطرت على محطات الإرسال التلفزيوني، فإن هناك كثيرًا من دول أوربا وأمريكا يسيطر فيها الأفراد على محطات الإرسال، ويستخدم التلفزيون فيها للدعاية الانتخابية واستقطاب الرأي العام، ولا يخفى ما للتلفزيون من تأثير في الرأي العام من ناحية التثقيف والتعليم والتوجيه، وتعلم الأطفال وتكوين ثقافتهم حسب الوجهة التي يتبناها النظام الحاكم أيضًا.

وأما السينما فقد ظهرت خلال القرن العشرين كأكثر وسائل الإعلام تأثيرًا وفعالية على الجماهير العريضة؛ حيث تتعامل مع كافة طبقات الشعب وتساهم

في تكوين الرأي العام والتأثير فيه، فقد أصبحت السينما ضرورة لا غنى عنها لكثير من الجماهير، تستخدم السينما في الدعاية الداخلية والخارجية، فتعمل على تكوين الرأي العام للمحلي والعالمي على السواء تجاه القضايا التي تهم الجماهير؛ وذلك لأنها تتناول بالتحليل هذه القضايا وتحاول إيجاد الحلول الممكنة لها، وبذلك تؤثر في الجماهير دون أن تتناول القضايا بالطريق المباشر الذي قد يفقدها ثقة الجماهير.

وفي مجال الدعاية السياسية نجد أن الدول تهتم بإنتاج الأفلام التي تؤيد سياستها، وتهاجم النظم المعادية لها، ويدخل هذا النوع من الأفلام في فلك الحرب النفسية، وما قيل عن السينما يمكن أن يقال عن المسرح، فالمسرح استنادًا إلى التاريخ قوة مؤثرة في الجماهير، قادرة على تكوين الرأي العام، والتأثير فيه، وتعديل اتجاهه، وبذلك يعتبر المسرح من أعمدة أجهزة الإعلام الأساسية في تكوين الرأي العام،

وفي النهاية أقول للقائمين على أجهزة الأعلام المختلفة، قادة الرأي في العالم العربي والإسلامي: إن الكلمة أمانة، ومستقبل هذه الشعوب وتحضرها في أيديكم أنتم، فلا بد من توخي الصدق والموضوعية، والحرص على مصالح الأمة، والعمل على رفعتها بتطهيرها من الأرجاس والأنجاس، ونشر الفضيلة بين أبنائها، وإن وصف الأمور بغير أوصافها كذب وزور وبهتان، وإن خداع الشعوب ظلم، وإن الدين هو النصيحة الخالصة المخلصة.

وأنتم يا رجال الإعلام يا من ملكتم الزمام بأيديكم أنتم مسئولون عن توجيه الأمة، وعن نهضتها لو أردتم، وعن كبوتها إن شئتم، وأنتم المسئولون أمام الله عن هذه الأمة، فمن عمل بحسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة،

ومن عمل بسيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، وما أكثر العاملين بالحسنات والسيئات إذا كان انتشارها عبر موجات الأثير أو شاشات التلفزة أو دور العرض السينمائي أو المسرحي، إنه انتشار واسع وكبير، وبقدر الانتشار والعمل يكون الأجر أو الوزر فاعقلوا يا أولي الألباب، واقدروا الأمانة التي تحملتموها حق قدرها.

هذا، والكلام عن وسائل الإعلام والدعاية بين الواقع والمأمول، وبين الرسالة والتوظيف، كلام شرحه يطول، وقد أطلت في عرض هذه المادة مكتفيًا بهذا القدر.

مفهوم الرسائل، وأهميتها، ونماذج منها

عناصر الدرس

العنصر الأول :	مفهوم الرسائل وأهميتها	٥١٤
العنصر الثاني :	نماذج من الرسائل النبوية	٥١٦

مفهوم الرسائل وأهميتها

فنحن في هذه المرة مع الرسائل؛ الرسائل: مفهومها، أهميتها، نماذج من الرسائل النبوية.

الرسائل التي هي جمع رسالة؛ هي عبارة عن خطابات تحمل الترغيب في الإسلام والدعوة إلى الدخول فيه وشرح حقائقه، ولقد استخدم رسول الله ﷺ هذه الوسيلة مع المسلمين وغير المسلمين؛ فمع المسلمين مثلًا حين طلب أن يكتبوا لأبي شاه كتابًا أو رسالة، وأرسل ﷺ رسله إلى الملوك والأمراء يعرض عليهم الإسلام، فأرسل مثلًا عبد الله بن حذافة برسالة إلى كسرى فارس، ودحية الكلبي إلى قيصر الروم، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط بمصر.

هذا، وهناك رسالة علمية حول الرسائل النبوية قام بإعدادها الدكتور علي السبكي؛ لبيان أهمية الرسائل في مجال الدعوة، ونبين شيئًا من هذه الأهمية فنقول أيضًا وبالله التوفيق: ليست الدعوة إلى الله - تعالى- قاصرة على الخطبة والدرس الديني أو الأسوة الحسنة أو نحو هذا، كما سبق أن بينا؛ فإن ذلك قد ينفع الأقربين أو الأدنين من الداعية، أما من بعدت بهم الديار فلهم وسيلة أخرى في الدعوة، فنكاتبهم ونرسل إليهم الرسائل ندعوهم فيها إلى الإسلام.

وقد سن رسول الله ﷺ لأمته تلك السنة الحسنة، ووضع أيدينا على أسلوب جديد من أساليب الدعوة؛ وهو مراسلة الملوك والأمراء والقوات يدعوهم إلى الإسلام، وليس أحد يجهل ما أحدثته تلك الرسائل من صدى كبير لدى هؤلاء، بل فتح الله ببعضها بلاد كاملة بلا حرب ولا جيش؛ فأسلم النجاشي ودان

بالولاء هو وشعبه للإسلام وللنبي ﷺ وأسلم ملك عمان وأخوه، وكفي المسلمون مؤنة حربهم.

وما أحوجنا اليوم إلى هذا الأسلوب؛ نخاطب عن طريقه من لم نتمكن من لقائهم من الرؤساء وأصحاب الأموال والمسئولين في الدول، فضلًا عن مراسلة غير المسلمين داخل الدولة وخارجها ندعوهم إلى الإسلام، كما فعل النبي ﷺ.

فعلى الداعية المخلص أن يرسل مثلًا رسالة إلى الحاكم ينصحه فيها، ويذكره بالله وبما وجب عليه تجاه الرعية ما دام لم يتمكن من لقائه، ويمكن للداعية المخلص أن يخاطب ويراسل رجل من رجال الأعمال الأثرياء يأمره ويطالبه فيها بوجوب إخراج الزكاة، وبما وجب عليه من رعاية أصحاب الحاجات، ويفتح أمامه أبواب الخير من بناء للمستشفيات والمدارس ودور تحفيظ القرآن وغير ذلك، ويمكن للداعية أن يرسل رسالة إلى غير مسلم من داخل البلاد وخارجها يدعوه إلى الإسلام، ويبين له محاسن الدين ومسئوليته عن ذلك أمام رب العالمين.

يقول الدكتور حلمي عبد المنعم صابر: وقد حدث لي شخصيًّا أن كانت تأتيني رسائل من النصارى على عنوان عملي بكلية الدعوة يدعونني فيها إلى دينهم، وقلت لنفسي: ألسنا أصحاب الحق أولى بذلك؟! وإذا كان أصحاب الباطل يدعون إلى باطلهم أليس أصحاب الحق أولى بالدعوة إليه؟! ألسنا أحق منهم بهذا الأسلوب في الدعوة، وهو أسلوب المراسلة؟! ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة حينما راسل الملوك والأمراء.

وقد يصل الداعي بالرسالة إلى نفس المدعو أكثر من المشافهة، وربما يستطيع الإنسان عند الكتابة أن يتفنن في العرض، ويستخدم من عبارات الود ما تتفتح له العقول وتتجه نحوه العواطف، وقد تحرك رسالة واحدة في نفس شخص كوامن

الحق فيه، فينطلق إلى الإيمان ويستجيب لداعي الله، وإذا كان مراسلة الملوك والأمراء بدعوتهم إلى الإسلام وأقوامهم هو في المقام الأول مسئولية الحاكم وأولو الأمر في الأمة، فإذا ما تخاذلوا في ذلك كان على أفراد الأمة القيام بهذه المهمة، خاصة أهل الدعوة والعلم بالإسلام، وقد بلغني أن بعض الجمعيات تقوم بهذا الدور في مصر حيث تطلب من كبار الدعاة، ورجال الفقه أن يكتبوا رسائل صغيرة في التعريف بالإسلام أو بجانب منه، ثم تقوم أعضاء الجمعية بترجمتها إلى عديد من اللغات، ويراسلون بها الشخصيات غير المسلمة يدعونهم فيها إلى الإسلام في أوربا وأمريكا وروسيا وغيرها من البلاد الأخرى.

وفي رأيي أن هذا الجهد عمل مشكور، ويمكن أن يؤتي ثماره إن شاء الله -تعالى- إذا ما أحسن في تلك الوسائل عرض الإسلام عرضًا مبسطًا مقنعًا، وإذا ما تركزت الدعوة بهذه الرسائل على المفكرين والعلماء، خاصة علماء البحث العلمي في العلوم التجريبية أو العلوم الكونية والإنسانية؛ فكثير منهم يقف على حافة الإيمان، لكنه يحتاج إلى من يبصره بالطريق السوي.

نماذج من الرسائل النبوية

الرسائل: بعد بيان مفهومها وأهميتها نذكر نماذج من الرسائل النبوية، ومكاتبه النبي ﷺ للملوك والأمراء، وحيث كان الفرس يحتلون أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة، وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها، وقد انتشرت ديانة المحتلين في الأقاليم التي أخضعوها لنفوذهم، ومن العبث إرجاع هذا الانتشار للحرية العقلية المحضة، وعلى أية حال فإن المجوسية سادت الأقاليم التابعة لفارس، والنصرانية سادت الأقاليم التابعة للرومان، وكان أمراء هذه الأقاليم يعينون من قبل الدولة الحاكمة وينصاعون لأوامرها.

وقد رأى النبي ﷺ أن يرسل بكتبه إلى رؤساء الدول الكبرى، وإلى أمراء الولايات المحتلة على السواء يدعوهم إلى الله ويعرض عليهم الإسلام، روى مسلم عن أنس > أن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله ﷻ، وبعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي بكتابه إلى قيصر الروم.

وليس الوصول إلى قيصر بدعوة غريبة على مسامعه أمرًا سهلًا، فكيف وهي في نظر الرومان من أعرابي ساذج ينتمي إلى قوم تحت سلطاتهم، وتقديرًا لهذه الأوضاع اختار النبي ﷺ لتلك المهمة من يقوم بها إيمانًا واحتسابًا، غير مبالٍ بعواقبها عليه ولا نتائجها عند من يدعوه؛ فعن ابن حبان أن رسول الله ﷺ قال: ((من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة، فقال رجل: وإن لم يقبل، قال: وإن لم يقبل، فأخذ دحية الكتاب وسافر به إلى أرض الروم، فوافق هرقل وهو مقبل على بيت المقدس، يزوره عقب انتصاره على الفرس قربى إلى الله، تناول قيصر الكتاب فقرأ فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأكارين أو الأريسيين - الأكارين: الفلاحين، الأريسيين: أتباع أريوس الموحد الذي اضطهد من قبل قسطنطين وغيره- ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم؛ أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون)).

وقد هاجت حاشية هرقل لاكتراث القيصر بهذه الرسالة، وازدادوا هياجًا عندما عرض عليهم أن يعتنقوا هذا الدين، ولكن لا ندري أكان عرضه جادًّا أم هازلًا،

وهرقل هذا في نظرنا رجل سياسي وأمر الدين لا يعنيه إلا بقدر ما يدعم ملكه وينمي قوته، وقد تولى شئون الدولة في وقت كانت الخلافات الكنسية حول طبيعة المسيح تغلي غليان المرجل، وتثير في الأمة انقسامات مخيفة، وقد حاول التقريب بين وجهات النظر المتباينة، وجمع الكنائس المتخاصمة على مذهب واحد فعجز، وتمرد عليه اليعاقبة وغيرهم في مصر والشام، فالكلام في الإلهيات ليس غريبًا عليه، والتقريب بين وجهات النظر لمصلحة الدولة هذا ديدنه، ولعله في أعماق قلبه يحس سخف أولئك المختلفين جميعًا، وربما تألقت في نفسه لوقت محدود فكرة الخروج عن عقيدة التثليث إلى بساطة التوحيد، ثم انطفأت لما ستجره على الدولة من خلاف أشق في وهمه، وأمر المملكة عنده أهم من أي شأن آخر.

وشاءت لباقة قيصر السياسي أن يستدعي دحية، وأن يحاول إيهامه بأنه مسلم ثم أعطاه قدرًا من الدنانير وصرفه، وعاد دحية إلى رسول الله ﷺ بالنبأ، فقال النبي ﷺ: ((كذب عدو الله ليس بمسلم))، وأمر بالدنانير فقسمت على المحتاجين.

أما الولايات العربية التابعة للرومان؛ فإن النبي ﷺ أرسل إلى أمرائها يعرض عليهم الإسلام، فكانت إجابتهم أخشن وأقسى من رد القيصر نفسه، قرأ أمير دمشق خطاب الرسول ﷺ له: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى ملكك))، فلما قرأه رمى به إلى الأرض، وقال: من ينزع ملكي مني؟ وأخذ يعد العدة لقتال المسلمين.

والحارث هذا ليس بالملك الأصيل حتى يشمخ بملكه على هذا النحو ؛ أنه مولى من قبل الرومان الغالبين ؛ ليخدم أهواءهم ويمشي في ركابهم، فهو كنفر من ملوك الشرق في عصرنا هذا، صنعهم المستعمرون ؛ ليكونوا حبالًا تجر بها الأمم المستضعفة وراء غاصبيها، والهدية التي ردها هي الأمل الوحيد لجعله حاكمًا شريفًا لو أنه قبلها وأشاعها.

وبعث النبي ﷺ إلى أمير بصرى من ولايات الروم مثلما بعث به إلى أمير دمشق، وحمل الكتاب الحارث بن عمير الأسدي، فاعترضه في الطريق شرحبيل بن عمرو الغساني وسأله: أأنت من رسل محمد؟ قال: نعم، فأمر به شرحبيل فقتل، وترامت هذه الأخبار إلى المسلمين في المدينة فجرحت كرامتهم، وبانت لهم أن علائقهم بالرومان لن تندفع في طريق العدل والاحترام إلا بعد جهود شاقة.

وأما المقوقس فقد رد على النبي ﷺ ردًّا حسنًا، فلم يؤمن به ولم يتهجم عليه، ولما تسلم كتابه من حاطب بن أبي بلتعة قال له: ما منعه إن كان نبيًّا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟ فقال حاطب: ما منع عيسى وقد أخذه قوم ليقتلوه أن يدعو الله عليهم فيهلكهم، فقال المقوقس: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم.

وكتب إلى رسول الله ﷺ يقول: "لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وتدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط، وبثياب وأهديت لك بغلة تركبها"، وماذا يفعل محمد ﷺ بهذا فقد قبل الهدية تقديرًا للعاطفة التي أملت

بها، وإن كان يرى أن الإيمان بالله وحده أفضل ما يهدى إليه وخير ما ينتظره ويهش له.

وجدير بنا أن نذكر كلام حاطب للمقوقس؛ حتى يعرف القارئ أن هذه البعوث بلغت حدًّا من الفقه والحصافة يستحق الإعجاب البالغ، قال حاطب: إن هذا النبي دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قومًا فهم أمته، فحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به. وكان أثر هذه الدعوة الحارة الخطاب الذي ذكرناه آنفًا.

تلك أمثلة لرسائله إلى رجالات النصارى ومواقفهم منها، وقد ساق النبي ﷺ كذلك مبعوثيه إلى رؤساء المجوسية؛ يدعونهم إلى الله، يحدثونهم عن الدين الذي لو أتبعوه لنقلهم من الغي إلى الرشاد، وقد تفاوتت ردودهم بين العنف واللطف والإيمان والكفر.

كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز - ملك فارس- يقول: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من أتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله؛ فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة؛ لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس))، ومزق كسرى الكتاب وهو محنق، ولعله حسب الجرأة على مكانته السامية بعض ما رماه به القدر من مصائب؛ فقد هزمه الروم هزيمة منكرة، وها قد جاء العرب يعلمونه ما لم يكن يعلم، وأصدر كسرى إلى والي

اليمن، وكانت لا تزال في حكمه يأمره أن يرسل اثنين من رجاله الأشداء؛ ليأتي إليه بالرجل الذي تجرأ على مكاتبته.

وأبرويز هذا رجل أحمق، ومنصبه يضفي عليه ملك الملوك، والوثنية السياسية إذا ظاهرتها وثنية دينية أمست ظلمات بعضها فوق بعض، وقد غلب على الرجل السفه في تصريفه شئون الدولة وحكمه على الأشخاص والأشياء، حتى ضاق قومه أنفسهم به، بل ضاق به أقرب الناس إليه وهو ابنه شيرويه فوثب عليه فقتله.

ويروى أن النبي ﷺ لما بلغه ما صنع كسرى أبرويز بكتابه قال: ((مزق الله ملكه))، والطريف أن والي اليمن لما صدر إليه أمر كسرى سارع إلى تنفيذه؛ فأرسل اثنين من لدنه إلى المدينة يعرضان على النبي ﷺ أن ينطلق معهما ليسأل عما فعل، ونظر النبي ﷺ إلى الرجلين فوجدهما من ذلك النوع الذي تربيه الملوك في القصور، كما تربي النسوة في بلادنا الديكة الرومية؛ مناظر فارهة وبواطن تافهة، فلما رأى شواربهم مفتولة وخدودهما محلوقة أشاح عنهما، وقال: ((ويحكما من أمركما بهذا)) قالا: أمرنا ربنا - يعنيان كسرى- إن تأليه الملوك ضلال قديم، وبعد أن انتشر الإسلام ذهبت حقيقة التأليه، ثم عادت الآن آثاره وخصائصه، فالملك يلقب صاحب الجلالة، ولا يسأل عما يفعل، ويبطل شرائع الله؛ ليقيم شرائع الهوى ويمتد هو وبطانته لتنكمش أمامهما أمته.

ولما سمع النبي ﷺ كلام الرجلين أمرهما أن يعودا من حيث أتيا إلى والي اليمن، وقال: ((أخبروه أن ربي قد قتل ربه الليلة))، وكان رسول الله ﷺ قد علم قبلهما بمصرع كسرى، وقد وقع الإسلام في قلب والي اليمن بعد هذه القصة، وانتشر انتشارًا عظيمًا في الجنوب بين الطائفتين جميعًا من نصارى ومجوس.

وأرسل النبي ﷺ إلى أمير البحرين كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام ونبذ المجوسية، حمله إليه العلاء بن الحضرمي، وكان المنذر بن ساوي أمير البحرين رشيدًا موفقًا؛ فرحب بالدعوة وانشرح صدره لقبولها، وقد أبلغ العلاء بن الحضرمي في ترغيبه وإبراز محاسن الإسلام له؛ فمما قاله له: يا منذر إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة، إن هذه المجوسية شر دين، ليس فيها تكرم العرب ولا علم الكتاب، ينكحون ما يستحى من نكاحه، ويأكلون ما يتنزه عن أكله، يعبدون في الدنيا نارًا تأكلهم يوم القيامة، ولست بعديم عقل ولا رأي؛ فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا أن لا نصدقه، ولمن لا يخون ألا نأمنه، ولمن لا يخلف ألا نثق به، هذا هو النبي الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهي عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه؛ إذ كل منه على أمينة أهل العقل وفكر أهل النظر.

وقد أسلم المنذر، وعرض على قومه الإسلام، فمنهم من أعجبه فدخل فيه، ومنهم من كرهه وبقي على مجوسيته أو على يهوديته، فلما استشار رسول الله ﷺ ما يفعل بإزائهم، كتب له: ((من أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية)).

إن توسيع ميدان الدعوة بحيث تشمل المعروف المعمور من أرض الله يومئذ أمر يثير التأمل، لقد كان العرب يستكثرون النبوة على واحد منهم، ويوسعونه جحودًا وكنودًا ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]، فما يكون شأن الروم والعجم وهم يرون العرب دونهم منزلة وحضارة وثقافة وسياسة، ألا يكونون أسرع إلى السخرية وأدنى إلى الكفران، بيد أن أصحاب الرسالات لا ينظرون إلى الأمور على ضوء الحاضر الضيق المنكور، وإن ثقتهم العميقة في سيادة فكرتهم وامتداد نطاقها تصغر

العقبات المعترضة في الطريق، وتجعلها ولو كانت الشم الرواسي هباءً منثورًا، ولو انحصر كارل ماركس في حدود مذهبه، وهو فكرة مطاردة تصل بذويها إلى السجون لأصابه الشلل، وقضي عليه وعلى أفكاره، لكنه مضى في سبيله وهو على أمل بالغ أن تقوم بتوجيهها دول كبرى.

فإن كان هذا شأن الماديين من أصحاب الأفكار الضالة، فلا جرم أن المرسلين المؤيدين بالوحي يكاتبون الملوك والأمراء، وهم موقنون بأن ما لديهم من حق سيعلو صاعدًا، وذلك ما كان يجول في نفس الرسول الكريم ﷺ هو يعالج هداية الأعراب الشاردين في الصحراء طورًا باللين وطورًا بالشدة، ثم هو في الوقت نفسه ينصح لقادة الشعوب الأخرى أن يفكروا في هذا الدين الجديد، وأن يعتنقوه وافرين، إن الخرافة التي أفسدت عقل بدوي تترب إهابه وثيابه تجد هي بعينها الخرافة، التي تفسد فكر كسرى عاهل الفرس العظيم، ما الفارق بين الحمى تصيب ملك أو تصيب صعلوك، إن الطبيب يصف لها على الحالين دواءً واحدًا، ويتخذ ضد عدواها حصانات واحدة.

وقد أراد النبي ﷺ أن يشفي الكبار والصغار من أمراض نفوسهم، وأن يناولهم جميعًا الدواء الذي يصحون به ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، فلا غرو إذا جمع في مصحه بين الأحمر والأسود والسادة والعبيد، أجل قد يكون أولئك الملوك محجبين وراء أسوار مشيدة، وحولهم من الأتباع والجند والأبهة والرياش ما يبهر العين، لكن أي عين تنبهر لهذه المظاهر إن الطبيب المعالج لا يعنيه من مريضه إلا جسده الشاحب العليل، والأنبياء لا يرون في القوم إلا أنهم جهال يجب أن يتعلموا،

سفاء يجب أن يسترشدوا، وأن ما حولهم من الدنيا يجعل تبعتهم أخطر، وجزاءهم على الهدى والضلال أضخم.

على أن هذه القوى المسخرة في حماية الباطل لن يطول أمدها، إلا كما يطول الليل عن المؤرق، ثم تطلع الشمس ويمحو الله بالآية المبصرة سدل الظلام.

ولذلك قال النبي ﷺ لرسل والي اليمن حين جاءوه: ((أخبراه أن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى، وينتهي إلى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك)) إنه وهو في المدينة يولي ويعزل عن حق لا عن غرور، أليس موصولًا بمالك الملك مبعوثًا من رب السماوات والأرض؟

ومن الطبيعي أن يعرف مشركو العرب أنباء هذه البعوث النبوية، وأن يرقبوا نتائجها عن كثب، وقد استبشروا أول الأمر حين بلغهم صنيع كسرى بن هرمز، وقال بعضهم لبعض: كفيتم الرجل، فقد نصب له كسرى ملك الملوك، وشاعت هذه المقالة في مكة والطائف، ثم مرت الأيام وطاح كسرى وبقي الإسلام يغزو الأفئدة والبلاد، وجاءت الأنباء أن بعوث محمد ﷺ في بعض الأرجاء أمكنها نشر الإسلام، وتثبيت هدايته حتى دخلت فيه اليمن وعمان والبحرين، فارتد استبشار المشركين خذلانًا، وفكرت قبائل شتى في الانقياد لحكم الإسلام، خصوصًا ورقعة الكفر تنكمش يومًا بعد يوم أمام موجات الوحي الجارف، وأن بقيت أخرى مصرة على جاهليتها ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤، ٤٥].

هذا، ولما أراد ﷺ أن يكتب رسائله، قيل: يا رسول الله إنهم لا يقرأون كتابًا إلا إذا كان مختومًا، فاتخذ رسول الله ﷺ خاتمًا من فضة نقشه من ثلاثة أسطر؛ محمد رسول الله، وقيل: إن الأسطر تقرأ من أسفل؛ فيبدأ بمحمد ثم رسول ثم الله، فختم به الكتب صونًا لها من التزوير إن كان الخاتم في آخر الكتاب، أو لئلا يطلع عليه أحد، إن كان الختم عليها بعد الطي أو للتشريف فقط، والظاهر أنهم كانوا يطوون الكتاب ويجعلون عليه شيئًا رطبًا كالطين ونحوه، فيختمون عليها، فلا تقرأ إلا بعد فض الخاتم.

ومزيدًا من رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء؛ نجد رسالة النبي ﷺ إلى النجاشي الأول؛ حيث بعث النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري > إلى النجاشي، وبعث معه كتابًا نص الكتاب: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت عيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني؛ فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفر ونفرًا معه من المسلمين، فإذا جاءوك فأقرهم، ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، وقد بلغت ونصحت، فاقبل نصحي، والسلام على من اتبع الهدى)).

في رواية أخرى لهذه الرسالة: ((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا،

وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله؛ فإني رسوله، فأسلم تسلم ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم؛ أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون، فإن أبيت عليك إثم النصارى)).

ويحتمل أن تكون هذه رسالة أخرى لا رواية، كما يحتمل أنه تصرف من الرواة بالزيادة والنقص، وأنها نفس الرسالة الأولى، ولكنا نرجح أنها الرسالة المرسلة إلى النجاشي الثاني.

وأما كلمة عمرو بن أمية الضمري للنجاشي؛ فقد قال عمرو بن أمية الضمري: يا أصحمة إن علي القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا منا، وكأنا في الثقة بك منك؛ لأن لم نظن بك خيرًا قط إلا نلناه، ولم نخفظك على شر قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من قبل آدم، والإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاضٍ لا يجور، وفي ذلك موقع الخير وإصابة الفضل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى بن مريم، وقد فرق رسله إلى الناس، فرجاك لما لم يرجوهم له، وأمنك على ما خافهم عليه لخير سالف وأجر ينتظر.

فرد النجاشي على عمرو بن أمية الضمري، فقال: أشهد بالله أنه النبي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمال، وأنه ليس الخبر كالعيان، ولكنا أعواني من الحبشة قليل؛ فانظروني حتى أكثر الأعيان وألين القلوب. وفي رواية: ولو أستطيع أن آتيه لآتيته.

وأما موقف النجاشي من الرسالة؛ فلما وصلت إليه الرسالة ووضعها على عينيه، ونزل عن سريره، وجلس على الأرض إجلالًا وإعظامًا، ثم أحضر

جعفر وأصحابه وأسلم على يدي جعفر لله رب العالمين، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ: "بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر، سلام عليك يا نبي الله ورحمته وبركاته من الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني للإسلام، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثفروقًا - والثفروق: هو ما يلزق بالبر والشعير، أو كما نقول: قيد أنمله- أنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد عرفنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادق مصدق، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وقد بعثت إليك بابني أرهى بن أصحم بن أبجر فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق، والسلام عليك يا رسول الله".

كما بعث النجاشي برسالة أخرى بشأن إرسال المهاجرين مع وفد؛ وفيها: "بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد ﷺ من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا رسول الله ورحمته وبركاته، لا إله إلا الذي هداني للإسلام، أما بعد: فقد أرسلت إليك يا رسول الله من كان عندي من أصحابك من المهاجرين من مكة إلى بلادي، وها أنا أرسلت إليك ابني أريحى في ستين رجلًا من أهل الحبشة، وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقوله حق، والسلام عليك يا رسول الله ورحمته وبركاته".

ورسالة ثانية من النجاشي إلى رسول الله ﷺ بشأن تزويجه من أم حبيبة بنت أبي سفيان؛ وفيها: "بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد ﷺ من النجاشي أصحمة،

سلام عليك يا رسول الله من الله ورحمته وبركاته، أما بعد: فإني قد زوجتك امرأة من قومك وعلى دينك، وهي السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأهديتك هدية جامعة؛ قميصًا وسراويل وعطافًا وخفين ساذجين، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته".

كما كان للنجاشي موقفان عظيمان مع قريش:

الموقف الأول: حينما أرسلت قريش رسولين من قبلها؛ هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، وقد دفعا إلى النجاشي وإلى بطارقته بالهدايا؛ كي يرد المهاجرين من أهل مكة إليها، ثم قال: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

وكان السفيران قد اتفقا مع بطارقة النجاشي، بعد أن أتحفاهم بهدايا أهل مكة أن يعاونهم على رد المسلمين إلى قريش دون أن يسمع النجاشي كلامهم، فأبى النجاشي أن يفعل حتى يسمع ما يقولون، وبعث في طلبهم، فلما جاءوا سألهم؛ ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟ فكان الذي يتكلم جعفر بن أبي طالب، فقال:

أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، وكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان،

وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، وعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلا نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا على ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله - تعالى- وأن نستحل الخبائث، فلما قهرونا وظلمنا وضيقوا علينا حالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ، فقرأ عليه صدرًا من سورة "مريم" ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] السورة، فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما وألا يكادون.

الموقف الثاني: فقد قال ابن إسحاق: حدثني جعفر بن محمد عن أبيه قال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي: أنت قد فارقت ديننا وخرجوا عليه، فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ سفنًا، وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وأن ظفرت فاثبتوا، ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده وروحه، كلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن، وخرج عن الحبشة وصفوا له، فقال: يا معشر الحبشة ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة، فقال:

فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبد، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول: إنه ابن الله، فقال النجاشي ووضع يده على صدره على قبائه هو يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد عن هذا شيئًا، إنما يعني ما كتب، فرضوا وانصرفوا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له.

وهكذا نجد رسائل نبوية كثيرة، ذكرنا نماذج منها، ولقد تطورت تلك الرسائل فيما بعد وازدهرت خاصة في العهدين الأموي والعباسي، واستمرت كذلك في عصور متأخرة؛ فوجدنا كثيرًا من الأئمة المجددين وعلماء المسلمين يرسلون برسائلهم إلى الملوك والأمصار وإلى الأمراء وإلى كثير من الأقطار؛ فهناك رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، ورسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهناك رسائل من العلماء إلى الملوك كالعز بن عبد السلام، رسائل متبادلة بين السيدة زبيدة والمأمون، ونجد فيما سطره التاريخ أيضًا رسائل الشيخ جمال الدين الأفغاني في الرد على الدهريين.

ووجدنا رسائل من علمائنا في مصر إلى رؤساء البلاد؛ رسائل مفتوحة من خلال البريد، وعبر الصحف والمجلات من الشيخ محمود عبد الوهاب فايد إلى الرئيس السادات والرئيس مبارك، ورسالة من عميد كلية الدعوة الدكتور حلمي صابر إلى الرئيس حسني مبارك، لا أجد وقتًا لعرض هذه الرسائل ولا لذكر أمثلتها أو نماذج منها، إنما عرضنا أسلوبًا من أساليب الدعوة تمثل في الرسالة مع بيان مفهومها وأهميتها ونماذج منها.

هذا، والله ولي التوفيق.

قائمة المراجع العامة

١. (**وسائل الدعوة إلى الله ووسائلها**)

حسين محمد عبد المطلب، دار الوطن، ١٤٢٤هـ

٢. (**أسلوب الدعوة في القرآن**)

محمد حسين فضل الله، دار الزهراء، ١٩٨٢م

٣. (**المدخل إلى علم الدعوة**)

محمد البيانوني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م

٤. (**الظاهرة القرآنية**)

مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ١٩٨٢م

٥. (**أصول الدعوة**)

عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م

٦. (**الدعوة الإسلامية: أصولها، وسائلها، أساليبها في القرآن الكريم**)

أحمد غلوش، دار الكتاب المصري، ١٩٨٧م

٧. (**الوسائل المشروعة والممنوعة في الدعوة إلى الله تعالى**)

محمد أزهري حاتم، الرياض، كلية الدعوة والإعلام جامعة الإمام، ٢٠٠٠م

٨. (**مفهوم الحكمة في الدعوة**)

صالح بن عبد الله بن حميد، الرياض، دار الوطن، ٢٠٠٤م

٩. (**هداية المرشدين**)

الشيخ علي محفوظ، مطبعة السعادة، ١٩٣٨م

١٠. (**مناهج الجدل في القرآن الكريم**)

زاهر بن عواض الألمعي، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٨٤م

١١. (**موسوعة الأمثال القرآنية**)

محمد عبد الوهاب عبد اللطيف، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٩٤م

١٢. (**الإتقان في علوم القرآن**)

جلال الدين السيوطي، عالم الكتب، ١٩٩٠م

١٣. (**مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة**)

محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، ١٩٨١م

١٤. (**قواعد علم الخطابة**)

أحمد غلوش، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٧م

١٥. (**التكنولوجيا التعليمية والمعلوماتية**)

محمد محمود الحيلة، العين، الإمارات، دار الكتاب الجامعي، ٢٠٠١م

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2010